2020
3.1.2020

رواية

ف. سكوت فيتزجيرالد

... والليل رقيق

ترجمة: أسامة منزلجي

ف. سكوت فيتزجيرالد

... والليل رقيق

ترجمة: أسامة منزلجي

... والليل رفيق

رواية

اسم المؤلف: ف. سكوت فيتزجيرالد

عنوان الكتاب: ... والليل رقيق

ترجمة: أسامة منزلجي

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2019

Author: **F. Scott Fitzgerald**

Title: **Tender Is the Night**

Translated by: **Osama Menzlchi**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

إهداء المؤلِّف[1]

إلى

جيرالد وساره

مع تمنياتي بأعيادٍ كثيرة

1- الإهداء – الكتاب مُهدى إلى جيرالد وسارا مورفي، صديقان ثريان لفيتزجيرالد، كان يُسليهما في كاب دانتيب في عام 1925. وكانت خطة فيتزجيرالد الخلفية للرواية أنْ يجعلها «**الرواية تُظهِر الطبقة المرفّهة في ذروة بهائها الحقيقي ورونقها كما يظهر آل مورفي**».

مقدمة

ظلّ فيتزجيرالد حتى آخر حياته يشعر بالحيرة من الفشل النسبي الذي أصابَ رواية.. *والليل رقيق*[1]، بعد السنوات الطِوال التي بدّدها في تأليفها وجهوده التي بذلها لجعلها أفضل رواية أميركية في عصره. كان قد بدأها أثناء إقامته في الريفييرا في أواخر صيف عام 1925. أولاً عملَ في فتراتٍ من الحماس الشديد، ومن ثم وضع المخطوط جانباً على مدى أشهر طويلة في وقتٍ كان يكتب خلاله قصصه القصيرة المُربحة لمصلحة *ساترداي إيفننغ بوست*؛ ولكن في أوائل عام 1932 عثر على تصميم أكثر طموحاً لها، وكان غارقاً في الدَين، مما دفعه إلى العمل فيها بمثابرة حتى انتهى من كتابة الفصول الأخيرة، وأجرى آخر المحذوفات على التجارب المطبعية. وشاهدها تنمو من مجرد رواية درامية قصيرة مثل *غاتسبي العظيم*، إلى رواية فلسفية أو نفسية طويلة على طراز *سوق*

1- *العنوان* - كان للرواية في مراحلها المتنوعة سلسلة كاملة من العناوين. في أول نسخة من نسخ ميلاركي سُمّيَت في فترات مختلفة: «**الفتى الذي قتل أمه**»، و«**قضية ميلاركي**»، «**نمطنا**»، و«**أجمل نساء العالم**». ويبدو أنَّ النسخة الثانية، نسخة روزميري، لم يكن لها عنوان، على الرغم من أنَّ القصة القصيرة التي أُخِذَتْ منها كان اسمها «**رحلة واحدة إلى الخارج**». النسخة الختامية كان عنوانها «**عطلة الطبيب**»، ثم «**عطلة الدكتور دايفر**»، وهذا العنوان الأخير استُبقيَ - كما يُخبرنا آرثر ميزنر - حتى قُبيل ظهور الرواية مُسلسلة في مجلة سكريبنر. عبارة «... **ما أرقّ الليل**» أُخِذَتْ من المقطع الرابع من قصيدة كيتس «**أغنية إلى عندليب**». وفيما عدا قصيدة «**أغنية إلى وعاء يوناني**» كانت تلك قصيدة فيتزجيرالد المفضّلة التي «***لا يمكنني أنْ أقرأها حتى النهاية من دون أنْ تنهمر الدموع من عينيّ***» كما قال في رسالةٍ إلى ابنته.

التفاهة، ومن ثم، وبينما هو يحذف مشهداً بعد آخر، راقبها تتقلّص من جديد لتغدو رواية متوسطة الحجم، لكنه كان متأكّداً من أنَّ نبرة الرواية الأكثر طولاً لا تزال موجودة فيها. وانقضت تسع سنوات من حياته في الكتابة وفي القصة نفسها. وعند القراءة المتأنّية يجد المرء فيها إبهار صيفه الأول الذي أمضاه في كاب دانتيب - لأنه يستطيع أنْ يتصوَّر نفسه روزميري هويت في الرواية، إلى جانب لعب دور ديك دايفر؛ ثم مشاعره بشأن المال والمستويات المختلفة للمجتمع الأميركي: ثم صراعه مع إدمان الكحول وهواجسه حول كونه أصبح مُفلِساً في انفعالاته؛ ثم مرض زوجته وكل ما علِمه من الأطباء السويسريين والأميركيين الذين شخّصوا حالتها؛ ثم الحِكمة المريرة التي اكتسبها من التجربة ولم يتمكن من إعادتها إليها، بل إلى قصصه القصيرة فقط؛ ثم أيضاً أشياء أشدّ سواداً، إحساسه بالذنب، وخوفه من الكارثة التي تحولتْ إلى توقٍ إلى الكارثة - كل هذا موجود في الكتاب، بمستويات متنوعة، كمدن طروادة التسع المدفونة.

عندما جاء كاتب آخر لزيارته في رودجـرز فورغ، بالقرب من بولتيمور، في ربيع عام **1933**، اصطحب فيتزجيرالد زائره إلى غرفة المكتب وعرضَ عليه مخطوطاً ضخماً يبلغ علوّه نحو قدم. قال «ها هي روايتي الجديدة. لقد كتبتُ أربعمئة ألف كلمة ثم رميت ثلاثة أرباعها. والآن لم يبقَ لدي إلا خمسة عشر ألف كلمة منها -». وقفَ هناك يحمل كأس مشروبه بيده، ثم انفجر فجأةً قائلاً: «إنّها جيدة، جيدة، جيدة. وعندما ستُنشَر سيقول الناس إنها جيدة، جيدة، جيدة».

نُشِرَتْ رواية «... *والليل رقيق*» في ربيع عام **1934** ولم يقُلْ عنها الناس شيئاً من هذا القبيل. كانت تتناول الحياة المُرفّهة في عشرينات القرن العشرين في وقتٍ أراد فيه القرّاء أنْ ينسوا أنه كان لهم أيّ صِلة بالأهواء الطائشة؛ كانت المواضيع السائدة حينئذٍ في الروايات تدور حول الفاقة والثورة. تلقّى الكتاب بعض التنويهات الودودة بل والمعبِّرة عن

الإعجاب، لكنَّ أغلب النقّاد قالوا ضمناً إنه ينتمي إلى الأيام السيئة التي سبقت حدوث الانهيار؛ ونبذوا الرواية لأنّها مجرد «سطح حاذق ولامع خالٍ من أيّ حِكمة ونضج». ولم تُحقق نجاحاً جماهيرياً مقارنةً بروايات فيتزجيرالد الثلاث الأولى، التي كان تأليفها أسهل؛ وفي الموسم الأول باعت اثنتي عشرة نسخة، أو أقلّ من رُبع ما بيع من رواية «*هذا الجانب من الجنة*». وفي المواسم التالية انخفضَ البيع ومن ثم توقف.

لم يضع فيتزجيرالد اللوم على القرّاء أو النقّاد. كانت تلك إحدى مراحل اللعبة التي يلعبها مع الحياة لكي يتقبَّل القواعد كما وُضِعَتْ؛ فإذا كان قد خسر نقطة وانطلقَ يسعى إلى بذل أقصى جهده في اللعب، فذلك بسبب خطأ في الاستراتيجيّة يجب تصحيحه في المستقبل. بدأ يبحث في حيرة عن خطأ في رواية «... *والليل رقيق*». إذ لابد أنَّ هناك خطأ في العرض جعل القرّاء لا يُحيطون بغِنى مادته وقوتها؛ وشكَّ لبعض الوقت في أنَّ الأمر قد لا يتعدّى الافتقار إلى شيء يُشبه توجيهات الإخراج المسرحي في بداية كل مشهد. وفي عام 1936 بدأت دار مودرن لايبراري بالتفكير في إعادة طبعها. والطبعة الجديدة، إذا ما ظهرت، كانت ستُطبَع من كليشيهات الطبعة الأولى من أجل التقليل من تكاليف الطباعة، لكنَّ فيتزجيرالد التمسَ إحداث بعض التغييرات الطفيفة. وهذه، كما ذكر في رسالة بعثها إلى بينيت سيرف، «سوف تتضمن حالات عِدّة من نقاط التوقف المُفاجئة وعناوين للأجزاء ذات طبيعة مُفسِّرة إلى درجة ما؛ وسوف تُضاف صفحات معيَّنة لا تحمل إلا عناوين...».

وأضاف بتواضُع «أنا أعرف تكاليف الطباعة. لن تكون هناك زيادة في الفقرات أو إعادة تنظيم للوضع الحالي ما خلا تلك الصفحات المُضافة المذكورة آنفاً. ولا أريد أنْ أُغيِّر أي شيء في الكتاب، ولكن أحياناً يمكن لتغيير كلمة واحدة أنْ يُحدِثَ تشديداً جديداً أو يُضفي قيمة جديدة للمشهد ذاته أو للمكان».

لم تظهر الطبعة الجديدة وبدا أنَّ رواية «... *والليل رقيق*» قد طواها

النسيان، على الرغم من أنَّ الحال لم يكن كذلك؛ لقد بقيتْ في ذاكرة الناس كندمٍ أو كسؤالٍ بلا جواب. وقد أخبر إرنست هيمنغواي ماكسويل بركنز، من دار سكريبنرز، وكان مُحرِّراً للروائيَّين كليهما، «إنَّ الغريب في الأمر هو أنه حين نفكر في الأمر نرى أنَّ رواية «... *والليل رقيق*» تُصبح أفضل بكثير». وخلال عدد كبير من النقاشات التي أتذكرها وكانت تتم في منتصف الليل، كان الأمر ينتهي بكُتّابٍ آخرين إلى اكتشاف أنَّ شعورهم بالرواية لم يتغيَّر. واستمر فيتزجيرالد في التفكير فيها. في عام 1938، عندما كان يعمل في هوليوود وأوشكت مدة العقد الذي أبرمه مع شركة ميترو غولدين ماير على الانتهاء، كتب إلى بركنز مُشيراً إلى إمكانية إعادة طبع ثلاث من رواياته في مجلد واحد. كانت رواية «*هذا الجانب من الجنة*» ستصدر مع شرح لبعض الكلمات كان فيتزجيرالد خطّط لوضعه بسبب ما ورد في تلك الكلمات من سخافات وأخطاء. وكانت رواية «*غاتسبي*...» ستبقى من دون تغيير فيما عدا إجراء بعض التصحيحات على النص. وأضاف «لكني مُهتم بصورة خاصة بـ «... *والليل رقيق*» – إنَّ تلك الرواية لم تمُتْ بعد. إنَّ عمق جاذبيتها يبقى – وأنا أقابل أناساً باستمرار يشعرون بمثل هذه الجاذبية كانجذاب آخرين إلى «*غاتسبي*..» و«... *الجنة*»، أناساً يتعرّفون على أنفسهم في شخصية ديك دايفر. إنَّ خطأها الفادح هو أنَّ البداية *الحقيقية* – الطبيب النفسي الشاب في سويسرا – مدسوسة في منتصف الرواية».

تزامن صدور الطبعة الأولى من الرواية مع زيارة ممثلة سينمائية شابة، اسمها روزميري هويت، لكاب دانتيب، ولقائها مع الشلّة التي تُحيط بعائلة ريتشارد دايفر. حدث ذلك في صيف عام 1925 وكانت منطقة أنتيب تتمتع بأيام من المجد الهادئ. وكانت روزميري مبهورة بآل دايفر وبأصدقائهم، ووقعت في غرام ديك بطريقة يائسة ظريفة، وأدركت أنَّ هناك سراً يكتنف زوجته. ثم، لاحقاً، تعود بنا الرواية إلى سويسرا في أيام الحرب لكي تكشِف لنا السرّ بإخبارنا عن علاقة الدكتور دايفر العاطفية

ومن ثم زواجه. هنا يقترح فيتزجيرالد إعادة تنظيم الكتاب حسب نظام زمني....[1]

«هذه هي *النسخة النهائية* للكتاب كما أريدها».

إنَّ كلمتيّ *«النسخة النهائية»* عليهما تشديد، ولكن ينبغي اعتبارهما تعبيراً عن نيّة وليس عن حقيقة ثابتة. ومن الواضح أنه كان في نية فيتزجيرالد أنْ يُجري تغييرات أخرى إلى جانب إعادة تنسيق الرواية والمراجعات الثانوية المذكورة آنفاً: كان ينوي أيضاً أنْ يُصحِّح النص من البداية إلى النهاية. ويمكن للمرء أنْ يرى ما كان في نيّته أنْ يفعل إذا قرأ الفصلَين الأوَّلَين من نسخة برينستون. هناك اكتشفَ بعضاً من أخطائه في لفظ أسماء العلم، وعدَّلَ في علامات الترقيم لجعلها منطقية أكثر، وجعل عدداً من الفِقرات أكثر حِدَّة، وحذف أخرى. وعلى الرغم من ضآلة التغييرات، فإنها تجعل الأسلوب أشد سلاسة وتقضي على ارتياب القارئ أحياناً حول تردُّد الكاتب في كلمة أو فشله في سماع اسم بشكل صحيح. وفي نهاية الفصل الثاني هناك نجمة سداسية مُعلَّمة بالقلم الرصاص وملاحظة كتبها فيتزجيرالد بخط يده: «هذه علامة من وضعي لأقول إني أجريتُ تصحيحاً ختامياً على هذه النقطة». وبعد العلامة عدد صغير آخر من التصحيحات ولكن فقط للأخطاء التي صودف أنْ لمحها.

لقد فات الأوان الآن لإجراء تغييرات على صياغة الجُمل التي، كما قال، «يمكن أنْ تضفي تشديداً جديداً أو قيمة جديدة على المشهد أو المكان نفسه». ولكن فات الأوان على تصحيح الأخطاء في الهجاء وعلامات الترقيم، وأحياناً في النحو والتسلسل التاريخي، وهذا ما شوَّه الطبعة الأولى من *«... والليل رقيق»*. على هذا المستوى التقني كان الكتاب مملوءاً بالأخطاء؛ في الواقع، وكان المطلوب مجموعة من الظروف لوجود العديد منها في كتاب واحد منشور. لقد كان فيتزجيرالد

1- هنا يورد واضع المقدمة بعض التفصيلات بشأن التغييرات التي طرأت على الصفحات، وقد رأينا أنها لا تفيد القارئ في شيء، فتم حذفها. - المترجم

يتمتع بأذن حساسة للكلمات، ولكن بعين ضعيفة في هذا المجال؛ لعله كان أسوأ من يُهجي الكلمات، فقد فشل في التخرُّج في جامعة برينستون. وعلامات الترقيم عنده متهورة، والنحو غريزي أكثر منه متعقِّلا. وكان ماكسويل بركينز، مُحرّره، أفضل في هذا المجال، ولكن لديه استخفافاً أرستقراطياً بالتفاصيل ما دام الكتاب على صواب في مشاعره نحو الحياة. وبما أنَّ فيتزجيرالد أحد مؤلفيه المُفضَّلين، فإنَّ المخطوط لم يقُم أي مُحرِّر آخر بتحريره. لقد تلقّى المؤلف التجارب المطبعية بينما كانت زوجته المريضة في حالة خطرة. وعمل عليها على مدى أسابيع، مُجرياً تغييرات واسعة وحاذفاً فِقرات طويلة، ولكنه لم يكن في حال يسمح له بملاحظة أخطائه الخاصة بالتفصيل. كانت أعداد كبيرة منها قد تسرّبت إلى الطبعة الأولى، وعلى الرغم من عدم خطورتها إذا تمّ التعامُل معها بشكل منفصل، فإني أعتقد أنه كان لها أثر متراكم على القرّاء، وانتهى بها الأمر إلى تشتيت انتباههم، كأنها عيوب في نافذة ينظرون من خلالها إلى الريف. وكون الرواية بقيتْ صالحة للقراءة على الرغم من عيوبها دليل على دوام ما تنطوي عليه من قوة مشاعر وحيوية.

والآن بعد أنْ أُعيدَ طبعها مع تعديلات فيتزجيرالد حاولت أنْ أقرأ تجاربها المطبعية بطريقة لم تُتح للطبعة الأولى. استخدمتُ قواميس وكتب الإرشاد، واستشرتُ العديد من أصدقاء المؤلِّف؛ اثنان أو ثلاثة منهم وضعوا قائمة بالأخطاء التي اكتشفوها بأنفسهم في النص. وتردّدتُ طويلاً بشأن الفِقرتين اللتين علّمهما فيتزجيرالد بغية حذفهما. إحداهما حول حادثة بائع الصحف الأميركي...، وانتهيت بالشعور بأنَّه يمكن حذف تلك الصفحات من دون خسارة الكثير (على الرغم من أنَّ بائع الصحف يعود إلى الظهور [لاحقاً] ومرة أخرى يكون رمزاً للكارثة). والحذف الأكبر كان زيارة آل دايفرز لميري مينغيتي... وإجراء ذلك التغيير لم يكن بالأمر السهل، لأنه كان سيحتاج إلى شرح في فصل لاحق حول كيف أصبحت ميري نورث السابقة فاحشة الثراء وكونتيسة بابوية؛

ثم إنَّ الفِقرة بحد ذاتها جيدة وهذا سبب آخر للاحتفاظ بها. وفيما عدا هذا المثال حاولتُ أنْ أراعي رغبات فيتزجيرالد في كل شيء وأزوّد، قدر المُستطاع، النص الدائم لكتاب سيبقى مقروءاً زمناً طويلاً.

***

ويبقى السؤال ما إذا كانت النسخة الأخيرة كما أرادها فيتزجيرالد هي أيضاً أفضل نسخة من الرواية. لقد أبطأتُ في تقرير هذا الأمر، ربما بدافع حبي للكتاب في صيغته الأولى. إنَّ بداية الطبعة الأولى، بوجود عينيّ روزميري هويت البريئتين اللتين تريان آل دايفرر وتُعجَب بهم، مؤثّرة بكل المعايير. لقد ضاع بعض من التأثير في النسخة الجديدة، حيث يعلم القارئ مُسبقاً حقيقة آل دايفرز قبل أنْ تُقابلهم روزميري. هناك عنصر القصة الغامضة في المسودة الأولى: ثمة شيء دار بين نيكول دايفر والسيدة ماكيسكو صادم إلى درجة أنْ يتسبب في نشوء نزاع، ونتابع القراءة لنعلم ما فعلتْ نيكول وقالت. وهناك أيضاً اقتراح دراسة قضية تحليل نفسي: كأنّنا نُصغي من خلف جدار مُحلل نفسي بينما مريضاه، نيكول وديك، يُساعدانه في الغوص ببطء إلى ما يكمن تحت مظهرهما البرّاق. لكنَّ القصة الغامضة تنتهي عندما تكتشف روزميري – في النسخة الأولى – ما شاهدته فيوليت في غرفة الاستحمام في فيلا ديانا. وتنتهي دراسة قضية التحليل النفسي عندما يحصل القارئ على المعلومات كلها المتعلقة بحياة آل دايفر السابقة؛ ولكن حينئذٍ نكون فقط في منتصف الرواية. والنقّاد الأوائل لرواية «... *الليل رقيق*» كانوا على حق عندما قالوا إنها انقسمت إلى جزءين بعد أنْ غادرت روزميري الساحة وإنَّ الجزء الأول فشل في إعدادنا لِما سيأتي بعد ذلك. وعندما أعاد فيتزجيرالد ترتيب التسلسل التاريخي للقصة أحكم بنيانها. لقد ضحّى ببداية بارعة وبكل ما تتصف به من عنصر التشـويق، ولكن لا مفرّ من القول إنه انتهى إلى إعطائنا رواية أقوى بناءَ وأشـدّ تأثيراً.

إنَّ أحد عيوب النسخة الأولى كان غياب التركيز فيها. فلم نكن متأكدين

تماماً أثناء قراءتها مما إذا كان المؤلف ينوي أنْ يكتب عن مجموعة كاملة من الأميركيين الموجودين في الريفييرا - أي أنْ يجعل الكتاب بمنزلة دراسة اجتماعية لبطل جماعيّ - أم كان ينوي أنْ يكتب رواية نفسية عن ازدهار وانحطاط ريتشارد دايفر الإنسان. وبمجرّد تغيير فيتزجيرالد لنظام القصة والبدء بدايفر كطبيب شاب في زيوريخ إنما أجاب بذلك على تردّدنا. وعندما نقرأ النسخة الختامية نتيقّن من أنَّ الرواية هي رواية نفسية، وتدور حول ديك دايفر، وأنَّ مضامينها الاجتماعية تم الحصول عليها بالتطويل وبالمجاز المُرسَل[1]. إنَّ ديك هو الجزء الذي يمثّل الكلّ. يمثّل الأميركيين في الريفييرا، يمثّل كل الرجال الأذكياء الذين يُجازفون، بل يمثل حتى العصر الذي كان ينتهي مع انهيار وول ستريت، ولكنه قبل أي شيء يمثل نفسه. والشخصيات الأخرى تتجمع حوله بأدوارها الثانوية: روزميري تفعِّل القِوى التي تتحيَّن الفرص لتدمّره. وآبه نورث يُعلِن مصيره، وتومي باربان هو خليفته الأقوى منه والأقل موهبة. ومنذ البداية وحتى النهاية ديك هو مركز الرواية.

هذا كله يتطابق مع الخطة التي وضعها فيتزجيرالد في أوائل عام 1932، بعد أنْ عمل على مدى سنوات على خطط أخرى ومن ثم نحّاها جانباً. في أول الأمر نوى أنْ يكتب رواية قصيرة عن شاب يُدعى فرانسيس ميلاركي، وهو تقني سينمائي زار الريفييرا مع أمه المُحبّة للتملّك. وقابل آل سيث بايير، وهما زوجان يُشبهان آل دايفر؛ ويقع في حب الزوجة، ويتبعهما إلى باريس، ويذهب إلى سلسلة من الحفلات، ويفقد السيطرة على نفسه. والفصول الأخيرة من هذه المسوّدة الأولية مفقودة - هذا إذا كان فيتزجيرالد قد كتبها أصلاً - ولكن يبدو أنَّ ميلاركي سيقتل أمه في نوبة من الغضب، ويهرب من الشرطة، ومن ثم يلقى حتفه - لا نعرف كيف. في النسخ اللاحقة من القصة لا يعود ميلاركي الشخصية

1- المجاز المُرسَل: أي اللجوء إلى صور بلاغية قِوامها ذكر الجزء وإرادة الكل، أو ذِكر الكل وإرادة الجزء.

المركزية، في حين أنَّ آبه غرانت (الذي يُصبح لاحقاً آبه نورث) وسيث بايبر ينتقلان إلى الواجهة. ثم، في بداية عام 1932، يضع فيتزجيرالد الخطوط الرئيسة لكتاب أكثر طموحاً. وقد كتب في مفكرة خاصة به في ذلك الوقت «الرواية يجب أنْ تفعل ما يلي: أنْ تبيِّن رجلاً مثاليّاً بالفطرة، كاهناً مُدللاً، مُستسلماً لأسباب شتى لأفكار الـhaute bourgeoisie (الطبقة البورجوازية الراقية)، وأثناء ارتقائه إلى قمة العالم الاجتماعي يفقد مثاليته، وموهبته ويتحول إلى السُكر والانغماس في الملذات. إنها قصة مجتمع تظهر فيه الطبقة المرفّهة على حقيقتها وبأبهى صورة ورونق...». وبانتهائه من تأليف الرواية غيَّر فيتزجيرالد وعمَّقَ وأغنى الصورة التي رسمها لديك دايفر، لكنَّ تصريحه عن الهدف منها لا يزال أفضل تعريف قصير للرواية المنتهية. ومراجعته الختامية لها قرَّبها أكثر من خطّة عام 1932.

***

يجب القول إنَّ فيتزجيرالد ما كان له أنْ يُراجع «... *والليل رقيق*» ويحوّلها إلى رواية مثالية كالتي وُجِدَتْ كمثل أعلى في ذهنه. لقد عمل عليها مدة طالت كثيراً وتغيَّرتْ خططه التي وضعها لها أكثر مما ينبغي، تماماً كما تغيَّر المؤلف على مرّ السنين منذ فصل الصيف الأول في الريفييرا. ولكي يجعل منها قطعة متماسكة كان عليه أنْ يباشِر من جديد من البداية ويبتكر سلسلة كاملة من الحوادث، بدل محاولةِ إنقاذِ ما يمكن إنقاذه من النسخ الأولى. ومهما تكررت عملية إعادة وضع المواد في بوتقة المزج، يتَّضح أنَّ بعضها مُقاوِم للحرارة ويحتفظ بشكله السابق عندما يُصبّ في قالبه الجديد. كانت المشاهد المكتوبة لفرانسيس ميلاركي، ثم نُسِبَتْ إلى روزميري أو ديك، تحتفظ ببعض علامات الأصل. وحادثة روزميري كلها، التي أُعيدت كتابتها، من الفصول الأقدم عهداً من الكتاب، كانت ستبدو متنافرة قليلاً مع قصة ديك دايفر كما شاهدها هو وزوجته. ولكنَّ الرواية تُقيَّم بما تُقدّمه إلينا،

وليس بعيوب تنفيذها، ورواية «... *والليل رقيق*» تمنحنا صدق المشاعر، وتعقيد الحياة، نفتقدها في العديد من الكتب التي تُثير الإعجاب بسبب اقترابها من كمال الشكل.

زيادة على ذلك، في نسخة فيتزجيرالد الختامية نرى تناسقاً لا نجده غالباً في الروايات النفسية الطويلة. كل الأفكار المُقدَّمة في الجزء الأول تبدّدتْ في الكتاب الأخير، والجزءان كُتِبا بالنبرة نفسها. في الجزء الأول يشبه الطبيب الشاب دايفر غرانت في مخزنه المتنوع في غالينا، ينتظر «أنْ يُحقق مصيراً معقّداً»؛ في الوقت نفسه يُساعد طبيباً نفسياً آخر في قضية نيكول وارن، وارثة جميلة تعاني من انفصام الشخصية، ويعلم أنَّ آل وارن خططوا لشراء طبيب شاب لكي يتزوجها. في الجزء الأخير من الكتاب ينتهي من علاجها، ويُدرك أنَّ آل وارن في الحقيقة إنما اشتروه واستغلوه - قالت أخت نيكول «لهذا السبب نال تثقيفه» - ولم يعُد ينتظر الفرصة المناسبة، «مرة أخرى مثل غرانت في غالينا»، مع فارق هو أنَّ مغامرته الكبرى انتهت. القسم الخاص بروزميري في الرواية لم يعُد يُضلل توقعاتنا: إنَّ موقعه في المنتصف يُضيف ببساطة امتلاءً وارتياحاً للرواية.

على الرغم من أنَّ البداية الجديدة بارعة أكثر من القديمة، فإنها تعدّنا للنهاية وتساعدنا في استحسان القسم الأخير من الرواية بما أننا فشلنا في ذلك في قراءتنا الأولى. وهذه هي الفضيلة الأساسية للتعديل الجديد لفيتزجيرالد. عندما قرأتُ «*ما أرقّ*...» في عام 1934 بدا لي كما لآخرين كثيرين أنَّ القسم الخاص بروزميري هو الأفضل فيها. كان أسلوب الكتابة فيه من النوع الذي لا يُقابله المرء إلا نادراً في أدب القصة الأميركي الجادّ. فلم تكن محاولة لتحليل القيم الاجتماعية، وكشف زيفها، وتمزيقها إرباً - هذه المحاولة ضرورية في كل الأزمان عندما تميل القيم عن الصراط، لكنها لا تتطلَّب حيوية تخيّلية خاصة، وفيتزجيرالد كان يفعل شيئاً أكثر صعوبة: كان يُحاول أنْ يكتشف وحتى

أنْ يبتكر قيماً في مجتمعٍ يفتقرُ إليها. لقد قدَّمت روزميري بنمطها البريء الخاص وجهة النظر الصحيحة التي ينكشف بوساطتها جمال وسلوك عائلة دايفر وتفوقها الأخلاقي. وذروة تجربتها - وتجربة القارئ - كانت العشاء في فيلا ديانا، عندما «بدت المائدة كأنها ارتفعت قليلاً نحو السماء كمنصّة ميكانيكية راقصة، تمنح الناس الملتفين حولها حساً بأنهم وحدهم بعضهم مع بعض وسط الكون المظلم، يتغذّون بطعامه الوحيد، ويستدفئون بأنواره الوحيدة». ثم يأتي الجانب السفلي لعالم آل دايفر الصغير، كما كشف عنه تدمير آبه نورث الذاتي وما رأته فيوليت ماكيسكو في غرفة الاستحمام في فيلا ديانا، وكل ما تلا بدا انهياراً طويلاً أو في أحسن الأحوال نهاية قصة مختلفة.

عندما رجعت إلى الرواية بعد ذلك بوقت طويل وقرأتها بالتعديل الجديد تكوّن لديّ انطباع مختلف. فقسم روزميري ظل يحتفظ بسِحره القديم بالإضافة إلى شيء جديد، ذلك أنه الآن بدا أنه استغاثة عصر أُدينَ أولاً، ثم نُسيَ، وأخيراً تمّ تذكّره باستمتاع وسط أقسى الأحداث؛ لكنَّ الكتابة بدت أقلّ كثافة من قصة انحطاط بطل كما حُكيَتْ في القسم الأخير من الرواية. وأصبحت تلك الفِقرة هي التي تبقى حقاً في الذاكرة: ليس ديك بوصفه «مُنظِّم المسرات الخاصة، والقيِّم على سعادة غنية»؛ ولا ديك الذي يشكّل مجموعته الخاصة من الأصدقاء ويجعلهم يبدون متميِّزين بصورة لا تُصدَّق - «مجموعة براقة إلى درجة أنَّ روزميري شعرتْ باستخفاف نزِق بكل مَنْ لا يجلس على مائدتهم»؛ بل ديك آخر فقَدَ السيطرة على نفسه ويتدهور أمام عيوننا باطّرادٍ صارم من مشهدٍ إلى آخر. عند هذه النقطة كان فيتزجيرالد على حق عندما توقف عن سرد القصة من وِجهة نظر ديك، وسمح لنا فقط بتخمين أفكار البطل. ويتلاشى ديك كصديقٍ يتراجعُ إلى عالمٍ خاص أو يغوص إلى مستوى اجتماعي آخر، وعلى الرغم من معرفتنا الكثير عنه، لا نتأكّد تماماً من أسباب انحداره. لعلَّ ما أفسده، كما خطط فيتزجيرالد منذ البداية، هي

معايير الطبقة المرفّهة؛ ولعله شكل من أشكال الإرهاق العاطفي، أو وهب نفسه بسخاء إلى درجة نضب معينه، «كرجل يسحب أكثر مما هو رصيده في المصرف»، كما وصف فيتزجيرالد لاحقاً انهياره؛ أو لعله كان شيئاً يعود إلى فترة طفولته السحيقة لا يمكن اكتشافه إلا بالتحليل العميق - ويمكننا أنْ نقدِّم الحجج على الأسباب بقدر ما يمكننا أنْ نفعل حول انحدار شخص كان له صديقاً حميماً ذات يوم، من دون أنْ نتوصل إلى أي نتيجة حاسمة؛ لكنَّ المهم هو أننا دائماً نؤمن بديك وبتقدّمه ضمن دائرة من غموضٍ إلى غموض. وعندما نلقي عليه النظرة الأخيرة وهو يترنح قليلاً أثناء وقوفه على مسطبة عالية ويرسم العلامة البابوية على الشاطئ الذي عثر عليه وارتاده وأصبح الآن يرفضه، يكتمل مصيره وتنغلق الدائرة.

مالكولم كاولي

ها أنا معكِ الآن! والليل رقيق،

....

ولكن هنا لا يوجد ضوء،
ما عدا ما يهبُّ من السماء مع النسيم العليل
من خلال ممرات مظلمة نضرة ودروب ملتوية يكسوها الطحلب.

- من قصيدة «قصيدة إلى عندليب».

الجزء الأول

تاريخ حالة

1919 - 1917

الفصل الأول

في ربيع عام 1917، عندما وصل الدكتور ريتشارد دايفر للمرة الأولى إلى زيوريخ، كان في السادسة والعشرين من العمر، سنٌ رائعة بالنسبة إلى رجل، وفي ذروة العزوبة في الحقيقة. وحتى في أيام الحرب كانت سنّاً بهيّة بالنسبة إلى ديك، الذي كان أصلاً من علوّ القيمة، ويمثّل استثماراً ضخماً بحيث لا يستحقّ أنْ تنتهي حياته بطلقة مسدس. وبعد مرور سنوات بدا له أنه حتى وهو في معتزله لم يفلت بسهولة، لكنه لم يستقر على رأيٍ بهذا الخصوص - في عام 1917 ضحك من الفكرة، وقال معتذراً إنَّ الحرب لم تلمسه قط. لقد صدرت تعليمات من الإدارة المحلية بأنْ يُنهي دراساته في زيوريخ وينال شهادته كما كان قد قرّر.

كانت سويسرا جزيرة، تغسلُ أحد جانبيها أمواج البرق حول غوريزيا، وتغسل الجانب الآخر الشلالات على طول سوم والإيسن. وبدا للمرة الأولى أنَّ هناك من الغرباء المُثيرين للاهتمام أكثر من المرضى في الأقاليم، لكنَّ هذا الأمر كان خاضعاً للتخمين - فمن المُرجَّح أنَّ الرجال الذين يتهامسون في المقاهي الصغيرة في برن وجنيف كانوا تجار مجوهرات أو وكلاء متجولين. ولكن لا أحد غفل عن المواكب الطويلة من العميان والكسيحين، أو شاحنات المحتضرين، التي كان بعضها يعترض طريق بعض بين بحيرتي كونستانس ونوشاتل البرّاقتين. وفي قاعات شرب البيرة وواجهات المحال التجارية عُلِّقت مُلصقات برّاقة تمثّل السويسريين وهم يُدافعون عن حدودهم في عام 1914 - وشبّاناً

شرسين ومُلهمين وعجائز يُحدّقون بغضب من فوق الجبال إلى أطياف الفرنسيين والألمان؛ والهدف منها كان طمأنة قلوب السويسريين إلى أن بلادهم شاركت في المجد المُستشري في تلك الأيام. ومع استمرار المذبحة قلّتِ المُلصقات، ولم يُصَب أي بلد بالدهشة عندما أقحمت الولايات المتحدة نفسها ببراعة في الحرب.

كان الدكتور دايفر في ذلك الوقت قد شاهد أطرافاً من الحرب؛ في عام 1914 نال منحة رودس للالتحاق بأوكسفورد من كونكتيكت. ثم عاد إلى الوطن لقضاء السنة الأخيرة في جامعة جونز هوبكنز ونال شهادته فيها. وفي عام 1919 نجح في الوصول إلى فيينا مُعتقداً أنَّه إذا لم يُسرع فإنَّ فرويد العظيم سوف يرضخ في نهاية المطاف للمساهمة في صنع قنبلة تُرمى من الطائرة. وحتى ذلك الحين كانت فيينا قديمة العهد في التعامل مع الموت، لكنَّ ديك نجح في الحصول على ما يكفي من الفحم والوقود بحيث يجلس في غرفته في دامنشتيفتغاس ويؤلِّف كرّاسات دمّرها لاحقاً، لكنّه أعاد كتابتها وكانت العمود الفقري للكتاب الذي نشره في زيوريخ في عام 1920.

إنَّ معظمنا لديه فترة مُفضّلة، فترة بطوليّة في حياته، وتلك كانت فترة ديك دايفر. أولاً لم يكن يدرك قط أنه فاتن، وأنَّ الحب الذي كان يمنحه ويُثيره ليس شيئاً مُستغرباً بين الأصحاء من الناس. وخلال سنته الأخيرة في نيوهيفن أشار أحدهم إليه بوصفه بـ«ديك المحظوظ» - وعلِقَ اللقب في ذهنه.

كان يهمس لنفسه، وهو يتمشّى حول آخر ألسنة للَّهب في غرفته، «ديك المحظوظ، أيها المتكبِّر. لقد نجحتَ، يا صاحبي. لا أحد كان يدرك ذلك إلى أنْ أتيت».

في بداية عام 1917، عندما أصبح من الصعب العثور على الفحم، أحرق ديك ما يُقارب مئة كتاب مدرسي كانت مُكدّسة لديه من أجل الحصول على وقود؛ ولكن كان كلَّما وضع أحدها في النار يضحك في

داخله مُطمْئِناً نفسه بأنه استوعب ما يحتويه، وفي وسعه أنْ يُلخّصه بعد مرور خمسة أعوام من الآن، هذا إذا كان يستحق التلخيص. وكان يُكرر فعل ذلك في أيّ ساعة، عند الضرورة، وهو يضع سجادة الأرضية على كتفيه، بهدوء المثقف الراقي الأقرب إلى السلام القُدسي - ولكنَّ هذا الوضع، كما سنعلم قريباً، كان لابد أنْ ينتهي.

إنَّ عدم دوام هذا الحال يعود الفضل فيه إلى جسمه الذي قام بحلقات الطيران في نيوهيغفن، وكان الآن يسبح في مياه الدانوب الشتوية. وتقاسم مع إلكنز، السكرتير الثاني في السفارة، السكن في شقة، وكانت فتاتان جميلتان تزورانه - ليس كثيراً، ولم تكونا من السفارة. وأثارتْ فيه صِلته بإد إلكنز أول ظل من شك في قِواه العقلية؛ فقد وجد أنها لا تختلف كثيراً عن تفكير إلكنز - إلكنز، القادر على أنْ يذكر لك جميع أسماء لاعبي الظهير الربعي في نيوهيفن الذين ظهروا على مدى ثلاثين عاماً.

«- ولا يمكن لديك المحظوظ أنْ يكون أحد أولئك الرجال الحاذقين؛ لابد أنه ليس سليماً تماماً، بل ومُدمّر قليلاً. فإذا لم تتدبَّر الحياة هذا الأمر فهو ليس بديلاً للإصابة بمرضٍ ما، أو بتحطم القلب أو بعقدة نقص، على الرغم من أنَّه من الجميل إحداث جانبٍ مُحطَّم إلى أنْ يتحسَّن ويُصبح أفضل من الأصلي».

وسخر مُحاكياً تفكيره، واصفاً ذلك التفكير بأنه خادع و«أميركيّ» - كان معياره لعملية صياغة الجمل غير العقلية هو أنها أميركيّة. لكنه كان يعلم أنَّ ثمن سلامة تكوينه هو النقصان.

في رواية ثاكري «*الوردة والخاتم*» تقول فيري بلاكستيك «إنَّ أقصى ما أتمنى لك، يا ولدي، هو بعضٌ من سوء الحظ».

في بعض حالات المزاج كان يتشبّث بتفكيره: هل ذنبي أنَّ بيت ليفينغستون كان جالساً في غرفة تغيير الملابس في عيد الرقص الإيقاعي بينما الجميع يبحثون عنه في كل مكان؟ وكان لدي حملة انتخابات وإلا لما حصلت على إليهو، لأنني لا أعرف الكثير من الرجال. كان

طبياً ومستقيماً وكان ينبغي أنْ أجلس مكانه في غرفة تغيير الملابس. ربما كنت فعلت ذلك، لو أنني رأيتُ أنَّ لدي فرصة للفوز بالانتخابات. لكنَّ مرسير أخذ يتردد على غرفتي طوال تلك الأسابيع. وأعتقد أنني كنتُ أعلم أنَّ لدي فرصة حقاً، حقاً. ولكن كان سيناسبني أكثر لو أنني تجاوزت محنتي وأثرتُ نزاعاً.

بعد المحاضرات في الجامعة كان يُناقش هذه النقطة مع مثقف شاب من رومانيا طمأنه إلى أنَّه: «لا دليل على أنَّ غوثه خاض مرة في «نزاع» بالمعنى الحديث للكلمة، أو أنَّ رجلاً مثل يونغ، على سبيل المثال، فعل ذلك. أنت لستَ فيلسوفاً رومانسياً - أنت عالِم. صاحب ذاكرة، وقوة، وشخصية - وبخاصة حس سليم. هذه ستكون مشكلتك - الحكم على نفسك. ذات مرة تعرّفت إلى شخص عمل مدة عامين على دماغ حيوان المدرع، مُعتقداً أنه عاجلاً أو آجلاً سوف يعرف عن دماغ المدرع أكثر مما يعرف عن دماغ أي شخص. وبقيتُ أحاول إقناعه بأنه بذلك لا يوسِّع مجال المدى الإنساني - كان الوضعُ شديد التشوُّش. وطبعاً، عندما أرسل عمله إلى المجلة الطبيّة رفضوه - قبِلوا فقط أطروحة رجلٍ آخر حول الموضوع نفسه. قالوا لا يوجد حس سليم».

انتقل ديك إلى زيوريخ بعددٍ أقلّ من أعقاب أخيل[1] من تلك التي تحتاجها أم أربعة وأربعين - لكنها كثيرة - أي أوهام القوة والصحة الأبديتين، وطيبة الناس الجوهرية - كانت أوهامَ أمةٍ بأكملها، أكاذيب أجيال من أمهات المواجهة اللائي كان عليهن أنْ يُدندنَ قائلات بزيفٍ إنَّهن لسن ذئاباً خارج باب الغرفة. وبعد أنْ نال شهادته، تلقّى أوامره بالانضمام إلى وحدة الطب العصبي المتشكّلة في بار-سور-أوبيه. وفي فرنسا، ما أثار اشمئزازه أنَّ العمل كان إدارياً وليس عملياً.

1- عقب آخيل: في الأساطير اليونانية ترمز إلى نقطة الضعف. ولكن هنا وردت بالمعنيين أي الحرفي (أي الأقدام) والرمزي. - المترجم

وكتعويض عن ذلك وجد وقتاً لإكمال الكتاب المدرسي القصير وجمع مواد أولية لخوض مغامرته التالية. ثم عاد إلى زيوريخ في ربيع عام 1919 مطروداً.

إنَّ ما سبق له طابع السيرة، من دون متعة معرفة أنَّ البطل، مثل غرانت، الذي يجلس بكسل في دكانه في غالينا، مستعداً لتلبية نداء مصير مُعقّد. من الأفضل أنْ يكون المرء مُطمئِناً - والآن تبدأ لحظة ديك دايفر.

الفصل الثاني

كان يوماً رطباً من أيام شهر نيسان، مع غيوم طويلة منحرفة تخيِّم فوق منتجع البيشورن ومياه راكدة في الأماكن المنخفضة. إنَّ زيوريخ لا تختلف عن أي مدينة أميركية. وأدرك ديك، الذي شعر منذ وصوله قبل يومين بأنَّ شيئاً ما مفقود، إنّه الإحساس الذي استمده من الأزقة الفرنسية المحدودة وهو أنه ليس هناك المزيد. في زيوريخ كان هناك الكثير بالإضافة إلى زيوريخ - أسقفٌ على امتداد النظر حتى مروج الأبقار ذات الأجراس، التي بدورها تغطي قمم التلال الأبعد - ولذلك كانت الحياة كعمود يمتد إلى عنان سماء البطاقات البريدية. إنّ أراضي جبال الألب، موطن الدمية وسكة الحديد المُعلّقة، ودوامة الخيل والمدخنة الرفيعة، لم تكن *أصيلة* هناك، كما هو الحال في فرنسا، حيث تنمو الكروم الفرنسية وتتعرَّش على قدم المرء على الأرض.

في سالزبرغ حالما شعر ديك بالخاصية الطاغية لقرنٍ مُشترى ومُستعار من الموسيقى؛ وحالما ولج مختبرات الجامعة في زيوريخ، مفتشاً برهافة في قشرة الدماغ، شعر كأنه صانع دُمى وليس كالإعصار الذي اجتاح أبنية هوبكينز الحمراء، قبل ذلك بعامين، لا يُعيقه تمثال المسيح الحديدي العملاق عند مدخل الرواق.

إلا أنه قرر أنْ يبقى عامين آخرَين في زيوريخ، ذلك أنه لم يستخفّ بقيمة صناعة الدُمى، ولا بالدقة اللامتناهية، ولا بالصبر اللامتناهي.

اليوم خرج ليُقابل فرانتز غريغوروفيوس في عيادة دوملر على بحيرة

زيوريخ. قابله فرانتز، الطبيب المختص بعلم الأمراض المقيم في العيادة، المولود في فودوا، والأكبر من ديك ببضعة أعوام، عند موقف حافلة. كان له جانب غامض ورائع يُذكِّر بكاغلياسترو[1]، يتناقض مع عينيه الورعتين؛ كان ثالث آل غريغوريوفيوس - كان كريبلين[2] قد تتلمذ على يد جدّه عندما كان الطب النفسي قد بدأ يبرز من غياهب الزمن. كان ذا شخصية متكبرة، سريع الغضب ويُشبه الخروف - يتباهى بأنه منوِّم مغناطيسي. وعلى الرغم من أنَّ العبقرية الأصلية التي تسري في العائلة ضعفتْ قليلاً، فإن فرانتز كان سيُصبح من دون أدنى شك طبيباً سريرياً جيداً.

في الطريق إلى العيادة قال: «أخبرني عن تجاربك في الحرب. هل تغيّرتَ مثل الباقين؟ إنك ما زلت تشبه رأس الجزرة. ما زلت تحمل الوجه الأميركي نفسه الذي لم ينل منه الزمن».

قال ديك «أنا لم أشهد شيئاً من الحرب. يبدو أنكَ اعتقدتَ ذلك من خلال رسائلي، يا فرانتز».

«لا يهم - لدينا بعض المُضطربين عقلياً الذين لا يسمعون الغارة الجوية إلا عن بُعد. ولدينا البعض ممّن لا يقرؤون إلا الصحف».

«تبدو لي هراء».

«ربما، يا ديك. لكننا ندير عيادة للأثرياء - ولا نستخدم كلمة هراء. قُل لي بصراحة، هل أتيتَ لتراني أم لترى تلك الفتاة؟».

تبادلا النظر من طرف عيونهما؛ وابتسم فرانتز بغموض.

1- أليساندرو دي كاغلياسترو؛ اسمه الحقيقي جيوسيبي بالسامو (1743 - 1795): مُغامر وساحر إيطالي، سجنته محاكم التفتيش مدى الحياة بسبب صِلته بالماسونية. - المترجم

2- إميل كريبلين (1856 - 1926): طبيب نفسي ألماني. مؤسس علم النفس العِلمي الحديث، بالإضافة إلى علم المعالجة النفسية والجينات النفسية. يعتقد كريبلين أنَّ منشأ المرض نفسي بيولوجي وجيني. اشتهرت نظرياته خاصة في بداية القرن العشرين. - المترجم

قال بصوته الجهير الرسمي «طبعاً أنا قرأت رسائلك الأولى كلها. وعندما بدأ التغيُّر، منعتني الكياسة من فتحها بعد ذلك. لقد أصبح الأمر مسألة تخصّك».

سأل ديك «إذن فهي على ما يُرام؟».

«على أحسن ما يُرام. إنني مسؤول عنها، في الحقيقة أنا مسؤول عن غالبية المرضى الإنكليز والأميركيين. إنهم يُسمونني الدكتور غريغوري».

قال ديك «دعني أشرح أمر تلك الفتاة. أنا رأيتها مرة واحدة فقط، هذا صحيح. وذلك عندما أتيتُ لأودّعك قبل أنْ تسافر إلى فرنسا. كانت تلك المرة الأولى التي أرتدي فيها الزي العسكري الرسمي وشعرت وأنا ألبسه بأني مزيَّف - ورحت أتنقّل وأُحيي الجنود وما إلى ذلك».

«ولِمَ لم ترتدها هذا اليوم؟».

«هيه! لقد صُرفتُ من الخدمة منذ ثلاثة أسابيع. وإليك كيف قابلت تلك الفتاة. فبعد أنْ تركتكَ مشيتُ باتجاه ذلك المبنى الذي تسكن فيه والمُطل على البحيرة لكي أُحضِر دراجتي...».

«باتجاه شجر الأرز؟».

«- كانت ليلة رائعة، كما تعلم، والقمر فوق ذلك الجبل...».

«جبل كرينتزيغ».

«- فلمحتُ ممرضة وفتاة شابة. لم أُدرك أنَّ الفتاة مريضة؛ فسألت الممرضة عن مواعيد انطلاق الحافلة ومشينا معاً. كانت الفتاة أجمل ما رأت عيناي».

«وما زالت».

«لم تكن قد شاهدت قبل ذلك زياً عسكرياً أميركياً وتحدثنا، ولم أكوِّن أي فكرة عنها»، ثم سكتَ، ملاحظاً مشهداً مألوفاً، ومن ثم استأنف قائلاً: «ما عدا أنني، يا فرانتز، لست صلباً مثلك - ومع ذلك؛ عندما أرى

فتاة جميلة كتلك لا يسعني إلا أنْ أشعر بالندم على ما تنطوي عليه. هذا كل ما حدث في المُطلق - إلى أنْ بدأت الرسائل تتوافد».

قال فرانتز بلهجة درامية «لقد كانت الرسائل أفضل ما حدث لها في حياتها؛ نقطة تحول من النوع السعيد. ولهذا أتيتُ لمقابلتك في يوم مكتظ بالعمل. أريد منك أنْ تأتي إلى مكتبي لكي نتحدث قبل أنْ تقابلها بوقت طويل. في الحقيقة، لقد أرسلتُها إلى قلب زيوريخ لأداء بعض المهام». كان صوته متوتراً وحماسياً. «في الواقع، أرسلتُها من دون ممرضة، وبمصاحبة مريض أقلّ استقراراً. إنني فخور جداً بهذه الحالة التي تعاملتُ معها مع بعض العون منك».

كانت السيارة قد سارت بمُحاذاة شاطئ بحيرة زيوريخ باتجاه منطقة غنية بالمزارع والمروج والتلال المنخفضة، المُرصّعة بالشاليهات. كانت الشمس تسبح في بحرٍ أزرق من السماء وفجأة إذ بنا أمام وادٍ سويسريّ بأبهى صوره- وأصوات وهمهمات ممتعة ورائحة منعشة وطيِّبة من الصحة والحبور.

كانت مؤسسة البروفيسور دوملر تتألّف من ثلاثة أبنية قديمة وبناءين جديدَين، تقع بين نجد صغير وشاطئ البحيرة. وعندما أُنشئت، قبل عشر سنوات، كانت أول عيادة للأمراضٍ العقلية؛ لدى النظرة الأولى لا يلاحظ الرجل العادي أنها ملجأ للمُحطّمين، وأصحاب عقد النقص، والخطرين في العالم، على الرغم من وجود مبنَيْين مُحاطَين بجدران رقّقت الكرمة من منظرها، وكانت ذات علوّ خادع. وفي الخارج، كان هناك رجال يُقلبون التبن بالمدمة تحت أشعة الشمس؛ وهنا وهناك، أثناء مرورنا بالسيارة ترى ممرضة بملابسها البيضاء تلوِّح بيدها بجوار أحد المرضى على الطريق.

بعد أنْ أوصلَ ديك إلى مكتبه، استأذن فرانتز بالمُغادرة مدة نصف ساعة. لبثَ ديك وحده يتجول في أنحاء الغرفة وحاول أنْ يُعيد تكوين شخصية فرانتز من أوراقه المبعثرة على طاولة مكتبه، ومن كتبه والكتب

التي ألَّفها والده وجدّه وجمعاها؛ ومن الورع السويسري الذي تتسم به صورة والده الضخمة ذات اللون الخمري الداكن على الحائط. كان الدخان يعمُّ الغرفة. فتح ديك النافذة الفرنسية وسمح لمخروطٍ من أشعة الشمس بالدخول. وفجأة ارتدتْ أفكاره إلى المريضة، الفتاة.

كان قد تلقّى حوالي خمسين رسالة منها كُتِبَتْ على مدى فترة من الوقت تزيد على ثمانية أشهر. الأولى كانت رسالة اعتذار، تشرح فيها أنها سمعت من أميركا كيف تراسلُ الفتياتُ جنوداً لا يعرفنهم. وكانت قد حصلت على الاسم والعنوان من الدكتور غريغوري وعبّرتْ عن أملها في ألا يُمانع إذا راسلته أحياناً لتتمنّى له التوفيق، إلخ، إلخ.

إلى هنا وكان سهلاً تمييز نبرة الكلام - نبرة أناشيد عهد الطفولة ومجموعات الرسائل المرحة والعاطفية الرائجة في الولايات المتحدة. ولكن إلى هنا وينتهي وجه الشبه.

الرسائل مُقسّمة إلى نوعين، النوع الأول، يمتد حتى إعلان الهدنة، كانت للرسائل فيه صِبغة مرضيّة، والنوع الثاني، يمتد منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر، وكانت الرسائل عادية كلها، وتكشف عن طبيعة تنضج بقوة. وكان ديك ينتظر ورود هذه الأخيرة بشوق خلال الأشهر المملة الأخيرة له في بار-سور-أوبيه - ومع ذلك حتى منذ الرسائل الأولى فقد جمع من أطراف القصة ما يفوق تخمين فرانتز:

Mon Capitaine (عزيزي القائد):

عندما شاهدتُكَ بزيِّك الرسميّ حسبتُ أنك شديد الوسامة. ثم قلت في نفسي Je m'en fiche (لا يهمني) الفرنسيون أيضاً ولا الألمان. أنتَ أيضاً وجدْتَني جميلة لكنني عرفت ذلك من قبل وتحمّلته وقتاً طويلاً. إذا أتيتَ إلى هنا من جديد مع ذلك الموقف المنحط والإجرامي والبعيد جداً عما تعلّمتُ أنْ أربطَه بدور السيد المحترم إذن أعانك الله. ولكنك تبدو أكثر هدوءاً من الآخرين، ناعماً كقط ضخم. لقد

2

تعوّدتُ أنْ أُعجَب بالفتية المخنثين. هل أنت مخنث؟ إنهم موجودون.

اعذرني على هذا كله، إنها الرسالة الثالثة التي أكتبها إليك وسوف أُرسلها فوراً أو لن أرسلها أبداً. لقد فكّرتُ كثيراً في ضوء القمر أيضاً، وهناك الكثير من الشهود يمكنني أنْ أجدهم إذا خرجت من هنا.

3

يُقال إنكَ طبيب، ولكن ما دمتَ قطاً فالأمر مختلف. إنَّ رأسي يؤلمني كثيراً، اعذرني للتمشي هناك وكأنَّ شخصاً عادياً مع قط أبيض يُفسّر الأمر، كما أعتقد. إنني أُتقنُ التكلُّم بثلاث لغات، بل أربع مع الإنكليزية، وأنا واثقة من أنَّه في وسعي أنْ أكون ذات فائدة في مجال الترجمة إذا تدبّرتَ لي هذا العمل في فرنسا لأنني متيقّنة من قدرتي على التعامل مع أي شيء والجميع مربوطون جيداً كما لو أننا في يوم الأربعاء. نحن الآن في يوم السبت وأنت بعيد جداً، ولعلك قُتِلت.

4

عُد إليّ ذات يوم، لأنني سوف أكون هنا دائماً فوق هذا التل النضر. إلا إذا سمحوا لي بالكتابة لوالدي الذي أحبّه من كل قلبي.

أعذرني. لستُ على ما يُرام اليوم. سأكتب عندما أشعر بتحسُّن.

إلى اللقاء

نيكول وارن

أعذرني على كل شيء.

القائد دايفر:

أعلم أنَّ الاستبطان لا ينفع في حالة تتعلَّق إلى حدٍ بعيد بالأعصاب

كحالتي، ولكن أريد منك أنْ تعرف وضعي. في العام الفائت أو كائناً ما كان الوقت في شيكاغو عندما تدهور وضعي بحيث لم أعد أستطيع أنْ أتكلم مع خدمي أو أنْ أسير في الشارع رحت أنتظر شخصاً يشرح لي. كان ذلك من واجب شخص يفهم. فالأعمى يجب أنْ يجد من يقوده. ولكن لا أحد كان يُخبرني كل شيء - كانوا لا يُخبرونني إلا نصف الحقيقة، وكانت حالتي قد تدهورت إلى درجة أنني عجزت عن القيام بأبسط الأمور. أحدهم كان لطيفاً معي - كان ضابطاً فرنسياً وقد فهم حالتي. أعطاني زهرة وقال إنها

2

«plus petite et moins entendue» (أصغر حجماً وغير مفهومة). وأصبحنا صديقين. ثم أخذها معه. وازدادت وطأة مرضي ولم أجد من يشرح لي. كانت هناك أغنية عن جان دارك، وكانوا يغنونها على مسمعي لكنَّها كانت مجرد وسيلة - كانت فقط تدفعني إلى البكاء، لأنه لم يكن هناك أي عيب في عقلي حينئذٍ. وكانوا دائماً يذكُرون الألعاب الرياضية أيضاً، ولكنني في ذلك الوقت لم أعد أهتم بها. إلى أنْ كان يوم خرجتُ فيه على طول جادة ميشيغان وطفقتُ أمشي وأمشي أميالاً وأخيراً لحقوا بي بالسيارة، لكنني رفضتُ

3

أنْ أستقلها. وأخيراً جرّوني إلى داخلها وكانت هناك ممرضات. وبعد تلك الحادثة بدأتُ أُدرك الأمر كله، لأنني استطعتُ أنْ أشعر بما حدث للآخرين. وهكذا ترى ما هو موقفي. وماذا ينفعني البقاء هنا مع الأطباء الذين يردّدون على مسمعي الأشياء التي ينبغي أنْ أتجاوزها هنا. وهكذا كتبتُ اليوم لوالدي أطلب منه أنْ يأتي ويأخذني بعيداً.

4

أنا سعيدة لأنك مهتمٌ بفحص الناس ومن ثم إعادتهم إلى بيوتهم. لابد أنَّ الأمر مسلّ.

وأيضاً من رسالة أخرى:

قد تجتاز امتحانك التالي وتكتب لي رسالة. إنهم لا يرسلون إليّ إلا أسطوانات مسجلة لكي لا أنسى درسي فأحطمها جميعاً فتخاصمني الممرضة ولا تكلّمني. كانت مُسجّلة بالإنكليزية، لكي لا تفهم الممرضات ما فيها. وقال لي أحد الأطباء في شيكاغو إنني أخادع، لكن ما قصده حقاً هو أنني رقم 6 مُكرر وهو لم ير مثله في حياته. في ذلك الوقت كنتُ منهمكة بجنوني، فلم آبه لما قال، فعندما أكون منهمكة بجنوني لا أهتم في المعتاد بما يقولون، حتى ولو كنتُ مليون فتاة.

في تلك الليلة قلتَ لي إنك ستعلّمني التمثيل. حسن، أعتقد أنَّ الحب هو الشيء الوحيد الموجود أو الذي يجب أنْ يوجد. على أي حال أنا

2

سعيدة لأنَّ امتحانك يبقيك منشغلاً،

Tout a vous,(المخلصة لك)

نيكول وارن

كانت هناك رسائل أخرى تكمن بين فترات الانقطاع داخلها إيقاعات غامضة.

عزيزي القائد دايفر

أكتبُ إليك لأنَّه ليس لدي غيرك ألجأ إليه ويبدو لي أنه إذا كان هذا الوضع السخيف جلياً لشخص مريض مثلي فينبغي أنْ يكون جلياً لك. إنَّ الاضطراب العقلي انتهى أمره وفيما عدا ذلك أنا مُحطَّمة تماماً ومُهانة، إذا كان هذا ما يُريدون. لقد أهملتني عائلتي بصورة مُخجلة، ولا فائدة من الطلب منها أنْ تساعدني أو تشفق عليّ. لقد نفد صبري وأصبح تظاهري بأنَّ مرضي العقلي قابل للشفاء ببساطة يُدمر صحتي ويُبدِّد وقتي.

2

ها أنا في ما يبدو أنه مصحّة لأنصاف العقلاء، وذلك لأنني لم أجد شخصاً مناسباً يُخبرني حقيقةَ أي شيء. لو أنني عرفتُ ما الذي يجري كما أعرف الآن أعتقد أنني كنتُ تحمّلته لأنني قوية جداً، لكنَّ أولئك الذين كان عليهم أنْ يفعلوا لم يروا أنهم أهل لتنويري.

3

والآن، وقد عرفتُ ودفعتُ ثمناً باهظاً لتلك المعرفة، يجلسون هناك في حياتهم المُضطربة ويقولون إنَّه عليّ أنْ أؤمن بما كنتُ أؤمن. عادة هذا ما يفعله المرء لكني أنا أعرف الآن.

إنني أشعر بالوحدة طوال الوقت بعيداً عن الأصدقاء والعائلة على الطرف المقابل من الأطلسي؛ أتجول في أرجاء المكان في شبه ذهول. لو أنَّ في استطاعتك أنْ تجد لي وظيفة كمترجمة (أنا أُتقن الفرنسية والألمانية كأهلها، وقدْراً معقولاً من الإيطالية

4

وقليلاً من الإسبانية) أو في إسعاف الصليب الأحمر أو كممرضة في قطار، وإنْ كان يجب أنْ أتدرَّب، فسوف تكون صاحب فضل كبير عليّ.

ومن جديد قالت:

بما أنكَ لن تقبل تفسيري لِما يجري فقد تقبل على الأقلّ أنْ تخبرني برأيك، لأنَّ لك وجه قط، وليس تلك النظرة الغريبة التي يبدو أنها سائدة هنا. لقد أعطاني الدكتور غريغوري صورة لك، لا تبدو فيها وسيماً كما وأنت ترتدي الزي الرسمي، لكنك تبدو أصغر سناً.

Mon Capitaine (عزيزي القائد):

جميلٌ أنْ أتلقّى منك بطاقة بريدية. أنا سعيدة جداً لأنكَ أبديتَ اهتماماً كبيراً بتجريد الممرضات من أهليتهن - آه، إنني أفهم ما جاء في

رسالتك فهماً جيداً. إلا أني رأيتُ منذ اللحظة الأولى للقائي بك أنك مختلف.

عزيزي القائد:

إنني أفكر في أمرٍ هذا اليوم وفي آخر غداً. هذه هي في الحقيقة مشكلتي كلها، فيما عدا الاستخفاف المجنون والافتقار إلى التناسُب. إنني أرحِّب بكل سرور بأي طبيب عقلي تقترح. ها هم متمدّدون في مغاطس حماماتهم ويغنون «العبي في فناء منزلك الخلفي» وكأنَّ لدي فناء خلفياً لألعب فيه أو أي أمل أستطيع أنْ أستمده من النظر إما إلى الخلف أو إلى الأمام. لقد حاولوا ذلك من جديد

2

في متجر بيع الحلوى، وكدتُ أضرب الرجل صاحب الوزن الثقيل، لكنهم منعوني.

لن أكتب لك بعد الآن. لم أعد متوازنة أبداً.

ثم مرَّ شهر من دون رسائل. ثم فجأة حصل التغيير.

- إنني أعود إلى الحياة ببطء...
- اليوم الأزهار والغيوم...
- انتهت الحرب وأكاد لا أعرف أنَّه كانت هناك حرب...
- كم كنتَ لطيفاً! لابد أنكَ تُخفي حِكمة ضافية خلف وجهك كقط أبيض، لكنكَ لا تبدو هكذا في الصورة التي أعطاني إياها الدكتور غريغوري...
- اليوم ذهبتُ إلى زيوريخ، ما أغرب الإحساس الذي ينتابك عندما تزور مدينة ما من جديد.
- اليوم ذهبتُ إلى برن، كانت جميلة جداً وفيها نواقيس.

- اليوم ارتقينا إلى منطقة عالية بقدر كافٍ لنعثر على نبات البرْوَق وزهرة الإيدلفايس...

بعد ذلك أصبحت الرســـائل قليلة، لكنه أجـــاب عنها كلها. وكانت هنـــاك واحدة تقول:

ليت أحدهم يقعُ في حبي كما كان الفتية يفعلون أيام زمان قبل أنْ أمرض. ومع ذلك، أعتقد أنه ستمرُ سنون قبل أنْ أتمكن من التفكير في أي شيء كهذا.

ولكن عندما كان جواب ديك يتأخّر لأي سبب من الأسباب، تثير عاصفة من الغضب - تشبه قلق العاشق؛ «لعلي أضجرتك» و«أخشى أنني تجرّأت» و«تنتابني الظنونُ ليلاً بأنك ربما مريض».

في الواقع كان ديك مريضاً بالأنفلونزا. وعندما برأ تمَّتِ التضحية بكل شيء من مراسلاته ما عدا الجزء الرسمي بسبب ما نتج عنه من تعب، وبعد ذلك بوقت قصير طغى على ذكراها الحضور الحيّ لفتاة هاتف ويسكونسن في مركز الإدارة في بار-سور-أوبيه. كانت حمراء الشفتين كفتاة المُلصقات، والمعروفة بين العامة باللقب البذيء «لوحة المفاتيح».

عاد فرانتز إلى مكتبه شاعراً بأنه شخصية هامة. ورأى ديك أنه سيُصبح طبيباً نفسياً بارعاً، ذلك أنَّ الإيقاعات الطنّانة والمتقطعة التي كان يُهذِّب على وقعها الممرضة والمريض لم تكن تصدر عن جهازه العصبي، بل عن إحساس هائل وغير مؤذٍ بالغرور. كانت مشاعره الحقيقية أشد تنظيماً ويحتفظ بها لنفسه.

قال «والآن بشأن الفتاة، يا ديك. طبعاً، أنا أريد أنْ أتعرَّف عليك وأعرِّفك بنفسي، ولكن أولاً لنتكلَّم عن الفتاة، لأني انتظرتُ طويلاً لأخبرك عن ذلك».

مدّ يده بحثاً عن حزمة من الورق وعثر عليها في خزانة الملفات، ولكن بعد أن استعرضها وجد أنها تعيقه فوضعها جانباً على طاولة مكتبه. وبدل ذلك أخبر ديك القصة.

الفصل الثالث

قبل نحو عام ونصف العام، كان الدكتور دوملر يتبادل مراسلات غامضة مع شخص أميركي يعيش في لوزان، اسمه السيد ديفيرو وارن، من عائلة وارن في شيكاغو. واتفقا على اللقاء. وذات يوم وصل السيد وارن إلى العيادة مع ابنته نيكول، وهي فتاة في السادسة عشرة. كان جلياً أنها ليست على ما يُرام والممرضة التي كانت معها أخذتها لتتمشيا في أرجاء المكان بينما السيد وارن يُجري استشارته.

كان وارن رجلاً على درجة مذهلة من الوسامة ويبدو دون الأربعين من العمر. كان من النمط الأميركي الممتاز من النواحي جميعاً، فهو طويل القامة، عريض المنكبين، متين البنية - ***un home tres chic*** (على قدر عالٍ من الأناقة)، كما وصفه الدكتور دوملر لفرانتز. عيناه الرماديتان الواسعتان كانتا مُعرّقتين بسبب الشمس نتيجة التجديف في بحيرة جنيف، ويُحيط به ذلك الجو الذي يوحي بأنه يعرف أفضل ما في هذا العالم. الحديث دار بالألمانية، فقد تبيَّنَ أنه تلقّى تعليمه في غوتنغن. كان متوتر الأعصاب ومتأثّراً بوضوح بسبب مهمته.

«دكتور دوملر، إنَّ ابنتي تعاني من اضطراب في عقلها. لقد أحضرتُ حشداً من المختصين والممرضات لأجلها وهي تتناول نوعين من الأدوية المُهدِّئة، لكنَّ الواقع هو أن المهمة أضحت تفوق قدراتي وهناك مَنْ نصحني بقوة بأنْ ألجأ إليك».

قال الدكتور دوملر «حسن، فلتبدأ من البداية وأخبرني كل شيء».

«ليست هناك أي بداية، على الأقلّ ليس في العائلة جو مشحون حسب عِلمي، من كِلا الجانبَين. فأم نيكول توفيت عندما كانت في الثانية عشرة[1] وكنتُ أنا بمنزلة الأب والأم بالنسبة إليها، بمساعدة مربيات-آباء وأمهات لها».

بعد أنْ قال هذا بدا عليه التأثّر الشديد. ورأى الدكتور دوملر دموعاً في زاويتيّ عينيه ولاحظ للمرة الأولى أنَّ أنفاسه تفوح برائحة الويسكي.

«كانت وهي طفلة مخلوقةً محبوبة - كان الجميع مولعين بها، وكل مَنْ تعامل معها. كانت حادة الذكاء والسعادة تغمرها طوال النهار. كانت تحب القراءة أو الرسم أو الرقص أو العزف على البيانو - أي شيء. كنتُ أسمع زوجتي تقول إنها الوحيدة من بين أولادنا التي لا تبكي أثناء الليل. ولدي ابنة أكبر سناً، أيضاً، وكان لدينا صبي مات، لكنَّ نيكول كانت - نيكول كانت - نيكول -».

سكت فبادر الدكتور دملر إلى مساعدته.

«كانت طبيعية بكل معنى الكلمة، طفلة ذكية، وسعيدة».

«تماماً».

انتظر الدكتور دوملر. هزّ السيد وارن رأسه، وزفر تنهداً طويلاً، وألقى نظرة سريعة على الدكتور دوملر ومن ثم نظر إلى الأرض من جديد.

«قبل نحو ثمانية أشهر، أو ربما ستة أشهر أو عشرة - إنني أحاول أنْ أتذكر ولكن لا أستطيع أنْ أقول بالضبط متى بدأت الأمور الغريبة تظهر - ظواهر الجنون. كانت أختها هي أول مَنْ ذكر لي شيئا عن الأمر - لأنَّ نيكول كانت دائماً تبدو لي هي نفسها» أضاف الجملة الأخيرة بسرعة،

1- وجِدت عبارة «توفيت أم نيكول عندما كانت في الثانية عشرة» في الطبعة الأولى؛ ولكن في موقع آخر في الطبعة نفسها، تقول نيكول لروزميري، «قُبيل نشوب الحرب مباشرة كنا في برلين - كنتُ في الثالثة عشرة، وذلك قُبيل وفاة أمي». قام المُحرر بإحداث توازن وجعل سنّها اثنتي عشرة في كلا الفقرتين. هناك عدة أخطاء صغيرة في التسلسل الزمني موزعة في أرجاء النص. - الناشر

وكأنَّ هناك مَنْ يتّهمه بأنه الملوم، «– الفتاة الصغيرة المحبوبة نفسها. الشيء الأول كان بشأنِ الخادم الخصوصي».

قال الدكتور دوملر، وهو يومئ برأسه المهيب، وكأنه، مثل شرلوك هولمز، توقع أنْ يُذكَر الخادم الخصوصي عند هذه النقطة.

«أنا كان عندي خادم خصوصي – بقيَ معي سنوات طوالاً – سويسري، بالمناسبة»، رفعَ بصره ليستقبل استحسان الدكتور دوملر الوطني. «وانتابتها فكرة جنونية عنه. ظنّتْ أنه يغازلها – طبعاً، في ذلك الوقت صدّقتُها وصرفته من الخدمة، لكنني أعلم الآن أنَّ ذلك كان محض هراء».

«ماذا ادّعتْ أنه فعل؟».

«تلك كانت المشكلة الأولى – لم يتمكن الأطباء من أنْ يفهموا منها أي شيء. اكتفت بالنظر إليهم وكأنَّ عليهم أنْ يعلموا ماذا فعل. لكنها حتماً كانت تعني أنه تحرّشَ بها بطريقة مشينة – ولم تترك لدينا أدنى شك في ذلك».

«فهمت».

«طبعاً، أنا قرأت عن نساء يشعرن بالوحشة ويُخيل إليهن أنَّ هناك رجلاً يكمن تحت السرير وما شابه، ولكن من أين أتت هذه الفكرة إلى نيكول؟ كان في وسعها أنْ تحصل على كل الشبان الذين تريد. لقد كنا في ليك فوريست – وهو منتجع صيفي في شيكاغو كان لدينا منزل فيه – وكانت تخرج طوال النهار لتلعب الغولف أو التنس مع الشبان. وبعضهم تودّد إليها في أثناء ذلك».

كان وارن يتحدث إلى العجوز المتهالك الدكتور دوملر الذي كان يفكّر بشكل متقطِّع في شيكاغو. فذات يوم في شبابه كان يمكن أنْ يذهب إلى شيكاغو كخريج جامعة أو مُحاضر، وكان في استطاعته أنْ يصبح ثرياً هناك وأنْ يفتح عيادته الخاصة بدل أنْ يكون مجرد مُساهم

صغير فيها. وعندما فكّر في ما اعتبره معرفته الضئيلة المنتشرة عبر تلك المنطقة كلها، عبر حقول القمح تلك كلها، وتلك البراري اللامتناهية، قرر أنْ يُعارضها. ولكنه كان قد قرأ عن شيكاغو في تلك الأيام، عن العائلات الإقطاعية الكبرى، أرمور، وبالمر، وفيلد، وكرين، ووارن، وسويفت وماكورميك وغيرها كثير، ومنذ ذلك الوقت لم يأت إليه إلا عدد ضئيل من المرضى من تلك الطبقة من شيكاغو ونيويورك.

تابع وارن «وتدهورتْ حالتها. وانتابتها نوبة أو ما شابه – وأصبحت أقوالها تزداد جنوناً على جنون. وقد دوّنتْ أختها بعضاً منها –»، وأعطى الطبيب قطعة من الورق مطوية جيداً. «كانت دائماً تدور حول رجال ينوون مهاجمتها، رجال كانت تعرفهم أو من الشارع، أو أي شخص –».

أخبره عن خوفهم وحزنهم، عن رعب العائلات التي تمر بمثل هذه الظروف، وعن الجهود العقيمة التي بذلوها في أميركا، وأخيراً عن الإيمان في تغيُّر المشهد الذي دفعه إلى المجازفة بخرق حصار الغواصات وعن إحضار ابنته إلى سويسرا.

ثم حدَّد مع لمسة من الغطرسة «– على متن زورق رحلات أميركي، استطعتُ أنْ أرتّب هذا الأمر، بضربة حظ»، ثم ابتسم معتذراً، «ويمكنني أنْ أُضيف أنهم يقولون: المال ليس هدفاً».

وافقه دوملر بجفاف «طبعاً لا».

كان يتساءل لماذا يكذب الرجل عليه وحول ماذا. أو، إذا كان مُخطئاً في تخمينه، ما هذا الزيف الذي يسود الغرفة كلها، والشخص الوسيم الذي يرتدي الجوخ الغالي ويتمدَّد على كرسيه باسترخاءِ رجلٍ رياضي؟ هناك مأساة تحدث في الخارج، في نهار شهر شباط، العصفور الصغير بجناحين مسحوقين بصورة ما، وفي الداخل هنا الجو مُخفَّف أكثر مما ينبغي، مُخفَّف وخاطئ.

قال الدكتور دوملر، بالإنكليزية، وكأنَّ ذلك سيُقرّبه من وارن، «أودّ – أنْ أتحدث معها – بضع دقائق الآن».

بعد ذلك عندما ترك وارن ابنته وعاد إلى لوزان، ومرّت أيامٌ عِدّة، اطّلعَ الدكتور وفرانتز على بطاقة تعريف نيكول:

«التشخيص: انفصام في الشخصية. مرحلة متدهورة من المرض. الخوف من الرجال هو أحد أعراض المرض وليس أساسياً... يجب التحفُّظ على التكهُّن».

ثم انتظرا مع اهتمام متزايد مع مرور الأيام زيارة السيد وارن الموعودة.

كانت الزيارة بطيئة في حدوثها. وبعد مرور أسبوعَين كتب له الدكتور دوملر. ولمّا جوبِه بمزيد من الصمت ارتكب ما اعتُبِرَ في تلك الأيام une folie (حماقة)، واتصل هاتفياً بغراند أوتيل في فيفي. وعلِمَ من خادم السيد وارن الخصوصي أنه في تلك اللحظة يحزم أمتعته للسفر بحراً إلى أميركا. ولكن عندما ذكّروه بأنَّ المكالمة التي تُكلِّفُ أربعين فرنكاً سويسريّاً سوف تظهر في سجلات العيادة، هبّتْ دماء الحرس الجمهوري إلى نجدة الدكتور دوملر ورفع السيد وارن سماعة الهاتف.

«يجب أنْ تأتي – للضرورة القصوى. إنَّ صحة ابنتك – على المحك. ولا أستطيع أنْ أتحمل المسؤولية».

«ولكن اسمع يا دكتور، هذا واجبك. لقد وصلتني مكالمة تستحثني للعودة إلى الوطن».

لم يكن الدكتور دوملر قد تحدث قبل ذلك مع شخص يُقيم في مكان بعيد كهذا، لكنه أطلقَ إنذاره بصرامة شديدة عبر الهاتف إلى درجةٍ آلمت الأميركي المتلقّي على الطرف الآخر. وبعد نصف ساعة من وصول وارن الثاني عبر بحيرة زيوريخ، انهار جسمه، وأخذت كتفاه تهتزان من عزم النشيج الفظيع داخل معطفه المُريح، وأضحت عيناه أشدّ حُمرة من الشمس الساطعة على بحيرة جنيف، وحكى له القصة كاملة.

قال بصوت خشن «لقد حدث الأمر ببساطة. لا أعلم – لا أعلم.

«بعد وفاة أمها وهي صغيرة كانت تأتي إلى سريري في صباح كل يوم،

وأحياناً كانت تنام على سريري. كنتُ أشعر بالرثاء على الكائن الصغير. آه، وبعد ذلك، كنا كلما خرجنا للتنزه بالسيارة أو بالقطار يمسك كل منا يد الآخر. وكانت تغني لي. وتقول، «والآن دعنا ننس كل شخص آخر اليوم - ولنبقَ معاً - لأنك هذا الصباح ملكي أنا». ثم شابت صوته نبرة سخرية. كان الناس يقولون كم نحنُ كأب وابنة رائعان - كانوا يمسحون الدموع عن عيونهم. كنا أشبه بعاشقَين - ثم فجأةً أصبحنا عاشقَين - وبعد أنْ حدث ما حدث بيننا بعشر دقائق كدتُ أقتل نفسي - ولكن أعتقد أنني كنتُ منحطاً ملعوناً ولم أجرؤ على فعل ذلك».

قال الدكتور دوملر، وهو يفكر من جديد في شيكاغو وفي رجل شاحب باعتدال يضع نظارة أنفيّة نظر إليه متفحّصاً قبل ثلاثين عاماً. «ثم ماذا حدث؟ هل استمر هذا الأمر؟».

«أوه، كلا! تقريباً - بدا أنها تجمّدتْ على الفور. واكتفت بالقول: لا عليك، لا عليك، يا أبي. لا يهم. لا عليك».

«ألم تكن له عواقب؟».

«كلا»، وأطلق نشيجاً واحداً قصيراً متشنجاً وتمخّط مرات عِدة. «ولكن الآن ظهرت عواقب كثيرة».

مع انتهاء القصة استرخى دوملر على الأريكة المركزية الخاصة بالطبقة المتوسطة وقال لنفسه بحِدّة «فلاح!» - كان واحداً من الأحكام الدنيوية المُطلقة القليلة التي سمح لنفسه بإطلاقها على مدى عشرين عاماً. ثم قال:

«أريد منكَ أنْ تنزل في فندق في زيوريخ وتقضي الليل هناك وتأتي لتراني في صباح الغد».

«ثم ماذا؟».

نشر الدكتور دوملر يديه واسعاً بحيث تكفيان لحمل خنزير صغير. اقترح قائلاً «إلى شيكاغو».

الفصل الرابع

قال فرانتز «ثم عرفنا موقفنا. أخبر دوملر وارن أننا سوف نقبل الحالة إذا وافق على الابتعاد عن ابنته إلى أجل غير مُسمى، على الأقل إلى خمس سنوات قادمة». وبعد انهيار وارن الأول، بدا بشكل رئيس قلقاً حول ما إذا كانت هذه القصة سوف تتسرب إلى أميركا.

«لقد وضعنا نظاماً دقيقاً لأجلها وانتظرنا. كان التكهُّن سيئاً – وكما تعلم، النسبة المئوية لحالات الشفاء، حتى بين ما يُسمّى بالشفاء الاجتماعي، منخفضة جداً في مثل تلك السن».

وافق ديك «تلك الرسائل الأولى بدت سيئة».

«بل سيئة جداً – نموذجية جداً. لقد تردّدتُ في جعل الرسالة الأولى تخرج من العيادة. ثم رأيتُ أنّه من الأفضل لدِيكْ أنْ يعرف أننا مستمرون هنا. وكان كرماً منك أنْ تتجاوب معها».

تنهد ديك. «كانت مخلوقاً جميلاً – لقد أرسلت الكثير من الصور لها. وطوال شهر هناك لم يكن لدي ما أفعل. كل ما قلت في رسائلي كان: كوني فتاة طيبة وأصغي إلى الأطباء».

«كان ذلك كافياً – لقد منحها شخصاً تفكّر فيه في الخارج. كانت قد أمضت فترة لم يكن لديها خلالها أحد – أختٌ واحدة فقط، لم يبد أنها مُقرّبة منها كثيراً. ثم إنَّ قراءة رسائلها ساعدتنا هنا – لقد كانت معياراً لحالتها».

«أنا سعيد».

«أترى الآن ماذا حدث؟ لقد شعرَتْ أنها مشتركة في الجريمة - وهذا لا يفيد في شيء، إلا إذا أردنا أنْ نُعيد تقييم توازنها المُطلق وقوة شخصيتها. أولاً جاءت هذه الصدمة. ثم انتقلت إلى مدرسة داخلية وسمعت الفتيات يتكلّمن - وهكذا بغريزة الدفاع عن النفس الخالصة أخذت تنمّي فكرة أنها ليست شريكة في الجريمة - ومن هناك بات من السهل أنْ تنزلق إلى عالم وهميّ حيث الجميع رجال - وكلما أحبّتهم ووثقت بهم، ازدادوا شراً -».

«هل حدث مرة أن توجهت إلى - الرعب مباشرة؟».

«كلا، وفي الحقيقة عندما بدأتْ تبدو طبيعية، في حوالي شهر تشرين الأول، وجدنا أنفسنا في مأزق. لو أنها كانت في الثلاثين من عمرها لتركناها تدير أمرها بنفسها، لكنها كانت صغيرة جداً في السن حتى خشينا من أنْ تتعوَّد على ذلك التشوه داخلها. لذلك قال لها الدكتور دوملر بصراحة «إنَّ واجبكِ الآن هو تجاه نفسك. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال نهاية كل شيء بالنسبة إليك - إنَّ حياتك ما زالت في بدايتها» وما إلى ذلك من كلام. إنها حقاً تتمتع بذهن وقّاد، لذلك أعطاها عدداً من مؤلفات فرويد لتقرأها، ليس كثيراً جداً، وقد أبدت اهتماماً شديداً. في الواقع، لقد جعلناها طفلتنا المُدللة هنا»، ثم أضاف «لكنها كانت متحفظة»، ثم تردّد: «لقد تساءلنا إنْ كانت في رسائلها الأخيرة إليك التي أرسلتها بنفسها من زيوريخ، قد قالت أي شيء يمكن أنْ يُنير لنا الطريق عن حالتها العقلية وخططها للمستقبل».

فكّر ديك.

«نعم ولا - سوف أُحضِر الرسائل إلى هنا إذا شئت. إنها تبدو مفعمة بالأمل وشهيتها إلى الحياة طبيعية - بل وورومانسية. أحياناً تتكلم عن الماضي كما يتكلّم الناس الذين كانوا في السجن. ولكنك لا تعرف إنْ كانوا يُشيرون إلى الجريمة أم إلى تجربة السجن أم إلى التجربة برمّتها. وقبل كل شيء أنا مجرد ما يشبه الشكل المُحنَّط في حياتها».

«طبعاً أنا أفهم وضعك بالضبط، وأُعبِّر عن امتناننا مرة أخرى. ولهذا أردتُ أنْ أراكَ قبل أنْ تراها».

ضحك ديك.

«أتعتقد أنها سترتمي بين أحضاني؟».

«كلا، ليس هذا. بل أريد أنْ أطلب منكَ أنْ تقترب منها برفقٍ شديد. أنت جذّاب للنساء، يا ديك».

«إذن أعانني الله! حسن، سوف أكون لطيفاً ومُنفّراً - سوف أمضغ بعض الثوم كلما ذهبتُ لأقابلها وأترك لحيتي لتنمو قليلاً، سوف أدفعها إلى الاحتماء مني».

قال فرانتز، آخذاً الموضوع بجديّة، «إياك والثوم! لا أظنك تريد أنْ تُعرِّض مسيرتك المهنية للشُبهة. لكنكَ تمزح جزئياً».

«- ويمكنني أنْ أعرج قليلاً. على أي حال لا يوجد مغطس حمّام حيث أُقيم».

«إنَّ كلامك كله مزاح». استرخى فرانتز - أو بالأحرى تظاهر بالاسترخاء. «والآن احكِ لي عن نفسك وعن خططك».

قال «لدي خطة واحدة فقط، يا فرانتز، وهي انْ أكونَ مُحلِّلا نفسياً بارعاً - ربما أعظم مُحلِّل وُجِدَ حتى الآن».

ضحك فرانتز ضحكاً سائغاً، لكنّه رأى أنَّ ديك هذه المرّة لم يكن يمزح.

قال «فكرة جيّدة جداً - وذات سِمة أميركيّة جداً. وأشدّ صعوبة بالنسبة إلينا»، نهضَ واقفاً واقترب من النافذة الفرنسية، «إنني أقفُ هنا وأرى زيوريخ - هناك برج كنيسة غروس-مونستر. جدِّي مدفون في مدفنها تحت الأرض. وعلى الطرف المقابل من الجسر يرقد سلفي لافاتر، الذي رفض أنْ يُدفَن في أي كنيسة. وبالقرب منها ينهض تمثال سلف آخر، هو هاينريش بيتسالوتزي، وتمثال آخر للدكتور ألفريد

إيشـــر. وفوق ذلك كله يُهيمن دائماً زوينغلي[1] - أنا دائمـــاً أواجه مثوى الأبطـــال».

«نعم، أفهم». نهض ديك. «كنتُ أتبجّح فقط. كل شيء يبدأ من جديد. إنَّ غالبية الأميركيين في فرنسا يشتاقون بشدة للعودة إلى الوطن، إلا أنا - يكفيني أنْ أحضر المحاضرات في الجامعة حتى أحصل على راتب عسكري طوال العام. ماذا يعني هذا بالنسبة إلى حكومة من النوع الضخم التي تعرف مَنْ سيكون رجالها العظماء في المستقبل؟ إذن سأعود إلى الوطن مدة شهر وأقابل والدي. ثم سأرجع إلى هنا - لقد عُرِضَ عليّ عمل».

«أين؟».

«عند منافسيك - في عيادة غيزلر في إنترلاكن».

نصحه فرانتز «لا تقبله. لقد عيَّنوا عدداً من الشبان خلال عام واحد. وغيزلر نفسه مكتئب مهووس، وزوجته وعشيقها يُديران العيادة - طبعاً، أنت تعلم أنَّ هذه معلومات سرية».

سأل ديك بخفّة «ماذا عن مشروعك القديم من أجل أميركا؟ كنا سنذهب إلى نيويورك وننشئ مؤسسة حديثة خاصة بأصحاب البلايين».

«كان ذلك كلام طلاب».

تناول ديك الطعام مع فرانتز وعروسه وكلب صغير تفوح منه رائحة مطاط يحترق، في كوخهما على حافة أرض الملاك. شعر بضيق في الصدر بصورة غامضة، ليس بسبب جو التقشف المتواضع، ولا بسبب السيدة غريغوروفيوس، التي ربما كانت مُلهَمَة دينيّاً، بل بسبب التقلّص المفاجئ للأفق، الذي بدا أنّ فرانتز متصالح معه. بالنسبة إليه كانت حدود التقشُّف مختلفة - كان يمكن أنْ يراه وسيلةً لغاية، بل حتى متابعةً لمجد

1- ألريتش هولدريتش (1484 - 1531): قائد إصلاحيّ سويسريّ، أقام في زيوريخ. أنكر حضور القربان المقدّس، مُدّعياً أنَّ العشاء الربّاني هو مجرّد إحياء لذكرى موت المسيح. - المترجم

يمدّه التقشّف نفسه به، ولكن كان صعباً التفكير في اختزال الحياة عن عمد إلى درجة تحولها إلى بذلة موروثة. كانت إيماءات فرانتز وزوجته العائلية بعد أنْ وصل بهما الحال إلى العيش في مساحة مزدحمة تفتقر إلى الجمال والمغامرة. كانت الأشهر التي تلت الحرب في فرنسا، وتصفية الأمور التي تجري على قدم وساق تحت رعاية الروعة الأميركية، قد أثَّرتْ في وجهة نظر ديك. وأيضاً، قدّره الرجال والنساء تقديراً عالياً، وربما ما أعاده إلى مركز الساعة السويسرية العظيمة كان حدْساً بأنَّ هذا ليس جيداً جداً بالنسبة إلى إنسان صالح.

لقد جعل كيثه غريغوروفيوس تشعر بأنها فاتنة، في حين أنَّ قلقه كان يزداد باطراد من القرنبيط المنتشر في كل مكان – وفي الوقت نفسه كره نفسه، أيضاً، بسبب هذه البداية لسطحيةٍ لا يعرف ما هي.

«يا إلهي، هل أنا أشبه الباقين أصلاً؟» – هكذا كان يقول لنفسه وهو يستيقظ مجفلاً في الليل – «هل أنا مثل الباقين؟».

كانت هذه مادة سقيمة بالنسبة إلى اشتراكيّ لكنها مادة غنية بالنسبة إلى أولئك الذين يؤدون الجزء الأكبر من أشد أعمال العالم نُدرة. الحقيقة هي أنه كان على مدى بضعة أشهر يقوم بتقسيم أمور الشباب حيث يتقرَّر ما إذا كان المرء سيموت فداءً لِما لم يعُد يؤمن به أم لا. وفي ساعات الصباح الأول في زيوريخ كان يعتقد وهو يُحدق إلى غرفة مؤن شخص غريب عبر الجزء المُضاء من مصباح الشارع، أنه أراد أنْ يكون صالحاً، أراد أنْ يكون لطيفاً، أراد أنْ يكون شجاعاً وحكيماً، لكنَّ ذلك كله كان أمراً صعباً جداً. وأراد أيضاً أنْ يكون محبوباً، إنْ كان ذلك في وسعه.

الفصل الخامس

كانت شُرفة المبنى المركزي تصلها الإضاءة من النوافذ الفرنسية المفتوحة، إلا حيث تمتد الظلال السوداء للجدران الطويلة والظلال الغريبة للكراسي الحديدية المتسللة إلى حوض أزهار الغلاديولا. ومن أشكال الأشخاص التي تتنقَّل بين الغرف ظهرت الآنسة وارن أولاً للحظات خاطفة ومن ثم بشكل حادّ عندما رأته؛ وفي أثناء اجتيازها العتبة سقط آخر ضوء من الغرفة على وجهها وجلبته معها إلى الخارج. مشت على وقع إيقاع - طوال ذلك الأسبوع كانت تسمع غناءً في أُذنيها، أغاني صيفيّة عن سماوات متوهجة وظل جامح، ومع وصوله أصبح الغناء عالياً جداً حتى كادت تغني معه.

قالت، وهي تُبعِد عينيها المُثبتتين على عينيه بصعوبة، وكأنهما أصبحتا متشابكَتين، «كيف حالك، أيها القائد؟ هل نجلس هنا في الخارج؟». بقيتْ واقفة لا تبدي حراكاً، ونظرة عينها تتنقل برهة. «أصبحنا في الصيف عملياً».

كانت هناك امرأة تبعتْها إلى الخارج، امرأة قصيرة وبدينة تضع وشاحاً، فقدّمت نيكول ديك إليها: «سينيورا -».

استأذن فرانتز بالانصراف وقام ديك بجمع ثلاثة كراسٍ معاً.

قالت السينيورة «ليلة لطيفة».

وافقتها نيكول «Muy bella (جميلة جداً)»؛ ثم وجّهتْ كلامها لديك «هل ستمكث هنا طويلاً؟».

«أنا في زيوريخ لمدة طويلة، إذا كان هذا ما تقصدين».

ألمحت السينيورا «هذه حقاً أول ليلة من الربيع الحقيقي».

«حتى متى؟».

«على الأقلّ حتى شهر حزيران».

«أنا سأغادر في حزيران».

علّقت السينيورة «حزيران شهر جميل هنا. يجب أنْ تمكثي في شهر حزيران ومن ثم تغادرين في تموز عندما يشتد الحر حقاً».

سأل ديك نيكول «إلى أين ستذهبين؟».

«إلى مكان ما مع أختي - آمل أنْ يكون مكاناً مُثيراً، لأني أضعتُ الكثير من الوقت. ولكن قد يرون أني يجب أنْ أذهب إلى مكان هادئ أولاً - ربما إلى كومو. لِمَ لا تأتي إلى كومو؟».

باشرت السينيورة بالقول «آه، كومو».

داخل المبنى بدأتْ فرقة عزف ثلاثية بعزف مقطوعة من أوبريت سوبيه[1] «الفرسان السريعون». انتهزتْ نيكول الفرصة لتنهض واقفة وازدادت شباباً وجمالاً في نظر ديك إلى أنْ تفاعلت داخله على شكل فورة مُحكَمة من المشاعر. ابتسمت، ابتسامة طفولية مؤثّرة تشبه كل الشباب الضائع في العالم.

«أصبحت الموسيقى عالية جداً ولا تسمح بالحديث - أقترح أنْ نتمشّى. *Buenas noches,* Senora (أسعدتِ مساءً، يا سينيورة)».

«أسعدت مساء - أسعدت مساء».

هبطا درجتين إلى الدرب، وهناك، برهة، عبره ظل - أمسكت بذراعه.

قالت «لدي أسطوانات أرسلتها إليّ أختي من أميركا. في المرة القادمة يمكنك أنْ تأتي إلى هنا، سنستمع إليها معاً - أعرف مكاناً نضع فيه آلة الفونوغراف بحيث لا يسمعها أحد».

1- فرانتز فون سوبيه (1819 - 1895): مؤلف موسيقي وقائد أوركسترا. ولد في دالماتيا (غرب يوغوسلافيا السابقة) من أصل بلجيكي. له 31 أوبريت، ومقطوعات هزلية، وأخرى للباليه وموسيقى تصويرية وغيرها. - المترجم

«سيكون ذلك شيئاً جميلاً».

سألته بكآبة «هل تعرف مقطوعة هندستان؟ أنا لم أسمعها من قبل لكني أحبها. ولديّ أغنية «لماذا يُسمونهم أطفالاً؟» و«أنا سعيد لأنني أجعلك تبكين».

«أنا لم أذهب إلى باريس».

كان ثوبها بلون الكريم، يتبدل إلى الأزرق أو الرمادي في أثناء سيرهما، وشعرها الشديد الشقرة، بهر ديك - وكلما التفت نحوها رآها تبتسم قليلاً، وكان وجهها يُشرق كوجه ملاك عندما يصلان إلى منعطف جانب طريق. وشكرته على كل شيء، وكأنه صحبها إلى حفل، وبينما ثقة ديك تقلّ باطراد بنوع العلاقة التي تربطه بها، كانت ثقتها تزداد- كانت تُثيره بتلك الطريقة التي بدا أنها تعكس إثارة العالم كله.

قالت «إنني لست متحفظة أبداً. سوف أُسمِعكَ لَحنين جميلين: انتظر حتى تعود الأبقار إلى حظيرتها، والوداع يا ألكسندر».

في المرة التالية تأخر، تأخّر أسبوعاً، وكانت نيكول تنتظره عند نقطة على الدرب كان سيسلكه سيراً على قدميه قادماً من منزل فرانتز. كان شعرها، المتراجع خلف أُذنيها، يحف بكتفيها بحيث أنَّ وجهها بدا وكأنه ظهر تواً منه، وكأنَّها في تلك اللحظة بالضبط خرجت من الغابة إلى ضوء القمر الساطع. وتخلى عنها المجهول؛ وتمنى ديك ألا يكون لها ماض، أنْ تكون مجرد فتاة ضائعة لا عنوان لها غير الليل الذي جاءت منه. ذهبا إلى المخبأ الذي تركت فيه الفونوغراف، انعطفا عند زاوية المشغل، وارتقيا صخرة، وجلسا خلف جدار منخفض، في مواجهة أميال وأميال من الليل الممتد.

إنهما الآن في أميركا؛ وعلى الرغم من رأي فرانتز في ديك بوصفه ساحر نساء لا يُقاوَم، ما كان ليخمّن أنهما قطعا كل ذلك الشوط في علاقتهما. إنهما آسفان جداً، يا عزيزي؛ لقد ذهبا ليتقابلا في سيارة أجرة، يا حبيبتي؛ إنهما يُفضلان الابتسامات وتقابلا في هندوستان، وبعد ذلك بقليل لابد أنهما

تشاجرا، ذلك أنه يبدو أنَّه لا أحد اهتمَّ للأمر - ومع ذلك رحل أحدهما في نهاية الأمر وترك الآخر يبكي، وشعر هو نفسه بالكآبة، وبالحزن.

الألحان الخافتة، التي تحمل معها أوقاتاً ضائعة وآمالاً قادمة بالوصال، دارتْ حول ليل فاليه. ووسط هدهدة الفونوغراف شمل صريرُ جدجد المشهدَ كله بنغمة واحدة. وشيئاً فشيئاً كفّت نيكول عن إدارة الآلة وغنّت له بنفسها.

ضع دولاراً فضياً

على الأرض

وراقبه وهو يتدحرج

لأنه مُدوَّر -

لم يخرج أي نَفَس من بين منفرج شفتيها. فجأة نهضَ ديك واقفاً.

«ما الأمر، ألم تعجبك؟».

«طبعاً أعجبتني».

«طباختنا في المنزل علّمتني إياها:

لا تعرف المرأة أبداً

مدى صلاح الرجل الذي لديها

إلا بعد أنْ تتركه -».

«أعجبتك ؟».

ابتسمَتْ له، وحرصَتْ على أنْ تختصر الابتسامةُ كل ما يجول داخلها، ووجّهتها نحوه، واعدة إياه بالكثير منها مقابل أقلّ القليل، مقابل خفق استجابة، ضمان اهتزاز استحسان فيه. ودقيقة بعد أخرى أخذت العذوبة تنضح من أشجار الحور، ومن العالم المُظلم، وتصبّ فيها.

نهضت واقفة واندفعت نحوه متعثّرة بالفونوغراف، ومالت على تجويف كتفيه العريضتين - ثم تباعدا.

«لديّ أسطوانة واحدة أخرى – هل سمعتَ وداعاً، يا ليتي؟ أعتقد أنكَ سمعتها».

«بصراحة، أنت لا تفهمين – أنا لم أسمع أي شيء منها».

كان يمكن أنْ يُضيف، ولا عرفت، ولا شممت، ولا تذوّقت؛ إلا فتيات متوردات الخدود في غرفٍ سرية حارة. كانت الفتيات اللائي عرفهن في نيو هيفن في عام 1914 يُقبّلنَ الرجال، قائلات «إليك!» واليدان على صدر الرجل لكي تدفعاه بعيداً. وكانت هناك تلك المسحة من الكارثة التي لم ينجُ إلا أثر منها جالبة إليه جوهر القارة...

الفصل السادس

عثر عليها في المرة التالية في شهر أيار. كانت وجبة الغداء في زيوريخ بمنزلة مجلس من الحَذَر؛ من الواضح أنَّ منطق حياته مال بعيداً عن الفتاة؛ ومع ذلك عندما حدَّقَ شخص غريب إليها من طاولة مجاورة، بعينيّ ذَكر تتلظيان باضطراب كضوء مجهول، التفت نحو الرجل مع نسخة مهذّبة من الخوف وقَطَعَ التحديق.

شرح بمرح «إنه مُجرّد مُختلِس للنظر. كان ينظر إلى ملابسك فقط. لماذا لديك العديد من الملابس المختلفة؟».

قالت بتواضع «تقول أختي إننا أصبحنا فاحشي الثراء، منذ وفاة جدتي».

«أنا أسامحك».

كان أكبر من نيكول سناً إلى درجة أنْ يستمتع بمظاهر الغرور والبهجة التي يتصف بها الشبان، بالطريقة التي توقفت بها برهة أمام مرآة الرواق لدى مغادرة المطعم، بحيث يمكن للزئبق الذي لا يفسد أنْ يُعيدها إلى نفسها. ابتهج من الطريقة التي مدت بها يديها استجابةً لإيقاع ثُمانيّ جديد لأنها وجدت نفسها جميلة وثرية. حاول بصدق أنْ يفصلها عن أي هواجس ألصقها بها - أسعده أنْ يراها تزداد سعادة وثقة بعيداً عنه؛ أما الصعوبة فهي أنَّ نيكول، أخيراً، جلبت كل شيء ووضعته تحت قدميه، هدايا من الأضاحي الطيبة، ونبات آس للعبادة.

الأسبوع الأول من الصيف شهد تمركز ديك من جديد في زيوريخ.

كان قد أعدَّ كراساته والأعمال التي نفّذها أثناء وجوده في الجيش ووضعها في منظومة، وقرر أنْ يستعين بها في مراجعة كتابه «علم النفس للأطباء النفسيين». ورأى أنه سيجد له ناشراً؛ ووقع عقداً مع طالب فقير لكي يُصحح أخطاءه بالألمانية. اعتبر فرانتز أنَّ ذلك عمل متهور، ولكن ذات يوم على مائدة الغداء أشار ديك إلى البساطة المُلطّفة للفكرة.

أصرَّ قائلاً «هذا أمر لن أتمكن من معرفته جيداً من جديد. لدي حدس بأنه شيء فشل في أنْ يكون أساسياً لأنه لم يتم التعرُّف عليه مادياً. إنَّ نقطة ضعف هذه المهنة هي أنها تجذب الإنسان المُعاق قليلاً والمعطوب. وضمن جدران المهنة يُعوِّض بالميل إلى الناحية السريرية، «العملية» - وهكذا يفوز بمعركته من دون قتال.

«على العكس، أنت إنسان صالح، يا فرانتز، لأنَّ القدر انتقاك لمهنتك قبل أنْ تولد. ويُستحسن أنْ تشكر ربك لأنه ليس لديك «ميل» - لقد اضطررتُ إلى أنْ أصبح طبيباً نفسياً لأنه كانت هناك فتاة في كليّة القديسة هيلدا في جامعة أوكسفورد تحضِّر المحاضرات نفسها. ربما أصبح مبتذلاً لكني لا أريد لأفكاري الحالية أنْ تنزلق مني بعد شرب عدد من كؤوس البيرة».

أجاب فرانتز «حسن، أنت في أميركا. تستطيع أنْ تفعلِ هذا من دون حصول أيّ أذى مهني. أنا لا أحب تلك التعميمات. قريباً سوف تؤلف كتباً صغيرة تحت عنوان «أفكار عميقة للإنسان العادي»، مُبسّطة إلى درجة أنَّ من المضمون تماماً أنها لا تدفع إلى التفكير. ولو أنَّ والدي لا يزال على قيد الحياة لنظر إليكَ وزمجر غضباً، يا ديك. كان سيتناول فوطته ويطويها جيداً، ويحمل حلقة فوطته، مثل هذه - «ورفعها عالياً، وهي على شكل رأس خنزير محفور في خشب بُنيّ اللون -» ويقول «حسن، انطباعي هو -» ثم ينظر إليك ويفكِّر فجأةً «ما الفائدة؟» ثم سيسكت ويزمجر من جديد؛ وعندئذٍ نكون قد انتهينا من تناول طعامنا».

قال ديك يختبره «أنا وحدي اليوم، ولكن قد لا أكون وحدي غداً. بعد ذلك سوف أطوي فوطتي كما فعل والدك وأزمجر».

انتظر فرانتز برهة.

سأله «كيف حال مريضتنا؟».

«لا أعلم».

«حسن، يجب أنْ تعرف حالتها الآن».

«أنا مُعجب بها. إنها جذّابة. ماذا تريد مني أنْ أفعل – آخذها ونذهب إلى حقول أزهار الإيدلفايس؟».

«كلا، ظننتُ أنه بما أنكَ مهتم بالكتب العلمية فلابد أنَّ لديك فكرة».

«– تعني أنْ أُكرّس حياتي لأجلها؟».

هتف فرانتز لزوجته في المطبخ: «Du lieber Gott! Bitte, bringe Dick nock ein Bier Glas» (حباً بالله! أرجوك أحضري كأساً من البيرة لديك).

«لا أريد المزيد إذا أردتُ أنْ أقابل دوملر».

«نحن نعتقد أنَّه من الأفضل أنْ يكون لديك برنامج. لقد مرّت أربعة أسابيع – من الواضح أنَّ الفتاة واقعة في حبك. وهذا ليس من شأننا إذا كنا في العالم الخارجي، أما هنا في العيادة فالمسألة تنطوي على مخاطرة».

وافقه ديك «سأنفّذ ما يأمر به الدكتور دوملر».

ولكن لم يكن يؤمن بأنَّ دوملر سوف يُركِّز كثيراً على المسألة؛ هو نفسه كان العنصر غير المحسوب فيها. لقد استقرّت بين يديه رغماً عن إرادته. وهذا يُذكّره بمشهد من عهد طفولته عندما كان كل مَنْ في المنزل يبحث عن مفتاح ضائع لخزانة الفضيات. وكان ديك يعلم أنه خبّأه تحت المناديل في درج أمه العلوي؛ وفي ذلك الوقت كان يمرّ بفترة استقلال فلسفي، وتكررت الآن عندما ذهب هو وفرانتز إلى مكتب البروفيسور دوملر.

أَسَرَهُ البروفيسور، ذو الوجه الجميل من تحت سبلتين مستقيمتين، كشرفة في منزل قديم ورائع تنمو عليها الدالية. كان ديك يعرف بعض الأشخاص أكثر منه موهبة، ولكن لا أحد منهم كان من طبقة اجتماعية تتفوّقُ نوعياً على طبقة دوملر.

بعد ذلك بستة أشهر فكَّرَ بالطريقة نفسها عندما رأى دوملر ميتاً، والضوء في الخارج على الشرفة، وتعريشة سبلتيه تدغدغ ياقته البيضاء المُنشّاة، والمعارك الكثيرة التي دارت أمام العينين الشبيهتين بالشقّين سكنتْ إلى الأبد تحت الجفنين الرقيقين الهشّين.

«... نهارك سعيد، يا سيدي» اتّخذ وِقفة رسمية، وكأنّه عاد إلى صفوف الجيش.

شبك البروفيسور أصابعه الساكنة. تكلّم فرانتز بلغة تتراوح بين ضابط ارتباط والسكرتير، إلى أنْ قاطعه رئيسه في منتصف إحدى الجُمل.

قال بلهجة معتدلة «لقد انتهجنا طريقة معينة، وأنت، يا دكتور دايفر، أفضل مَنْ يُساعدنا الآن».

اعترفَ ديك، وقد أصبح مكشوفاً «إنني لستُ مؤهّلاً لذلك».

قال دوملر «أنا لا أسألك عن ردود فعلك الشخصية، ولكنَّ اهتمامي كله منصب على ما يُسمّى بالتحوُّل» - ورمى فرانتز بنظرة قصيرة ساخرة، بادله هذا الأخير بمثلها - «يجب إنهاؤه. إنَّ الآنسة نيكول تتحسن باطّراد، ولكنْ لا يمكن أنْ تنجو مما يمكن لها أنْ تعتبره مأساة».

من جديد بدأ فرانتز يتكلّم، لكنَّ الدكتور دوملر أشار إليه كي يصمت.

«أنا أعلم أنَّ وضعك كان صعباً».

«نعم، كان كذلك».

هنا استرخى البروفيسور على كرسيه وضحك، ناطقاً على الأقلّ آخر مقطع من ضحكه، وعيناه الرماديتان الصغيرتان الحادتان تومضان: «لعلك متورط عاطفياً».

عندما أدركَ ديك أنه أُقحِمَ في الأمر، أخذ يضحك بدوره.

«الفتاة جميلة - الجميع يستجيبون لذلك بدرجة معيَّنة. وليست لدي أي نيّة -».

من جديد حاول فرانتز أنْ يتكلَّم - فأسكته دوملر بسؤال موجه مباشرة إلى ديك. «هل فكّرت في الابتعاد؟».

«لا أستطيع أنْ ابتعد».

التفتَ الدكتور دوملر إلى فرانتز: «إذن تستطيع أنتَ أنْ تُرسل الآنسة دوملر بعيداً».

أذعن ديك قائلاً «فليكن ما تراه الأفضل، بروفيسور دوملر. إنه حتماً وضع صعب».

رفعَ البروفيسور نفسه وكأنه رجل كسيح يستند إلى عكّاز.

هتف بهدوء «لكنه وضع يتعلّق بالمهنة».

عاد إلى الجلوس على كرسيه وأخذ يتنهّد، في انتظار أنْ يخفت ترجيع الرعد في الغرفة. وجد ديك أنَّ دوملر بلغ ذروته، ولم يكن واثقاً من أنّه هو نفسه سينجو منه. وبعد أنْ تلاشى هدير الرعد نجح فرانتز في الجهر برأيه.

قال «إنَّ الدكتور دايفر رجل ذو شخصية راقية، وأشعر بأنّه ليس أمامه إلا أنْ يتقبّل الوضع لكي يتعاملِ معه بصورة صحيحة. وفي رأيي يستطيع ديك هنا أنْ يتعاون، من دون أنْ يضطر أحد إلى الابتعاد».

سأل البروفيسور دوملر «ما رأيك في هذا؟».

شعر ديك بصعوبةِ مواجهةِ الوضع؛ وفي الوقت نفسه أدرك خلال فترة الصمت التي تلت إعلان دوملر أنَّ فترة الهدوء لن تطول إلى ما لا نهاية؛ وفجأةً أفشى كل شيء.

«إنني فيما يُشبه حالة حب معها - وفكرة الزواج منها مرّت بخاطري».

قال فرانتز «كلا! كلا!».

حذّره دوملر «انتظر»، لكنَّ فرانتز رفض أنْ ينتظر: «ماذا! وتكرِّس نصف حياتك لتعمل طبيباً وممرضاً وما إلى ذلك - مستحيل! أنا أعرف نتيجة هذه الحالات. إنها في الغالب تنتهي من العقبة الأولى - من الأفضل ألا تراها بعد الآن!».

سأل دوملر ديك «ما رأيك؟».

«طبعاً فرانتز على صواب».

الفصل السابع

أنهوا النقاش في وقتٍ متأخر من بعد الظهيرة حول ما ينبغي على ديك أنْ يفعل: يجب أنْ يكون شديد اللطف وفي الوقت نفسه أنْ يُلغي نفسه. وعندما نهض الطبيبان في نهاية المطاف، أطلّت عينا ديك من النافذة على المطر الخفيف الذي يهطل في الخارج - كانت نيكول تنتظر، مترقبة، في مكان ما تحت ذلك المطر. وحالما خرج، وهو يُثبّت أزرار معطفه الواقي من المطر عند النحر، ويُخفِضُ حافة قبعته، صادفها على الفور تحت سقف المدخل الرئيس.

قالت «أعرف مكاناً جديداً نستطيع أنْ نذهب إليه. عندما كنتُ أمرض لم أكن أمانع في البقاء في المنزل مع الآخرين في المساء - كان ما يقولونه يبدو كأي شيء آخر. طبعاً الآن أراهم مرضى مثلي و- و-».

«سوف تغادرين قريباً».

«أوه، قريباً. إنَّ أختي، بث، لكنهم دائماً يُخاطبونها بيبي، سوف تصل في غضون بضعة أسابيع لتأخذني إلى مكان ما؛ وبعد ذلك سأعود إلى هنا لأقضي الشهر الأخير».

«أختك الأكبر سناً؟».

«أوه، إنها أكبر قليلاً فقط. إنها في الرابعة والعشرين - وهي إنكليزية حتى الصميم. تعيش في لندن مع أخت والدي. كانت قد خُطِبَتْ إلى سيد إنكليزي لكنه قُتِل - أنا لم أره أبداً».

كان وجهها، الذهبي العاجيّ أمام شمس الغروب الضبابية التي

تكافح المطر الهاطل، يحمل وعداً لم يره ديك من قبل: عظام الوجنتين العاليتين، ومسحة الشحوب البارد بدل أنْ يكون محموماً، يُذكّرُ بهيكل مهر واعد - كائن لم تعِد حياته بأنْ تكون مجرد عرضٍ للشباب على شاشة خضراء تميل إلى الرمادي، بل بنمو حقيقي؛ سوف يكون الوجه وسيماً في منتصف الحياة؛ وسيبقى وسيماً في عمر الشيخوخة: كانت البنية الأساسية والاقتصاد موجودَين فيه.

«إلامَ تنظر؟».

«كنتُ فقط أفكر في أنكِ ستكونين سعيدة».

بدا الخوف على نيكول: «أحقاً؟ حسن - لا يمكن أنْ تصبح الأوضاع أسوأ مما كانت».

جلست في السقيفة المكسوة التي قادته إليها واضعة ساقاً على ساق بحذاء لعبة الغولف، ونبات العنبية يكتنفها والهواء الرطب يلامس وجنتيها ويُحيِّيهما. بادلته التحديق بجدية، مُستقبلةً الحِمل الأبيّ نوعا ما، الذي لم يستسلم بشكل كاملٍ للعمود الخشبي الذي يتكئ عليه؛ نظرت في وجهه الذي حاول دائماً أنْ ينضبط داخل قوالب من الجديّة المنتبهة، بعد خوض رحلات من الأفراح والسخريات خاصة به. هذا الجانب منه الذي بدا أنه يتناسب مع تورُّد وجهه الايرلنديّ لم تكن تعرف عنه أي شيء؛ كانت تخشاه، لكنها شديدة التوق إلى اكتشافه - ذلك كان جانبه الأشد ذكورة: أما الجزء الآخر، الجزء المُدرَّب، التأمُّل في العينين المُهذَّبتين، فصادرته من دون طرح أي سؤال، كما تفعل معظم النساء.

قالت نيكول «على الأقلّ هذه المؤسسة كانت مفيدة لي في مجال اللغات. لقد تحدثتُ الفرنسية مع طبيبَين، والألمانية مع الممرضات، والإيطالية، أو ما شابهها، مع امرأتين ضئيلتين ومع أحد المرضى، والتقطتُ الكثير من الكلمات الإسبانية من آخر».

«هذا جيد».

حاول أنْ يُشكّل موقفاً، لكنَّ المنطق لم يُسعفه.

«- والموسيقى أيضاً. آمل أنكَ لم تعتقد أني لا أهتم إلا بموسيقى الراغتايم[1]. إنني أتمرن في كل يوم - خلال الأشهر القليلة الأخيرة كنتُ أتلقّى دورة في زيوريخ في تاريخ الموسيقى. في الحقيقة إنها الشيء الوحيد الذي يُعينني على الاستمرار أحياناً - الموسيقى والرسم». فجأة مالت وانتزعت شريطاً رخواً من أسفل حذائها، ثم رفعت بصرها. «أودّ أنْ أرسمك كما أنتَ الآن».

شعر بالحزن عندما عرضت عليه إنجازها لتحصل على استحسانه.

«إنني أحسدك. في الوقت الحاضر يبدو لي أني لا أهتم بأي شيء غير عملي».

قالت بسرعة «أوه، أعتقد أنَّ هذا أمر جيد بالنسبة إلى رجل، أما الفتاة فأعتقد أنَّه ينبغي أنْ تقوم بإنجازات صغيرة كثيرة لكي تورّثها لأولادها».

قال ديك بلا مبالاة متعمّدة «أعتقد ذلك».

جلست نيكول بهدوء. تمنّى ديك لو أنها تتكلّم لكي يقوم هو بدور المُحبِط للهمة الأسهل، لكنها الآن كانت هادئة.

قال «إنَّ حالتك جيدة. حاولي أنْ تنسي الماضي؛ لا تغالي في العمل مدة عام أو نحوه. عودي إلى أميركا وابدئي حياة اجتماعية واعرفي الحب - وكوني سعيدة».

«لا أستطيع أنْ أعرف الحب». كشط حذاؤها المعطوب كتلة من العفن عن زند الخشب الذي كانت تجلس عليه.

أصرّ ديك قائلاً «طبعاً تستطيعين. قد لا يدوم عاماً، ربما، لكنه سيحدث عاجلاً أو آجلاً». ثم أضاف بوحشية «يمكنكِ أنْ تعيشي حياةً طبيعية بكل معنى الكلمة مع ملء منزل من الأقارب الظرفاء. ومجرد قدرتك على العودة نهائياً وأنت في هذا السن يُثبت أنَّ عوامل التغيُّر

1- الراغتايم: موسيقى جاز بإيقاع خفيف وراقص من أصل زنجي.

السريع قريبة من كل شيء. أيتها الشابة، سوف تواصلين مسيرتك بعد أنْ يبتعد أصدقاؤك وهم يصرخون».

ولكن كان في عينيها نظرة تألُّم وهي تتلقّى الجرعة القاسية، التذكير الفظ.

قالت بتذلُّل «أنا أعلم أنني لن أصلح للزواج من أي رجل لفترة طويلة من الزمن».

أصبح ديك من شدة الاضطراب عاجزاً عن قول المزيد. مدّ نظره عبر حقول القمح محاولاً أنْ يبرأ من موقفه القاسي والوقح.

«سوف تكونين على ما يُرام - الجميع هنا يؤمنون بك. في الحقيقة إنَّ الدكتور غريغوري شديد الاعتزاز بك إلى درجة أنه ربما..».

«أنا أكره الدكتور غريغوري».

«حسن، يجب ألا تفعلي».

كان عالم نيكول قد انهار وتفتّت، لكنه كان مجرد عالم مُهلهل يكاد لا يكون له وجود؛ ومن تحته كانت مشاعرها وغرائزها تواصل الكفاح. هل مرّتْ ساعة من الزمن على وقوفها عند المدخل منتظرة، تحمل معها الأمل كما تحمل باقة الزهر الصغيرة على حزامها؟

... يبقى الثوب مُجعداً بالنسبة إليه، ويبقى الزر في مكانه، وزهر النرجس - والهواء يبقى ساكناً وعذباً.

تابعت تقول مُهمهمة «سيكون من الممتع أنْ نقضي وقتاً مرحاً من جديد». فكّرتْ برهة بيأس في أنْ تخبره عن مدى ثرائها، وعن المنازل الفخمة التي عاشت فيها، وأنها هي تُعتبَر قيِّمة لمَنْ يمتلكها - ولبرهة من الزمن وضعت نفسها مكان جدّها، سِدْ وارن، تاجر الخيول. لكنها نجت من غواية الخلط بين القيم وأبقت تلك المسائل داخل غرفها الفيكتورية الجانبية وأقفلتْ عليها - على الرغم من أنَّه لم يتبقَّ لها من منزلٍ غير الفراغ والألم.

«يجب أنْ أعود إلى العيادة. إنها تُمطر الآن».

ســـار ديك بجوارها، شـــاعراً بسعادتها، وراغباً في شرب المطر الذي يلمس وجنتها.

قالت «لدي بعض الأسطوانات الجديدة. أكاد لا أطيق صبراً حتى أسمعها. هل تعلم – –».

بعد تناول طعام العشاء في مساء ذلك اليوم، فكَّر ديك في أنْ يُنهي فترة الاستراحة؛ أيضاً أراد أنْ يُعاقب فرانتز لأنه أقحمه جزئياً في تلك القضية الخسيسة. انتظر في الرواق. تابعت عيناه حركة قلنسوة، ليست رطبة جرّاء الانتظار كقلنسوة نيكول، بل تغطي جمجمة أُجريَتْ عليها عملية مؤخراً. تحتها عينان بشريتان ترمقان، عثرت عليه واقتربت منه:

«*Bonjour, Docteur*»

«*Bonjour, Monsieur*»

«*Il fait beau temps*» (جو جميل)

«*Oui, merveilleux*» (نعم، رائع)

«*Vous etes ici maintenant?*» (أعدتَ للإقامة هنا ؟)

«*Non, pour la journe seulemet*» (كلا، أنا هنا لفترة الصباح فقط)

«*Ah, bon, Alors- au revoir, Monsieur*» (آه، حسن، إلى اللقاء، يا سيدي)

تابع صاحب القلنسوة طريقه مبتعداً، سعيداً لأنه نجا من اتصال آخر. انتظر ديك. وسرعان ما هبطت الدَرَج إحدى الممرضات وسلّمته رسالة.

«الآنسة وارن تطلب الإذن لها بالمغادرة، يا دكتور. تريد أنْ تستلقي. وترغب في تناول طعام العشاء في الطابق العلوي هذه الليلة».

انتظرت الممرضة جوابه، وهي شبه متوقعة منه جواباً ضمنياً بأنَّ موقف الآنسة وارن ذو طبيعة مَرَضيّة.

«أوه، فهمت. حسن –». أعاد نسق جريان لعابه، ونبض قلبه. «آمل أنْ تشعر بتحسُّن. شكراً لك».

كان محتاراً وساخطاً. على أي حال لقد تحرّر.

بعد أنْ ترك رسالة قصيرة لفرانتز يرجوه فيها أنْ يُعفيه من وجبة العشاء، اجتاز منطقة الريف متوجهاً إلى محطة الحافلة. عندما وصل الرصيف، وغسق الربيع يصبغ باللون الذهبي الدرابزين وزجاج الآلات الشقيّة، بدأ يشعر بأنّ الموقع، المستشفى، يتراوح بين كونه ينجذب نحو المركز ويندفع بعيداً عنه. شعر بالخوف. كان سعيداً عندما أخذت حجارة أرصفة زيوريخ الصلبة تُصدر قعقعتها تحت وقع حذائه.

توقّع أنْ تتصل به نيكول في اليوم التالي، ولكنْ لم تصله أي كلمة. تساءل إنْ كانت مريضة، واتصل بالعيادة وتحدث مع فرانتز.

قال فرانتز «بالأمس واليوم هبطتْ إلى الطابق السفلي لكي تتناول طعام الغداء. بدت ذاهلة قليلاً وشاردة. كيف سار الأمر؟».

حاول ديك أنْ يجتاز الهوة بين الجنسين.

«لم نخُض فيه - على الأقلّ أنا لا أعتقد أننا فعلنا. لقد حاولتُ أنْ أبقى بعيداً، لكنني لا أعتقد أنّه كان سيحدث ما يكفي ليُغيِّر موقفها لو أننا تعمقنا».

ربما جُرِحَتْ كبرياؤه لأنه لم تكن هناك ***coup de grace*** (حادثة حاسمة).

«إنني أميل إلى الاعتقاد، من بعض الأشياء التي قالتها للممرضة، أنها فهمت».

«حسن».

«كان ذلك أفضل ما يمكن أنْ يحدث. إنها لا تبدو غاضبة - فقط شاردة قليلاً».

«تعال قريباً وزُرني، يا ديك».

الفصل الثامن

خلال الأسابيع التالية مرّ ديك بفترة من الإحساس الهائل بعدم الرضا. لقد خلَّفَ المنشأ المَرَضيّ والهزيمة التقنية للحالة مذاقاً مُراً وكريهاً. لقد استُغِلَّتْ عواطف نيكول استغلالاً جائراً - ماذا لو كان يُبادلها العواطف نفسها؟ ينبغي بالضرورة أنْ يبتعد عن السعادة بعض الوقت - لقد تراءت له في الحلم وهي تسير على ممر العيادة وتلوِّح بقبعتها القش الواسعة.

ذات مرة شاهدها شخصياً؛ فأثناء مروره من أمام فندق بالاس، انعطفت سيارة رولز رويس فخمة إلى المدخل الهلاليّ الشكل. كانت نيكول جالسة داخلها، ضئيلة داخل الأبعاد الضخمة، مدعومة بقوة مئة حصان زائدة، مع امرأة شابة افترضَ أنها أختها. رأته نيكول فانفرجت شفتاها برهة معبِّرة عن خوفها. حرّك ديك قبعته وتابع سيره، لكنَّ الهواء الذي اكتنفه أصبح لبرهة يضجّ بالدوائر التي تملأ السجاد الباريسي في غروس-مونستر. حاول أنْ يُدوّن المشهد من الذاكرة في مفكرةٍ احتوتْ تفصيلاً للرجيم القاسي الذي ينتظرها؛ واحتمالات أنْ يتلقّى المرض «دفعة» جديدة تحت وطأة الضغوط التي سيمارسها العالم حتماً - في مفكرةٍ كان يمكن أنْ تكون مُقنعة لأي شخص إلا هو الذي كتبها.

الحصيلة النهائية لهذا الجهد كانت أنه جعله يُدرك مرة أخرى مدى تورّطه العاطفي؛ ومنذ ذلك الحين أصبح مزوّداً للترياق عن تصميم. إحداهن كانت عاملة على الهاتف من بار-سور-أوبيه، والآن هي تتجول في أوروبا من نيس وحتى كوبلينز في محاولة يائسة لجمع شمل الرجال

الذين عرفتهم خلال فترة عطلتها التي لا نظير لها؛ وفتاة أخرى كانت صنيعة ترتيبات وُضِعَتْ للوصول إلى الوطن عبر وسيلة نقل حكومية في شهر آب؛ وثالثة كانت نتيجة كثافة العمل على بروفاته المطبعية الخاصة بالكتاب المُقرر أنْ يُقدَّم في هذا الخريف إلى عالم عِلم النفس المتكلِم بالألمانية.

كان ديك قد أصبح أكبر من الكتاب؛ أراد الآن أنْ يبذل المزيد من الجهد الشاق في العمل؛ وإذا حصل على منحة دراسية تبادلية يستطيع أنْ يعتمد على الكثير من الروتين.

في تلك الأثناء خطَّط لعمل جديد: ***محاولة في إجراء تصنيف متناسق وعملي للاضطرابات العصبية والاضطرابات العقلية، قائم على أساس فحص الحالات المئة والخمسين ما قبل الكريبلينية***[1] ***وما بعد الكريبلينية التي تم تشخيصها بعلم مُصطلحات المدارس الحديثة المتنوعة*** – وأيضاً فِقرة طنّانة أخرى – ***بالإضافة إلى الترتيب الزمني لتلك الآراء الفرعية التي نشأت بصورة مستقلة***.

هذا العنوان يبدو ضخماً هائلاً بالألمانية[2].

***

عندما دخل ديك إلى منتجع مونترو أبطأ تقدمه، متوقفاً عند قمم دنت دو ميدي كلما كان ذلك ممكناً، وأبهرته النظرات الخاطفة التي ألقاها على البحيرة من خلال أزقة فنادق الشاطئ. كان يعي وجود مجموعات

1- نسبة إلى المُحلّل النفسي الألمانيّ إميل كريبلين (1856 – 1926) الذي يُعتبَر مؤسّس التحليل النفسي العِلميّ الحديث. - المترجم

2- Ein Versuch die Neurosen und Psychosen gleichmassig und pragmatisch zu klassifizieren auf Grund der Untersuchung von funfzehn hundred pre-Kraepelin und post-Kraeplin Fallen wie sie diagnostiziert sein wurden in der Terminologie von den verschiedenen Schulen der Gegenwart – and another sonorous paragraph – Zusammen mit einer Chronologie solcher Subdivisionen der Meinung welche unabhangig eststanden sind.

من الإنكليز، ظهروا بعد أربع سنوات ويسيرون وفي عيونهم ارتياب القصص البوليسية، وكأنَّهم يتوقعون أنْ تعتدي عليهم في هذا البلد المريب عصاباتٌ ألمانيّة مُدرّبة. وكانت هناك حركة بناء ويقظة في كل مكان على هذا الركام من الأنقاض الذي شكّله سيل جارف. وفي برن ولوزان على الطريق نحو الجنوب، سأل الناس ديك بلهفة هل سيكون هناك أميركيون هذا العام - «هل سيصلون في آب، أم في حزيران؟».

كان يرتدي بنطلوناً قصيراً من الجلد، وقميصاً خاصاً بالجيش، وينتعل حذاءً لتسلّق الجبال. كانت حقيبة الظهر التي يحمل تحتوي بذلة من القطن وملابس داخلية. في محطة غليون للقطار المُعلَّق أودع دراجته الهوائية وشرب كأساً صغيرة من البيرة على مصطبة مطعم المحطة، وفي تلك الأثناء كان يراقب البقّة الصغيرة التي تزحف إلى أسفل منحدر التل بدرجة ثمانين درجة. كانت أذنه ممتلئة بالدم الجاف من سباق لا تور دو بلز، حيث كان قد انطلقَ بأقصى سرعة مع اعتقادٍ بأنه رياضي مُدلل. طلب كحولاً ونظّف الجزء الخارجي بينما القطار المُعلَّق ينحدر إلى المرفأ. رأى دراجته توضع في القطار، فوضع حقيبة الظهر في الجزء السفلي من العربة ودخل معها.

العربات المرتقية للجبال صُمِّمت بميل مشابه لزاوية حافة قبعة الرجل الذي لا يرغب في أنْ يتعرَّف عليه أحد. ومع تدفق المياه من الحجيرة تحت العربة، أثارت براعة الفكرة برمّتها إعجاب ديك - العربة المُتمِّمة كانت الآن تستقبل مياه الجبل في القمة وترفع العربة التي أضحت خفيفة بفعل الجاذبية، حالما تُحرر المكابح. لابد أنها كانت مصدر إلهام عظيم. وعلى المقعد المقابل، كان اثنان من البريطانيين يتناقشان في أمر الكبل بحدّ ذاته.

«هذه كانت تُصنع في إنكلترا دائماً خلال السنوات الخمس أو الست. وقبل عامين عرض الألمان سعراً أقلّ من سعرنا، وكم في اعتقادك يدوم كبلهم؟».

«كم؟».

«عاماً وعشرة أشهر. ثم باعه السويسريون للإيطاليين. إنهم لا يُجرون فحوصات صارمة على الكبلات».

«أعتقد أنَّ السويسريين سيواجهون مشكلة رهيبة إذا انقطع الكبل».

أغلق المرشد الباب؛ اتصل هاتفياً بزميله بين التموجات، وأخذت العربة ترتفع مع نخعة، متوجهة إلى ذروة التل الزمردي في الأعلى. وبعد أنْ تجاوزت الأسقف الواطئة، امتدت سماوات مناطق فود، وفاليه، وسويس سافوي، وجنيف حول المسافرين على شكل استعراض للصور. وفي منتصف البحيرة، التي يُبرِّدها دفق نهر الرون الذي يخترقها، كان يقع المركز الحقيقي للعالم الغربي. عليها كان البجع يعوم كالقوارب والقوارب تعوم كطيور البجع، وكلاهما ضائع في انعدام الجمال القاسي. كان يوماً مُشرقاً، والشمس تتلألأ على الشاطئ العشبي في الأسفل وعلى أفنية متنزه كورسال. لم تكن الأشكال في الأفنية ترمي ظلالاً.

عندما أصبحت قلعة شيلون وقصر جزيرة سالانيون في مرمى النظر حوّل ديك عينيه نحو الداخل. كان القطار المُعلَّق أعلى من أعلى المنازل على الشاطئ؛ وعلى كلا الجانبين كان دغلٌ من النباتات والأزهار تتجمع على فترات على شكل كتل من الألوان. كانت هناك حديقة تقع على حافة السكة، وكان في داخل العربة لافتة تقول: ***Defense de cueillir les fleurs*** (ممنوع قطف الأزهار).

وعلى الرغم من حظر قطف الأزهار في الطريق إلى أعلى، كانت الأزهار تدخل أثناء مرورها - كانت ورود دوروثي بركينز تُجرّ بصبر إلى كل عربة، وتهتز ببطء مع حركة القطار المُعلَّق، وتبتعد أخيراً لتتهادى عائدة إلى تجمّعها. ومرة بعد أخرى كانت تلك الأغصان تدخل العربة.

في العربة الأعلى وأمام عربة ديك، كانت مجموعة من الإنكليز يقفون ويُبدون دهشتهم من الصفحة الخلفية للسماء، وفجأةً سادت الفوضى بينهم - وتفرّقوا ليُفسحوا المجال لمرور فتى وفتاة كانا يعتذران

ويندفعان بارتباك إلى العربة الخلفية من القطار المعلّق - عربة ديك. الشاب كان لاتينياً بعينين تُشبهان عينيّ غزال مُحنَّط؛ والفتاة كانت نيكول.

أخذ المتسلقان يلهثان قليلاً من الجهد الذي بذلاه؛ وبينما كانا يستقران على المقاعد، يضحكان ويتسببان في تزاحم الإنكليز في الزوايا، قالت نيكول «مرحبا». كان منظرها ممتعاً؛ وسرعان ما لاحظ ديك أنَّ ثمة شيئاً مختلفاً؛ وأدرك في الحال أنه تسريحة شعرها، كان مقصوصاً قصيراً كشعر أيرين كاسل[1] ومنتفخاً بخصلاته. كانت ترتدي سترة صوفية بلون الغبار الأزرق وتنورة بيضاء قصيرة - كانت مُشرقة كأول يوم في شهر أيار وزالت عنها آثار العيادة.

قالت وهي تلهث «وقعنا! أووه، يا لذاك الحارس. سوف يُلقون القبض علينا في الموقف التالي. دكتور دايفر، أقدّم إليك كونت دو مارمورا».

«أوه يا إلهي» وتحسست تسريحة شعرها الجديدة، وهي تلهث. «اشترت أختي بطاقات في الدرجة الأولى - بالنسبة إليها المسألة مسألة مبدأ». تبادلت النظرات مع مارمورا ثم هتفت: «ثم وجدنا أنَّ الدرجة الأولى تلك تشبه الجزء الذي يضم الكفن خلف السائق - المُستتر خلف الستائر في اليوم الماطر، بحيث لا يُرى أي شيء. لكنَّ أختي وقورة جداً -». ومن جديد ضحكت نيكول ومارمورا بحميمية الشباب.

سأل ديك «إلى أين؟».

«إلى كوكس. وأنت أيضاً؟». نظرت نيكول إلى زيه الخاص. «أتلك دراجتك التي يضعون في المقدمة؟».

«نعم. أنا ذاهب إلى الشاطئ حتى يوم الاثنين».

«وتضعني أمامك على المقود؟ أعني، حقاً - هل تفعل؟ لا أعتقد أنَّ هناك ما هو مُسلٍ أكثر».

1- أيرين وفرنون كاسل: ثنائي راقص ومُعلما رقص ظهرا في أوائل عهد السينما الصامتة وعلى مسارح برودواي. - المترجم

يعترض مارمورا بشدة «ولكن أنا سأهبط بك وأنتِ بين ذراعيّ، سوف أحملك وأنزلق على الزحافة - أو أرميك فتقعين ببطء كريشة».

أشرق وجه نيكول بالبهجة - متخيلة نفسها ريشة من جديد بدل أنْ تكون ثقيلة الوزن، أنْ تطفو لا أنْ تكون متثاقلة الخطى. كانت متعة للناظر - تارة حييّة باحتشام، ترتبك، تُكشِّر وتومئ - وتارة يسقط ظل من الكآبة عليها ويفيض وقار المعاناة القديمة حتى رؤوس أصابعها. تمنى ديك لو أنه بعيد عنها، خائفاً من أنْ يُذكّرها بعالمٍ أصبح من الماضي البعيد. وقرر أنْ ينتقل إلى الفندق الآخر.

عندما توقف القطار المعلَّق تململ الأشخاص الجُدد عليه في حالة ترقُّب بين زُرقة سماءين. حدث ذلك من أجل عملية تبادل غامضة بين المسؤول عن العربة الصاعدة وذاك المسؤول عن الهابطة. ومن ثم صعدوا أعلى فأعلى فوق ممر في الغابة ومضيق - ثم عالياً من جديد فوق تل أضحى مزدحماً بأزهار النرجس، تقدِمةً من المسافرين إلى السماء. أصبح الناس في مونترو الذين يلعبون التنس في ملاعب على شاطئ البحيرة يبدون الآن كرؤوس الدبابيس. ساد الجو شيء جديد؛ انتعاش - انتعاش يتمثّل في الموسيقى بينما العربة تنزلق داخل غليون وسمعوا الفرقة الموسيقية تعزف في حديقة الفندق.

عندما انتقلوا إلى قطار الجبال طغى هدير المياه المندفعة من الغرفة الهدروليكية على صوت الموسيقى. كانت كوكس فوقهم تقريباً، حيث توهجت ألف نافذة في أحد الفنادق بتأثير شمس آخر النهار.

لكنَّ المدخل كان مختلفاً - فقد دفعت آلة مُبطَّنة بالجلد المسافرين بحركة دورانية، مرتقية، مرتفعة؛ ارتطموا بالغيوم المنخفضة ولبرهة من الزمن أضاع ديك وجه نيكول وسط رذاذ المحرك الإضافي المائل؛ تفادوا دفقاً ضائعاً من الريح مع ازدياد حجم الفندق كلما صعدوا لولبياً، إلى أنْ وصلوا بمفاجأة كبيرة إلى هناك، إلى قمة أشعة الشمس.

وسط فوضى الوصول، بينما ديك يتنكّب حقيبة الظهر وينطلق على الرصيف ليستلم دراجته، كانت نيكول إلى جانبه.

سألتْ «ألستَ تقيمُ في فندقنا؟».

«إنني أقتصد».

«هل ستأتي على العشاء؟»، تبع ذلك بعض الفوضى مع الأمتعة. «هذه أختي - هذا الدكتور دايفر من زيوريخ».

انحنى ديك للمرأة الشابة ذات الأربع والعشرين سنة، الممشوقة القامة، والواثقة من نفسها. قرَّر أنها معاً رائعة وهشّة، متذكِّراً نساء أخريات بثغور كالأزهار مشتاقة للعض.

وَعَدَها ديك قائلاً «سوف أمرّ بعد العشاء. أولاً يجب أنْ أتأقلم».

ترجّل عن دراجته، شاعراً بعينيّ نيكول تتبعانه، بحبّها الأول اليائس، شاعراً به يتلوّى داخله. ارتقى مسافة ثلاثمئة ياردة أعلى المنحدر باتجاه الفندق الآخر، وحجز غرفة ووجد نفسه يغتسل من دون أنْ يتذكَّر تلك الدقائق العشر، تذكَّرَ فقط ما يُشبه دفقاً ثملاً تخترقه أصوات، أصوات غير هامة لا تعرف مدى عمق حبّه.

الفصل التاسع

كانوا في انتظاره ولا يكتملون من دونه. كان لا يزال العنصر المجهول؛ كانت الآنسة وارن والإيطالي الشاب يرتديان ما يُتوقَّع منهما على غرار نيكول كما هو واضح. كانت ردهة الفندق، وهي غرفة مُجهّزة بأجهزة سمعية رائعة، قد أُخليَتْ من أجل الرقص، ولكن كانت هناك جمهرة من النساء الإنكليزيات من سنٍ معيَّنة، بأعناق تحيط بها شرائط، وشعر مُصبوغ، ووجوه مضمَّخة برذاذ من الوردي الباهت: ونساء أميركيات من سن معيَّنة، بشعور مستعارة بيضاء بلون الثلج، يرتدين أثواباً سوداء، وبشِفاه بلون الكرز الأحمر. كانت الآنسة وارن ومارمورا يجلسان على طاولة في الركن. وكانت نيكول على الجهة المقابلة لهما بخط قطري على مسافة أربعين ياردة، ولدى وصول ديك سمعَ صوتها:

«*هل تسمعني؟ أنا أتكلّم بطريقة طبيعية*».

«بكل وضوح».

«*مرحبا، دكتور دايفر*».

«ما هذا؟».

«*أتعلمُ أنَّ الموجودين في مركز الحلبة لا يستطيعون سماع ما أقول، وأنكَ تستطيع؟*».

قالت الآنسة وارن «النادل أخبرنا عن ذلك. من زاوية إلى زاوية – وكأنه لاسلكي».

كان الجو مُثيراً فوق الجبل، كأنَّ المكان سفينةٌ في عرض البحر.

وسرعان ما انضمَّ إليهما والدا مارمورا. عاملا آل وارن باحترام - فهِمَ ديك أنَّ لثروتهما صِلة بمصرف في ميلانو الذي بدوره له صِلة بثروة آل وارن. لكنَّ بيبي وارن أرادتْ أنْ تتحدث مع ديك، أرادت أنْ تتحدث معه باندفاعٍ جذبها بلا وعي نحو الرجال الجدد كلهم، وكأنها تقف على طرف صلبٍ وتفكِّر في أنه يمكنها أنْ تصل إلى طرفه الأقصى في أقرب وقت ممكن. كانت تضع ساقاً على ساق ثم تبدّل وضعهما كثيراً كما تفعل العذارى القلقات الممشوقات القامة.

«- لقد أخبرتني نيكول أنكَ تشارك في العناية بها، ولك فضل كبير على تحسُّن صحتها. أما ما لا أستطيع أنْ أفهمه فهو ماذا ينبغي علينا *نحن* أنْ نفعل - لم يكونوا واضحِين أبداً في المصحة؛ قالوا لنا فقط إنه يجب أنْ تكون طبيعية ومرحة. لقد علِمتُ أنَّ آل مارمورا موجودون هنا لذلك طلبتُ من تينو أنْ يُقابلنا في القطار المعلَّق. وأنتَ ترى ما يحدث - أولاً وقبل كل شيء جعلته نيكول يزحف على جانبيّ العربة وكأنهما مجنونان -».

ضحك ديك «لقد كان ذلك تصرفاً طبيعياً تماماً، وأنا أسمّيه دلالة جيدة. لقد كان كل منهما يستعرض أمام الآخر».

«ولكن كيف لي *أنا* أنْ أعلم؟ فجأةً، وأمام عينيّ مباشرة تقريباً، قصَّتْ شعرها، في زيوريخ، بسبب صورة رأتها في رواية «*سوق الغرور*».

«لا بأس في هذا. إنها فُصاميّة - غريبة الأطوار على الدوام. لا يمكننا تغيير هذا».

«ما هو؟».

«ما قلت تواً - غرابة أطوارها».

«حسن، كيف لأي شخص أنْ يعرف ما هو التصرف الغريب وما هو الجنون؟».

«لن يكون هناك تصرُّف يدل على الجنون - إنَّ نيكول حيوية وسعيدة، ولا داعي للخوف».

غيَّرت بيبي وضعيّة ساقيها - كانت تمثل مختصر النساء الساخطات كلهن اللائي أحببن بايرون قبل مئة عام، ومع ذلك، على الرغم من القضية المأساوية لضابط الحرس، كان يُحيط بها شيء جاف واستمنائي.

أعلنتْ «لا مانع عندي في تحمُّل المسؤولية، ولكني معروفة. ونحن لم نمرّ بمثلِ هذا في العائلة من قبل - نحن نعلم أنَّ نيكول صُدِمتْ قليلاً وفي رأيي أنَّ الأمر يتعلّق بشاب، لكنّنا لا نعلم السبب حقاً. يقول والدي إنه كان يمكن أنْ يقتله لو اكتشف الأمر».

كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة «مسكينة أيتها الفراشة»؛ كان الشاب مارمورا يرقص مع أمه. كان لحناً جديداً عليهم جميعاً. وفي أثناء إصغائه، وهو يُراقبُ كتفيّ نيكول وهي تتسامر مع العجوز مارمورا، التي كان شعرها يشوبه البياض كمفاتيح البيانو، كان ديك يُفكّرُ في كتفيّ آلة الكمان ومن ثم فكَّر في العار، وفي السرّ. آه، الفراشة - ومرت اللحظات وأضحت ساعات.

تابعت بيبي بقسوة مُعتذرة «في الحقيقة أنا لديّ خطّة. قد تبدو لك غير عمليّة على الإطلاق ولكن يُقال إنَّ نيكول سوف تحتاج إلى رعاية على مدى بضع سنوات. لا أعلم إنْ كنتَ تعرف شيكاغو أم لا».

«لا أعرفها».

«حسن، هناك القسم الشمالي والقسم الجنوبي وهما منفصلان تماماً. القسم الشمالي أنيق وما شابه، وكنا نعيش هناك دائماً، على الأقلّ على امتداد سنوات كثيرة، لكنَّ العديدَ من العائلات العريقة، عائلات شيكاغو العريقة، إذا فهمتَ ما أعني، ما زالت تقيمُ في القسم الجنوبي. الجامعة هناك. أعني أنَّ بعض الناس يجدون جوّه خانقاً، ولكنه مختلف عن القسم الشمالي. لا أعلم إنْ كنتَ تفهم ما أعني».

أومأ برأسه إيجاباً. وتمكّن مع بعض التركيز من متابعة ما تقول.

«طبعاً لدينا الكثير من المعارف هناك - والدي يتحكّم في عدد من

المناصب والعضويات وما إلى ذلك في الجامعة، ورأيتُ أننا إذا اصطحبنا نيكول إلى موطنها وأحطناها بذلك الحشد - في الواقع إنَّ لديها اهتماماً بارزاً بالموسيقى وتتكلّم كل تلك اللغات - فإنَّ ذلك سيكون أفضل لها في حالتها مما إذا تورطت في علاقة حب مع طبيب بارع - -».

انبجسَتْ موجةٌ من المرح الصخب في ديك، لقد كان آل وارن ينوون أنْ يشتروا طبيباً لنيكول - فهل لديكم طبيب جيد تعيروننا إياه؟ لا فائدة من القلق بشأن نيكول وهم في وضع يمكّنهم من شراء طبيب شاب جميل لها، يحتفظ برونقه.

قال بصورة آلية «ولكن ماذا عن الطبيب؟».

«لابد أنَّ هناك عديدين يودون اقتناص هذه الفرصة».

كان الراقصون قد عادوا، لكنَّ بيبي همست بسرعة:

«هذا مثال عمّا أعني. والآن أين هي نيكول - لقد ذهبت إلى مكان ما. هل هي في الطابق العلوي في غرفتها؟ ماذا يُفترَض بي أنْ أفعل؟ إنني لم أعرف قط إنْ كان هذا تصرفاً بريئاً أم أنَّه عليّ أنْ أفتش عنها».

«لعلها تريد فقط أنْ تتصرّف على سجيتها - إنَّ الذين يعيشون وحدهم يتعودون على الوحدة». عندما وجد أنَّ الآنسة وارن لا تُصغي سكت. «سوف ألقي نظرة على المكان».

لبرهة حجبَ الضبابُ خارجَ المنزل كما يُحجَب الربيع بسدل الستائر. كانت الحياة مُحتشدة بالقرب من الفندق. مرّ ديك بنوافذ ما يُشبه القبو حيث جلس مساعدو النادل على مقاعد يلعبون الورق على ليتر من النبيذ الإسباني. ومع اقترابه من المتنزه، بدأتِ النجوم تظهر من خلال الطبقات البيضاء لجبال الألب العالية. على الممشى الشبيه بنعل الفرس المُطلّ على البحيرة كانت نيكول واقفة لا تأتي بحركة بين عموديّ نور، فاقترب منها بهدوء عبر المرج. التفتت إليه مع تعبير على وجهها يقول: «ها قد أتيت»، ونَدِمَ برهة لأنه جاء إليها.

«كانت أختك تتساءل عن مكان وجودك».

كانت متعودة على كونها مُعرَّضة للمراقبة «أوه!». راحت تشرح ظَرَفَها بصعوبة «أحياناً أصبح... يُصبح الضغط عليّ شديداً. لطالما عشتُ حياتي في هدوء شديد. وهذه الليلة لا أتحمّل تلك الموسيقى. إنها تدفعني إلى البكاء -».

«أفهم».

«لقد كان هذا النهار حافلاً».

«أعلم».

«لا أريد أنْ أفعل أي شيء يُعتبر منافياً للجو العام - لقد سبّبت للجميع ما يكفي من المتاعب. ولكن في هذه الليلة أريد أنْ أهرب».

تبيَّنَ لدِيكْ فجأةً، كما قد يتبيَّن لإنسانٍ يحتضر أنه نسيَ أنْ يُخبر الناس عن مكان وصيته، أنَّ نيكول «أُعيدَ تثقيفها» على يد دوملر والأجيال المخيفة التي سبقته؛ وتبيَّنَ له أيضاً أنه سوف تكون هناك أشياء كثيرة يجب أنْ تعرفها. ولكن بما أنه سجّل هذه الحِكمة داخله، استسلم للمظهر الخارجيّ المُلحّ للوضع وقال:

«أنت إنسانة لطيفة - احتفظي بنظرتك إلى نفسك».

«هل أعجبك؟».

«طبعاً».

«هل -»، كانا يتمشيان نحو الطرف المُعتِم من نعل الحصان، على مسافة مئتي ياردة أمامهما. «لو لم أكنْ مريضة هل كنتَ - أعني، هل كنتُ سأكون الفتاة التي يمكن أنْ - أوه، تباً، أنت تعلم ما أعني».

لقد وقع في ورطة الآن، وتملّكته لاعقلانية هائلة. لقد كانت شديدة القرب حتى أنه شعر بأنفاسه تتغيَّر، ولكن من جديد هبّ تدريبه إلى نجدته على شكل ضحك أحد الفتية وتعليق مبتذل.

«أنت تزعجين نفسك يا عزيزتي. لقد عرفتُ رجلاً ذات مرة وقع في حب ممرضته -»، وتتابعت الحكاية، على وقع خطواتهما. وفجأة قاطعته بلهجة أهل شيكاغو المُحكمة «هراء!».

«هذا تعبير في غاية الابتذال».

قالت بغضب «وما خطب هذا التعبير؟ ألا تعتقد أنَّ لدي حساً سليماً - قبل أنْ أمرض لم يكن لدي أي قدر منه، أما الآن فلدي. وإذا كنت لا أعلم أنكَ أشد مَنْ قابلتُ من الرجال جاذبية في حياتي فيجب أنْ تعتقد أنني ما زلتُ مجنونة. إنه حظي العاثر، حتماً - ولكن لا تتظاهر بأنني لا أعلم - أنا أعرف كل شيء عنكَ وعني».

ازداد موقف ديك حرجاً. تذكر تصريح الآنسة وارن الكبرى بما يخص الطبيب الشاب الذي يجب شراؤه في سوق المثقفين في الجزء الجنوبي من شيكاغو، وتماسك برهة. «أنتِ طفلة جذابة، ولكن لا أستطيع أنْ أرتبط بعلاقة حب».

«أنت لا تريد أنْ تمنحني فرصة».

«*ماذا؟* ».

الوقاحة، وما تتضمّن من حق الاعتداء، أدْهشَته. وبسبب افتقاره إلى الحس الفوضوي لم يتمكّن من التفكير في أي فرصة تستحقها نيكول وارن.

«امنحني فرصة الآن».

انخفضت نبرة الصوت، غاصت داخل صدرها ومدّت الصدر فوق قلبها وهي تقترب منه. شعرَ بالشفتين الفتيَّتين، بجسدها يتنهّد ارتياحاً على الذراع التي ازدادت قوة لتسندها. لم تعُد هناك الآن خطط إلا إذا صنع ديك عشوائياً مزيجاً لا ينفصم، بذرّات متلاحمة لا تنفصل؛ يمكن أنْ ترمى لكنها لن تعود صالحة على سلّم الذرات. وبينما كان يمسك بها ويتذوقها، وبينما هي تتقوّس أكثر فأكثر نحوه، وشفتاه، الجديدتان عليها، تغرقان في الحب ويكتنفهما، لكنهما تسترخيان وتنتصران، كان ممتناً لأنه موجود أصلاً، ولو حتى كانعكاسٍ في عينيها الرقراقتين.

شهق «يا إلهي، إنَّ تقبيلك ممتع».

كان ذلك كلاماً، لكنَّ نيكول أصبحت الآن تتمسك به أكثر وبقيت

كذلك؛ تحولت إلى فتاة لعوب وابتعدت، تركته مُعلّقاً كما كان في القطار المُعلَّق في ذلك اليوم. شعرتْ: سوف يُريه ذلك، كم هو مغرور؛ كيف يجب أنْ يُعاملني؛ أوه، ألم يكن ذلك رائعاً! لقد نلتُ منه، أصبح ملكي. ثم بعد ذلك كان التحليق، لكنَّ ما ضيَّعته كان أيضاً شديد العذوبة وجديداً، أرادت أنْ تستحوذ عليه كله.

فجأةً ارتعشتْ. على عمق ألفيّ قدم في الأسفل شاهدت الأضواء التي تأخذ شكل القلادة والسِوار وتمثّل بلدتيّ مونترو وفيفي، وما بعدهما الثريا المُعتمة لوزان. ومن مكان ما من تلك الأعماق تصاعد صوت خافت لموسيقى راقصة. استعادت نيكول توازنها، أصبحت هادئة، تحاول أنْ تقيِّم اللحظات العاطفية في طفولتها، بتروٍ كرجلٍ يسكر بعد المعركة. لكنها كانت لا تزال تخاف ديك، الذي وقف بالقرب منها متكئاً، بشكلٍ مميَّز، على السياج الحديدي المُحيط بنعل الحصان؛ وهذا حثّها على قول: «أستطيع أنْ أتذكّر كيف وقَفتُ في الحديقة أنتظرك - أُحيطُ نفسي بذراعيّ كأنني أحمل سلّة من الأزهار. هكذا كان الوضع بالنسبة إليّ على أي حال - حسبتُ أنني جميلة - أنتظر أنْ أُعطيك تلك السلّة».

تنفس عبر كتفيها وأدارها بإلحاح؛ قبّلته مرات عِدة، وكلما اقتربت منه، ويداها تتمسكان به من كتفيه، يُصبح وجهها أكبر.

«إنها تُمطر بغزارة».

فجأةً صدر صوت انفجار من منحدرات النبيذ على الجانب المقابل من البحيرة؛ كان ثمة مدافع تطلق قذائفها نحو الغيوم المُحمّلة بالبَرد لكي تفكّكها. أُطفئت أضواء المتنزه، ومن ثم أُضيئت من جديد. ثم جاءت العاصفة بسرعة، أولاً سقطت من السماء، ثم تضاعف سقوطها سيولاً من الجبال منهمرة بهدير عالٍ على الدروب والخنادق الحجرية؛ ومعها حلّ الظلام، سماءٌ مخيفة وخيوط وحشية من البرق والرعد جدير بتحطيم العالم، بينما سحب مُهلهلة، مُدمِّرة، تسارعت مارة من أمام الفندق. واختفت الجبال والبحيرة - جثم الفندق وسط الاضطراب، والعماء، والظلام.

في ذلك الوقت كان ديك ونيكول قد وصلا إلى المدخل المسقوف، حيث كانت بيبي وارن وآل مارمورا الثلاثة ينتظرونهما بقلق. كان الخروج من الضباب أمراً مُثيراً، مع صفع الأبواب، والوقوف والضحك والارتجاف من شدة الانفعال، والريح تهدر في آذانهم والمطر على ملابسهم. وفي قاعة الرقص كانت الفرقة الموسيقية تعزف فالساً لشتراوس، صاخباً ومزعجاً.

... الدكتور دايفر يتزوج من مريضة عقلياً؟ كيف حدث ذلك؟ أين بدأ؟

سألت بيبي وارن بعد أنْ أنعمت النظر «ألن تعودي بعد أنْ بدّلتِ ملابسك؟».

«ليس لدي أي ملابس أخرى، ما عدا بعض البنطلونات القصيرة».

بينما كان يرتقي بخطى متثاقلة إلى فندقه مرتدياً معطفاً مُستعاراً واقياً من المطر أخذ يضحك ساخراً بينه وبين نفسه.

«فرصة كبيرة - أوه، نعم. يا إلهي! - قرروا أنْ يشتروا طبيباً؟ حسن، يُستحسن أنْ يتمسكوا بمَنْ يحصلون عليه في شيكاغو». وعندما شعر بالتقزز من فظاظته عوَّض لنيكول عن ذلك، مُتذكراً أنَّه لم يشعر أبداً بنضارة تعادل نضارة شفتيها، ومتذكراً المطر كأنه دموع ذُرِفَتْ من أجله استقرت على وجنتيها الملساوين اللتين تشعان رقّة... أيقظه صمت العاصفة المتلاشية عند الساعة الثالثة فذهب ليقف عند النافذة. ارتقى جمالها أعلى المنحدر الممتد، وولج الغرفة، يحفّ كما الشبح من بين الستائر.

... في صباح اليوم التالي ارتقى مسافة ألفيّ متر إلى روشيه دو ناي، مُستمتعاً بحقيقة أنَّ مرشده كان في اليوم السابق يستغل يوم العطلة هذا ليمارس التسلُّق أيضاً.

ثم هبط ديك المسافة كلها حتى مونترو لكي يسبح، ثم عاد إلى الفندق في وقت الغداء. كانت في انتظاره رسالتان.

«لستُ خجلة مما حدث ليلة أمس – كان أجمل ما حدث لي وحتى إنْ لم أركَ بعد الآن، يا قائدي، فسوف أبقى سعيدة بما حدث».

كان ذلك شيئاً مُخففّاً – تراجع ظل دوملر الثقيل عندما فتح ديك الظرف الثاني:

«*عزيزي الدكتور دايفر*: اتصلتُ بك هاتفياً لكنكَ كنتَ غائباً. أتساءل إنْ كان في وسعي أنْ أطلب منكَ معروفاً كبيراً جداً. لقد تطلَّبتْ ظروفٌ غير متوقعة عودتي إلى باريس، وأجد أنني يمكن أنْ أكسب وقتاً عن طريق لوزان. فهل تستطيع أنْ تدع نيكول ترافقك إلى زيوريخ، بما أنك ستعود إليها يوم الاثنين؟ أنزلها في المصحة. هل هذا الطلب ممكن؟
المخلصة

بث إيفان وارن

ثار حنق ديك – كانت الآنسة وارن تعلم أنَّ في حوزته دراجة هوائية؛ ومع ذلك لقد أتقنتْ صياغة رسالتها بحيث يستحيل عليه أنْ يرفض طلبها. تريد أنْ تجمعنا معاً! القرابة الجميلة ومال آل وارن!

كان مخطئاً! لم تكن لدى بيبي وارن أيٌّ من تلك النوايا. لقد تفحّصتْ ديك بعينين خبيرتين بالناس، وقاسته بالمقياس المنحرف لشخص مُحب للإنكليز، ووجدت أنه راغب – على الرغم من أنّها وجدته جذاباً. ولكنه بالنسبة إليها «مفرط الثقافة» وصنّفته مع الجماعة المتغطرسين الذين عرفتهم ذات يوم في لندن – إنه ينأى بنفسه بعيداً جداً بحيث يكون من النوع الصحيح. لم تفهم كيف تُطابقه مع فكرتها عن الشخص الأرستقراطي.

بالإضافة إلى ذلك كان عنيداً – لقد رأتْ كيف ترك حديثها وغاص

خلف عينيه بتلك الطريقة الغريبة التي يلجأ إليها الناس، مرات عديدة. وهي لم تحب سلوك نيكول المتحرر والمتسامح الشبيه بسلوك طفلة، والآن تعوّدتْ باقتناعٍ على التفكير فيها بوصفها «ميئوساً منها»؛ وعلى أي حال لم يكن الدكتور دايفر طبيبا من النوع الذي تستطيع أنْ تتخيله فرداً في العائلة.

إنها فقط أرادتْ أنْ تستخدمه ببراءة كوسيلة.

ولكن كان لطلبها تأثيرٌ رأى ديك أنها كانت تقصده. يمكن لركوب القطار أنْ يكون متعباً؛ يمكن أنْ يكون تصوراً مُسبقاً لرحلة أخرى، كما أنَّ يوماً يقضيه مع صديق يمكن أنْ يكون طويلاً، من مذاق الاستعجال في الصباح وحتى إدراك أنهما كليهما جائعان ويتناولان الطعام معاً. ثم تأتي فترة بعد الظهيرة وتبدأ الرحلة بالتلاشي والانتهاء، لكنها تسرع خطاها في النهاية. كان ديك حزيناً لرؤية فرح نيكول السقيم؛ ومع ذلك كان سبباً لارتياحها، وعودتها إلى المنزل الوحيد الذي تعرف. في ذلك اليوم لم يمارسا الحب، ولكن عندما تركها في خارج الباب الحزين على ضفة بحيرة زيوريخ والتفتت ونظرتْ إليه علِمَ أنَّ مشكلتها أصبحت الآن القاسم المشترك بينهما وإلى الأبد.

الجزء الثاني

وجهة نظر روزميري

1919 – 1925

الفصل الأول

في زيوريخ في شهر أيلول شرب الدكتور دايف الشاي مع بيبي وارن. قالت «أعتقد أنّها نصيحة سيئة. إنني لا أفهم حقاً دوافعك».

«دعينا نبتعد عن الفظاظة».

«إنني أخت نيكول قبل كل شيء».

«إنَّ هذا لا يمنحك الحق في أنْ تكوني فظة». ما أغضبَ ديك هو أنّه يعلم الكثير مما لا يستطيع أنْ يبوح به إليها. «إنَّ نيكول ثرية، ولكن هذا لا يجعل مني مغامراً».

تذمَّرت بيبي بعناد «هذه هي الحقيقة. إنَّ نيكول ثرية».

سأل «كم لديها من المال؟».

أجفلتْ؛ وبضحك صامت تابع «أترين مدى سخف الأمر؟ إنني أفضّل أنْ أتحدث مع رجل من عائلتكم -».

أصرّت «لقد تُرك أمر كل شيء إليّ. الأمر لا يتعلّق باعتقادنا بأنكَ مغامر. نحن لا نعرف مَنْ أنت».

قال «أنا طبيب. والدي رجل دين، وهو متقاعد الآن. نعيش في بوفالو وحياتي الماضية متاحة لمَنْ يرغب في الاستفسار. ذهبتُ إلى نيو هيفن؛ وبعد ذلك التحقتُ بمنحة رودس. جدّي الأكبر كان حاكم كارولينا الشمالية وأنا أنحدر مباشرة من سلالة المجنون انتوني واين».

سألت بيبي بارتياب «ومَنْ كان المجنون أنتوني وين؟».

«المجنون أنتوني وين؟».

«أعتقد أنَّ هناك ما يكفي من الجنون في هذه المسألة».

هزّ رأسه معبِّراً عن يأسه، وفي تلك اللحظة خرجت نيكول إلى مصطبة الفندق وراحت تتلفّت بحثاً عنهما.

قال «لقد كان من فرط الجنون بحيث لم يتمكن من جمع المال كما فعل مارشال فيلد».

«هذا كله جيد جداً – –».

كانت بيبي على صواب وكانت تعلم ذلك. كان جديراً بوالدها أنْ يقول هذا عن أي رجل دين وجهاً لوجه. لقد كانوا عائلة دوقيّة أميركية من دون لقب – الاسم نفسه المُدوَّن في دفتر سجلات الفندق، والموقَّع تحت تعريف به، استُخدِمَ في وضع صعب، وتسبَّبَ في تحول نفسيّ عند الناس، وفي المقابل بلور هذا التغيُّر حسّها الخاصّ بالموقع. لقد تعلمت تلك الحقائق من الإنكليز، الذين عرفوها منذ مئتيّ عام. لكنّها لم تعرف أنَّ ديك اقترب مرتين من عرض الزواج عليها. وما أنقذ الأمر هذه المرة هو عثور نيكول على طاولتهما وتوهجها، بيضاء ونضرة وجديدة بعد ظهيرة أحد أيام شهر أيلول.

***

كيف حالك، أيها المحامي. نحن ذاهبان إلى كومو غداً لنقضي أسبوعاً ومن ثم نعود إلى زيوريخ. لهذا أردتُ منكَ ومن أختي أنْ ترتّبا هذا الأمر، لأنه لا يهمّني مقدار حصّتي. سوف نعيش حياة هادئة جداً في زيوريخ على مدى عامَين وديك لديه ما يكفي من النقود ليهتم بأمرنا. كلا، بيبي، أنا عملية أكثر مما تعتقدين – إنني أحتاج النقود فقط من أجل شراء الملابس وبعض الأغراض... في الواقع، هذا أكثر مما – هل تستطيع العزبة أنْ تتحمل إعطائي هذا كله؟ أنا أعلم أنني لن أنفقه. هل لديك هذا المقدار؟ لماذا لديك أكثر – هل لأنَّه من المفترض أنْ أكون غير كفؤ؟ حسن، فلتتراكم حصتي... كلا، إنَّ ديك يرفض أنْ تكون له أي صِلة بالأمر. يجب أنْ أشعر بالغرور بالنيابة

عن كلينا... بيبي، أنتِ لا تعرفين عن ديك أكثر من ذلك - والآن أين أوقِّع؟ أوه، أنا آسفة.

... أليس غريباً ويبعث على الشعور بالوحدة أنْ نكون معاً، يا ديك. ليس هناك مكان نذهب إليه ليس قريباً. هل نستطيع أنْ نُحب ونُحَب فقط؟ آه، لكني أحب أكثر، وأعرف هذا عندما تكون بعيداً عني، ولو قليلاً. أعتقد أنّه من الرائع أنْ أكون كغيري من الناس، أنْ أمدّ يدي فأجدكم جميعاً دافئين إلى جواري في السرير.

... أتمنى منك أنْ تتصلي بزوجي في المستشفى. نعم، الكتاب الصغير يباع في كل مكان - إنهم يطلبون أنْ يُنشَر بست لغات. كنتُ سأتولى أمر ترجمته إلى الفرنسية لكنني شديدة التعب هذه الأيام - أخشى أني أنهار، إنني ثقيلة الحركة وخرقاء - كأنني كعكة ملفوفة مكسورة لا تستطيع أنْ تقف مستقيمة. السماعة الباردة على قلبي وأقوى مشاعري يقول «Je m'en *fiche de tout*» (لا آبه على الإطلاق) - أوه، تلك المرأة المسكينة في المستشفى التي تحمل طفلاً أزرق اللون، الأفضل لها أنْ تموت. أليس جميلاً أننا أصبحنا ثلاثة أشخاص الآن؟

... يبدو هذا أمراً غير معقول، يا ديك - لدينا كل الأسباب لاتخاذ شقة أكبر حجماً. لماذا نعاقب أنفسنا لمجرد أنَّ هناك أموال آل وارن أكثر من مال آل دايفر؟ أوه، شكراً لك، أيتها الوصيفة، لكننا غيرنا رأينا. رجل الدين الإنكليزي هذا يُخبرنا أنَّ نبيذكم هنا في أورفيتو من نوعية ممتازة. لا يورَّد إلى الخارج؟ لهذا السبب لم نسمع به من قبل، لأننا نحب النبيذ.

البحيرات تغرق في طمي بنيّ اللون والمنحدرات كلها تحمل صفات البطن. المصوِّر أعطانا صورتي، شعري ينهمر عبر سياج القارب المتوجه إلى كابري، كان صاحب القارب يغني «الوداع، يا غروتو الأزرق. عُد قريباً». وبعد ذلك يتتبّع الموتى مقدمة الحذاء الإيطالي الحارة المشؤومة والريح تئن حول تلك القلاع المخيفة، يراقبون من أعلى إلى أسفل من فوق تلك التلال.

... هذه السفينة جميلة، وأعقاب أقدامنا تضرب أرض السفينة معاً. هذه هي الزاوية التي تعصف بها الريح، وكلما أدرناها أميلُ إلى الأمام في وجه الريح فأضمّ معطفي معاً من دون أنْ أتأخر عن ديك بخطوة واحدة. إننا نغني كلاماً بلا معنى:

«أوه - أوه - أوه - أوه -

طيور الفلامنكو غيري أنا،

أوه - أوه - أوه - أوه -

طيور فلامنكو غيري أنا - -».

الحياة ممتعة مع ديك - الناس الجالسون على كراسي ظهر السفينة ينظرون إلينا، وثمة امرأة تحاول أنْ تميِّز ما نغني. لقد ملّ ديك هذا الغناء، إذن اذهب وحدك، يا ديك. سوف تمشي بشكل مختلف وحدك، يا عزيزي، في جو أثقل، تشق طريقك خلال ظلال الكراسي، والدخان الذي يقطر من المداخن. سوف تشعر بانعكاس صورتك ينزلق على طول عيون أولئك الذين ينظرون إليك. لم تعُد تشعر بالمهانة؛ ولكن أعتقد أنكَ يجب أنْ تلمس الحياة لكي تقفز منها.

أجلس على دعامة قارب النجاة هذا وأنظر باتجاه البحر، وأدع شعري يهب ويلمع. لا آتي بحركة في وجه السماء والقارب صُنعَ ليحمل شكلي قُدُماً نحو الغموض الأزرق للمستقبل، أنا بالاس أثينا[1] محفورة بوقار على مقدم القارب. المياه تفيض في المراحيض العامة والرذاذ الأخضر العقيقي يتغيَّر ويتذمّر حول مؤخر القارب.

... سافرنا كثيراً في ذلك العام - من مرفأ وولوومولوو إلى بيسكرا. وعلى حافة الصحراء واجهنا وباء من الجراد وتكرّمَ السائق وشرح لنا أنه مجرد نحل طنّان. كانت السماء منخفضة ليلاً، مملوءة بحضور إله غريب

1- بالاس أثينا، أو أثينا: إلهة الحكمة عند قدماء اليونان. - المترجم

ويقِظ. آه، يا لأفراد قبيلة أولاد نائل[1] العُراة المساكين؛ كان الليل يضجُّ بقرع الطبول من أهل السينغال وعزف الناي وعواء الجِمال، والسكان الأصليون يتجولون متنعلين أحذية مصنوعة من مطّاط دواليب سيارات قديمة.

ولكن في ذلك الوقت كنتُ قد رحلت من جديد - قطارات وشواطئ كلها سواء. لهذا أخذني لنسافر، ولكن بعد ولادتي للطفل الثاني، ابنتي الصغيرة توبسي، عاد كل شيء قاتماً من جديد.

... ليت في استطاعتي أنْ أوصِل كلمة إلى زوجي الذي رأى أنَّه من المناسب أنْ يتخلّى عني هنا، أنْ يتركني بين أيدي أشخاص غير مؤهلين. تقولين إنَّ طفلتي سوداء - هذا مُضحك، وكلام رخيص. إننا لم نذهب إلى إفريقيا إلا لنشاهد تيمقاد[2]، بما أنَّ اهتمامي الرئيس في الحياة هو علم الآثار. لقد مللت جهلي ومَنْ يُذكّرني به طوال الوقت.

... عندما تتحسن حالتي أريد أنْ أصبح شخصاً رائعاً مثلك، يا ديك - كنتُ أودّ أنْ أدرس الطب لكنَّ الوقتَ تأخّر. يجب أنْ نُنفِق مالنا ونمتلك منزلاً- لقد مللت الشُقق وانتظاري لك. وأنت مللتَ زيوريخ ولا تجد الوقت اللازم للكتابة هنا وتقول إنَّ الاعتراف بعدم الكتابة يُعتبر نقطة ضعف عند العلماء. وسوف أبحث في كامل رحاب المعرفة وأنتقي شيئاً وأُحيطُ به إحاطة تامة، لكي أتشبث به إذا ما انهرت من جديد. وسوف تساعدني، يا ديك، كي لا ينتابني شعور فادح بالذنب. سوف نعيش بالقرب من شاطئ دافئ يمكننا فيه أنْ نكتسب سُمرة وشباباً معاً.

... سيكون ذلك منزل العمل الخاص بديك. آه، لقد راودتنا الفكرة في اللحظة نفسها. كنا قد مررنا بتارمس مرات عديدة ووصلنا إلى هنا ووجدنا المنازل خالية، فيما عدا إسطبلَين. وعندما اشترينا فعلنا ذلك

1- أولاد نائل: اسم لسلسة جبال في الجزائر تسكنها قبيلة تحمل الاسم نفسه. والاسم أيضاً يُطلَق على رقصة خاصة بهم تعتمد على هزّ البطن. - المترجم

2- تيمقاد: موقع أثري روماني في الجزائر. أسسه الإمبراطور الروماني تراجان حوالي عام 100 ميلادي. ازدهرَ في عهده. - المترجم

عبر رجلٍ فرنسي، لكنَّ البحرية أرسلت جواسيس إلى هنا على جناح السرعة عندما اكتشفوا أنَّ أميركيين اشتروا جزءاً من قرية قائمة على تل. وفتشوا عن مدافع بين مواد المبنى كله، وأخيراً اضطرت بيبي إلى إرسال برقيات باسمنا إلى وزارة الخارجية في باريس.

لم يأتِ أحد إلى الريفييرا في فصل الصيف، فتوقعنا أنْ يصلنا بضعة ضيوف وأنْ نعمل. هناك بعض الفرنسيين هنا - وصلَتْ ميستنغيت[1] في الأسبوع الفائت ودُهِشَتْ إذ وجدتْ الفندق مفتوحاً، وبيكاسو أيضاً والرجل الذي ألّفَ «*Pas sur la*[2] ***Bouche***» (ليس على الشِفاه).... ديك، لماذا سجلت اسمينا بالسيد والسيدة دايفر بدل أنْ تكتب الدكتور والسيدة دايفر؟ فقط تساءلت - مجرد خاطر تبادر إلى ذهني - لقد علَّمتني أنَّ العمل أهمّ شيء وأنا أصدقك. كنتَ تقول إنَّه على الإنسان أنْ يُحصّل المعرفة وعندما يتوقف عن فعل ذلك يُصبح كغيره من الناس، والمهم هو أنْ يكتسب قوة قبل أنْ يتوقف عن اكتساب المعرفة. إذا أردت أنْ تقلِبَ الأمور رأساً على عقب، لا بأس، ولكن هل على زوجتك نيكول أنْ تتبعك سائرة على يديها، يا حبيبي؟

... يقول آبيه نورث إنني صامتة. منذ أنْ تحسّنت حالتي في المرة الأولى تكلمت كثيراً مع ديك في وقت متأخر من الليل، ونحن جالسان على السرير ندخن السجائر، ثم نغوص بعد ذلك بعيداً عن الفجر الأزرق بين الوسائد، لكي نبعد الضوء عن عيوننا. أحياناً أغني، وألعب مع الحيوانات، ولديَّ بعض الأصدقاء أيضاً - ميري، مثلاً. وعندما نتحدث أنا وميري لا تُصغي أي منا للأخرى. الكلام يعني رجالاً. عندما أتكلّم أقول لنفسي إنني ربما ديك. وقد أصبحتُ تواً ابني، وأتذكّر كم هو

1- ميستنغيت؛ واسمها الأصلي جان-ماري بورجوا (1875 - 1956): راقصة، ومغنية ومقدمة منوعات فرنسية. - المترجم

2- «ليس على الشِفاه»: اسم أوبريت ألّفها أندريه بارد (1874 - 1945) وقُدِّمت للمرة الأولى عام 1925، بالإضافة إلى أنها تحولت مرتين إلى فيلمين سينمائيين، الأول من إخراج نيكولا إفرينوف، والثاني من إخراج ألان ريسنيه. - المترجم

حكيم وبطيء. أحياناً أنا الدكتور دوملر وفي مناسبة واحدة قد أُصبح أحد جوانبك، يا تومي برباان. أعتقد أنَّ تومي يُحبّني، ولكن برفق، وبثقة. ولكن بقدرٍ كافٍ جعله هو وديك يتبادلان الكراهية. وباختصار، لم يتطور أي شيء للأفضل. إنني بين الأصدقاء الذين يُحبونني. أنا هنا على هذا الشاطئ الذي يلفّه السكون بالقرب من منزلي في موقع يُشرف على البحر المتوسط مع زوجي وطفليّ وأصدقائنا الأعزاء. كل شيء على ما يُرام - إذا تمكنتُ من ترجمة هذه الوصفة اللعينة لطبق الدجاج على طريقة ميريلاند إلى الفرنسية. أشعر بأصابع قدميّ دافئة في الرمال.

«نعم، سوف أبحث. المزيد من الناس الجُدد - آه، تلك الفتاة - نعم. مَنْ قلت أنها تُشبه؟... كلا، لم أشاهده، لا تُتاح لنا الكثير من الفُرَص لمشاهدة أفلام أميركية جديدة هنا. روزميري مَنْ؟ حسن، إننا نلتزم بالأزياء الحديثة استعداداً لشهر تموز - يبدو لي شيئاً مميَّزاً جداً».

الفصل الثاني

على شاطئ الريفييرا الفرنسية، في منتصف المسافة بين مارسيليا والحدود الإيطالية، كان يقع فندق ضخم، شامخ، لونه ورديّ؛ تُجمِّل واجهته المتوردة أشجار نخيل متواضعة، ويمتد أمامه شاطئ قصير مذهل. الآن تحول إلى منتجع صيفي للطبقة الخاصة والراقية من الناس؛ في عام 1925 أصبح مهجوراً تماماً تقريباً بعد أنْ أصبح زبائنه من الإنكليز يتوجهون شمالاً في شهر نيسان؛ لم تبقَ إلا قِباب عدد من الفيلات القديمة تتعفّن كليلك الماء بين كتل أشجار الصنوبر بين فندق أوتيل ديزيترانجير في غوس وكان، على بُعد خمسة أميال.

كان الفندق وشاطئه الشبيه بسجادة صلاة سمراء برّاقة شيئاً واحداً. في أوقات الصباح الباكر كانت صورة كان البعيدة، والاستحكامات القديمة بلونيّ الوردي والكريم، وجبال الألب القرمزية التي تحدّ إيطاليا، تمتد عبر المياه وترتعش بسبب التموجات والحلقات التي ترسلها النباتات البحرية من خلال المياه الضحلة الصافية. وقبل الساعة الثامنة كان رجل قد نزل إلى الشاطئ برداء استحمام أزرق اللون مع الكثير من التطابق التمهيدي لشخصه مع الماء البارد، والكثير من التذمُّر والتنفّس العميق، وتخبّط قليلاً في البحر. بعد رحيله، ساد الهدوء الشاطئ والخليج مدة ساعة. وفي الأفق زحفَ التجار غرباً؛ وصاح مساعدو النادل في فناء الفندق؛ وجفَّ الندى على أشجار الصنوبر. وبعد ساعة أخرى بدأ نفير السيارات يعلو من الدرب الملتوية

على طول سلسلة المور المنخفضة، التي تفصل المنطقة الساحلية عن فرنسا الريفية الحقيقية.

على بُعد ميل من البحر، حيث تُفسِح أشجار الصنوبر المجال لأشجار الحور المُغبرّة، يوجد موقف قطار منعزل، عبرَه جلبَتْ عربةٌ مكشوفةٌ عام 1925 امرأةً وابنتها إلى فندق غوس. كان وجه الأم يوحي بجمالٍ يزول وقريباً ستظهر عليه عروق مكسورة؛ وكان تعبير وجهها هادئاً وواعيا معاً بصورة مقبولة. ولكن، سرعان ما تنتقل العينان إلى ابنتها، التي كانت تحمل سِحراً براحتيها الورديتين وتتوهج وجنتاها بلهب مُحبب، كتورُّد الإثارة في وجوه الأطفال بعد الانتهاء من حمّامهم البارد في المساء. جبينها العالي المشرق يميل برفق نحو الأعلى باتجاه الشَعر، ويحفّ به كدرع النبالة، ثم ينفجر إلى خصلات الحب وتموجات والتفافات من الأشقر الشاحب والذهبي. كانت عيناها براقتين، واسعتين، صافيتين، رقراقتين ومشرقتين، وكان لون وجنتيها حقيقياً، تقتربان في المستوى من النبض الشاب والقوي لقلبها. حام جسمها برقّة على الحافة الأخيرة للطفولة - كانت في حوالي الثامنة عشرة، وتكاد تكون مكتملة، لكنَّ الندى كان لا يزال عليها.

بما أنَّ البحر والسماء ظهرا تحتهما على شكل خط رفيع وحار قالت الأم:

«يُنبئني حدسي بأننا لن نحب هذا المكان».

أجابت الفتاة «أنا أريد أنْ أعود إلى الوطن في كل الأحوال».

كلتاهما تكلّمتا بمرح، لكنهما كانتا بسبب ذلك مشوشتين وضجرتين - وفوق ذلك، مجرد انتقاء أي وِجهة لم يكن لينفعهما. لقد أرادتا أعلى إثارة، ليس تلبية لضرورة إثارة الأعصاب المُنهكة، بل بجشع تلاميذ المدارس الفائزين بالجوائز الذين يستحقون عطلهم.

«سوف نمكث ثلاثة أيام من ثم نعود إلى الوطن. سوف أُبرقُ في الحال من أجل حجز أماكن على متن السفينة».

في الفندق قامت الفتاة بالحجز بلغة فرنسية سطحية لكنها تعتمد على المصطلحات، كشيء تتذكره. عندما استقرتا في الطابق الأرضي تقدّمت من الضوء المُبهر المنبعث من النوافذ الفرنسية وخرجت بضع خطوات إلى الشرفة الحجرية التي امتدت على طول الفندق. وعندما مشت كانت تتحرك كأنها راقصة باليه، لا تستقر على وركيها بل ترفع أسفل ظهرها. في الخارج التصق الضوءُ الحارُّ بظلها فتراجعت - كان الضوء شديد الإبهار فلم ترَ شيئاً. وعلى مسافة خمسين ياردة كان البحر المتوسط يُسلِّم خضابه، لحظة بعد لحظة، لأشعة الشمس المتوحشـــة؛ وتحت الدرابزين كانت ســـيارة بويك باهتة اللون تتلظّى في موقف الفندق.

في الواقع، من بين الأماكن كلها كان الشاطئ وحده يعج بالنشاط. جلست ثلاث عجائز إنكليزيات ينسجن ببطء نموذجاً لخريطة إنكلترا الفيكتورية، نموذج عقد أربعينيات، وستينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، على شكل سترات صوفية وجوارب، على نغم ثرثرة صيغت على شكل تعويذة؛ وعلى مقربة من البحر كان هناك عدد من الأشخاص تجمعوا تحت مظلات عارية، بينما أطفالهم يلاحقون سمكاً غير هيّاب خلال المياه الضحلة أو يتمددون عراة ويتلألأون بزيت جوز الهند تحت أشعة الشمس.

لدى خروج روزميري إلى الشاطئ تجاوزها أحد الفتية واندفع إلى مياه البحر مع صرخات النشوة. وعندما شعرت بالتحديق المُلحّ للوجوه الغريبة، خلعت رداء الاستحمام وتبعته. عامت ووجهها نحو الأسفل بعض الياردات، وعندما وجدت أنَّ المياه ضحلة، وقفت على قدميها تترنح وتقدَّمت تتهادى، وهي تجر ساقين نحيلتين كأنها أثقال تواجه مقاومة من المياه. وعندما أضحت بمستوى الصدر، ألقت نظرة إلى الخلف باتجاه الشاطئ: كان هناك رجل أصلع يضع نظارة أنفيّة ويرتدي بنطلوناً ضيقاً، وصدره الكثيف الشَعر بارز، وسُرّته الهشّة غائرة، يتأمّلها بإمعان. عندما عادت روزميري أزاح الرجل النظارة عن أنفه، التي اختفت وسط شعر صدره الكث الطريف، وملأ لنفسه كأساً من مشروب ما من زجاجة يحملها بيده.

وضعت روزميري وجهها على الماء وسبحت بإيقاع رباعي متقطّع نحو الرمث. غمرتها المياه، وسحبتها برفق إلى أسفل بعيداً عن الحرارة، وتغلغلتْ في شَعرها وجرتْ في حنايا جسدها. أخذت تدور وتدور في المياه، وتعانقها، تتمرغ فيها. وعندما وصلت إلى الرمث كانت تلهث، لكنَّ امرأةً ببشرة مسمرّة وأسنان شديدة البياض نظرت باستخفاف إليها فأدارت روزميري لها ظهرها، وفجأةً أدركت بياض جسمها الفج، فاندفعت باتجاه الشاطئ. تكلَّم الرجل الكثيف الشعر الذي يحمل الزجاجة معها عندما خرجت من الماء.

«في الواقع - يُقال إنَّ هناك أسماك قرش خلف الرمث». لم تميِّز جنسيته، لكنه تكلّم بالإنكليزية بتشدّق أهل أوكسفورد البطيء. «بالأمس التهمت بحّارين إنكليزيين من العوامة في خليج خوان».

هتفت روزميري «يا إلهي!».

«لقد جاءت لكي تلتهم النفايات المُلقاة من العوامة».

رماها بنظرة مُبهمة ليدل على أنه إنما يتكلّم ليُحذّرها، وسار متبختراً خطوتين وصبّ لنفسه جرعة أخرى.

راحت روزميري تبحث عن مكان تجلس فيه، بحياء غير ممجوج، بما أنها كانت محط انتباه الجميع خلال تلك المحادثة. ومن الواضح أنَّ كل عائلة كانت تمتلك شريطاً من الرمال يقع مباشرة أمام مظلّتها؛ بالإضافة إلى أنه كان هناك الكثير من الزيارات والكلام يدور - كان من الوقاحة التدخل في ذلك الجوّ الاجتماعيّ. وعلى مسافة أبعد، حيث الشاطئ منثورٌ بالحصى والنباتات البحرية الميتة، جلست مجموعة بأجساد بيضاء. كانوا مستلقين تحت مظلة يدوية صغيرة بدل مظلات الشاطئ. ومن الواضح أنهم كانوا أقلّ انتساباً للمكان. وبين أصحاب البشرة السمراء وأصحاب البشرة البيضاء، وجدت روزميري مكاناً وافترشت ثوبها الفضفاض على الرمال.

وبينما هي مستلقية، سمعت أولاً أصواتهم وشعرت بأقدامهم تتجنب

ملامسة جسمها ومرّت أشكالهم بينها وبين الشمس. شعرت بأنفاس كلب فضولي دافئة ومتوترة على عنقها؛ وشعرت بجسمها يُشوى قليلاً بسبب الحرارة، وسمعت شيئاً من هدير مياه الأمواج المتلاشية والمنهكة. وفي الحال ميَّزت أذنها أصواتاً مفردة وأصبحت تعي أنَّ أحداً أُشيرَ إليه باحتقار بـ «ذلك الشماليّ» اختطف نادلاً من مقهى في كان في الليلة السابقة لكي يقطعه نصفَين. وكان راوي القصة امرأة بيضاء الشعر ترتدي ملابس السهرة كاملة، ومن الجليّ أنها من بقايا الليلة السابقة، ذلك أنَّ عمامةً كانت لا تزال ثابتة على رأسها ونبات سحلبية مهمل يتدلى من كتفها. شعرت روزميري بكراهية غامضة نحوها ونحو مَنْ معها، وأشاحت بوجهها.

في موقع أقرب إليها، على الجانب المقابل، استلقت امرأة شابة تحت سقف مظلة تضع لائحة بأشياء تنقلها من كتابٍ مفتوح على الرمال. كان ثوب استحمامها منزوعاً عن كتفيها وكان ظهرها، المتورِّد، البرتقالي البنّي، الذي يُزينه عقد من اللؤلؤ بلون الكريم، يسطع تحت أشعة الشمس. وكان وجهها قاسي الملامح وجميلاً وهزيلاً. قابلت عيناها عينيّ روزميري لكنهما لم ترياها. وخلفها كان هناك رجل وسيم يعتمر قبعة سائس ويرتدي بنطلوناً ضيقاً عليه خطوط حمراء؛ ثم رأتها المرأة التي كانت روزميري قد شاهدتها على الرمث، وبادلتها النظر؛ ثم كان هناك رجل ذو وجه طويل ورأس ذهبيّ، كرأس أسد، يرتدي بنطلوناً أزرق ولا يعتمر قبعة، يتحدث بجدّية صارمة مع شاب لاتيني من دون أدنى شك، يرتدي بنطلوناً ضيقاً أسود اللون، وكلاهما يعبثان بقطع قليلة من أعشاب البحر في الرمال. اعتقدتْ أنهما في الغالب أميركيان، ولكنَّ شيئاً ما جعلها تستبعد ذلك لاحقاً.

بعد قليل أدركتْ أنَّ ذا قبعة السايس كان يقوم بدور تمثيلي أمام جماعته؛ كان يتحرك بوقار حاملاً مدمة، ويتظاهر بأنه يزيل الحصى، وفي الوقت نفسه يؤدي مُحاكاة ساخرة سرية يُعيقها وجهه الجدّي. وأصبح أقلّ نتائجها مُثيراً للمرح الصاخب، إلى أنْ أصبح أي شيء يقوله يُطلق عاصفة من الضحك. حتى أولئك الذين كانوا مثلها أبعد مسافة من أنْ يسمعوا، أولوه انتباهاً

شديداً، والشخص الوحيد على الشاطئ الذي لم يشترك في ذلك كان المرأة الشابة التي تضع عقد اللؤلؤ. وربما بسبب عدم قدرتها على ضبط نفسها كانت تستجيب لكل إيماءة مسلية بالميل أكثر فوق لائحتها.

فجأة تكلّم الرجل الذي يضع نظارة أنفية ويحمل زجاجة من دون مقدمات من فوق روزميري.

«أنتِ سبّاحة ممتازة».

لم توافقه.

«جيدة جداً. اسمي كامبيون. ها هنا سيدة تقول إنها رأتْك في سورينتو في الأسبوع الفائت وتعرف مَنْ أنتِ وتحب كثيراً أنْ تجتمع بك».

تلفّتت روزميري حولها بانزعاج مُستتر، فرأتْ أنَّ الأشخاص الذين لم يكتسبوا سُمرة ينتظرون. نهضتْ واقفة على مضض واقتربت منهم.

«السيدة أبرامز – السيدة مكيسكو – السيد مكيسكو – السيد دمفري –».

هتفت المرأة التي ترتدي ثوب السهر «نحن نعلم مَنْ أنتِ. أنتِ روزميري هويت، وأنا تعرّفتُ عليكِ في سورينتو وسألتُ موظف الفندق. وجميعنا نعتقد أنكِ رائعاً جداً ونريد أنْ نعرف لماذا لستِ في أميركا لتصوري فيلماً سينمائياً رائعاً آخر».

قاموا جميعاً بإيماء لا معنى له يفيد بالاقتراب منها. المرأة التي تعرَّفت إليها لم تكن يهودية، على الرغم من اسمها. كانت واحدة من صاحبات «الروح الرياضية» العجائز اللائي حافظن على أنفسهن بمناعة ضد التجربة وبالذوبان الكامل في جيل آخر.

تابعت بمرح «أردنا أنْ نُحذّركِ من الاحتراق في اليوم الأول، لأنَّ *بشرتكِ* شيء هام، ولكن يبدو أنَّه يسود هذا الشاطئ الطابع الرسمي بحيث تساءلنا إنْ كنتِ تمانعين».

الفصل الثالث

قالت السيدة مكيسكو «اعتقدنا أنكِ ربما كنتِ مشتركة في المؤامرة». كانت امرأة شابة جميلة ذات عينين خسيستين وشِدّة تخلع الأفئدة. «نحن لا نعلم مَنْ يشترك في المؤامرة ومَنْ لا يشترك. لقد كان زوجي يُعامل أحد الرجال معاملة حسنة ثم اتَّضحَ أنه شخصية كبيرة في المؤامرة - كان عملياً بطلاً مُساعداً».

سألت روزميري، التي لم تفهم بشكل كامل «أي مؤامرة؟ أهناك مؤامرة؟».

قالت السيدة أبرامز، مع ضحك مكبوت ومتشنج من امرأة بدينة، «يا عزيزتي، نحن لا نعلم. نحن لسنا مشتركات فيها. نحن الجمهور المتفرِّج».

علّقَ السيد دمفري، الشاب المخنث ذو شعر الرأس الناعم المبيَض، «إنَّ ماما أبرامز بحد ذاتها مؤامرة»، فهزّ كامبيون نظارته الأنفية باتجاهه، قائلاً «إياك واستخدام الكلمات الشنيعة، يا رويال». نظرتْ روزميري إليهم جميعاً بانزعاج، متمنية لو أنَّ أمها أتت إلى هنا معها. إنها لم تحب هؤلاء الناس، خاصة بعد مقارنتهم الفورية مع أولئك الذين أثاروا اهتمامها على الطرف المقابل من الشاطئ. إنَّ موهبة أمها الاجتماعية المتواضعة، ولكن المتينة، أخرجتهما بسهولة وحزم من مواقف غير مرغوبة. لكنَّ روزميري كانت شخصية مشهورة لستة أشهر فقط، وأحياناً كان سلوكها الفرنسي في فترة مراهقتها المبكرة وسلوكها الديموقراطي

الأميركي، وهذا الأخير هو الطاغي، يُثيران ارتباكاً ويورطانها في مثل هذه الأمور.

لم يجد السيد مكيسكو، الرجل الهزيل، ذو الوجه الأحمر والنمش، في الثلاثين من العمر، موضوع «المؤامرة» مسلياً. كان يُحدِّق إلى البحر؛ والآن بعد أنْ ألقى نظرة سريعة إلى زوجته عاد إلى روزميري وطلب منها بنبرة عِدائية:

«أأنتِ هنا منذ مدة طويلة؟».

«منذ يوم واحد».

«أوه ؟».

عندما شعر بوضوح أنَّ الموضوع قد تغيَّر بشكل كامل نظر بدوره إلى الآخرين.

سألت السيدة مكيسكو، ببراءة «ستمكثين طوال فصل الصيف؟ إذا كنت ستمكثين تستطيعين أنْ تشهدي الكشف عن المؤامرة».

انفجر زوجها قائلاً «إكراماً لله، يا فيوليت، دعكِ من هذا الموضوع! احصلي على نكتة جديدة، إكراماً لله!».

مالت السيدة مكيسكو نحو السيدة أبرامز وقالت بهمس مسموع:

«إنه عصبي».

عارضها مكيسكو «أنا لستُ عصبياً. الأمر حدث عفواً ولكنّي لستُ عصبياً».

كان جلياً أنه احترق - كانت حُمرة قد انتشرت على صفحة وجهه، وحلّت تعبيرات وجهه كلها وحوّلتها إلى جمود هائل. وفجأة عندما وعى قليلاً وضعه نهضَ واقفاً لينزل إلى الماء. ولحقت به زوجته، وانتهزت روزميري الفرصة وتبعتهما.

أخذ السيد مكيسكو نَفَساً عميقاً، وارتمى في المياه الضحلة، وبدأ يضرب بذراعين متيبستين مياه البحر المتوسط، من الواضح أنَّ قصده أنْ يوحي بأنه يقوم بالسباحة السريعة ورأسه تحت الماء. استنفد أنفاسه،

فرفع رأسه ونظر حوله مع تعبير دهشة من أنه مازال على مرأى من الشاطئ.

«لم أتعلّم التنفّس بعد. لم أتوصل بعد إلى فهم كيف يتنفسون»، ونظر إلى روزميري مُستفهماً.

شرحت قائلة «أعتقد أنكَ تزفر تحت الماء، وكل رابع ضربة تُدير رأسك وترفعه طلباً للهواء».

«إنَّ التنفّس أصعب جزء بالنسبة إليّ. هل نذهب إلى الرمث؟».

الرجل الذي يحمل رأس لينين كان متمدداً على الرمث، الذي كان يتحرك إلى الأمام والخلف مع حركة الماء. وعندما مدت السيدة مكيسكو يدها لتمسك به تلقّت ذراعها فجأةً ضربة قوية منه، فأجفل الرجل وسحبها إلى متنه.

«أخشى أنه ضربك». كان صوته بطيئاً وحيياً؛ كان يحمل أشد ما رأت روزميري من الوجوه حزناً، بعظمتيّ وجنتين عاليتين جديرتين بهندي، وشَفَة عليا طويلة، وعينين غائرتين شديدتي الاتساع والسواد. كان قد تكلّم من زاوية فمه، وكأنه كان يأمل في أنْ تصل كلماته إلى السيدة مكيسكو بصورة غير مباشرة وغير واضحة؛ وبعد دقيقة اندفع إلى المياه وتمدد جسمه الطويل بلا حراك متجهاً نحو الشاطئ.

راقبته روزميري والسيدة مكيسكو. وعندما استنزف زخمه أسرع بالانطواء على نفسه، وبرز فخذاه النحيلان فوق سطح الماء، ثم اختفى تماماً، من دون أنْ يُخلِّف وراءه أدنى قدر من الزَبَد.

قالت روزميري «إنه سبّاح ماهر».

جاء جواب السيدة مكيسكو بعنف مُفاجئ.

«حسن، إنه موسيقي رديء»، والتفتت إلى زوجها، الذي نجح، بعد محاولتين فاشلتين، في ارتقاء الرمث، وعندما حقق توازنه، حاول أنْ يُقدِّم استعراضاً مُبهراً كتعويض، فلم يُنجِز إلا المزيد من الترنُّح. «كنتُ أقول فقط إنَّ آبيه نورث قد يكون سبّاحاً ماهراً لكنه موسيقيّ رديء».

وافق مكيسكو، متذمراً، «نعم». من الواضح أنه ابتكر عالم زوجته، وسمح لها فيه ببعض الحريات.

التفتت السيدة مكيسكو بتحدٍ نحو روزميري وقالت «اسم زوجي آنثيل، آنثيل وجويس. لا أعتقد أنكِ سمعتِ الكثير عن مثل هؤلاء الأشخاص في هوليوورد[1]، لكنّ زوجي كتب أول نقد لرواية ***يوليسيس*** ظهر في أميركا».

قال مكيسكو بهدوء «ليتني أجد سيجارة. هذا أهم شيء بالنسبة إليّ الآن».

«إنَّ لديه أعماقاً – ألا تعتقد، يا ألبرت؟».

تلاشى صوتها فجأةً. كانت المرأة ذات عقد اللؤلؤ قد انضمت إلى ولديها في الماء، والآن ظهر آبيه نورث من تحت أحدهما كجزيرة بركانية، رافعاً إياه على كتفيه. زعق الطفل من شدة الخوف والبهجة وراقبتِ المرأة بسكينة جميلة، من دون أنْ تبتسم.

سألت روزميري «أتلك زوجته؟».

«كلا، هذه السيدة دايفر. إنهما لا ينزلان في الفندق»، لم تنتقل نظرة عينيها الفوتوغرافيتين عن وجه المرأة. وبعد لحظة التفتت بحماس نحو روزميري.

«هل سبق لكِ أنْ سافرت إلى الخارج؟».

«نعم – التحقتُ بمدرسة في باريس».

«أوه، حسن إذن، لعلكِ تعلمين أنكِ إذا أردتِ أنْ تقضي وقتاً ممتعاً هنا فالسبيل إلى ذلك هو أنْ تتعرّفي إلى بعض العائلات الفرنسية الأصيلة. ما الذي يستفيد هؤلاء الناس من ذلك؟». أشارت بكتفها اليسرى نحو الشاطئ. «إنهم يجتمعون معاً في زُمر صغيرة فقط. طبعاً، كانت معنا رسائل توصية وقابلنا أفضل الفنانين والكتّاب الفرنسيين كلهم في باريس. وكان ذلك شيئاً جميلاً».

1- في الأصل لفظت اسم هوليوود خطأ. – المترجم

«أعتقد ذلك».

«في الواقع، يعمل زوجي على تأليف روايته الأولى».

قالت روزميري: «أوه، أحقاً؟». لم تكن تفكّر في أي شيء معيَّن، ما عدا التساؤل ما إذا كانت أمها قد تمكنت من النوم في مثل هذا الحر.

تابعت السيدة مكيسكو «إنها تقوم على أساس فكرة رواية ***يوليسيس***. ولكن بدل أنْ تستغرق أربعاً وعشرين ساعة جعلها زوجي تستغرق مئة عام. إنه يتناول رجلاً فرنسياً أرستقراطياً منحلاً يضعه في مواجهة عصر آليّ -».

احتجَّ مكيسكو «أوه، إكراماً لله، فيوليت، لا تحكي لكل شخص عن الفكرة. لا أريد لها أنْ تنتشر في كل مكان قبل أنْ يُطبَع الكتاب».

سبحت روزميري عائدة إلى الشاطئ، حيث وضعت ثوبها الرقيق على كتفيها المحترقتين أصلاً واستلقت من جديد تحت أشعة الشمس. كان الرجل ذو قبعة السايس حينئذٍ ينتقل من مظلة إلى أخرى، حاملاً زجاجة وكؤوساً صغيرة بيديه؛ وفي الحال أصبح هو وأصدقاؤه أكثر حيوية وقُرباً، واجتمعوا كلهم تحت مجموعة من المظلات - وأدركتْ أنَّ أحدهم ينوي الرحيل وأنَّ تلك جلسة الكأس الأخيرة على الشاطئ. حتى الأطفال عرفوا أنَّ الإثارة مجتمعة تحت المظلة والتفتوا نحوها - وبدا لروزميري أنها كلها صادرة عن الرجل صاحب قبعة السايس.

سيطرت شمس الظهيرة على البحر والسماء - حتى الخط الأبيض الذي ترسمه مدينة كان، على بُعد خمسة أميال، تلاشى حتى أضحى سراباً لِما كان منعشاً وبارداً؛ رسا قاربُ إبحارٍ لونُ مقدِّمته أحمر ضارب إلى الحمرة خلفه امتداد شاطئٍ من البحر الأبعد والأشد زرقة. وبدا كأنَّ الحياة تلاشتْ عن كل مكان على ذلك الامتداد من الساحل ما عدا ما يجري تحت تلك المظلات التي تُسرّب أشعة الشمس، حيث كان يجري شيء ما وسط اللون والهمهمة.

مشى كامبيون بالقرب منها، ووقف على بُعد بضع ياردات، فأغمضت روزميري عينيها، متظاهرةً بأنها نائمة؛ ثم فتحتهما نصف فتحة وراقبت عمودين مُعتمين، ضبابيين كانا ساقيه. حاول الرجل أنْ يسير بشكل جانبي داخل سحابة بلون الرمل، لكنَّ السحابة طفتْ وحلّقت نحو السماء الحارة والشاسعة. واستغرقت روزميري عميقاً في النوم.

استيقظت وهي منقوعة بالعرق لتجد الشاطئ مهجوراً إلا من الرجل ذي قبعة السايس، الذي كان يطوي آخر المظلات. وبينما روزميري مستلقية تطرفُ بعينيها، مشى بالقرب منها وقال:

«كنتُ سأوقظكِ قبل أنْ أغادر. لا ينبغي أنْ تحترقي بهذه السرعة».

«شكراً لك»، نظرتْ روزميري إلى ساقيها القرمزيتين «يا إلهي!».

ضحكت بمرح، ودعته إلى تبادل الحديث، لكنَّ ديك دايفر كان قد حمل الخيمة تواً ومظلة الشاطئ ونقلهما إلى سيارة منتظرة، لذلك ذهبت إلى الماء لكي تزيل عن نفسها العرق. فعاد ليأخذ المدمة، والمجرفة والمنخل، وخزّنها داخل شق في صخرة. أخذ يمسح الشاطئ بعينيه جيئة وذهاباً وكأنه نسي شيئاً.

سألته روزميري «أتعرف كم الساعة الآن؟».

«إنها حوالي الواحدة والنصف».

واجها معاً مشهد البحر برهة.

قال ديك دايفر «ليس وقتاً سيئاً. إنه ليس أسوأ أوقات النهار».

نظر إليها وخلال برهة من الزمن عاشت العوالم الزرقاء البرّاقة لعينيه، بشوق وثقة. ثم حمل على كتفه آخر قطعة متبقية واستقلّ سيارته، ثم خرجت روزميري من الماء، ونفضت الثوب الفضفاض، وتوجهت إلى الفندق.

الفصل الرابع

كانت الساعة قد بلغت الثانية عندما توجهوا إلى قاعة الطعام. راحت تشكيلات ثقيلة من أشعة الشمس والظلال تترنح جيئة وذهاباً على الطاولات الخالية متزامنة مع حركة أشجار الصنوبر في الخارج. ران الصمت على نادلَين يُكوِّمان الأطباق ويتحدثان بصوت مرتفع عندما دخلوا، وأحضرا لهم نسخة مُبتذلة من وجبة ***table d'hote*** (مائدة المضيف[1]).

قالت روزميري «لقد وقعت في الحب وأنا على الشاطئ».

«مع مَنْ».

«أولاً مع عدد كبير من الناس الذين بدوا لطيفين. ثم مع رجل واحد».

«هل تحدثت معه؟».

قالت وهي تأكل بنهم «قليلاً فقط. إنه شديد الوسامة. ذو شَعر يميل إلى الحُمرة. لكنه متزوج - هذه هي العادة».

كانت أمها صديقتها المفضّلة، وكانت تبذل أقصى جهدها لتوجيهها، وهو أمر ليس نادر الحدوث في مجال المسرح، لكنه ذو سِمة خاصة من ناحية أنَّ السيدة إلسي سبيرز لم تكن تُكافئ نفسها على هزيمةٍ وقعت بها. لم تكنْ تضمرُ أي مرارة شخصية أو احتقار للحياة - فقد تزوجت مرتين زيجتين مرضيَّتين وأصبحت أرملة مرتين، وفي كل مرة كان

1- مائدة المضيف: وجبة طعام تُقدَّم في وقت محدد وسعر مُحدد إلى نزلاء فندق أو مطعم. - المترجم

طبعها الرواقيّ يتعمّق أكثر. كان زوجها الأول، والد روزميري، طبيباً في الجيش، والثاني ضابطاً في جيش الفرسان، وكلاهما تركا لها شيئاً حاولتْ أنْ تنقله إلى روزميري كاملاً. وبعدم التهاون مع روزميري جعلتها قاسية - وبعدم البخل بجهدها الخاص وتكريسها نمّتْ في روزميري نزعة مثالية، وُجِّهَتْ في الوقت الحاضر نحو نفسها وشاهدت العالم من خلال عينيها. بحيث إنه بينما كانت روزميري هويت طفلة «بسيطة» تلقّت حماية مُضاعَفة من أمها ومن نفسها - كانت تكنّ اشمئزازاً من كل شيء تافه، وسهل، وسوقيّ. ولكن مع نجاح روزميري المفاجئ في السينما، شعرت السيدة سبيرز أنّه حان الوقت لها كي تُفطَم روحياً؛ وسوف يُسعدها ولا يؤلمها لو أنَّ تلك النزعة المثالية الضخمة، اللاهثة والمُتطلِّبة تتركَّز على شيء آخر غير نفسها.

سألتْ «إذن يُعجبكِ هذا المكان؟».

«قد يكون الأمر ممتعاً لو أننا نتعرّف إلى أولئك الناس. كان هناك أناسٌ آخرون، لكنهم لم يكونوا لطيفين. لقد تعرّفوا عليّ - وأينما نذهب أجد أنَّ الجميع قد شاهدوا فيلم *أثيرة أبيها*».

انتظرت السيدة سبيرز ريثما يخبو وهج النزعة الأنانية؛ ثم قالت بلهجة عفوية: «بالمناسبة، متى سنذهب لمقابلة أيرل برادي؟».

«أرى أنْ نذهب بعد ظهيرة هذا اليوم - إذا كنتِ قد ارتحت».

«اذهبي أنتِ - أنا لن أذهب».

«إذن سوف ننتظر حتى الغد».

«أريد منكِ أنْ تذهبي وحدك. إنها مسافة قصيرة - وأنتِ تتقنين الفرنسية».

«أمي - أليست هناك أشياء لا يجدر بي أنْ أقوم بها؟».

«أوه، حسن إذن، اذهبي لاحقاً - وليكن ذلك قبل أنْ نغادر».

«حسن، يا أمي».

بعد تناول الغداء غمرهما الركودُ المفاجئ الذي يسود المسافرين الأميركيين عادة في الأماكن الأجنبية الهادئة. لا تفيد أي إثارة تُمارَس عليهم، ولا أصوات تناديهم من الخارج، ولا شذرات من أفكارهم الخاصة تأتي فجأةً من عقول الآخرين، ولأنهم يفتقدون صخب الإمبراطورية شعروا بأنَّ الحياة لا تستمر هنا.

عندما عادتا إلى جناحهما قالت روزميري «فلنكتفِ بالمكوث هنا ثلاثة أيام فقط». في الخارج خفَّفتْ ريحٌ رقيقة من وطأة الحر، عصرته بين الأشجار مُرسِلة هبّات صغيرة قوية حارة بين مصاريع النوافذ.

«ماذا عن الرجل الذي وقعتِ صريعةَ حبّه على الشاطئ؟».

«أنا لا أحب أحداً غيرك، يا أمي العزيزة».

توقفتْ روزميري في بهو الفندق وتحدثت مع غوس الأب عن القطارات. حدَّقَ البواب، المسترخي بردائه الخاكي ذي اللون البني الفاتح خلف طاولة مكتبه، إليها بصرامة، وفجأةً تذكّر سلوكيات عمله. استقلت الحافلة وركبت مع اثنين من الندل الخنوعين إلى المحطة، وشعرت بالحرج من صمتهما المتواضع، ورغبت في حثهما: «هيا، تحدثا، استمتعا معاً. لن أنزعج».

كان جو مقصورة الدرجة الأولى خانقاً؛ وبطاقات الدعاية الحيوية لشركات سكة الحديد - البون دو غار في آرل، والأمفيتياتر في أورانج، ورياضات شتوية في شاموني - كانت أكثر نضارة من البحر المترامي والهادئ في الخارج. وخلافاً للقطارات الأميركية المستغرقة في مصيرها المتوتر الخاص وتزدري الناس في عالم آخر أقلّ سرعة ولهاثاً، هذا القطار كان جزءاً من البلد الذي يجتازه. كانت أنفاسه تُثير الغبار عن أوراق النخيل، ويمتزج الرماد مع الروث الجاف في الحدائق. كانت روزميري متأكدة من أنَّ في وسعها أنْ تميل من النافذة وتقطف الأزهار بيدها.

كان عدد من سائقي سيارات الأجرة نائمين داخل سياراتهم خارج محطة كان. وفي المتنزَّه تحول الكازينو، والمحال التجارية الأنيقة،

والفنادق الضخمة إلى أقنعة من الحديد خالية من التعبير أمام بحر الصيف. كادتْ لا تُصدِّق أنَّه كان هناك «موسم»، وأصبحت روزميري، المستغرقة نسبياً في الموضة السائدة، خجلة قليلاً، وكأنها تكشف عن ميل غير صحي إلى ما هو ميت؛ وكأنَّ الناس يتساءلون عن سبب وجودها هناك في الجو الكسول بين مرح الشتاء الفائت والشتاء القادم، في حين أنّه كانَ في الشمال عالم حقيقي يضجّ. وفي أثناء خروجها من الصيدلية مع زجاجة من زيت جوز الهند، مرّت من أمامها امرأة، عرفت أنها السيدة دايفر، وهي تحمل بكلتيّ ذراعيها وسائدَ للأريكة واتَّجهت نحو سيارة متوقفة في الشارع. نبح عليها كلبٌ طويل، منخفض وأسود اللون، وأفاق سائق خاص من إغفائه مُجفلاً. جلست في السيارة، وجهها جميل متناسق، هادئ، وعيناها تنمان عن شجاعة ويقظة، تنظران أمامها مباشرة إلى الفراغ. كان ثوبها الأحمر براقاً، وساقاها السمراوان عاريتين. كان شعرها الذهبيَ غزيراً وحالكاً كشعر كلب صيني.

كان قد تبقّى على وصول قطار روزميري نصف ساعة، فجلست في مقهى كافيه ديزالييه على الكروازيت، حيث جعلت الأشجار لونَ الغسق أخضرَ رمته على الطاولات وعلى فرقة موسيقية تعزف بطريقة حالمة لجمهورٍ وهميّ من أهالي المدن لحن «أغنية كرنفال نيس» ولحناً أميركياً من العام السابق. كانت قد اشترت صحيفتي «*لو طان*» و«*ساترداي إيفننغ بوست*» من أجل أمها، وفي أثناء شربها عصير الكبّاد فتحت الصحيفة الثانية على صفحة مذكرات أميرة روسية، لتجد أنَّ تقاليد حقبة تسعينيات القرن التاسع عشر القاتمة واقعية أكثر وأقرب مما كان يرد في العناوين الرئيسة للصحيفة الفرنسية. هذا الإحساس نفسه تملّكها وهي في الفندق – وهي المتعوّدة على مشاهدةِ أشدّ مظاهر القارة غرابة وصراحة تُعرَض بكل وضوح على شكل مسرحية هزلية أو مأساوية، وغير متعودة على مهمة فصل ما هو أساسي لها، بدأت الآن تشعر بأنَّ الحياة الفرنسية خاوية وتافهة. هذا الإحساس كان مُثقلاً بالإصغاء إلى الألحان الحزينة

التي تعزفها الفرقة الموسيقية، وذكّرتها بالموسيقى الكئيبة التي كانت تُعزَف كخلفية للألعاب البهلوانية في مسرح المنوعات. لقد كانت سعيدة بعودتها إلى فندق غوس.

كانت كتفاها محروقَتين إلى درجة تعذَّر عليها السباحة في اليوم التالي، لذلك قامت هي وأمها باستئجار سيارة - بعد الكثير من المساومة، ذلك أنَّ روزميري كانت قد كوّنت فكرة عن تقييمها للنقود في فرنسا - وقادتاها على طول الريفييرا، ودلتا العديد من الأنهار. وكان السائق الخاص، الشبيه بقيصر روسي من فترة إيفان الرهيب، قد عيَّنَ نفسه بنفسه مرشداً لهما، وبدأت الأسماء اللامعة - كان، نيس، مونت كارلو، - تتوهج من خلال تمويهها الخَدِر، وتتهامس عن ملوك عجائز جاؤوا إلى هنا ليتناولوا الطعام أو ليموتوا، عن راجات[1] يشخصون بعيون بوذا إلى راقصات باليه إنكليزيات، وعن أمراء روس يحولون الأسابيع إلى أوقات غسق على شواطئ البلطيق أيام الكافيار الضائعة. وقبل أي شيء، كان هناك عطر الروس الذي يفوح على طول الشاطئ - بمحال بيع الكتب ومخازن البقالة المُغلقة. قبل أحد عشر عاماً، عندما انتهى الموسم في شهر نيسان، أوصدت أبواب الكنيسة الأرثوذوكسية، وأُزيلت الشمبانيا اللذيذة التي يفضلانها حتى عودتهما من جديد. قالتا «سوف نعود في الموسم التالي»، لكنَّ ذلك كان سابقاً لأوانه، لأنهما لن تعودا بعد ذلك.

كانت العودة إلى الفندق بالسيارة في وقت متأخر من بعد الظهيرة شيئاً ممتعاً، مع إطلالة على بحرٍ غامض اللون كحجارة العقيق في عهد الطفولة، أخضر كحليب أخضر، أزرق كماء الغسيل، وخمري قاتم. كان ممتعاً المرور بأناس يأكلون خارج أبواب بيوتهم، وسماع عزف آلات البيانو الميكانيكية العنيف خلف كروم عنب المقاهي الريفية. وعندما ابتعدتا عن كورنيش دور وانعطفتا إلى فندق غوس خلال ضفتين

1- راجات، جمع راجا: أمير هندي. - المترجم

مظلمتين من الأشجار، مصفوفة واحدة إثر أخرى في العديد من المروج، والقمر يسطع على أطلال قنوات جر المياه.

في موقع ما على التلال خلف الفندق كان هناك رقص، وأصغت روزميري إلى الموسيقى من خلال شبكة الناموس المُضاءة بنور القمر المخيف، مدركة أن هناك مرحاً أيضاً في مكان ما في الجوار، وراحت تفكّر في الأشخاص الظرفاء على الشاطئ. فكرت في أنها ربما تقابلهم في الصباح، ولكن من الواضح أنهم كانوا يُشكلون مجموعة صغيرة مكتفية بذاتها، وما إنْ يضعوا مظلاتهم، وحُصُر قصب البامبو، وكلابهم، وأولادهم في مكانٍ معيَّن حتى يُصبح ذلك الجزء من الشاطئ مُكرّساً حرفياً لهم. وقررت بشكل قاطع ألا تقضي فترة صباح اليومين الأخيرين مع الآخرين.

الفصل الخامس

كانت المسألة قد حُسِمت بالنسبة إليها. لم يكن آل مكيسكو قد وصلا بعد وما إنْ مدَّتْ رداءها الفضفاض حتى غادر المجموعة رجلان – ذو قبعة السائس والرجل الطويل الأشقر الذي يقطع الندل إلى قسمين – واقتربا منها.

قال ديك دايفر «صباح الخير». ثم قال فجأةً «اسمعي – بحروق أم بدون حروق، لماذا ابتعدتِ بالأمس؟ لقد قلقنا عليك».

اعتدلتْ في جلستها ورحّبَ ضحكها القصير السعيد بتدخلهما.

قال ديك دايفر «إننا نتساءل إنْ كنتِ ستأتين هذا الصباح. نحن سنأتي، معنا طعام وشراب، وهكذا فهي دعوة حقيقية».

بدا لطيفاً وفاتناً – في صوته وعد بأنه سيعتني بها، وبأنه بعد قليل سيفتح أمامها عوالم جديدة كاملة، ويعرض سلسلة لا تنتهي من الإمكانات الرائعة. وقد نجح في التعريف بها من دون ذِكر اسمها ومن ثم جعلها تعلم بسهولة أنَّ الجميع يعرفون مَنْ هي لكنهم يحترمون كامل حياتها الخاصة – وهي كياسة لم تجد روزميري مثيلاً لها إلا عند المحترفين من الناس منذ أنْ حققت النجاح.

كانت نيكول دايفر، بظهرها الأسمر الذي يتدلى من لآلئها، تبحثُ في كتاب وصفات الطبخ عن وصفة دجاج ميريلاند. خمّنتْ روزميري أنها في حوالي الرابعة والعشرين من العمر – كان يمكن وصف وجهها بأنه يتسم بجمال تقليدي، لكنَّ الحقيقة كانت أنه صُمِّم أولاً على النمط

البطولي بتكوين وتميُّز قويين، وكأنَّ قسمات الجبين واللون وحيويتهما، وكل ما يُربَط بالمزاج والشخصية، شُكِّلَتْ بقصدٍ فنيّ، ومن ثم نُحِتَ بغرضِ إبراز الجمال إلى درجة أنَّ زلّة بسيطة كان يمكن لها أنْ تقضي بشكل لا رجعة فيه على قوته وجودته. وقد قام النحّات بمحاولات يائسة لتشكيل الفم - كان قوس إله الحب كما يظهر على أغلفة المجلات، إلا أنه يشترك في تميُّز القسمات الأخرى.

سألتْ نيكول «هل ستمكثين هنا مدة طويلة؟». كان صوتها منخفضاً، ويكاد يكون خشناً.

وفجأة تركت روزميري الاحتمال في أنْ تمكثا أسبوعاً آخر مفتوحاً.

أجابت بغموض «ليس طويلاً. إننا بعيدتان عن البلاد منذ وقت طويل - نزلنا في صقلية في شهر آذار ورحنا نتجه شمالاً ببطء. أُصِبتُ بذات الرئة في أثناء تصوير أحد الأفلام في شهر كانون الثاني الفائت وأنا الآن أسترد عافيتي».

«فليرحمنا الله! وكيف حدث ذلك؟».

«حسن، حدث ذلك بسبب السباحة». كانت روزميري مترددة في الخوض في الأسرار الشخصية. «ذات يوم صودفَ أني أُصِبتُ بالرشح ولم أعلم بذلك، وكانوا يُصورون مشهداً أغوصُ فيه في قنال في البندقية. وكان موقع التصوير مُكلفاً جداً - لذلك كان لابد لي من أنْ أغوص وأكرر الغوص طوال فترة الصباح. وكان هناك طبيب بمُصاحبة أمي، ولكن لا فائدة - وأُصِبتُ بذات الرئة». ثم قامت بتغيير الموضوع بتصميم قبل أنْ يتمكنا من الكلام. «هل يعجبكما المكان هنا - هذا المكان؟».

قال آبيه نورث ببطء «لابد لهما من أنْ يُعجبا به؛ هما اللذان ابتكراه». أدار رأسه النبيل ببطء بحيث استقرّت عيناه برقّة وحب على الثنائي آل دايفر.

«أوه، ألم تفعلا؟».

شرحت نيكول قائلة «هذا هو الموسم الثاني الذي يفتح فيه الفندق

أبوابه في فصل الصيف. لقد أقنعنا غروس بالاحتفاظ بطبّاخ ونادل وخادم – وقد نجحت التجربة وفي هذا العام كانت النتيجة أفضل».

«لكنكما لا تنزلان في الفندق».

«لقد بنينا منزلاً، في تارمس».

قال ديك، وهو يُعدُّ المظلة بحيث يُبعِد مقدار مربع من أشعة الشمس عن كتفيّ روزميري، «تقول النظرية إنَّ الأماكن الشمالية كلها، مثل دوفيل، انتقاها الروس والإنكليز، الذين لا يأبهون للبرد، في حين أنَّ نصفنا نحن الأميركيين نأتي من مناخات استوائية – ولهذا نبدأ بالقدوم إلى هنا».

كان الشاب ذو المظهر اللاتيني يُقلّب صفحات النسخة الباريسية من صحيفة *نيويورك تريبيون*.

سأل فجأةً «حسن، ما هي جنسية هؤلاء الناس؟»، وأخذ يقرأ مع نبرة فرنسية خفيفة «حجز في فندق أوتيل بالاس في فيفي السيد بانديلي فلاسكو، والآنسة بونيس» – أنا لا أُبالغ – «وكورينا ميدونكا، والآنسة باشه، وسيرافيم تليو، وماريا أماليا روتو ماي، ومويسيس تيوبل، والآنسة باراغوريس، وأبوستل ألكساندر، ويولاندا يوسفيغلو وجنفييفا دو مومس!» هذه أعجبتني دونهم جميعاً – جنفييفا دو مومس. يستحق الأمر أنْ يهرع المرء إلى فيفي ليُلقي نظرة على جنفييفا دو مومس».

نهض واقفاً بانزعاج مفاجئ، وأخذ يتمطّى بحركةٍ واحدةٍ حادَّة. كان أصغر سناً ببضع سنوات من دايفر أو نورث، وطويل القامة وصلب الجسم لكنه شديد النحول، ما عدا القوة المتجمعة في كتفيه وفي أعلى ذراعيه. للوهلة الأولى يبدو وسيماً وسامة تقليدية، ولكن تبدو على وجهه دائماً مسحة من الاشمئزاز تشوّه كامل الرونق العنيف لعينيه البنيتين. لكنَّ المرء يتذكّرهما لاحقاً، بعد أنْ ينسى عجز الفم عن تحمُّل الضجر والجبين الغض بما عليه من أخاديد الألم المُضطرب والعقيم.

قالت نيكول «لقد عثرنا على بعض الأسماء الرائعة في أخبار الأميركيين في الأسبوع الفائت. السيدة إيفلين أويستر و - ماذا كانت الأخرى؟».

قال دايفر، وهو ينهض واقفاً بدوره، «كان هناك السيد س. فليش»، وأمسك بالمدمة وبدأ يعمل بجدية للعثور على حصى صغيرة بين الرمال.

«آه، نعم - س. فليش - ألا يُثير هذا الاسم القشعريرة في الجسم؟».

كان الجو هادئاً مع نيكول - ووجدت روزميري أنَّه أشدّ هدوءاً من الجلوس مع أمها. كان آبيه نورث وباربان، الفرنسيان، يتحدثان عن مراكش، وبعد أنْ انتهت نيكول من نسخ الوصفة بدأتْ تخيط. وراحت روزميري تتفحص ملحقاتهما - أربع مظلات شخصية شكّلت غطاءً من الظل، وغرفة استحمام قابلة للحمل من أجل تغيير الملابس، وحصان مطاطي مملوء بالهواء، وأشياء جديدة لم تكن روزميري قد رأتها، من الانفجار الأول لصناعة الرفاهية التي بدأتْ بعد الحرب، وربما بين أيدي أول المشترين. كانت قد أدركت أنهم أناس راقون، ولكن على الرغم من أنَّ أمّها جلبتها لتعي أنَّ مثل أولئك الناس هم كسالى، لم تشعر أنهم كذلك وهي هنا. حتى وهم في حالة الركود التام، كما في أوقات الصباح، شعرت بوجود هدف، عمل على إنجاز شيء، اتجاه، عملية خلق تختلف عن أي شيء عرفته في حياتها. ولم يفكر عقلها الغرّ في طبيعة العلاقة التي تربط أحدهما بالآخر، بل كان اهتمامها كله منصبّاً فقط على موقفهم منها - لكنها وعت وجود شبكة من العلاقات المتداخلة، عبّرت عنها باعتقادها أنهم بدوا أنهم يقضون وقتاً ممتعاً جداً.

نظرت بدورها إلى الرجال الثلاثة، وجرّدتهم مؤقتاً من ممتلكاتهم. الثلاثة كلهم كانوا جذابين بأساليب مختلفة: كلهم كانوا على قدر من الرقيّ شعرتْ بأنه شكَّلَ جزءاً من حياتهم، في الماضي وفي المستقبل، التي لا تتخللها أحداث، ولا يشبه في شيء سلوكيات الممثلين الجماعية، واكتشفت أيضاً رهافة بعيدة المدى مختلفة عن صحبة المخرجين

الجيدة والفعّالة، الذين كانوا يمثّلون المثقفين في حياتها. الممثلون والمخرجون - هم النوعية الوحيدة من البشر التي كانت تعرفها، هؤلاء ومجموع شبان الجامعة المتباينين وغير واضحي المعالم، الذين لا يهمهم إلا الحب من النظرة الأولى، وكانت قد قابلتهم في حفل جامعة ييل الراقصة في الخريف السابق.

هؤلاء الثلاثة كانوا مختلفين. باربان كان أقلّهم تحضّراً، وأكثرهم شكاً وسخرية؛ كان سلوكه رسمياً، بل روتينياً. وآبيه نورث كان يُخفي تحت غطاء حيائه طبعاً فكِهاً لا شفاء منه كان يُسليها لكنه يُحيرها. فطبيعتها الجديّة لم تكن واثقة من قدرتها على ترك انطباع قوي لديه.

أما ديك دايفر - فكان كامل الأوصاف بينهم. كانت مُعجبة به بصمت. بشرته كانت تميل إلى الاحمرار الذي لوّحته الشمس، وكذلك الأمر مع شعره القصير - نما منه القليل على طول ذراعيه ويديه. كانت عيناه برّاقتين، بلون أزرق قاتم. وكان أنفه بصورة ما مُدبباً ولم يكن هناك أي شك في معرفة الشخص الذي ينظر إليه أو يُخاطبه - وهذا الانتباه هو إطراء، إذ مَنْ ينظر إلينا؟ - كانت النظرات تنهمر علينا، إما فضولية أو لا مبالية، لا أكثر. وكان صوته، الذي تتغلغل في أرجائه نغمة أيرلندية خفيفة، يُغازل العالم، إلا أنها شعرت بالسِمة القاسية فيه، بكبحه جماح نفسه وبانضباطه الذاتي، وهي من فضائلها الخاصّة. آه، لقد اختارته، ورفعت نيكول رأسها ورأتها وهي تختاره، سمعت التنهُّد القصير بسبب ما لديه من مزايا.

مع اقتراب منتصف الظهيرة وصل آل مكيسكو، وآل أبرامز، والسيد دمفري والسينيور كامبيون إلى الشاطئ. وكانوا قد جلبوا معهم مظلة شاطئ جديدة ثبّتوها وهم يرمون آل دايفر بنظرات جانبية، وزحفوا تحتها مع تعبير رضا على وجوههم - كلهم ما عدا السيد مكيسكو، الذي بقيَ في الخارج بصورة تبعث على السخرية. مرّ ديك بالقرب منهم مع المدمة وعاد إلى المظلات.

قال بصوت منخفض «الشابان يقرآن معاً كتاب الإتيكيت».

قال آبيه «يُخططان للاختلاط بالطبقة الراقية».

عادت ميري نورث، وهي المرأة الشابة ذات السُمرة الشديدة التي قابلتها روزميري في اليوم الأول على الرمث، من السباحة وقالت مع ابتسامة ذات بريق خليع:

«إذن لقد وصل السيد والسيدة نيفركويفر».

ذكّرتها نيكول، مُشيرة إلى آبيه، «إنهما صديقا هذا الرجل. فلماذا لا يذهب ويكلمهما؟ ألا تعتقدين أنهما جذابان؟».

وافقها آبيه «أعتقد أنهما جذّابان جداً. وليسا جذّابين فقط، هذا كل ما في الأمر».

اعترفت نيكول «حسن، لقد شعرتُ فعلاً بأنَّ هناك أكثر مما ينبغي من الناس على الشاطئ هذا الصيف؛ شاطئنا الذي شكّله ديك من أكوام الحصى»، وفكّرت، ثم أخفضتْ صوتها بعيداً عن مدى سمع العجائز الثلاث اللائي جلسن تحت مظلة أخرى، «ومع ذلك ما زالوا مُفضَّلين على أولئك البريطانيين من الصيف الأخير الذين كانوا يهتفون: أليس البحر أزرق؟ أليست السماء بيضاء؟ أليس أنف نيللي الصغيرة أحمر؟».

رأتْ روزميري أنها لن تجعل من نيكول عدوَّة لها.

تابعت نيكول «لكنكما لم تريا الشجار الذي نشب في اليوم السابق لوصولكما، الرجل المتزوج، صاحب الاسم الذي يبدو كبديل للغازولين أو الزبد -».

«مكيسكو؟».

«نعم - حسن كانا يتكلمان ثم رمت حفنة من الرمال في وجهه. و - بُهتنا. أردتُ من ديك أنْ يتدخّل».

قال ديك دايفر، وهو يحدّق بغموض إلى حشيّة القش، «أعتقد أني سأذهب وأدعوهما إلى العشاء».

أمرته نيكول بسرعة «كلا، لن تفعل».

«أعتقد أنها ستكون لفتة طيّبة جداً. إنهما هنا - فلنتكيَّف معهما».

أصرّت، ضاحكة «نحن متكيّفون جيداً. ولن أُعرِّض أنفي للتمرُّغ في الرمال»، ثم شرحت قائلة لروزميري «أنا امرأة خسيسة، وقوية»، ثم رفعت صوتها «يا أولاد، ارتدوا ملابس السباحة!».

شعرت روزميري أنَّ تلك الجولة من السباحة سوف تصبح النموذجية في حياتها، وستبرز دائماً في ذاكرتها لدى ذِكر السباحة. في الوقت نفسه انتقل أعضاء الحفل كله إلى الماء، وهم على أتمّ الاستعداد بعد فترة طويلة وإجبارية من الكسل، منتقلين من الحر إلى البرودة مع نهم إلى أكل طبق الكري الحريف مع النبيذ الأبيض البارد. امتدّ يوم آل دايفر كذاك اليوم في الحضارات القديمة لكي يُنتج أكثر ما يمكن من المتوفر من المواد، ويُعطي التحولات كلها قيمتها الكاملة، ولم تكن تعلم أنه سيكون هناك تحول آخر فوريّ من الانغماس الكامل في السباحة إلى الثرثرة في ساعة الغداء الريفية. ولكن من جديد انتابها إحساسٌ بأنَّ ديك كان يعتني بها، وابتهجت لاستجابتها للتحرُّك الذي حدث أخيراً وكأنه أمر.

أعطت نيكول زوجها الثوب الغريب الذي كانت تصنعه. فذهب إلى خيمة تبديل الملابس وأثار فوضى بظهوره برهة وهو يرتدي سروالاً داخلياً مُخرماً وأسود وشفافاً. وبيَّن التدقيق فيه أنه في الواقع مُبطّن بقماش بلون البشرة.

هتف السيد مكيسكو بامتعاض «حسن، هذه خدعة إنسان منحرف!» - ثم التفت بسرعة إلى السيد دمفري والسيد كامبيون وأضاف «أوه، عفواً».

اهتزت روزميري من فرط الابتهاج لمرأى البنطلون القصير. لقد استجابت سذاجتها ***naïveté*** بحماس شديد للبساطة المُكلِفة لآل دايفر، غير مُدركة تعقيدها وافتقارها إلى البراءة، غير مُدركة أنَّ الأمر كله يتعلّق بانتقاء النوعية وليس الكمية حسب اتّجاه سوق العالم؛ وأنَّ بساطة السلوك أيضاً، الشبيهة بما تشيعه دار الحضانة من سكينة وارتياح، والتشديد على الفضائل الأشدّ بساطة، هما جزء من صفقة يائسة مع

الآلهة تمّتْ بعد صراع مرير لا يمكنها تخيّله. وفي تلك اللحظة مثّل آل دايفر من الناحية الخارجية التطوُّر الدقيق والأبعد مدى لطبقة اجتماعية، بحيث بدا معظم الناس خرقاً بالمقارنة معهما - في الواقع كان تغيير نوعيّ قد وقع لم يتجلّ لروزميري أبداً.

وقفت معهما وهما يشربان الشيري ويأكلان البسكويت الهش. نظر ديك دايفر إليها بعينين زرقاوين باردتين؛ قال فمه القوي، الرقيق، بعمق وتدبُّر:

«أنتِ الفتاة الوحيدة التي قابلتها منذ زمن طويل تبدو فعلاً أشبه بشيء يُزهِر».

***

لاحقاً ارتمت روزميري في حضن أمها وبكت بحُرقة.

«أحبه، يا أمي. أحبه حتى اليأس - لم أدرك أبداً أنه يمكن أنْ أشعر هكذا تجاه أي إنسان. وهو متزوج وأنا مُعجبة بها أيضاً - لكنَّ الأمر مستحيل. آه، كم أحبه!».

«إنني تواقة إلى مقابلته».

«لقد دعتنا إلى العشاء يوم الجمعة».

«إذا كنتِ عاشقة فينبغي أنْ تكوني سعيدة. يجب أنْ تضحكي».

رفعت روزميري بصرها وارتعش وجهها رعشة صغيرة وجميلة وضحكت. لطالما كان لأمها تأثير كبير عليها.

الفصل السادس

ذهبت روزميري إلى مونت كارلو وهي تشعر بحالة قصوى من الغم. ارتقت التل الوعر إلى لا توربي، إلى أرض غومون القديمة التي يجري عليها البناء، وبينما هي واقفة بجوار بوابة المدخل الشبكية في انتظار الحصول على إجابة على الرسالة الموجودة على بطاقتها، كان يمكن أنْ تنظر إلى داخل هوليوود. إلى بقايا غريبة لصورة حديثة العهد، ومشهد لشارع متهدم في الهند، وحوت ضخم من الورق المقوّى، وشجرة هائلة الحجم تحمل ثمار كرز كبيرة بحجم كرات السلة، أزهرت هناك وفق نظام غريب الأطوار، أصلي، كنبات شاحب لا يذبل، وميموزا، وشجرة فلين، أو شجرة صنوبر قزمة. كان هناك كوخ لتناول وجبة سريعة وخشبتا مسرح شبيهتان بالحظائر، وفي كل مكان حول الموقع مجموعات من الوجوه المنتظرة، المصبوغة ويحدوها الأمل.

بعد مرور عشر دقائق هرع شاب ذو شعر بلون ريش الكناري إلى البوابة.

«ادخلي، آنسة هويت. السيد برادي في الموقع، لكنه توّاق إلى مقابلتك. أنا آسف لأننا جعلناك تنتظرين، لكنكِ تعرفين أنَّ بعضاً من أولائك السيدات الفرنسيات هنّ الأسوأ في إقحام أنفسهن -».

فتح مدير الاستوديو باباً صغيراً في الجدار العاري لمبنى خشبة المسرح وتبعته روزميري بألفة مرحة ومفاجئة داخل شبه العتمة. هنا وهناك كانت أشكال ترصّع الغسق، تُبرز وجوهاً شاحبة أمامها كأرواح

المطهر تراقب مرور الموتى. وكان هناك همس وأصوات ناعمة، وتناهى من بعيد كما بدا ترجيع رقيق لعزف آلة أرغن صغير. وظهرت زاوية كوَّنتها بعض الأسطح، تلتقي فجأة بالوهج الأبيض المفرقع لخشبة مسرح، حيث ممثل فرنسي - تلطّخَ الجزء الأمامي من قميصه، وياقته، وأساور قميصه باللون الوردي البراق - وممثلة أميركية تقف ساكنة وجها لوجه معه. كان يُحدق كل منهما في الآخر بعيون عنيدة، وكأنهما في تلك الوضعية منذ ساعات طوال؛ وطوال ذلك الوقت الطويل لم يحدث أي شيء، لم يتحرك أي منهما. صفّ من الأضواء انطفأ مع هسيس وحشي، ثم أُضيئت من جديد؛ الضرب الكئيب لمطرقة يطلب السماح بالدخول إلى لا مكان في المدى؛ ووجه أزرق ظهر بين الأضواء المُبهرة في الأعالي، نادى على شيء غير مفهوم في الظلام العلوي. ثم كسرَ الصمتَ صوتٌ جاء من أمام روزميري.

«يا حبيبتي، لا تنزعي الجورب، تستطيعين أنْ تفسدي عشرة أزواج منه. ذلك الثوب ثمنه خمسة عشر جنيهاً».

تراجع المتكلِّم لدى اعتراض روزميري طريقه، وعلى الأثر قال مدير الإستوديو، «مرحبا، أيرل - هذه آنسة هويت».

كانا يتقابلان للمرة الأولى. كان برادي سريعاً ونشطاً. وعندما تناول يدها وجدتْ أنه يتفحصها من قدمها إلى رأسها، لاحظت هذه الإيماءة وشعرت بألفة، لكنها منحتها طوال الوقت شعوراً خفيفاً بالتفوق على مَنْ يقوم بها. فإذا كان شخصها مُلكيّة يمكنها أنْ تمارس الميزة الموروثة بامتلاكها.

قال برادي، بصوت كان أقوى بقليل مما تحتمله، مصحوباً بطرف من نبرة عامية متحدّية «كنتُ أتوقع حضوركِ في أي يوم. هل كانت رحلتك ممتعة؟».

«نعم، لكنكَ سعيد بعودتك إلى الوطن».

قال محتجاً «كلا - ا - ا - ا! سأبقى بعض الوقت - أريد أنْ أتحدث

معك. دعيني أُخبرك أنَّ فيلمك كان جيداً – فيلم «*أثيرة أبيها*». شاهدته في باريس. وأبرقت للساحل الشرقي في الحال لأرى إنْ كنتِ قد وقّعت عقداً».

«لقد فعلت – أنا آسفة».

«يا إلهي، ما أجمله من فيلم!».

ولما لم تكن روزميري راغبة في الابتسام من باب الموافقة البلهاء، عبست.

قالت «لا أحد يريد أنْ يبقى في البال إلى الأبد بسبب فيلم واحد».

«طبعاً – هذا صحيح. ما هي خططك؟».

«أمي تعتقد أنني في حاجة إلى فترة راحة. وعندما أعود إما أنْ نوقع عقداً مع فيرست ناشنال أو نبقى مع شركة فيموس».

«مَنْ تقصدين بنحن؟».

«أمي. إنها تأخذ القرارات المتعلقة بالأعمال. لا أستطيع الاستغناء عنها».

من جديد أنعمَ النظر فيها، وبينما كان يفعل انتقل شيء في روزميري إليه. لم يكن إعجاباً، ليس إعجاباً عفوياً ما شعرت به تجاه الرجل على الشاطئ في صباح ذلك اليوم. كان شيئاً لحظياً. هو رغِبَ فيها وهي، فيما يخص مشاعرها العذراء، فكّرت في الاستسلام باتزان. ومع ذلك كانت تعرف أنها ستنساه بعد نصف ساعة من تركها له – كممثل تلقّى قُبلة في فيلم.

سأل برادي «أين تنزلين؟ أوه، نعم، في فندق غوس. حسن، أنا أيضاً وضعتُ خططي لهذا العام، لكنَّ تلك الرسالة التي بعثتها إليكِ ما زالت سارية المفعول. أفضّل أنْ أصنع فيلماً معكِ على أنْ أصنعه مع أي فتاة أخرى منذ أنْ كانت كوني تالمادج[1] طفلة».

1- كونستانس (كوني) تالمادج (1898 – 1973): ممثلة في السينما الصامتة، كانت أختا للاثنتين من الممثلات الأخريات. – المترجم

«لدي الشعور نفسه. لماذا لا تعود إلى هوليوود؟».

«لا أستطيع أنْ أتحمل ذلك المكان اللعين. أنا على ما يُرام هنا. انتظري حتى ما بعد هذه اللقطة وسوف نتجول في المكان».

ومشى إلى الموقع وبدأ يتحدث مع الممثل الفرنسي بصوت منخفض، هادئ.

مرت خمس دقائق - واصل برادي الكلام، بينما كان الفرنسي يُحرك قدمه بين حين وآخر ويومئ برأسه. وبسرعة انفجر برادي، هاتفاً بشيء بخصوص الإضاءة التي بهرتهم بسبب توهجها الشديد. كانت لوس أنجلوس تضجّ بأخبار روزميري حينئذٍ. وراحت تتنقّل من جديد غير هيابة في أرجاء المدينة ذات التقسيمات الهشّة، راغبة في العودة إلى هناك. لكنها لم ترغب في رؤية برادي في المزاج الذي شعرت بأنه سيكون فيه بعد أنْ ينتهي، فغادرت الموقع ولا تزال مبهورة. كان عالم البحر المتوسط قد أضحى أقلّ صمتاً الآن بعد أنْ علِمت بوجود الإستوديو هناك. لقد أحبّت الناس في الشارع واشترت لنفسها حذاءً خفيفاً وهي في طريقها إلى محطة القطار.

***

سُرّت أمها لأنها نفّذتْ بدقة ما طلبت منها أنْ تفعل، لكنها ظلت ترغب في إطلاقها عالياً. كانت السيدة سبيرز مفعمة بالنشاط ظاهرياً لكنها كانت مُتعبة؛ إنَّ ساعة الاحتضار تجعل الناس مُتعبين حقاً وكانت قد سهرت على احتضار اثنين.

الفصل الحادي عشر

لما كانت نيكول تشعر بالاسترخاء بعد تناول النبيذ الوردي على مائدة الغداء، عقدت ذراعيها عالياً على صدرها بحيث لمستْ زهرةُ الكاميليا الصناعية التي على كتفها وَجْنتَها، وخرجت إلى حديقتها الجميلة الخالية من العشب. كان يحدّ الحديقة من أحد أطرافها المنزل، تتدفق منه وتمتد فيه، على جانبين من القرية القديمة، وعلى الجانب الأخير يحدّها الجرف الذي ينحدر من الحيد إلى البحر.

على طول الجدران على جانب القرية كان كل شيء يعلوه الغبار، الكروم الملتوية، وأشجار الليمون واليوكاليبتوس، وعربات جر اليد المتناثرة، المتروكة قبل قليل، ولكنها تكاثرت على الدرب، ثم ضمرت وتعفّنت قليلاً. وكانت نيكول دائماً تُدهش قليلاً لأنها عندما تنعطف إلى الجهة الأخرى مارة بمسكب أزهار الفوانيا، تسير في منطقة شديدة النضرة والبرودة بحيث أنَّ الأوراق الخضراء والتويجات تكون ملتوية من الرطوبة الرقيقة.

كانت تربط عند نحرها وشاحاً بنفسجيّ اللون ينشر لونه، حتى تحت أشعة الشمس الخالية من اللون، على وجهها وهبوطاً حول قدميها المتحركتين في ظل من اللون البنفسجي. كان وجهها قاسي التعبير، يكاد يكون صارماً، ويخلو إلا من ومض ناعم من الشك يطلّ من عينيها الخضراوين. وشعرها الذي كان ذات يوم أشقر أصبح قاتم اللون، لكنها أجمل الآن وهي في الرابعة والعشرين مما كانت عليه وهي في الثامنة عشرة، عندما كان شعرها الأشقر أشد بريقاً منها.

واصلت السير على درب مُعلَّم بضباب الزهر غير الملموس الذي يلحق بحد الحجر الأبيض، ووصلت إلى مساحة تطل على البحر حيث مصابيح هاجعة داخل أشجار التين، وثمة طاولة كبيرة وكراس مجدولة كبيرة من سوق سينا، كلها جُمِعَتْ حول شجرة صنوبر ضخمة، وكانت أكبر أشجار الحديقة. توقفت هناك برهة، وهي تنظر بشرود إلى نبات أبو حجر وأزهار السوسن المتشابكة من أسفلها، وكأنها نبتت من حفنة مُهملة من البذور، تُصغي إلى شكاوى واتهامات صادرة عن شجار في غرفة للحضانة في المنزل. وعندما خبتت وحملها نسيم الصيف، تابعت سيرها، بين أزهار الفوانيا المتعددة الألوان المتكتّلة على شكل سُحُب من اللون الوردي، وأزهار التوليب السوداء والبنية وورود هشّة بسيقان بنفسجية، شفّافة كأزهار السُكَّر في واجهة محل بيع الحلويات - إلى أنْ، وكأنما رشاقة اللون بلغت أشدّها، توقفت فجأةً في الهواء، وهبطت درجات رطبة نحو الأسفل بمقدار خمس أقدام.

هنا كانت بئر مُحاطة بألواح من الخشب الشديد الرطوبة ولزج حتى في الأيام المُشمسة. ارتقت الدرج على الجانب المقابل وولجت حديقة الخضروات؛ سارت بخطى سريعة؛ كانت تحب أنْ تكون نشطة، على الرغم من أنها أحياناً كانت تعطي انطباعاً بالهدوء الساكن والمُثير للعواطف في وقت واحد. وذلك لأنها كانت تعرف بضع كلمات ولا تؤمن بأيٍّ منها، وكانت في العالم تميل إلى الصمت، ولا تساهم إلا بنصيبها في حس الدعابة المديني بدقة تقترب من البخل. ولكن عند لحظة معيّنة عندما يشعر الغرباء بعدم الارتياح في حضور هذا الشح كانت تمسك بزمام الحديث وتندفع معه، وتشعر بدهشة محمومة من نفسها - ثم تعيده وتتخلى عنه بسرعة، بشبه ذعر، ككلب صيد مطيع، بعد أنْ أثبتت كفاءتها وأكثر.

بينما كانت واقفة تحت الضوء الأخضر الضبابي في حديقة الخضروات، اجتاز ديك الممر في موقع بتقدم عليها متوجهاً إلى ورشة عمله. انتظرت

نيكول بصمت إلى أنْ مرّ؛ ثم انتقلتْ بين صفوف ما سيُصبح مستقبلاً أنواعاً من السلطة إلى مجمّع صغير للحيوانات حيث الحمام والأرانب وطائر ببغاء أطلقت خليطاً من الضجيج الوقح في وجهها. وهبطت إلى مستوى صخري آخر حتى وصلت إلى جدار منخفض ومنحن وأطلّت على مسافة سبعمئة قدم نحو الأسفل إلى البحر المتوسط.

وقفت في قرية التل القديمة تارميس. كانت الدارة وما يُحيط بها من أرض مكوّنة من صف من بيوت الفلاحين المتاخمة للجرف- خمسة منازل صغيرة اجتمعت لتشكّل المنزل وأربعة دُمِّرتْ لتشكّل الحديقة. الجدران الخارجية كانت سليمة، بحيث أنه لم يكن هناك ما يميّزها، من الطريق السفلي البعيد، عن الكتل البنفسجية الرمادية للبلدة.

وقفت نيكول برهة تنظر إلى أسفل إلى البحر المتوسط، ولكنْ لم يكن هناك ما يمكن استغلاله به، حتى بوجود يديها الصحيحتين. وسرعان ما خرج ديك من منزله المؤلَّف من غرفة واحدة حاملاً منظاراً مُكبّراً ونظر شرقاً ناحية مدينة كان. وفي الحال سبحت نيكول في مجال رؤيته، وعلى الأثر اختفى داخل منزله ثم خرج مع سماعة هاتف. كان لديه العديد من الأدوات الآلية الخفيفة.

هتف «نيكول، نسيت أنْ أخبرك كإيماءة رسولية أخيرة أني دعوت السيدة أبرامز، المرأة ذات الشعر الأبيض».

«لقد خمّنتُ ذلك، وهو أمر شنيع».

السهولة التي وصل بها جوابها إليه بدا أنه يُقلل من شأن بوقه، فرفعت صوتها وهتفت «هل تسمعني؟».

«نعم»، وأخفضَ السمّاعة ومن ثم عاد ورفعها بعناد. «سوف أدعو المزيد من الأشخاص أيضاً. سوف أدعو الشابين».

وافقت بهدوء «حسن».

«أريد أنْ أُقيم حفلاً *صارخاً* حقيقياً. أنا جادّ. أريد أنْ أقيم حفلاً يكون

فيه شجار وأعمال غواية ثم يذهب الناس إلى بيوتهم ومشاعرهم متأذّية ونساء يُصبن بالإغماء في المرحاض. انتظري وسترين».

عاد إلى داخل منزله، وشاهدت نيكول أحد أشد ما مرَّ به من أمزجته تميُّزاً، الإثارة التي جذبت إليها الجميع وكانت تتبعها على الدوام صيغته الخاصة من الكآبة، التي لم يُظهِرها أبداً لكنها خمّنتها. هذه الإثارة حول أشياء بلغت شِدّةً تجاوزت الحدود بالنسبة إلى أهميتها، مولِّدة براعة خارقة حقاً في التعامُل مع الناس. وكان، فيما عدا القِلّة من أصحاب الفكر الواقعي والمتشككين الدائمين، يمتلك القدرة على إثارة الحب المُذهل وغير التقليدي. وجاء رد الفعل عندما أدرك ما يتضمن ذلك من هدر وبذخ. كان أحياناً يعود بذاكرته برهبة إلى مهرجانات الحب التي كان يُقيمها، كما يحدّق القائد العسكري في مذبحة أمرَ بارتكابها إشباعاً لشهوة غير شخصية لسفك الدماء.

لكنَّ الانضمام إلى عالم ديك دايفر لفترة من الوقت كان تجربة رائعة: كان أناس يعتقدون أنَّه يُبدي تحفظات حولهم، عندما يتعرَّف على تفرّد مصائرهم الفخور. كان يكسب الجميع بسرعة بمراعاته الراقية وأدبه الذي كان يتحرك بسرعة كبيرة وببداهة بحيث لا يمكن تمييزها إلا من أثرها. ثم، من دون أخذ الحذر، خشية أنْ تذبل تباشير براعم العلاقة، يفتح البوابة المؤدية إلى عالمه المُسلّي. وما داموا يكتتبون للانتساب إليه بشكل كامل، فإنَّ سعادتهم تصبح شغله الشاغل، ولكن عند أول ومض من الشك في تفانيهم يتبخّر أمام عيونهم، لا يترك أدنى ذكرى تُذكّر بما قال أو فعل.

عند الساعة الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم خرج لاستقبال أول ضيوفه، حاملاً معطفه على يده بحركة رسمية، تعِدُ بما سيلي، كقلنسوة مصارعِ الثيران. كان معروفاً أنه بعد تحية روزميري وأمها سينتظرهما لكي تُبادرا بالكلام، كأنما ليسمح لهما بالاطمئنان على صوتيهما في الجو الجديد.

***

أخذت روزميري وأمها تتلفَّتان حولهما باستحسان تحت تأثير الارتقاء إلى تارميس والهواء الأكثر إنعاشاً. وكما أنَّ السجايا الشخصية لأناس استثنائيين يمكن أنْ تتجلى عبر تغيير غير اعتيادي في تعبير الوجه، كذلك الأمر فإن الكمال المحسوب بدقة لفيلا ديانا تحقَّقَ كله دفعة واحدة من خلال حدوث نقاط ضعف دقيقة كالظهور المفاجئ لخادمة في الخلفية أو انحراف فلينة. ومع توافُد أوائل الضيوف جالبين معهم إثارة الليل، يتراجع نشاط أهل البيت أثناء النهار مُبتعداً عنهم برفق، متمثِّلاً بأطفال آل دايفر ومربيتهم الذين يتناولون عشاءهم على المصطبة.

هتفت السيدة سبيرز «ما أجملها من حديقة!».

قال ديك «هذه حديقة نيكول. إنها لا تدعها وشأنها – تزعجها طوال الوقت، وتقلق على أمراضها. إنني أتوقع منها أنْ تُصاب بعفن ذروري أو ببراز الذباب أو الآفة المتأخرة»، وأشار بإبهامه بحزم إلى روزميري، قائلاً بخفّة لكي يُخفي اهتماماً أبوياً، «سوف أعمل على إنقاذ عقلك – سوف أُعطيك قبعة لكي تعتمريها على الشاطئ».

قام بتحويلهم بعيداً عن الحديقة باتجاه المصطبة، حيث صبّ لنفسه كأس كوكتيل. ثم وصل إيرل برادي واكتشف مُندهِشاً وجود روزميري. كان سلوكه أرقّ مما كان وهو في الاستوديو، وكأنّه ارتدى اختلافه عند البوابة، واستدارت روزميري بحِدّة، وهي تُجري مقارنة فورية بينه وبين ديك دايفر، نحو هذا الأخير. وبعد المقارنة بدا إيرل برادي مبتذلاً قليلاً، سيئ التنشئة قليلاً؛ ولكن مرة أخرى شعرت باستجابة كهربائية لشخصه.

تكلَّم بألفة مع الأطفال، الذين كانوا يغادرون مائدة عشائهم الخلوية على المصطبة.

«مرحباً، لانيير، ما رأيك في أغنية؟ هل لك أنت وتوبسي أنْ تغنيا لي أغنية؟».

وافق الصبي، قائلاً بلكنة اللسان المُنغّمة التي يتميَّز بها الأطفال الأميركيون الذين نشأوا في فرنسا، «وماذا سنغني؟».

«تلك الأغنية التي تحكي عن Mon Ami Pierrot (صديقي بييرو)».

وقف الأخ وأخته جنباً إلى جنب من دون خجل وحلّق صوتهما عذباً وحاداً في جو الأمسية.

«في ضوء القمر،
أعارني صديقي
بييرو قلمه
لكي أكتب كلمة.
انطفأت شمعتي
لم يعد لدي نار
افتح لي بابك
حباً بالله»

توقف الغناء ووقف الطفلان، ووجناتهما متوهجة من أشعة الشمس المتأخرة، يبتسمان بهدوء لنجاحهما الذي حقّقاه. كانت روزميري تعتقد أنَّ فيلا ديانا هي مركز العالم. على خشبة المسرح تلك لابد أنَّ شيئاً يبقى في الذاكرة سيحدث. وازدادت بهجتها عندما فُتحت البوابة ووصل باقي الضيوف دفعة واحدة. وتجمّع آل مكيسكو، والسيدة أبرامز، والسيد دمفري، والسيد كامبيون في المصطبة.

انتاب روزميري شعور حادّ بالإحباط - نظرتْ بهدوء إلى ديك، وكأنها تطلب منه تفسيراً لهذا المزيج اللامتناسق. ولكن لم يكن هناك أي شيء غريب في تعبير وجهه. حيّا ضيوفه الجُدد بهيئة الفخر وباحترام لإمكاناتهم غير المحدودة والمجهولة. لقد آمنت به إلى درجة أنها قبلت في الحال صواب حضور آل مكيسكو وكأنها كانت تتوقع أنْ تقابلهما طوال الوقت.

قال مكيسكو لآبيه نورث، الذي كان قد وصل مع زوجته في إثرهما «لقد سبق أنْ قابلتكما في باريس. في الواقع لقد قابلتكما مرتين».

قال آبيه «نعم، أتذكّر».

سأل مكيسكو، غير راضٍ عن بقائه وحده، «إذن أين كان ذلك؟».

«في الواقع، أعتقد -»، ملَّ آبيه اللعبة، «لا أتذكّر».

ملأ الحديث المُتبادَل فراغاً وأنبأتْ غريزة روزميري لها بأنّه يجب أنْ يُقول أحدهم شيئاً لبقاً، لكنَّ ديك لم يقُم بأي محاولة لفرط عقد التجمُّع الذي شكّله الذين وصلوا متأخرين، ولا حتى لتجريد السيدة مكيسكو من هيئة الاستمتاع المتكبِّر. لم يحل تلك المشكلة الاجتماعية لأنه كان يعلم أنها ليست هامة في الوقت الحاضر، وأنها تستطيع أنْ تحل نفسها بنفسها. كان يوفر جديدَه ليبذل فيه جهداً أكبر، منتظراً لحظة أكثر أهمية لكي يُدرك ضيوفه أنهم يقضون وقتاً ممتعاً.

وقفتْ روزميري بجوار تومي باربان. كان في مزاج شديد الازدراء وبدا أنَّ هناك حافزاً خاصاً يؤثر فيه. كان سيرحل في الصباح.

«عائد إلى الوطن؟».

«وطن؟ أنا ليس لي وطن، أنا ذاهب للالتحاق بالحرب».

«أي حرب؟».

«أي حرب؟ أي حرب. لم أقرأ الصحف مؤخراً ولكن لنفرض أنَّ هناك حرباً دائرة - هناك دائماً حرب دائرة».

«ألا يهمك أنْ تعرف لماذا تحارب؟».

«لا يهمني أبداً - ما دمت أتلقّى معاملة جيدة. عندما أشعر بالرتابة آتي لزيارة آل دايفر، لأنني عندئذٍ أعلم أنني في غضون بضعة أسابيع سأرغب في الذهاب إلى الحرب».

جمدت روزميري في مكانها.

ذكّرته «أنت تحب آل دايفر».

«طبعاً - خاصة هي - لكنهما يجعلانني أرغب في الالتحاق بالحرب».

فكّرت في كلامه، ولم تخرج بفائدة. إنَّ آل دايفر يجعلانها ترغب في المكوث بالقرب منهما إلى الأبد.

قالت، وكأنَّ ذلك يحل المشكلة، «أنت نصف أميركي».

«وأيضاً نصف فرنسي، وتلقّيت تعليمي في إنكلترا ومنذ بلوغي الثامنة عشرة ارتديت الزي الرسمي لثمانية بلدان. ولكنْ آملُ ألا أكون أعطيتكِ الانطباع بأنني لستُ مولعاً بآل دايفر - أنا كذلك، خاصة بنيكول».

قالت ببساطة «كيف يمكن لأي إنسان ألا يفعل؟».

شعرت بأنها أبعد ما يمكن عنه. لقد نفّرتها النبرة المنخفضة لكلماته وسحبت ولعها بآل دايفر من دنس إحساسه بالمرارة. كانت سعيدة لأنه لن يكون إلى جوارها على مائدة الطعام وكانت لا تزال تفكّر في كلماته «خاصة هي» وهما يقتربان من المائدة في الحديقة.

على الدرب أصبحت إلى جوار ديك دايفر برهة من الزمن. فإلى جوار بريقه القوي، الأنيق، تلاشى كل شيء وأضحى يقيناً بأنّه يعلم كل شيء. وعلى مدى عام، وكان أطول الأعوام، تلقّت المال وقدراً من الشهرة والعلاقات مع المشاهير، وهؤلاء الأخيرون برزوا فقط كصور مُضخَّمة قوية للأشخاص الذين ارتبطت بهم أرملة الطبيب وابنتها في فندق- نُزُل في باريس. كانت روزميري رومانسية ولم تزودها مهنتها بكثير من الفُرص المرضية في هذا المجال. ولم تتحمَّل أمها، التي تحمل تصوراً خاصاً لمستقبل روزميري، أياً من البدائل الزائفة كمصادر الإثارة المتوافرة على كل جانب، وكانت رزميري ولاشك قد تجاوزت ذلك - لقد كانت تعايش القصص السينمائية ولا تعمل فيها. ولذلك عندما رأتْ استحسان ديك دايفر مرتسماً على وجه أمها كان ذلك يعني أنه «المعدن الحقيقي»؛ ويعني السماح لها بالتمادي قدر ما تشاء.

قال «كنتُ أراقبك»، وأدركتْ أنه صادق. «لقد أصبحنا شديدي الولوع بك».

قالت بهدوء «لقد أحببتكَ منذ أنْ رأيتك أول مرة».

تظاهر بأنه لم يسمع، وكأنَّ المديح ذو طابع رسمي محض.

قال، وكأنها نقطة هامة، «إنَّ الأصدقاء الجُدد يمكنهم في الغالب أنْ يقضوا وقتاً ممتعاً معاً أكثر مما يفعل الأصدقاء القُدامى».

بهذا التعليق، الذي لم تفهمه بدقّة، وجدت نفسها على المائدة، بارزة بالأضواء التي أُنيرت ببطء على خلفية الغسق المُعتم. تصاعدت داخلها أنغام البهجة عندما رأتْ أنَّ ديك وضع أمها إلى يمينه؛ أما هي فجلست بين لوي كامبيون وبرادي.

التفتت إلى برادي وهي مُثقلة بالانفعالات وفي نيتها أنْ تُفضي إليه بسر، ولكن لدى أول ذِكر لديك جعلها ومضٌ قاسٍ ظهر في عينيه تفهم أنه يرفض أنْ يقوم بدور الوالد. وبدورها كانت صارمة عندما حاول أنْ يحتكر يدها، لذلك تحدثا في الأعمال، أو بالأحرى هي أصغتْ بينما تكلم هو عن الأعمال، ولم تتزحزح عينها عن النظر إلى وجهه؛ لكنَّ عقلها كان في وادٍ آخر حتى أنها شعرت بأنَّ عليه أنْ يُخمّن ذلك. وكانت تلتقط بشكلٍ متقطّع فحوى جُملِهِ وتُكمِل الباقي من لا وعيها، كما يميِّز المرء دقات الساعة من منتصفها ولا يعلق في ذاكرته من دقاتها الأولى غير المحسوبة إلا إيقاعها.

الفصل الثامن

خلال برهة صمت نظرتْ روزميري بعيداً إلى آخر المائدة، حيث جلست نيكول بين تومي بارباان وآبيه نورث، وشَعرُ كلبها الصينيّ يرغي ويزبد على ضوء الشموع. أصغت روزميري، وقد جذبها بحِدة الصوت الغني والمُحكم في حديث نادر:

هتفت نيكول «مسكين. لماذا تريد أنْ تقسمه إلى قسمين؟».

«طبعاً لأرى ماذا في داخل النادل. ألا تريديـن أنْ تعرفي ماذا في داخل النــادل؟».

اقترحت نيكول مع ضحك قصير «لوائح طعام قديمة وقِطعٌ من الصيني المكسور وبقشيشٌ وأعقاب أقلام رصاص».

«بالضبط – ولكن لا يمكن إثبات ذلك علمياً. وطبعاً تقطيعه بذلك المنشار الموسيقي سوف يُلغي أي سِمة شنيعة».

سأل تومي «هل كنتَ تقصد أنْ تلعب دور المنشـــار وأنت تُجــري العمليـة الجراحية؟».

«لم نصل إلى هذا المدى. لقد أرعبنا الصراخ. حسبنا أنّ شيئاً ما تمزَّقَ».

قالت نيكول «كل شيء يبدو غريباً بالنسبة إليّ. إنَّ أي موسيقيّ يستخدم منشاراً موسيقيّاً آخر لكي –».

كان قد مرّ على جلوسهم حول المائدة نصف ساعة وطرأ تغيّر

ملحوظ - أخذ شخص بعد آخر يُفضي بأمرٍ، بهمٍّ، بقلقٍ، بشكٍ، والآن أصبحوا جميعاً بحالٍ أفضل وأصبحوا ضيوف آل دايفر. ولو لم يكونوا ودودين ومُسلين لانعكس ذلك على آل دايفر، وهكذا كان الجميع يقومون بمحاولات، وعلى ضوء ذلك أحبّت روزميري الجميع - ما عدا مكيسكو، الذي نجح في أنْ يكون العضو الذي لم يتقبّله أحد في الحفل. ولم يكن السبب هو الحقد بل عزمه على تعزيز النبيذ بالروح الودود التي استمتعت بها لدى وصوله. ومن مجلسه بين إيرل برادي، الذي كان قد وجّه إليه عِدّة ملاحظات مُدمّرة حول السينما، والسيدة أبرامز، التي لم يتبادل معها أي كلمة، أخذ مكيسكو يُحدّق إلى ديك دايفر وعلى وجهه تعبير تهكُّم مُدمر، وكانتْ محاولاته لجعل ديك ينخرط في حديث من زاوية منحرفة عبر طاولة المائدة تُقاطع تأثير ذلك أحياناً.

كان يقول «ألستَ صديقاً لفان بورن دنبي؟».

«لا أعتقد أني أعرفه».

ألحَّ بغضب «حسبتُ أنك صديقه».

عندما فشل موضوع السيد دنبي، قام بإثارة مواضيع أخرى لا معنى لها، ولكن في كل مرة كان يفشل في لفت انتباه ديك، وبعد برهة من الصمت التام كان الحديث الذي قاطعه يتواصل من دون مشاركته. وحاول أنْ يقتحم حديثاً آخر، ولكن كان الأمر أشبه بمصافحة قفاز من دون يد - وأخيراً، كرّسَ انتباهه بالكامل، وكأنه يتخلى عن جلسة مع أطفال، للشمبانيا.

كانت نظرة روزميري تتنقّل على فترات حول المائدة، تواقة إلى استمتاع الآخرين، وكأنهم أحفادها في المستقبل. وقع ضوء المائدة الرقيق، المنبعث من طاس من ألوان الوردي الحيوية، على وجه السيدة أبرامز، الذي تحول إلى السُمرة في فوف كليكو، الوجه المفعم بالحيوية، وبالقدرة على التحمُّل، وبالودّ المراهق: وإلى جوارها جلس السيد رويال دومفي، الذي كان جمال رفيقته أقل إبهاراً في جو الأمسية الممتع؛ ثم فيوليت

مكيسكو، التي برز جمالها جلياً عليها، بحيث أنها توقـــفت عن الكفاح لجعل موقعــها الشــاحب كزوجةِ مُحدَثِ نِعمة لم يصل بعداً ملموســاً.

ثم جاء ديك، وذراعاه مملوءتان بالملابس الفضفاضة التي أُخِذَتْ من الآخرين، مندمجاً بعمق بحفله الخاص.

ثم أمها، الكاملة دائماً.

ثم باربان، الذي يتحدث مع أمها بطلاقة راقية أثارت إعجاب روزميري من جديد. ثم نيكول. شاهدتها روزميري فجأةً بأسلوب جديد ووجدتْ أنّها إحدى أجمل مَنْ رأت عيناها. وجهها، نسخة الفايكينغ من وجه العذراء الملائكي، يشع من خلال الأنغام الناعمة التي كانت تنهمر كالثلجِ عبر ضوء الشموع، مُستمدة تورّدها من المصابيح ذات اللون الخمري داخل أشجار الصنوبر. كانت ساكنة كالسكون نفسه.

كان آبيه نورث يحدثّها عن مبدأه الأخلاقي. ألحّ: «طبعاً أنا لديّ واحد - إذ لا يمكن للإنسان أنْ يعيش من غير مبدأ أخلاقي. ومبدئي يقول إنني ضد حرق الساحرات. فكلما حرقنا ساحرة أشعرُ بالحرارة تنبعث فيّ». وعلِمَتْ روزميري من برادي أنه كان موسيقياً لم يؤلِّف، بعد بداية لامعة ومبكّرة، أيّ شيءٍ على مدى سبع سنوات.

بعد ذلك كان كامبيون، الذي نجح بطريقة ما في ضبط خنوثته الشديدة الوقاحة، وحتى أنْ يفرض على المجاورين له نوعاً من الأمومة النزيهة. ثم ميري نورث ذات الوجه الشديد المرح بحيث كان من المستحيل ألا تردّ على ابتسامتها بمثلها أمام المرايا البيضاء لأسنانها - شكّلت المنطقةُ المحيطة بشفتيها المنفرجتين دائرةً صغيرة جميلة من الابتهاج.

وأخيراً برادي، الذي أضحت حماسته، لحظة بعد أخرى، تُشكّلُ جانباً اجتماعياً بدل أنْ تكون تشديداً وضماناً فظّين على صحته العقلية، وعلى حِفاظه عليها بانفصاله عن هشاشة الآخرين.

كانت روزميري، الندية بالإيمان كطفل من أحد كتب السيدة برنيت

الشريرة، مؤمنة بالعودة إلى الوطن، بالعودة من ارتجال الجبهة الباعث على السخرية والداعر. كانت هناك حباحب تمتطي الهواء المظلم وكلب ينبح على حيد بعيد ومنخفض من الجرف. وبدا كأنَّ المائدة قد ارتفعت قليلاً نحو السماء كمنصة رقص آلية، مانحة الناس من حولها إحساساً بأنهم وحدهم بعضهم مع بعض في الكون المظلم، يتغذّون بطعامه فقط، ويستدفئون بأضواءه فقط. ثم بدأ الثنائي آل دايفر، وكأنَّ ضحكة غريبة خافتة من السيدة مكيسكو كانت إشارة إلى أنَّ ذلك الانفصال عن العالم قد تم تحقيقه، بدآ فجأة يشعران بالدفء ويتوهجان ويتمددان، وكأنما ليعوِّضا على ضيوفهما الذين اطمأنوا إلى أهميتهم، بأدب، عن أي شيء ما زالوا يفتقدونه من ذلك البلد الذي خلفوه وراءهم منذ زمن بعيد. ولبرهة من الزمن بدا كأنهما يتكلمان مع كل جالس حول المائدة، فرادى وجماعات، يُطمئنانهم إلى ودادهما وإلى حبهما. ولبرهة من الزمن كانت الوجوه المرفوعة نحوهما أشبه بوجوه أطفال فقراء عند شجرة ميلاد. ثم على عجل انفرط عقد المائدة - قبل أنْ تنصرِم اللحظة التي تعالى فيها الضيوف بجراءة عن الاستمتاع بالطعام والشراب إلى أندر جو من العاطفة قبل أنْ يُعبَّر عنها بلا احترام، قبل أنْ يعوا وجودها ولو جزئيّاً.

لكنَّ السِحر الساري للجنوب العذب والحار كان قد تراجع داخلهم - الليل ذو المخالب الناعمة وأمواج البحر المتوسط المخيفة في الأسفل - غادر السحر تلك الأشياء وذاب داخل الثنائي دايفر وأصبح جزءاً منهما. راقبت روزميري نيكول وهي تضغط على حقيبة أمها المسائية الصفراء التي أُعجبت بها وتقول «أعتقد أنَّ الأشياء يجب أنْ تخصّ الأشخاص المُعجبين بها» - ومن ثم ملأتها بكل الأغراض الصفراء التي عثرت عليها، قلم رصاص، قلم أحمر شفاه، دفتر ملاحظات صغير، «لأنها متلائمة مع بعضها».

اختفت نيكول وفي الحال لاحظت روزميري أنَّ ديك لم يعُد يُرى في أي مكان؛ ثم توزّع الضيوف في الحديقة أو اندفعوا نحو المصطبة.

سألت فيوليت مكيسكو روزميري «هل تريدين أنْ تذهبي إلى الحمّام؟».

ليس في تلك اللحظة بالذات.

ألحّت السيدة مكيسكو «أنا أريد أنْ أذهب إلى الحمّام». مشت باتجاه المنزل كامرأة صريحة وواضحة، تجرّ وراءها سرّها، بينما روزميري تتلقّى العناية باستنكار. اقترح إيرل برادي أنْ ينزلوا إلى جدار البحر، لكنها شعرت بأنَّ الوقت قد حان لتنال نصيبها من ديك دايفر عندما يظهر من جديد، فتوقفت، مُصغية إلى شجار مكيسكو مع باربان.

قال مكيسكو «لماذا تريد أنْ تحارب السوفيت؟ ألأنها أعظم تجربة قامت بها الإنسانية؟ والبربر[1]؟ يبدو لي أنه سيكون عملًا بطولياً أكثر إذا حاربنا مع الجانب الصحيح».

سأل بربان بجفاء «وكيف تميِّز بينهما؟».

«الأمر بسيط - في المعتاد كل إنسان ذكي يعرف».

«أأنت شيوعي؟».

قال مكيسكو «أنا اشتراكي، وأتعاطف مع روسيا».

أجاب باربان بسرور «حسن، أنا جندي. عملي هو قتل الناس. لقد حاربت البربر لأنني أوروبي، وحاربت الشيوعيين لأنهم يريدون أنْ يُجرّدوني من ممتلكاتي».

«هذا من ضمن الأعذار الصادرة عن ضيق الأفق». تلفّت مكيسكو حوله ليُقيم حواراً مُثيراً للسخرية مع شخص آخر، ولكن من دون إحراز نجاح. لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا يواجه في باربان، ولا عن بساطة مجموع أفكار الرجل الثاني ولا عن تعقيد تدريبه. كان مكيسكو يعرف ما هي الأفكار، ومع نمو عقله استطاع أنْ يُميِّز ويُصنِّف عدداً متزايداً منها - لكنه واجه رجلاً اعتبره «أحمق»، لم يجد لديه أي أفكار يمكن اعتبارها

1- البربري: أحد أعضاء البربر، سكان جبال الأطلس في الجزائر.

كذلك، ومع ذلك لم يشعر بالتفوق الشخصي عليه، واستنتج بسرعة أنَّ باربان هو نهاية نِتاج عالم عتيق ومعدوم القيمة. وكانت صِلات مكيسكو مع الطبقات الراقية في أميركا قد خلّفتْ لديه عنجهيتها المترددة والمتعثرة، وابتهاجها بجهلها، وفظاظتها المتعمّدة، وكلها أُخِذَتْ من الإنكليز من دون الأخذ بعين الاعتبار العوامل التي تجعل من النزعة المحافظة والفظاظة الإنكليزية ذات هدف، وتُطبّق في أرضٍ تدرُّ فيها قِلّة المعرفة والتحضُّر من الربح أكثر مما يحدث في أي مكان آخر – وهو موقف بلغ أوجه في «أسلوب هارفارد» في حوالي عام 1900. وحسب أنَّ باربان هذا من ذلك النمط، ولما كان ثملاً نسيَ بتهوُّر أنه يرهبه.

لما شعرت روزميري بصورة غامضة بالخجل بالنيابة عن مكيسكو، انتظرتْ، هادئة ولكنها من داخلها كانت تستعر ناراً، عودة ديك دايفر. ومن كرسيها على المائدة المهجورة مع باربان ومكيسكو وآبيه مدّت نظرها على طول الدرب الذي يحفّه نبات الآس والسرخس الظليل حتى المصطبة الحجرية، وعشقت جانب وجه أمها على خلفية الباب المُضاء، وكادت تذهب إلى هناك عندما جاءت السيدة مكيسكو مسرعة هابطة من المنزل.

كانت تنضح بالحماس. وسط الصمت الذي جرّت فيه كرسياً وجلست عليه، وعيناها تحدقان، وفمها يتحرك قليلاً، عرفوا أنها مُحمّلة بالأخبار، وجاء سؤال زوجها «ما الأمر، هه؟» طبيعياً، بما أنَّ العيون كلها اتّجهت نحوها.

قالت بتبجُّح «عزيزي –»، ثم خاطبت روزميري، «عزيزتي – لا شيء يستحق الذِكر. لا أستطيع أنْ أقول كلمة واحدة».

قال آبيه «أنتِ بين أصدقاء».

«حسن، في الطابق العِلوي شاهدتُ شجاراً، يا أعزائي –».

هزّت رأسها بصورة غامضة وسكتت في الوقت المناسب، ذلك أنَّ تومي نهضَ واقفاً وخاطبها بأدب ولكن بحِدّة:

«لا أنصحكِ بالتعليق على ما يجري في هذا المنزل».

الفصل التاسع

أخذت فيوليت نَفَســاً بصوتٍ مرتفع وقويّ مرةً واحــدة وبجهد جلب تعبيــراً إلى وجهها.

أخيراً جاء ديك وبغريزة واثقة من نفسها فصل بين باربان والسيد مكيسكو وأصبح جاهلاً باطّراد وبفضول في الأدب مع مكيسكو - وبهذا منح هذا الأخير برهة من الإحساس بالتفوُّق كان في حاجة إليها. وساعده الآخرون في رفع مصابيح المعرفة عالياً - ومَنْ لا يُسعده أنْ يساعد في حمل المصابيح في الظلام؟ قدَّمت روزميري يد المساعدة وفي الوقت نفسه استجابت بصبر لفضول رويال دومفي الذي لا ينضب حول هوليوود.

أخذت تقول في نفسها: ها قد فزت بانفرادي به بعض الوقت. يجب أنْ يعلم هذا لأنَّ قوانينه تشبه القوانين التي علمتني إياها أمي.

كانت روزميري على صواب - فسرعان ما فَصَلَها عن المجموعة على المصطبة وأصبحا وحدهما معاً، وابتعدا عن المنزل باتجاه جدار شاطئ البحر بعدد من الخطوات أقلّ من المسافات غير المنتظمة فيما بينها، كانت تُجرّ خلال بعضها وتندفع خلال البعض الآخر.

أطلاّ على البحر المتوسط. في الأسفل، كان آخر قارب نزهة من إيل دو ليران يجتاز الخليج كمنطاد الرابع من تموز يُحلِّقُ حراً في السماء. كان يُبحر بين الجزر السوداء، يشقّ المدّ الداكن بنعومة.

قال «أنا أتفهّم لماذا تكلّمتِ كما فعلت عن أمك. أعتقد أنَّ موقفها

اتجاهك جيد جداً. لقد كانت تتحلى بما يشبه الحِكمة النادرة الوجود في أميركا».

قالت كأنها تتضرّع «أمي مثالية».

«كنتُ أتحدث معها عن خطتي – قالت لي إنَّ مدة مكوثكما في فرنسا مرهونة بك».

قالت روزميري في دخيلتها، بل بكَ *أنت*.

«بما أنَّ الأمور هناك في الأسفل انتهتْ –».

سالتْ «انتهت؟».

«حسن، هذا انتهى – هذا الجزء من فصل الصيف انتهى. في الأسبوع الفائت غادرتْ أخت نيكول، وغداً سيغادر تومي بارابان، ويوم الاثنين يُغادر آبيه وميري نورث. قد نقضي المزيد من الوقت الممتع هذا الصيف، أما هذا النوع من المتعة فقد انتهى. أردتُه أنْ يموت بعنف بدل أنْ يتلاشى عاطفياً – لهذا أقمتُ هذا الحفل. ما سأفعل هو ما يلي: سوف نذهب أنا ونيكول إلى باريس لكي نودِّع آبيه نورث قبل أنْ يرحل إلى أميركا.. أتساءل إنْ كنتِ تودّين مرافقتنا».

«ما هو رأي أمي؟».

«يبدو أنها تعتقد أنَّه سيكون أمراً رائعاً. هي لا تريد أنْ تذهب. تريد منكِ أنْ تذهبي وحدك».

قالت روزميري «أنا لم أذهب إلى باريس منذ أنْ بلغتُ سن الرشد، وأحب أنْ أشاهدها معك».

«ذا جميل منك». هل تخيّلتْ أنَّ صوته قد أصبح فجأةً رناناً؟ «طبعاً لقد فرحنا بك منذ اللحظة الأولى لوصولك إلى الشاطئ. كنا متيقنين من أنَّ تلك الحيوية حِرفيّة – خاصة نيكول. وهي لا تُستهلك على أي شخص أو مجموعة».

صرخت غريزتها قائلة لها إنه يتجاوزها ببطء ويتَجه نحو نيكول فكبحت جماح نفسها، قائلة بقسوة مُعادلة:

«أردتُ أنْ أعرفكم جميعاً أيضاً - خاصةً أنت. لقد قلت لك إني أحببتك منذ اللحظة الأولى».

كانت مُحقّة في طرق الموضوع بتلك الطريقة. لكنَّ فضاءً ما بين السماء والأرض جعل عقله هادئاً، ودمّر تهوره الذي قاده إلى هنا، وجعله يعي الإغراء الشديد الوضوح، والتصارع مع مشهدٍ مُرتجَل وكلماتٍ غريبة.

عندئذٍ حاول أنْ يجعلها ترغب في العودة إلى المنزل وكان ذلك صعباً، ولم يرغب حقاً في أنْ يفقدها. ولم تشعر إلا بتيار الهواء يهبّ عليها وهو يمازحها بروح مرحة.

«أنتِ لا تعرفين ما تريدين. اذهبي واسألي أمك عمّا تريدين».

صُدِمتْ. لقد لمسته، شعرت بنعومة قماش معطفه الحالك مثل رداء الكاهن. كأنها أوشكت أنْ تخرّ على رُكبتيها - من ذلك الوضع أرسلت طلقتها الأخيرة.

«أعتقد أنكَ أشدُّ مَنْ قابلتُ روعة - باستثناء أمي».

«إنّ عينيك رومانسيتان».

حلَّقَتْ ضحكته بهما عالياً نحو المصطبة وهناك سلّمها إلى نيكول.

سرعان ما حان وقت الرحيل وساعد آل دايفر الجميع في الإسراع في الذهاب. في سيارة آل دايفر الإيزوتا الكبيرة ركب تومي باربان مع أمتعته - كان يُمضي الليل في الفندق لكي يلحق بالقطار الباكر - مع السيدة أبرامز، ومكيسكو، وكامبيون. وكان إيرل برادي سيقلّ روزميري وأمها في طريقه إلى مونت كارلو، وركب رويال دمفري معهما لأنَّ سيارة آل دايفر كانت مزدحمة. كانت المصابيح في الحديقة لا تزال تتوهج فوق الطاولة حيث كانوا يتناولون العشاء، ووقف آل دايفر جنباً إلى جنب عند البوابة، واستمرت نيكول تتفتّح وتملأ الليل بحُسنها وديك يودّع كلاً باسمه. وبدا لروزميري أنَّ من المُصيب جداً الابتعاد وتركهما في منزلهما. ومن جديد تساءلت عمّا شاهدته السيدة مكيسكو في الحمّام.

الفصل العاشر

كان الليل حالكاً وصافياً، كأنه يتدلّى داخل سلّة من نجم وحيد خامد. كان بوق السيارة في المقدمة مكبوتاً بمقاومة شدّة الرياح. قاد سائق برادي السيارة ببطء؛ وكانت الأضواء الخلفية للسيارة الأخرى تظهر بين حين وآخر عند المنعطفات - ثم تختفي. ولكن بعد مرور عشر دقائق ظهرتْ من جديد، واتّخذَتْ جانب الطريق. وكان سائق سيارة برادي يسير ببطء خلفها، ولكنه بدأ على الفور يتقدَّم ببطء ويتجاوزها. وفي اللحظة التي تجاوزوها سمعوا أصواتاً غير مفهومة من خلف التحفُّظ المُهيمن على سيارة الليموزين، وشاهدوا سائق سيارة آل دايفر يُكشّر. ثم تابعوا طريقهم، مسرعين مخترقين على التناوب ضفاف الظلام والليل المُرقّق، هابطين أخيراً في سلسلة من الاندفاعـــات الســـريعة، نحو الكتلة العظيمة لفندق غوس.

غفَتْ روزميري على مدى ثلاث ساعات ومن ثم استلقتْ في سريرها يقظة، مُعلَّقة في ضوء القمر. أرهقتْ، متدثّرةً بالظلام الحسيّ، المستقبلَ بسرعة، بكل الاحتمالات التي قد تؤدي إلى قُبلة، لكنها قُبلة مُبهمة كالتي تظهر في الأفلام السينمائية. بدّلتْ وضعيتها على السرير عمداً، وهي الإشارة الأولى على الأرق الذي انتابها في حياتها، وحاولتْ أنْ تفكّر بعقل أمها في المسألة. وفي هذه العملية كان ذكاؤها غالباً يتجاوز تجربتها، بأشياء تذكّرتها من أحاديثَ قديمة دارتْ داخلها غمغمةً.

كانت روزميري قد نشأت مع فكرة العمل. وكانت السيدة سبيرز قد

قَضَت الفترات القصيرة بعيداً عن الرجال الذين جعلوها أرملة في تثقيف ابنتها، وعندما أزهرت في سن السادسة عشرة بذلك الشَعر المُبهر، حثّتها بحماس على الذهاب إلى فندق إكس ليه بان وسارت بها من دون سابق إنذار إلى جناح منتج أميركي كان يقضي هناك فترة استجمام. وعندما ذهب المنتج إلى نيويورك رافقتْه أيضاً. وهكذا اجتازت روزميري امتحانات القبول. وبعد تحقيق النجاح وما تبع من وعد بالاستقرار النسبيّ، شعرت السيدة سبيرز هذه الليلة بأنها حرة في أنْ تقول ضمناً:

«لقد خُلِقتِ للعمل - وليس بالضرورة للزواج. لقد عثرتِ على فرصتكِ الأولى التي ينبغي أنْ تنتهزيها وهي فرصة جيدة - امضِي واختبري كل ما يحدث. اجرحي نفسك أو اجرحيه هو - إنَّ ما يحدث لا يمكن أنْ يُفسِدك، لأنكِ من الناحية الاقتصادية فتى، لا فتاة».

لم تكن روزميري قد فكّرتْ كل هذا الكم من التفكير، إلا في ما يخص خِصال أمها المثالية التي لا حدود لها، لذلك فإنَّ هذا الانقطاع النهائي للحبل السري هو ما أقضّ مضجعها. جعل الفجرُ الكاذب السماءَ تضغط على النوافذ الفرنسية الطويلة، فنهضت وخرجت إلى المصطبة، شاعرة بالدفء حتى أخمص قدميها الحافيتين. كان الجو يعبق بالأصوات السرية، بطائر مجتهد حقق انتصاراً خبيثاً منتظماً في الأشجار المخيمة على ملعب كرة المضرب؛ وسمعت وقع أقدام على ممر السيارات الدائري في خلفية الفندق، مُستمدة رنينها بدورها من الدرب الترابي، ومن ممشى الحجر المسحوق، والدرج الإسمنتي، ومن ثم عاكسة العملية بابتعادها. وخلف البحر بلونه الحبريّ وفي أعالي ذلك الظل الأسود للتل عاش آل دايفر. تخيّلتهما معاً، سمعتهما لا يزالان يُغنيان بصوت واهن أغنية أشبه بدخانٍ يتصاعد، كترتيل، شديد النأي في الزمان وشديد البُعد. أولادهما نائمون، وأُغلِقتْ بوابتهما آناء الليل.

ولجت إلى الداخل ومن ثم خرجت من جديد، وهي برداء خفيف وتنتعل الخف، من نافذتها ومشت على طول المصطبة المتواصلة نحو الباب

الأمامي، بخُطى سريعة لأنها اكتشفت أنَّ الغرف الأخرى الخاصة، التي تنضح بالنوم، مفتوحة عليه. ثم توقفت لدى رؤيتها شخصاً جالساً على الدرج العريض الأبيض للمدخل القديم - ثم تبيَّنت أنه لوي كامبيون وأنه يبكي.

كان يبكي بحُرقة وهدوء ويهتز في الأجزاء نفسها التي تهتز في المرأة الباكية. ومرّ في خاطرها رغماً عنها دور تمثيليٌ كانت قد لعبته في العام السابق وتقدّمت ولمست كتفه. أجفل قليلاً قبل أنْ يُميِّزها.

«ما الأمر؟». كانت عيناها صريحتين ورقيقتين وغير ساخرتين وهما تشخصان إليه بفضول قاس. «هل أستطيع أنْ أساعدك؟».

«لا أحد يستطيع أنْ يُساعدني. كنتُ أعلم ذلك. أنا الملوم. الحال هو نفسه دائماً».

نظر إليها ليتبيَّن.

قرّر «كلا، عندما تصبحين أكبر سناً سوف تعرفين ما يعاني العاشقون. سوف تعرفين الأسى. من الأفضل أنْ يبقى المرء بارداً وشاباً على أنْ يكون عاشقاً. لقد حدث ذلك معي من قبل ولكن ليس هكذا - كان عَرَضياً - فقط عندما كان كل شيء يسير على ما يُرام».

كان وجهه بغيضاً في الضوء المُسرع. ولم تفضح حتى بومض من شخصيتها، ولا بحركة من أصغر عضلة فيها، عن شعورها المفاجئ بالاشمئزاز. لكنَّ حساسية كامبيون أدركت ذلك فغيَّر الموضوع فجأةً.

«إنَّ آبيه نورث هنا في مكان ما».

«لا أعتقد، إنه يقيم في منزل آل دايفر!».

«نعم، ولكنه في الأعلى - ألا تعلمين ما حدث؟».

فجأةً فُتحَ مصراع نافذة في غرفةٍ كائنة فوقهما بطابقَين وهتف صوت بإنكليزية واضحة:

«*هلا تفضلتما وكففتما عن الكلام!*».

هبطت روزميري مع لوي كامبيون بتواضع إلى أسفل الدرج ومنه إلى مقعد يقع بجوار الطريق إلى الشاطئ.

«إذن ليست لديكِ أدنى فكرة عمّا حدث؟ يا عزيزتي، إنه أغرب ما رأيت -»، كان قد بدأ يتحمّس، متشبثاً بكشف سره. «لم أر في حياتي أمراً وقع بمثل تلك الفُجاءة - لطالما تجنّبت الأشخاص العنيفين - إنهم يُزعجونني لذلك أضطر أحياناً إلى البقاء في السرير على مدى أيام».

نظر إليها بانتصار. ولم تفهم أي شيء مما قال.

انفجر قائلاً، مائلاً نحوها بكامل جسمه وهو يلمس أعلى ساقها، لكي يُبيِّن أنها ليست مجرد مغامرة غير مسؤولة من يده - كان شديد الثقة بنفسه. «ستكون هناك مبارزة».

«ما- ذا؟».

«مبارزة بالـ - لا نعلم بعد بماذا».

«مَن الذي سيبارز؟».

«سأخبرك الحكاية من أولها»، وأخذَ نَفَساً عميقاً ومن ثم قال، كأنه لا يأتمنها لكنه لم يُخفه عنها، «طبعاً، أنتِ كنتِ في السيارة الأخرى. حسن، لقد كنتِ محظوظة بصورة ما - لقد خسرت على الأقلّ سنتين من عمري، لأنَّ الأمر وقع فجأة وسريعاً».

سألتْ «ما الذي وقع؟».

«لا أدري ما الذي سبّبه. أولاً بدأتْ تتكلَّم -».

«مَنْ؟».

«فيوليت مكيسكو» قالها بصوت منخفض وكأنَّ هناك أناساً تحت المقعد. «ولكن لا تذكري آل دايفر، لأنه يُهدِّد كل مَنْ يأتي على ذِكرهما».

«مَن الذي يُهدد؟».

«تومي باربان، لذلك لا تقولي إني أتيتُ على ذِكرهما. لا أحد منا عرف ما الذي كانت تنوي أنْ تقول لأنه أخذ يُقاطعها باستمرار، ثم تدخّل زوجها والآن، يا عزيزتي، أصبح لدينا مبارزة. في صباح هذا اليوم - عند الساعة الخامسة - في غضون ساعة». تنهّد، وأخذ فجأة يفكّر في أحزانه. «كدتُ أتمنى لو كنتُ أنا. ويمكنني أيضاً أنْ أُقتَل بما

أنه لم يعد لديّ ما أعيش من أجله». ثم سكت وأخذ يهتز إلى الأمام والخلف من الحزن.

من جديد فُتح مصراع النافذة الحديدي فوقهما وقال الصوت الإنكليزي نفسه:

«*لقد طفح الكيل، ويجب أنْ تسكتا فوراً*».

في الوقت نفسه، خرج آبيه نورث من الفندق، يبدو شارداً قليلاً، وتبيَّنهما أمام خلفية السماء، أبيضين يطلان على البحر. هزّت روزميري رأسها مُحذِّرة قبل أنْ يتمكن من الكلام وانتقلا إلى مقعدٍ آخر أبعد على الطريق. ووجدت روزميري أنَّ آبيه نورث ثمل قليلاً.

سأل «ما الذي يُبقيكما *أنتما* يقظَين؟».

«لقد استيقظتُ تواً» وبدأتْ تضحك، ولكن عندما تذكرتِ الصوت الصادر من فوق ضبطتْ نفسها.

اقترحَ آبيه «لقد ابتُليتُ بعندليب»، ثم كرر «ربما ابتُليتُ بعندليب. هل أخبركِ هذا الثرثار عمّا حدث؟».

قال كامبيون برصانة:

«أنا أعرف فقط ما سمعته بأذنيّ».

ونهضَ واقفاً ومشى مبتعداً بخطى سريعة؛ وجلس آبيه بجوار روزميري.

«لماذا أسأتَ معاملته هكذا؟».

سألَ مندهشاً «هل فعلت؟ لقد كان يبكي هنا طوال فترة الصباح».

«من يدري، ربما هو حزين على شيء ما».

«ربما هو كذلك».

«وماذا عن المبارزة؟ من الذي سيتبارز؟ حسبتُ أنَّ هناك شيئاً غريباً كان يجري في تلك السيارة. أصحيح هذا؟».

«لا شك في أنَّ الأمر جنونيّ، ولكن يبدو أنه صحيح».

الفصل الحادي عشر

بدأتْ المشاكل عندما تجاوزت سيارة إيرل برادي سيارة آل دايفر على الطريق - ذاب سرد آبيه بلهجة موضوعية داخل الليل النابض - كانت فيوليت مكيسكو تخبر السيدة أبرامز عن شيء اكتشفته حول آل دايفر - كانت قد ارتقت إلى الطابق العلوي في منزلهما ورأتْ شيئاً ترك أثراً بليغاً فيها. لكنَّ تومي كان حارس آل دايفر. في الواقع هي مُثيرة ورائعة - لكنه أمر مُشترَك، وحقيقة كون الثنائي دايفر معاً أهمّ بالنسبة إلى أصدقائهما مما يُدركه أكثرهم. وطبعاً الأمر يتم بتضحية معيَّنة - أحياناً يبدو أنهما شخصان ساحران في لوحة باليه، ويستحقان الانتباه الذي تحظى به الباليه، لكنَّ الأمر يتجاوز ذلك - ويجب أنْ تعرف الحكاية. على أي حال إنَّ تومي هو أحد أولئك الرجال الذين أعطاهم ديك لنيكول وعندما أخذت السيدة مكيسكو تلحُّ في التلميح إلى حكايتها، أتى على ذكرهم فيها. قال:

«سيدة مكيسكو، أرجوكِ لا تتكلمي أكثر من ذلك عن السيدة نيكول».

احتجّت قائلة «لم أكن أوجّه كلامي إليك».

«أعتقد أنَّه من الأفضل أنْ ندعهما وشأنهما».

«أهما خائفان إلى هذه الدرجة؟».

«دعيهما وشأنهما. تكلّمي عن أمر آخر».

كان جالساً على أحد المقعدين الصغيرين بجوار كامبيون. وأخبرني كامبيون القصة.

«حسن، أنت مستبد جداً»، وعادت فيوليت.

أنت تعلمين كيف تجري الأحاديث في السيارات في وقت متأخّر من الليل، بعضهم يُغمغم وبعضهم لا يأبه، ويستسلمون بعد انتهاء الحفل، أو يشعرون بالضجر أو ينامون. حسن، ولم يعلم أي منهم ما حدث إلى أنْ توقفت السيارة وصرخَ باربان بصوت صدم الجميع، صوت فارس:

«أتريدون أنْ تترجلوا هنا - إننا لا نبعد أكثر من ميل عن الفندق ويمكنكم أنْ تمشوا أو أجرّكم إلى هناك، *عليكم أنْ تخرسوا وتُخرِسوا زوجاتكم!*».

قال مكيسكو «أنت متنمّر. أنت تعلم أنكَ أقوى مني عضلياً. لكنني لستُ خائفاً منك - إنَّ ما ينبغي أنْ يحصلوا عليه هو قواعد المبارزة -».

عندئذٍ ارتكبَ غلطته، إذ لمّا كان تومي فرنسيّاً مال عليه وقام بصفعِه، ثم تابع السائق القيادة. وعندئذٍ تجاوزتموهم. ثم باشرت النسوة الثرثرة. وبقيت الأمور على حالها حتى وصلوا إلى الفندق.

اتصل تومي بأحد الرجال في مدينة كان ليكون شاهداً على المبارزة، وقال مكيسكو إنه لا يقبل أنْ يكون شاهده هو كامبيون، الذي لم يكن متحمساً لذلك المنصب على أي حال، لذلك اتّصل هاتفياً وطلب مني ألا أقول أي شيء وأنْ أحضر في الحال. انهارت فيوليت مكيسكو فأخذتها السيدة أبرامز إلى غرفتها وأعطتها دواءً مُهدّئاً، وعلى الأثر استغرقت في نوم هانئ على السرير. وعندما وصلتُ إلى هناك حاولت أنْ أتناقش مع تومي، لكنه لم يقبل أقلّ من اعتذار ورفضَ مكيسكو بشدة أنْ يعتذر.

***

بعد أن انتهى آبيه من سرد الحكاية سألته روزميري بعد تفكير:

«هل يعلم آل دايفر أنَّ الأمر يتعلَّق بهما؟».

«كلا - ولم يعرفا قط أنه كانت لهما صِلة به. وكامبيون ذلكِ اللعين لا يحق له أنْ يُحدِّثك عنه، ولكن بما أنّه فعل - أخبرت السائق أني سأقطعه

بالمنشار الموسيقي إذا فتح فمه بأي كلمة عما حدث. هذا القتال يخصّ رجلَين - وما يحتاج تومي إليه هو حرب جيدة».

قالت روزميري «آمل ألا يكتشف آل دايفر الأمر».

ألقى آبيه نظرة إلى ساعة يده.

يجب أنْ أصعد إلى أعلى وأرى مكيسكو - هل ترغبين في المجيء؟ - إنه يشعر بأنه بلا أصدقاء. وأراهن على أنه لم ينم».

كان لدى روزميري تصور حول ما أبقى ذلك الرجل العصبيّ المزاج والفوضوي في حالة من اليقظة اليائسة. وبعد برهة من التوازن بين الشفقة والبغض وافقت وقفزت، تملأها طاقة الصباح، إلى الطابق العلوي بجانب آبيه.

كان مكيسكو جالساً على سريره وقد اختفى إدمانه على حب القتال، على الرغم من كأس الشمبانيا التي في يده. بدا ضئيلاً جداً ونزقاً وشاحباً. ومن الواضح أنه أمضى الليل كله وهو يكتب ويشرب. ونظر باضطراب إلى آبيه وروزميري وسأل:

«حانت الساعة؟».

«كلا، بقي نصف ساعة».

كانت الطاولة مكسوة بالأوراق التي جمعها ببعض الصعوبة ليكوِّن رسالة طويلة؛ وكان الخط في الصفحات الأخيرة بكلمات كبيرة جداً وغير واضحة. وعلى الضوء الخفيف للمصابيح الكهربائية التي تخبو، كتب اسمه في الأسفل، ووضعه داخل مغلّف وناوله لآبيه. «إلى زوجتي».

اقترح آبيه «يُستحسن أنْ تبلل رأسك بالماء البارد».

سأل مكيسكو بارتياب «أتظن أنني سأشعر بتحسّن؟ لا أريد أنْ أستعيد كامل وعيي».

«حسن، تبدو مُريعاً الآن».

رضخَ مكيسكو وتوجه إلى الحمّام.

هتف «إنني أُسبِّب فوضى عارمة. لا أدري كيف ستعود فيوليت إلى أميركا. إنني لا أحمل أي ضمان. لن أصل إليها أبداً».

«كفاك هراءً، في غضون ساعة سوف تكون هنا تتناول طعام الإفطار».

«طبعاً، أعلم». عاد بشعرٍ مُبلل ونظر إلى روزميري وكأنه يراها للمرة الأولى. وفجأةً ظهرت الدموع في عينيه. «إنني لم أُنهِ روايتي، وهذا ما يُغيظني أشدّ الغيظ»، ثم قال لروزميري «أنتِ لا تحبينني، ولكن هذا أمر لا مناص منه. إنني في المقام الأول أديب»، وأصدر صوتاً غامضاً يدل على الإحباط وهزّ رأسه عجزاً. «لقد ارتكبتُ العديد من الأخطاء في حياتي - الكثير منها. لكنني أبرزها - من بعض النواحي -».

تخلّى عن الكلام ومجّ من سيجارة مُطفأة.

قالت روزميري «إنني أحبك فعلاً، ولكن لا أعتقد أنَّ عليك أن تشـارك في مبارزة».

«نعم، كان ينبغي أنْ أحاول أنْ أضربه، لكنَّ الأمر بُتّ الآن. لقد جررت نفسي إلى أمرٍ لا يحق لي أنْ أكون فيه. إنَّ طبعي عنيف جداً -»، ونظر بإمعان إلى آبيه وكأنه توقع منه أنْ يتحدى تصريحه. ثم رفع عقب السيجارة الباردة إلى فمه مع ضحكة انشداه. وتسارعت أنفاسه.

«المشكلة هي أنني أنا الذي اقترحتُ المبارزة - ليت فيوليت أقفلت فمها لكنتُ وجدتُ حلاً. وحتى هذه اللحظة أستطيع أنْ أخرج من الأمر، أو أجلس وأضحك عليه - ولكن لا أعتقد أنَّ فيوليت ستحترمني بعد ذلك».

قالت روزميري «نعم، ستفعل. سوف تحترمك أكثر من ذي قبل».

«كلا - أنت لا تعرفين فيوليت. إنها قاسية جداً عندما تمتاز عليك. نحن متزوجان منذ اثني عشر عاماً، وكانت لدينا ابنة صغيرة في السابعة من عمرها توفيت وبعد ذلك تعلمين كيف يكون الوضع. نحن الاثنان عبثنا قليلاً، لا شيء جدياً بل مجرد انجراف جانبي - هذه الليلة نعتتني بالجبان».

لم تُجب روزميري من شدة اضطرابها.

قال آبيه «حسن، سوف نحرص على ألا يقع إلا أقل ما يمكن من الأضرار» فتحَ الحقيبة الجلدية. «هذه هي مسدسات بربان الخاصة بالمبارزة - لقد استعرتُها لكي تتعرفي عليها. إنه يحملها في حقيبته»، ووزن أحد الأسلحة بيده. شهقت روزميري من الانزعاج ونظر مكيسكو إلى المسدسات بقلق.

قال «حسن - لن نقف ويُطلق كل منا النار على الآخر من مسدس عيار 45».

قال آبيه بفظاظة «لا أعلم؛ الفكرة هي أنكَ تستطيع أنْ ترى بصورة أفضل عبر ماسورة طويلة».

سأل مكيسكو «وماذا عن المسافة؟».

«سألتُ عن ذلك. إذا كان لابد لأحد الطرفين من أنْ يقضي على الآخر حتماً فيجب أنْ تكون ثماني خطوات، وإذا كانا طيبين وغاضبين فتكون عشرين خطوة، وإذا كان الأمر يتعلّق فقط بالثأر للكرامة فهي أربعون خطوة. وقد اتفقَ شاهده معي على جعلها أربعين خطوة».

«هذا جيد».

تذكّر آبيه قائلاً «هناك مبارزة رائعة تقع في رواية لبوشكين، حيث كل رجل يقف على حافة جرف، ومَنْ يُصاب ينتهي أمره».

بدا ذلك سلوكاً قديماً جداً وأكاديمياً بالنسبة إلى مكيسكو، الذي حدَّقَ إليه وقال «ماذا؟».

«هل ترغب في أنْ تسبح قليلاً لتنتعش؟».

تنهّدَ «كلا - كلا، أنا لا أُحسن السباحة»، ثم قال بعجز «أنا لا أفهم سبب هذا كله. لا أفهم لماذا أفعل هذا».

كان ذلك أول شيء يقوم به في حياته قاطبة. في الحقيقة كان العالم المحسوس بالنسبة إلى أمثاله لا وجود له، وعندما واجه الحقيقة الصلبة دُهِشَ دهشة عظيمة.

قال آبيه، عندما وجدَ أنه فشل قليلاً «يمكننا أنْ نذهب».

«حسن»، وجرع جرعة كبيرة من البراندي، ووضع القارورة في جيبه، وقال بهيئة وحشية «ماذا سيحدث إذا قتلته - هل سيرمونني في السجن؟».

«سأعبُرُ بك الحدودَ الإيطالية».

ألقى نظرة إلى روزميري - ثم قال معتذراً لآبيه:

«قبل أنْ نفترق هناك شيء واحد أريد أنْ أنفرد معك بشأنه».

قالت روزميري «آمل ألا يُجرَح أيٌّ منكما. أعتقد أنه أمر في غاية الحمق ويجب إيقافه».

الفصل الثاني عشر

وجدتْ كامبيون في الطابق السفلي في البهو المُقفر.

قال بحماسة «لقد رأيتك ترتقين إلى الطابق العلوي. هل هو على ما يُرام؟ متى ستبدأ المبارزة؟».

«لا أدري» شعرت بالاشمئزاز من الكلام عن الأمر وكأنّه عرضٌ في سيرك، وكأنَّ مكيسكو مهرج مأساويّ.

سأل، وكأنه حجز مقاعد، «هل ترافقينني؟ لقد استأجرتُ سيارة الفندق».

«لا أريد أنْ أذهب».

«ولِم لا؟ أتخيَّل أنَّ ذلك سيستهلك عاماً من عمري، ولكنني لن أفوّتها بأي ثمن. سوف نشاهدها من مكان بعيد جداً».

«لماذا لا تصطحب السيد دمفري معك؟».

سقطت النظارة عن أنفه، لعدم وجود سبلتين لتُخفيها. نهضَ واقفاً.

«لا أريد أنْ أراه بعد الآن».

«حسن، أخشى أنني لا أستطيع أنْ أذهب. لن يُعجب ذلك أمي».

لدى ولوج روزميري غرفتها انتفضت السيدة سبيرز وهي ناعسة وهتفت لها:

«أين كنتِ؟».

«لم أستطع النوم. عودي إلى النوم، يا أمي».

«تعالي إلى غرفتي» وسمعتها روزميري تنهض من سريرها فدخلت وأخبرتها بما حدث.

اقترحت السيدة سبيرز «لماذا لم تذهبي وتشاهديها؟ لستِ في حاجة إلى أنْ تقتربي كثيراً وقد تتمكّنين من تقديم يد المساعدة لاحقاً».

لم ترغب روزميري في أنْ تتخيَّل نفسها وهي تتفرَّج وتردَّدت، لكنَّ وعي السيدة سبيرز كان لا يزال مُثقلاً بالنعاس وتذكّرت كيف أنَّ الاتصالات الهاتفية الليلية تُنبئ بالموت وبالكارثة عندما كانت زوجة طبيب. «أريدُ منكِ أنْ ترتادي أماكن مختلفة وتقومي بنشاطات متعددة وحدك ومن دوني - لقد قمتِ بأعمال أكثر صعوبة من أجل حملة ريني لأعمال الجسارة».

ظلّت روزميري لا تفهم لماذا عليها أنْ تذهب، لكنها أطاعَتْ الصوتَ الواثق، الصافي الذي أدخلها من بوابة خشبة مسرح الأوديون في باريس وهي في الثانية عشرة من عمرها ورحّبَ بها لدى خروجها منها من جديد.

اعتقدتْ أنها أُعفيَتْ عندما شاهدت من الدرَج آبيه ومكيسكو ينطلقان بالسيارة - ولكن بعد برهة ظهرت سيارة الفندق من المنعطف، وجرّها كامبيون وهو يطفر من الابتهاج إلى الداخل لتجلس إلى جواره.

«لقد اختبأت هناك خشية ألا يدعانا نأتي. في الواقع، أحضرت آلتين للتصوير السينمائي».

ضحكت بعجز. لقد كان فظيعاً إلى درجةِ أنّه لم يعُد فظيعاً، بل كان مجرّداً من الإنسانية فقط».

قالت «أتساءل لماذا لا تحب السيدة مكيسكو آل دايفر؟ لقد كانا في غاية اللطف معها».

«أوه، الأمر ليس كذلك. الأمر يتعلّق بشيء شاهدته. ولم نعرف بالضبط ما هو بسبب باربان».

«إذن ليس هذا ما أثار حزنك».

قال بصوت متغيّرٍ «أوه، كلا، كان ذلك شيئاً آخر حدث أثناء عودتنا إلى الفندق. ولكني الآن لم أعد أهتم - لقد نفضتُ يديّ منه تماماً».

تبعا السيارة الأخرى على طول الشاطئ مروراً بجوان ليه بان، حيث ينهض هيكل الكازينو الجديد. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة وتحت السماء الزرقاء-الرمادية بدأتْ أوائل قوارب الصيد تنطلق إلى بحرٍ أبيض مزرقّ. ثم انعطفا بعيداً عن الطريق الرئيس إلى الريف الخلفي.

هتف كامبيون «في مضمار الغولف. أنا واثق من أنَّ الأمر سيجري هناك».

كان على حق. عندما توقفت سيارة آبيه أمامنا كان الشرق مرسوماً بالأحمر والأصفر، واعداً بيوم حار ورطب. وضع كامبيون وروزميري سيارة الفندق داخل دغل من أشجار الصنوبر وبقيا في ظلال غابة، وتجنبا الممر الأبيض حيث كان آبيه ومكيسكو يتمشيان جيئة وذهاباً، وكان الأخير يرفع رأسه على فترات كأرنب يشم الهواء. وسرعان ما ظهرت حركة أشخاص عن بُعد بجانب أبعد شجرة وميَّز المشاهدون باربان وشاهده الفرنسي الذي كان يتأبّط صندوق المسدسات.

بصورة ما انتاب مكيسكو الخوف فتراجع باتجاه آبيه، وتناول جرعة كبيرة من البراندي. وتابع سيره وهو يختنق وكان سيتوجه مباشرة إلى الجماعة المقابلة، لكنّ آبيه أوقفه وتقدَّمَ ليتحدث مع الفرنسي. كانت الشمس قد تجاوزت خط الأفق.

قبض كامبيون على ذراع روزميري.

صرّ، تقريباً بلا إصدار صوت «لا أحتمل. هذا كثير. سوف يكلّفني -».

قالت روزميري بشكل باتّ «هيا بنا». ولَهَجَتْ بصلاةٍ مسعورة بالفرنسية.

واجه طرفا المبارزة أحدهما الآخر، كان باربان قد رفعَ كُمّيه إلى أعلى الذراعين. وبرقت عيناه بقلق في ضوء الشمس، لكنَّ حركته كانت دقيقة وهو يمسح راحة يده على درزة بنطلونه. وزمَّ مكيسكو، الذي أصبح متهوراً بتأثير البراندي، شفتيه في وضعية الصفير وأخذ يوجّه أنفه حوله بلا

مبالاة، إلى أنْ خطا آبيه إلى الأمام وفي يده منديل. كان الشاهد الفرنسي واقفاً ووجهه نحو الناحية المقابلة. حبست روزميري أنفاسها في تعبير هائل عن الشفقة وصرّت أسنانها تعبيراً عن حقدها على باربان؛ ثم:

أخذ آبيه يعدّ بصوت متوتر «واحد – اثنان – ثلاثة!».

أطلقا الرصاص في اللحظة نفسها. ترنّح مكيسكو لكنّه استعاد توازنه. كلاهما أخطأ الهدف.

هتف آبيه «إلى هنا وكفى!».

سار المتبارزان نحو الداخل، ونظر الجميع إلى باربان مستفهمين.

«أنا لستُ راضياً».

قال آبيه بنزق «ماذا؟ طبعاً أنت راض، لكنك غير مُدرك لذلك».

«أيرفض موكّلك أنْ يُطلق طلقة أخرى؟».

«أنت على حق يا تومي. أنتَ تصرّ على هذا وموكلي انتهى من الأمر».

ضحك تومي هازئاً.

قال «المسافة كانت تدعو إلى السخرية. أنا لست متعوداً على مثل هذه المهازل – على موكلك أنْ يتذكّر أنه الآن ليس في أميركا».

قال آبيه بحِدّة «ممنوع المزاح بحق أميركا». ومن ثم، بنبرة أكثر استرضائية «لقد وصل الأمر إلى أبعد مدى، يا تومي». وتفاوضا برشاقة برهة – ثم أومأ باربان برأسه وانحنى ببرود لخصمه السابق.

اقترح الطبيب الفرنسي «ألن تتصافحا؟».

قال آبيه «إنهما يعرفان أحدهما الآخر أصلاً».

التفت إلى مكيسكو.

«هيا بنا نبتعد عن هنا».

بينما هما يبتعدان، قبض مكيسكو على ذراعه تعبيراً عن ابتهاجه.

قال آبيه «انتظر دقيقة! تومي يريد أنْ يستعيد مسدسه. قد يحتاج إليه من جديد».

ناوله مكيسكو إياه.

قال بصوت قوي «فليذهب إلى الجحيم. أخبره أنه يستطيع -».

هل أُخبره أنكَ تريد إطلاق طلقة أخرى؟».

هتف مكيسكو، وهما يسيران قُدماً «حسن، لقد فعلتُ، وفعلتُه جيداً، أليس كذلك؟».

قال آبيه بفظاظة «بل كنت ثملاً جداً».

«كلا، لم أكن كذلك».

«حسن، إذن، لم تكن».

«ما الفرق إنْ كنتُ شربتُ كأساً أو أكثر؟».

مع تصاعد ثقته بنفسه نظر إلى آبيه بامتعاض.

كرّر قائلاً «ما الفرق؟».

«ما دمتَ لا تفهم، فلا فائدة من الخوض في هذا الأمر».

«ألا تعلم أنَّ الجميع كانوا سكارى طوال الوقت خلال الحرب؟».

«حسن، فلننس الأمر».

لكنَّ الحادثة لم تنته تماماً. كانت تتبعهما خطوات حثيثة على نبات الخلنج واقترب الطبيب ليسير بمحاذاتهما.

أخذ يلهث قائلاً «Pardon, *Missieurs, Voulez-vous regler* ***mes honoraries? Naturellement c'est pour soins medicaux seulement. M. Barban n'a qu'un billet de mille et ne peut pas les regler et l'autre a laissé son porte-monnaie chez lui***».

(عفواً، أيها السيدان، ألا تريدان أنْ تُسدِّدا أجري؟ طبعاً هذا فقط مقابل العناية الطبية. السيد باربان في حوزته ورقة نقدية بقيمة ألف فرنك ولا يستطيع أنْ يدفع والآخر نسي محفظة نقوده في المنزل)

قال آبيه «صـدِّق فرنسياً عندما يقول هـذا»، ثم سأل الطبيب «*Combien?*» (كم؟)

قال مكيسكو «دعني أدفع هذا».

«كلا، أنا سأدفع. كلنا في الخطر نفسه».

دفع آبيه للطبيب بينما اندفع مكيسكو فجأة داخل الدغل وأخذ يتقيّأ هناك. ثم تابع السير مع آبيه، وهو أشد شحوباً من ذي قبل، متوجهاً نحو السيارة في الصباح الذي أصبح عندئذٍ وردياً.

استلقى كامبيون على ظهره بين الشجيرات وهو يلهث، وكان الضحية الوحيدة للمبارزة، بينما أخذت روزميري فجأةً تضحك ضحكاً هستيرياً وهي ترفسه بخفّها. فعلت ذلك بإلحاح إلى أنْ أيقظته - أهمّ أمر بالنسبة إليها عندئذ كان أنها بعد ذلك ببضع ساعات سوف تقابل على الشاطئ الشخص الذي كانت لا تزال تُشير إليه في ذهنها باسم «آل دايفر».

الفصل الثالث عشر

كانوا في فوازان في انتظار نيكول، الستة كلهم، روزميري، وآل نورث، وديك دايفر، والموسيقيان الشابان الفرنسيان. كانوا يتفحصون زبائن المطعم الآخرين ليروا إنْ كانوا يتصرفون على سجيتهم - قال ديك إنَّه ليس بين الأميركيين من يتصرف على سجيته غيره، وكانوا يفتشون عن مثالٍ يواجهونه به. بدت لهم الأمور مشؤومة - إذ لم يدخل المطعم رجل واحد مدة عشر دقائق من دون أنْ يرفع يده إلى وجهه.

قال آبيه «ما كان ينبغي أنْ نتخلى عن الشوارب المُشمّعة. ومع ذلك ديك ليس *الوحيد* الذي يتصرف بارتياح -».

«أوه، نعم، أنا أيضاً».

«- ولكن ربما هو الوحيد الصاحي المسترخي».

كان رجلٌ أميركيٌّ حسنُ المظهر قد ولج المكان وبصحبته امرأتان، تنسابان وترفرفان من دون خجل حول الطاولة. وفجأة أدرك أنه أصبح محط الأنظار - وعلى الأثر ارتفعت يده بحركة متشنجة ليرتب الكتلة المشوّشة في ربطة عنقه. وضمن فريق آخر غير جالس كان هناك رجلٌ يربت من دون توقف على وجنته الحليقة براحة يده، ورفيقه يرفع ويُخفِض بحركة آلية عقب سيجاره البارد. والأوفر حظاً كانوا يلمسون بأصابعهم نظاراتهم وشعر وجوههم، وغير المُزوَّدين بالأدوات كانوا يُداعبون أفواهاً مُجرّدة، أو حتى يشدون بحركة يائسة شحمات آذانهم.

دخل قائد عسكري معروف فراهنَ آبيه، مُعتمداً على العام الأول

الذي أمضاه في ويست بوينت - ذلك العام الذي لم يكن خلاله أي طالب عسكري قادراً على الاستقالة ولم يبرأ منه أحد - ديك على خمسة دولارات.

انتظر القائد ويداه إلى جنبيه في وِقفةٍ طبيعية أنْ يجد له أحدٌ مقعداً. ومرة واحدة تأرجح ذراعاه فجأة نحو الخلف كما يفعل القافز فقال ديك «أه!» مُفترضاً أنه فقد صبره، لكنَّ القائد استعاد توازنّه وتنفُّسَه الطبيعيّ - كادت المعاناة تنتهي، والغارسون يجرّ له الكرسي ليجلس عليه.

أغلق الغازي يده مع لمسةٍ من الغضب وحكَّ رأسه الأبيض الأنيق.

قال ديك باعتداد بالنفس «أترى، أنا الوحيد».

كانت روزميري متأكدة تماماً من ذلك، ولما أدركَ ديك أنه لم يحظَ مرة بجمهورٍ أفضل من هذا، حوّلَ المجموعة إلى وِحدةٍ لامعة بحيث شعرتْ روزميري بعدم اهتمامٍ نزِق بكل مَنْ ليسوا على طاولتهم. كانوا قد أمضوا في باريس يومين، ولكنهم في الواقع كانوا لا يزالون جالسين تحت مظلة الشاطئ. وعندما بدا الجو المحيط، في حفل الليلة السابقة في كورب ديه باغ، رائعاً لروزميري، التي كانت ستحضر حفل ماي فير في هوليوود، كان ديك يجعل الجوَّ وديّاً بتحية بضعة أشخاص، مُنتقين - بدا أنَّ آل دايفر لديهما مجموعة كبيرة من المعارف، ولكنَّ الشخص كان دائماً يبدو كأنه لم يرهما منذ أمدٍ بعيد، بعيد، ويرتبك أيَّما ارتباك، «يا الله، أين كنتم مختبئين؟» - ومن ثم يُعيد تركيب وحدة مجموعته بتدمير الدخلاء برفق ولكن دائماً بإطلاق رصاصة رحمة ساخرة. وسرعان ما بدا أنَّ روزميري نفسها تعرف أولئك الأشخاص من ماضيها البائس، ومن ثم تتواصل معهم، وترفضهم، وتنبذهم.

كانت حفلتهم أميركيّة الطابع بشكل طاغٍ وأحياناً لم تكن أميركية على الإطلاق. لقد أعادهم إلى أنفسهم، بعد أنْ غشت أبصارهم التسويات على مدى سنين.

شقَّ ثوب نيكول الأزرق بلون السماء طريقَه منساباً داخل المطعم

المظلم، العبِق بالدخان، ويفوح برائحة الأطعمة النيئة القويّة على المائدة المفتوحة، كأنه قطعة صغيرة من الجو السائد في الخارج. ولما علِمتْ من عيونهم الشاخصة إليها كم هي جميلة، شكرتهم بابتسامةٍ من التقدير المُشع. كانوا جميعاً شديدي اللطف برهة من الزمن، وشديدي التهذيب وما إلى ذلك. ثم تسلل إليهم الملل وأصبحوا مضحكين ويشعرون بالمرارة، وأخيراً وضعوا الكثير من الخطط. ضحكوا على أشياء لن يتذكروها لاحقاً - ضحكوا كثيراً وشرب الرجال ثلاث زجاجات من النبيذ. كانت النساء الثلاث على الطاولة يمثّلنَ الدفق الهائل للحياة الأميركية. كانت نيكول الحفيدة الكبرى لرأسماليّ أميركيّ عصاميّ وحفيدة كبيرة لكونتٍ من عائلة ليبيفايسنفيلد. وكانت ميري نورث ابنة مورِّق جدران بارع وسليل رئيس الجمهورية تايلر[1]. وكانت روزميري من أوسط الطبقة الوسطى، قذفتها أمها إلى مرتفعات هوليوود المجهولة. نقطة التشابه بينهما، واختلافهما عن العديد من النساء الأميركيات، كانت تكمن في أنهما سعيدتان بالعيش في عالم الرجال - حافظتا على فرديتهما من خلال الرجال وليس بمعارضتهم. وكانتا جديرتين بأنْ تكونا على التناوب خليلتين جيدتين أو زوجتين صالحتين، ليس عبر حادثة المَولِد بل عبر حادث أكبر هو العثور على الرجل أو عدم العثور عليه.

لذلك وجدت روزميري ذلك الغداء حفلاً ممتعاً، وأفضل من ناحية أنه يضمُّ سبعة أشخاص فقط، وهو الحدَ الأدنى لإقامة حفل. وربما، أيضاً، لأنه جديد على عالمهم تصرّفتْ وكأنه عاملٌ مُحفِّز للتخلص من تحفظاتهم القديمة كلها، كلٌ تجاه الآخر. وبعد أنْ انفضّ شمل الجلسة، دلّ النادل روزميري إلى الجزء الخلفي المظلم الذي يشبه الأجزاء الخلفية للمطاعم الفرنسية كلها، حيث فتّشت عن رقم هاتف على ضوء مصباح خافت النور برتقالي الوهج واتصلت بشركات أفلام فرانكو-

1- جون تايلر (1790 - 1862): رئيس الولايات المتحدة الأميركية العاشر من 1841 إلى 1845. - المترجم

أميركية. طبعاً، لديهم نسخة من فيلم «*أثيرة والدها*» - ليست متوفرة حالياً، لكنهم سيطبعونها لأجلها في وقت لاحق من الأسبوع في عنوان 341 شارع سانت آنج - اسألي عن السيد كراودر.

كانت شبه حجيرة الهاتف تتصل بغرفة تبديل الملابس، وبعد أنْ وضعت روزميري سماعة الهاتف سمعت صوتين خافتين لا يبعدان أكثر من خمس أقدام على الجانب المقابل من صف المعاطف.

«- إذن تحبني؟».

«أوه، *كثيراً*!».

كان صوت نيكول - تردّدت عند باب حجيرة الهاتف - ثم سمعت ديك يقول:

«أرغب فيك بقوة - دعينا نذهب إلى الفندق الآن». أطلقت نيكول تنهيداً عميقاً. للوهلة الأولى لم تنقل الكلمات أيَّ شيء إلى روزميري - لكنَّ النبرة فعلت ذلك. وصلتها ذبذبات السريّة الهائلة.

«أرغب فيك».

«سأكون في الفندق عند الرابعة».

وقفت روزميري حابسة أنفاسها أثناء ابتعاد الصوتين. في أول الأمر كانت حتى مندهشة - لقد شاهدتهما في علاقتهما أحدهما بالآخر كشخصين بلا مطالب شخصية - كشيء أكثر برودة. والآن ثمة تيار قوي من المشاعر سرى خلالها، عميق ومجهول. لم تعلم إنْ كانت منجذبة أم نافرة، كانت فقط شديدة التأثّر. لقد جعلها تشعر بأنها وحيدة جداً وهي عائدة إلى المطعم، ولكنَّ التفكير فيه كان مؤثراً، والامتنان المشبوب لنيكول وهي تقول «أوه، *كثيراً*!» كان لا يزال صداه يتردد في أُذنها. كان الجو الخاص للمشهد الذي شهدته يجري أمامها؛ ولكن مهما كانت بعيدة عنه فإنَّ معدتها أخبرتها أنَّ كل شيء على ما يُرام - لم ينتبها أيّ قدرٍ من الاشمئزاز الذي كانت تشعر به وهي تمثل مشاهد حب معيَّنة في السينما.

على الرغم من بُعدها عنه فإنها كانت تشارك فيه حينئذٍ حتماً، وأثناء تسوقها مع نيكول كانت أشدّ وعياً بالموعد الغرامي من نيكول نفسها. أصبحت تنظر إلى نيكول بطريقة جديدة، أصبحت تقيِّم مواطن جاذبيتها. وطبعاً كانت أشد مَنْ قابلت روزميري من النساء جاذبية - بما تتصف به من صلابة، وتفانٍ وولاء، مع شيءٍ من المراوغة، ربطتها روزميري، التي كانت تفكر حينئذٍ من خلال عقلية الطبقة المتوسطة التي تنتمي إليها أمها، بموقفها من المال. لقد كانت روزميري تنفق من المال الذي تكسب - وهي هنا في أوروبا لأنها كانت قد نزلت البركة ست مرات في ذلك اليوم من شهر كانون الثاني وحرارتها تتراوح بين 37 درجة و41 درجة، وأوقفتها أمها.

اشترت روزميري، بالتعاون مع نيكول، ثوبين وقبعتين وحذاءين من مالها. واشترت نيكول لائحة طويلة من الأغراض ملأت صفحتين، واشترت الأشياء المعروضة في الواجهات أيضاً. اشترت كل ما أعجبها ولم تتمكن من استعماله بنفسها لتقدّمه هدية لصديق. اشترت مسابح ملوّنة، ووسائد للشاطئ قابلة للطيّ، وأزهاراً اصطناعية، وعسلاً، وسريراً للضيوف، وحقائب، وأوشحة، وعصافير الحب، وأغراضاً منمنمة لمنزل الدمية، وثلاث ياردات من قماش جديد بلون القريدس. اشترت كمية من أثواب السباحة، وتمساحاً من المطاط، ومجموعة شطرنج للَّعب أثناء السفر من الذهب والعاج، ومناديل كبيرة من الكتّان لآبيه، وسترتين من جلد الشاموا بلون طائر الرّفراف الأزرق وشُجيرة قزمة من هرمس - اشترت هذه الأشياء كلها ليس كما تشتري خليلة راقية الملابس الداخلية والمجوهرات، التي هي على أي حال معدّات خاصة بالمهنة وضمان، بل من وجهة نظر مختلفة كلياً. لقد كانت نيكول نِتاج الكثير من البراعة والكدّ. وإكراماً لها بدأت القطارات تسير في شيكاغو وتقطع عرض القارة إلى كاليفورنيا؛ وأطلقَتْ مصانع العلكة الدخان ونمتْ أحزمة الربط حلقة فحلقة في المصانع؛ ومزجَ رجالٌ معجون

الأسنان في رواقيد[1] واستخرجوا غسول الفم من براميل ضخمة من النحاس؛ وعلَّبَتْ فتيات البندورة بسرعة في شهر آب أو عملن بهمّة في متاجر السلع الرخيصة في ليلة عيد الميلاد؛ وذوو الأصول الهندية جزئياً كدحوا في مزارع القهوة البرازيلية والحالمون انتُزِعَتْ منهم حقوقهم في امتلاك جرارات جديدة - أولئك هم بعض الذين منحوا نيكول جزءاً من الأموال، وبينما النظام برمّته يُهيمن ويندفع كالرعد إلى الأمام، كان يمنحُ ازدهاراً محموماً لعملياتٍ تصدرُ عنها كالشراء بالجملة، كتورُّد وجه عامل الإطفاء وهو يحافظ على ثباته أمام اللهب المُستعر. لقد كانت تمثِّلُ مبادئ شديدة البساطة، محتفظة داخلها بقَدرِها المحتوم، لكنها مثّلتها بدقّة متناهية إلى درجة أنَّ الإجراء اتّسم بالجمال، وفي الحال حاولَتْ روزميري أنْ تقلّد ذلك الإجراء.

اقتربت الساعة من الرابعة. وقفت روزميري في أحد المتاجر وعلى كتفها عصفور الحب، وانهمكت في أحد أحاديثها النادرة الطويلة.

«حسن، ماذا لو أنكِ لم تنزلي إلى تلك البركة في ذلك اليوم - أحياناً أتساءل حول هذه الأشياء. قُبيل نشوب الحرب كنا في برلين - كنتُ في الثانية عشرة، وحدث ذلك قُبيل وفاة أمي. كانت أختي ذاهبة إلى إحدى الحفلات الملكية وكان على لائحة الذين سيرقصون معها ثلاثة من أمراء البلاط، وكان ذلك كله من إعداد الياور[2] وكل شيء. وقبل أنْ تنطلق بنصف ساعة أصابها صداعٌ جانبيّ وحمى شديدة. قال الطبيب إنه التهاب الزائدة الدودية ويجب أنْ تُجرى لها عملية جراحية. لكنَّ أمي كانت قد وضعت خُططاً، لذلك ذهبت بيبي إلى الحفل ورقصت حتى الساعة الثانية وهي تضع كيساً من الثلج مربوطاً تحت ثوب السهرة. وأجرت العملية في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي».

كانت القسوة شيئاً مُحبّذاً في ذلك الوقت؛ كل الناس كانوا قُساة على

1- رواقيد، مفردها راقود: وعاء ضخم من الزجاج.

2- الياور: الموظف الأكبر في البلاط الملكي. - المترجم

أنفسهم. لكنها الساعة الرابعة ولم تكفّ روزميري عن التفكير في ديك وهو ينتظر نيكول عندئذٍ في الفندق. وظلت تفكر، «لماذا لا تذهبين؟» ومن ثم قالتْ فجأة «أو دعيني أذهب إذا لم ترغبي في ذلك». لكنَّ نيكول توجهت إلى مكان آخر لتشتري صدريتين لهما معاً وأرسلتْ واحدة إلى ميري نورث. ولكنْ بدا حينئذٍ أنها تذكرت وبحركة مفاجئة شاردة أشارت إلى سيارة أجرة.

قالت نيكول «وداعاً، لقد أمضينا وقتاً ممتعاً، أليس كذلك؟».

قالت روزميري «ممتعاً جداً».

كان الأمر أصعب مما اعتقدت وشعرت بكيانها كله يحتجّ عندما ابتعدت نيكول.

الجزء الثالث

ضحايا

1925

الفصل الأول

انعطف ديك عند زاوية الحاجز الوقائي وتابع طريقه على طول الخندق مجتازاً المعبر الخشبي. وصل إلى منظار الأفق[1]، ونظر خلاله برهة، ثم ارتقى الدرج وأنعم النظر من فوق المتراس. أمامه تحت سماءٍ داكنةٍ كان نُصُب بومونت-هامل[2]؛ إلى يساره كان تل ثيبفال[3] المأساوي. حدّق ديك إليهما عبر منظار الميدان، شاعراً بغصّة من فرط الحزن.

تابع طريقه على طول الخندق فوجد الآخرين ينتظرونه عند الحاجز التالي. كان زاخراً بالإثارة وأراد أنْ ينقلها إليهم، ليجعلهم يفهمون ما جرى هنا، على الرغم من أنّ آبيه نورث في الواقع شارك في المعركة وهو لم يفعل.

قال لروزميري «هذه الأرض هنا كلَّفت كل قدمٍ فيها عشريناً نفساً في صيف ذلك العام». مدّت بصرها طائعة إلى السهل الأخضر العاري بأشجاره القصيرة التي عمرها ست سنوات. ولو أنَّ ديك أضاف قائلاً إنَّ تلك المواقع قُصِفَت لصدّقته في مساء ذلك اليوم. كان حبّها قد بلغ نقطةً بدأ عندها، على الأقل حينئذٍ، يُصبح تعيساً، يائساً. لم تعلم ماذا تفعل - أرادتْ أنْ تتكلّم مع أمها.

1- منظار الأفق: يُستخدم في الغواصات والمتاريس. - المترجم

2- بومونت-هامل: بلدة صغيرة في فرنسا أُقيم فيها نُصُب تذكاري تخليداً لذكرى الذين ماتوا من الحلفاء في معركة سوم وقُتِل فيها عدد هائل من الجنود. - المترجم

3- تل ثيبفال: نصُب تذكاري أُقيم مكان قرية تحمل هذا الاسم دُمِّرت في أثناء الحرب العالمية الأولى. - المترجم

قال آبيه مواسياً «هناك الكثير من الناس ماتوا منذ ذلك الحين وقريباً سوف نموت نحن جميعاً».

انتظرت روزميري بتوتُّر أنْ يُتابع ديك كلامه.

«أترين ذلك الجدول الصغير – يمكننا أنْ نصل إليه سيراً في غضون دقيقتين. أما البريطانيون فاستغرق منهم فعل ذلك شهراً كاملاً – كانت إمبراطورية بأكملها تمشي ببطء شديد، تحتضر في المقدمة وتتقدَّم في المؤخّرة. وكانت هناك إمبراطورية أخرى تتراجع ببطء بضع بوصات في اليوم، مُخلّفة الموتى وراءها كمليون سجادة من الدم. لن يفعل أي أوروبي من هذا الجيل ذلك مرة أخرى».

قال آبيه «في الواقع لقد خرجوا تواً متوجهين إلى تركيا ومراكش – –».

«هذا أمر مختلف. ما حدث على الجبهة الغربية لن يتكرر، ليس قبل مرور وقت طويل. الشبان يعتقدون أنَّ في استطاعتهم أنْ يُحاربوا لكنهم لا يستطيعون. في استطاعتهم أنْ يخوضوا معركة مارن من جديد ولكن ليس هذه. هذه تطلّبت استخدام الدِين وسنين من الوفرة وضمانات هائلة والعلاقة الصحيحة التي وُجِدَتْ بين الطبقات. الروس والإيطاليون فشلوا على هذه الجبهة. لقد تطلّبَ الأمر معدّات عاطفية صادقة يعود عهدها إلى أبعد مما يمكن أنْ تتذكّر. كان عليك أنْ تتذكر عيد الميلاد، والبطاقات البريدية التي تحمل صورة وليّ العهد وخطيبته، والمقاهي الصغيرة في فالنس وحدائق البيرة في أونتر دن ليندن والأعراس في مجلس المدينة، والذهاب إلى مضمار سباق الخيل، وسبلتي جدّك».

«إنَّ الجنرال غرانت ابتكر هذا النوع من المعارك في بيترسبرغ في عام 1865».

«كلا، لم يفعل – هو ابتكر فقط المذابح الجماعية. هذا النوع من المعارك ابتكره لويس كارول وجول فيرن وكائناً مَنْ كان الذي ألّفَ

كتاب «*أندلاين*»[1]، وشماسو الريف السكارى والعرّابات في مارسيليا والفتيات الغاويات في الأزقة الخلفية لفوتنمبرغ وفستفاليا. في الواقع، تلك كانت معركة حب - كان هناك قرن من حب الطبقة الوسطى عيش هنا. وكانت معركة الحب الأخيرة».

قال آبيه «أنت تريد أنْ تضع هذه المعركة بين يديّ د.هـ لورنس».

قال ديك بأسى مُلحّ «إنَّ عالمي الآمن والجميل والمُحبوب كله انفجر هنا بكمية ضخمة من الحب عالي الانفجار. أليس هذا صحيحاً، يا روزميري؟».

«لا أعلم»، أجابت بوجه جادّ. «أنت تعرف كل شيء».

تخلّفا وراء الآخرين. وفجأة انهال عليهم وابل من كتل التراب والحصى وصرخ آبيه من الحاجز المجاور:

«إنَّ روح الحرب تنهال عليّ من جديد. لقد خلّفتُ مئة عام من حب أوهايو ورائي وسوف أنسف هذا الخندق». برز رأسه فوق حافة الجسر. «أنت ميت - ألا تعرف القواعد؟ تلك كانت قنبلة يدوية».

ضحكت روزميري والتقط ديك حفنة من الحجارة للرد الانتقامي ومن ثم أفلتها.

قال بنبرة اعتذار «لا يمكنني أنْ أتصرف كالصِبية هنا. لقد انقطع الحبل الفضي[2] والطاس الذهبي انكسر وما إلى ذلك، ولكنَّ شخصاً عجوزاً عاطفياً مثلي لا حيلة له».

«أنا أيضاً رومانسي».

خرجوا جميعاً من الخندق الأنيق المُرمَّم، وواجهوا النصُب التذكاري

1- «أندلاين»: رواية أسطورية من تأليف البارون الألماني فريدريك دو لا موت فوك (1777 - 1843): كان أحد قادة الجيش في خدمة فردريك الأكبر، وكاتباً رومانسياً. - المترجم

2- الحبل الفضي: يرمز إلى الرباط العاطفي بين الابن وأمه. - المترجم

على أرواح موتى نيوفاوندلاند. قرأتْ روزميري النقش المكتوب وفجأة انفجرت بالبكاء. وكغالبية النساء أحبّت أنْ يُملى عليها كيف يجب أنْ تشعر، وكانت تحب أنْ يُخبرها ديك أيّ الأشياء مضحكة وأيّها يبعث على الحزن. ولكن قبل كل شيء أرادت منه أنْ يعلم كم تحبه، الآن بعد أنْ أصبحت هذه الحقيقة تشيعُ الاضطراب في كل شيء، وهي تسير على ساحة الحرب وكأنها في حلم مُثير.

بعد ذلك استقلوا سيارتهم وانطلقوا عائدين إلى أميان. كان رذاذ خفيف من المطر يهطل على الغابة بشجيراتها الجديدة القصيرة وما تحتها من نباتات، ومروا بمحارق جنائزية ضخمة من الممتلكات، والقذائف، والقنابل اليدوية، والمعدات، والخوذ، والحراب، وأجزاء من بنادق، وجلد متعفّن، تُرِك سبعة أعوام تحت الأرض. وفجأة عند أحد المنعطفات ظهرت الشواهد البيضاء لعدد هائل من القبور. طلب ديك من السائق أنْ يتوقف.

«هناك تلك الفتاة – ما زالت تحتفظ بإكليلها».

راقبوه وهو يخرج إلى الفتاة، كانت واقفة مترددة عند البوابة تحمل بيدها إكليلاً من الزهور. كانت سيارة الأجرة في انتظارها. كانت حمراء الشعر من تنيسي وكانوا قد قابلوها على متن القطار في صباح ذلك اليوم، قادمة من نوكسفيل لكي تضع أزهاراً على قبر أخيها. كانت دموع الغيظ تجري على وجهها.

تذمرت وهي تنشج «لابد أنَّ وزارة الحرب أعطتني الرقم الخطأ. إنَّ عليه اسماً آخر. إنني أبحث عنه منذ الساعة الثانية، وليس هناك العديد من القبور».

نصحها ديك «إذن لو كنتُ في مكانك لوضعتها على أي قبر من دون أنْ أنظر إلى الاسم».

«أتعتقد أنَّ هذا ما عليّ أنْ أفعل؟».

«أنا أعتقد أنَّ هذا ما كان سيريد منكِ أنْ تفعلي».

كان الظلام يزداد حلكة وهطول المطر يزداد شدّة. تركت الإكليل على أول قبر بجوار البوابة، وقبلت اقتراح ديك بصرف سيارة الأجرة وعادت إلى أميان معهم.

ذرفت روزميري المزيد من الدموع عندما سمعت عن الحادث المؤسف - لقد كان يوماً مملوءاً بالماء بشكل عام، لكنها شعرت بأنها تعلمت شيئاً، لكنها لم تعرف بالضبط ما هو. ولاحقاً تذكّرتْ ساعات بعد الظهيرة كلها بسعادة - في أحد تلك الأوقات التي تبدو في الوقت الراهن مجرد حلقة تَصِل مسرّة الماضي بمسرّة المستقبل، ولكن يتضح أنها السرور نفسه.

كانت أميان بلدة قرمزية يتردد في أرجائها الصدى، لا يزال يبدو عليها الحزن الذي خلّفته الحرب، كحال بعض محطات القطارات: محطة غار دو نورد ومحطة واترلو في لندن. أثناء النهار تجعل مثل هذه المدن المرءَ ينكمش، بما تحتوي من حافلات الترولّلي الصغيرة التي تعود إلى ما قبل عشرين عاماً تعبر الساحات الفسيحة والرمادية المرصوفة بالحصى الكبير أمام الكاتدرائية، والطقس نفسه يبدو أنه يتصِف بخاصية الماضي، طقس باهت يُشبه الصور الفوتوغرافية القديمة. ولكن بعد حلول الظلام ينساب كل ما هو مُرضٍ في الحياة الفرنسية عائداً إلى الصورة - البغايا المرحات، والرجال يتناقشون مستعملين مئة مرة كلمة ***Voila*** في المقاهي، والأزواج ينجرفون، في تقاربٍ حميم، نحو المجهول الذي لا يُكلِّف شيئاً بصورة مُرضية. جلسوا ينتظرون وصول القطار في رواقٍ مُقنطَر كبير، عالي السقف بحيث يُحرر الدخان والثرثرة والموسيقى نحو الأعلى، وتتلطَّف الفرقة الموسيقية وتعزف لحن «نعم، ليس لدينا موز» - صفقوا بأيديهم لأنَّ قائد الفرقة يبدو مسروراً من نفسه. ونسيت فتاة ميسيسيبي حزنها واستمتعت، بل بدأت المغازلات على الطريقة الاستوائية بتدوير العينين في محجريهما والضرب بالمخالب مع ديك وآبيه. وكانا يزعجانها بلطف.

ثم، استقلوا قطار باريس، مخلّفين وراءهم فُتاتاً صغيراً من سكان فوتمبرغر، وجيش مشاة الجبال، ومراوح مطحنة مانشستر وأهالي إيتون القدامى ليتابعوا انحلالهم الأبدي تحت المطر الدافئ. أكلوا شطائر سجق المورتاديلا وجبن بل بيز المُعدّ في مطعم المحطة، وشربوا بوجوليه. كانت نيكول شاردة، تعضّ شفتها بقلق وتقرأ مستعرضة نشرات الدليل إلى ساحة المعارك التي كان ديك جلبها معه - في الحقيقة، كان قد أجرى دراسة سريعة على المسألة كلها، وكان يوضحها دائماً إلى أنْ أضحت تحمل شبهاً قليلاً من إحدى حفلتيه.

الفصل الثاني

عندما وصلوا إلى باريس كانت نيكول من فرط التعب بحيث لم تذهب لمشاهدة التنوير العظيم الذي سيجري في معرض فنون الزخرفة كما كانا قد خطّطا. فتركوها في فندق الملك جورج، وبعد أنْ اختفت بين الأسطح المتقاطعة التي شكّلتها أضواء الأبواب الزجاجية في البهو، زال الضغط الذي كان رازحاً على روزميري. كانت نيكول قوة ضاغطة - ليست بالضرورة وديّة أو يمكن التنبؤ بها مثل أمها، كانت قوة لا يمكن تقديرها. وكانت روزميري تخشاها بصورة ما.

عند الساعة الحادية عشرة جلست مع ديك وآل نورث في مقهى عائم افتتح أبوابه حديثاً في نهر السين. ومض النهر بالأضواء المنبعثة من الجسور وهدهد العديد من الأقمار الباردة. أحياناً في أيام الأحد عندما كانت روزميري تعيش مع أمها في باريس كانتا تستقلان قارباً بخارياً صغيراً وتذهبان إلى سوريسنيه وتضعان خططاً للمستقبل. كان معهما بعض النقود، لكنَّ السيدة سبيرز كانت شديدة الثقة بجمال روزميري وزرعت فيها الكثير من الطموح إلى درجة أنها كانت راغبة في المقامرة بالنقود على «بعض المزايا»؛ وروزميري بدورها كان عليها أنْ تُسدّد لأمها عندما تضع قدمها على سلّم البداية...

منذ وصوله إلى باريس وآبيه نورث يرتدي فرواً رقيقاً ذا لون خمريّ؛ وكانت عيناه حمراوين من تأثير الشمس والنبيذ. وأدركت روزميري للمرة الأولى أنه دائماً يتوقف في بعض الأماكن ليشرب الخمر،

وتساءلت عن رأي ميري نورث في ذلك. كانت ميري هادئة، بل شديدة الهدوء لولا ضحكها المتكرر بحيث أنَّ روزميري لم تعرف عنها الكثير. أحبّت الشَعر الأسود الأملس المُسرَّح نحو الخلف إلى أنْ قابل ما يُشبه الشلال الطبيعي اعتنى به – وبين حين وآخر كان ينسدل مع انحدار أنيق على زاوية صدغيها إلى أنْ كاد يدخل عينها، ثم رمَتْ برأسها عالياً فانهمر أملس وعاد إلى مكانه من جديد.

«سوف نأوي إلى الفراش باكراً هذه الليلة يا آبيه، بعد هذه الكأس». كان صوت ميري خفيفاً، ولكن مع لمسة خفيفة من القلق. «لا أظنك ترغب في أنْ تنهار على متن القارب».

قال ديك «لقد تأخر الوقت كثيراً الآن. يُستحسن أنْ نذهب».

تلبّست الرصانة النبيلة لوجه آبيه قدراً من العناد فقال بحزم:

«أوه، كلا»، ثم سكت برصانة «أوه، كلا، ليس الآن. سوف نشرب زجاجة شمبانيا أخرى».

قال ديك «لا تحسب حسابي».

«أنا أفكر في روزميري. إنها مدمنة كحول بالفطرة. تحتفظ بزجاجة من الجن في غرفة الحمّام وما إلى ذلك – أمها أخبرتني بهذا».

أفرغ ما تبقّى من الزجاجة الأولى في كأس روزميري. في أول يوم لها في باريس مرضت من شرب كميات من الليمونادة؛ بعد ذلك لم تشرب أي شيء معها، أما الآن فرفعت كأس الشمبانيا نخب ذلك.

هتف ديك «ولكن ما هذا؟ أنتِ أخبرتني انكِ لا تشربين».

«أنا لم أقُل إني لن أشرب أبداً».

«وماذا عن أمك؟».

«أنوي أنْ أشرب هذه الكأس فقط». شعرتْ في حاجة إليه. وشربَ ديك، ليس كثيراً، لكنه شرب، ولعله كان سيُقرّبها منه، ويجعله جزءاً من الأداة التي تستخدمها لكي تقوم بما عليها أنْ تفعل. شربت بسرعة،

اختنقت، ومن ثم قالت «ثم إنَّ عيد مولدي كان بالأمس - لقد بلغت الثامنة عشرة».

قالوا بسخط «لماذا لم تُخبرينا؟».

«كنتُ أعرف أنكم ستُثيرون جلبَة حول هذا، وأني سأقع في مشاكل جمّة». أنهتْ شرب الشمبانيا. «ولذلك هذا هو الاحتفال».

طمأنها ديك «إنه حتماً ليس كذلك. العشاء في ليلة الغد هو حفل عيد مولدك ولا تنسي هذا. الثامنة عشرة - إنها حتماً سن في غاية الأهمية».

قالت ميري «كنتُ أحسب أنه قبل أنْ يبلغ المرء الثامنة عشرة لا شيء يهمّ».

وافقها آبيه «هذا صحيح. وبعد ذلك يبقى الأمر على حاله».

قالت ميري «إنَّ آبيه لا يشعر بأهميّة أي شيء إلّا بعد أنْ يستقل القارب. وهذه المرة قام فعلاً بالتخطيط لكل شيء عندما يصل إلى نيويورك». تكلّمت وكأنها سئمت قول أشياء لم يعُد لها أي معنى بالنسبة إليها، وكأنَّ السياق الذي تسير فيه مع زوجها، أو يفشلان في السير فيه، قد أصبح في الحقيقة مجرد نيّة.

«سوف يؤلف الموسيقى في أميركا وأنا سأعمل في الغناء في ميونيخ، ولذلك عندما سنجتمع معاً من جديد سوف نفعل كل ما يخطر في بالنا».

وافقتها روزميري، وهي تتحسّس الشمبانيا، «هذا رائع».

«في هذه الأثناء، قليلاً من الشمبانيا على شرف روزميري. بعد ذلك سوف تصبح قادرة على التفكير بعقلانية في غددها اللمفاوية. فهي لا تبدأ بالعمل إلا في سن الثامنة عشرة».

انغمس ديك بالضحك على آبيه، الذي كان يحبه، وفقد الأمل فيه منذ زمن بعيد: «هذا الكلام غير صحيح طبياً وسوف نذهب»، وعندما لمس آبيه نبرة مناصرة خفيفة قال بخفّة:

حدسي يقول لي إنني سأحقق نجاحاً جديداً في هوليوود قبل أنْ تُنهي أطروحتك الطبية بوقت طويل.

قال ديك بهدوء «آمل ذلك، آمل ذلك. وقد أتخلى حتى عمّا سمّيته أطروحتي الطبية».

«أوه، ديك!»، كان صوت ميري مُجفِلاً، مصعوقاً. لم تكن روزميري قد رأت وجه ديك قبل ذلك خالياً هكذا من أي تعبير؛ شعرت بأنَّ إعلانه ذاك خطير ورغبت في أنْ تهتف مع ميري «أوه، ديك!».

ولكنْ فجأةً عاد ديك إلى الضحك من جديد، بالإضافة إلى ملاحظته «- أتخلى عنها من أجل أخرى»، ثم نهضَ عن الطاولة.

«اجلس يا ديك. أريد أنْ أعرف -».

«سأخبركَ في وقت آخر. تصبح على خير، آبيه. تصبحين على خير، ميري».

«تصبح على خير، عزيزي ديك». ابتسمت ميري وكأنها ستكون في منتهى السعادة بجلوسها هناك في القارب شبه المُقفِر. كانت امرأة شجاعة، مفعمة بالأمل، وكانت تلحق بزوجها إلى مكانٍ ما، مُبدِّلة شخصيتها إلى هذا النوع أو ذاك، من دون أنْ تتمكن من إخراجه عن مساره خطوة واحدة، ومدركة أحياناً بإحباط مدى عمق سر اتجاه طريقها الحصين داخله. ومع ذلك اكتنفها جو من الحظ، كان بمنزلة العربون.

الفصل الثالث

سألت روزميري، وهي تواجه ديك بجدية في سيارة الأجرة «ما هذا الذي تتخلى عنه؟».

«لا شيء ذا أهمية؟».

«هل أنت عالِم؟».

«أنا طبيب في المداواة».

ابتسمت بابتهاج «أوه - هـ! والدي أيضاً كان طبيباً. إذن لماذا لا -؟» وسكتت.

«ليس هناك سر. أنا لم أُنزِل الخزي بنفسي وأنا في ذروة نجاحي المهني وأختبئ في الريفييـــرا. لكنني لا أمارس المهنة. مَنْ يدري، قد أعــود إلى ممارســـــتها ذات يوم».

أعدَّت روزميري وجهها بهدوء لكي يتلقّى قُبلة. نظر إليها برهة وكأنه لم يفهم. ثم حضنها داخل تجويف ذراعيه ودعكَ وجنته على وجنتها الناعمة، ومن ثم هبط ببصره إليها في نظرة أخرى طويلة.

قال بجدية «أنت طفلة جميلة جداً».

ابتسمت له، ويداها تعبثان بحركة تقليدية بطيّة معطفها. «أنا أحبك أنت ونيكول. في الحقيقة هذا هو سرّي - إنني حتى لا أستطيع أنْ أتكلّم عنكَ لأي شخص لأنني لا أريد أنْ يعرف مزيد من الناس كم أنتَ رائع. صدقاً - أنا أحبك وأحب نيكول - حقاً».

كان قد سمع هذا مرات عديدة - حتى الصياغة كانت نفسها.

فجأة اقتربت منه، وشبابها يتلاشى أثناء مرورها داخل مركز عينيه وقبّلها محبوس الأنفاس كأنها تجاوزَت الأعمار كلها. ثم استلقت بظهرها على ذراعه وتنهدت.

قالت «قررتُ أنْ أتخلى عنك».

أجفلَ ديك – هل قال شيئاً يُوحي بأنها امتلكت أي جزءٍ منه؟

نجح في أنْ يقول بخفّة «ولكن هذه أنانية شديدة، في الوقت الذي بدأتُ أهتم لأمرك».

«لقد أحببتك بشدة –»، وكأنما منذ سنين عديدة. هنا أخذت تبكي قليلاً. «لقد أحببتكَ كثيييراً».

ثم لابد أنه ضحك، لكنه سمعَ نفسه يقول «أنتِ لست جميلة فقط بل على مستوى فخم بصورة ما. إنَّ كل ما تفعلين، كادِّعائك بأنكِ عاشقة أو بأنكِ خجول، يقفُ عائقاً».

داخل تجويف سيارة الأجرة المظلم، اقتربت منه من جديد مع عبق العِطر الذي كانت روزميري اشترته مع نيكول، وتعلّقت به. قبّلها من دون استمتاع. كان يعلم أنَّ هناك شوقاً، ولكنَّ عينيها وفمها كانت خالية منه؛ كان هناك أثر من بقايا الشمبانيا في أنفاسها. التصقت به أكثر بيأس ومرة أخرى قبّلها وشاعت فيه برودة براءة قُبلتها، والنظرة التي تجاوزته في لحظة التلامس إلى داخل ظلام الليل، ظلام العالم. لم تكن تعلم بعد أنَّ الروعة شيء في القلب؛ وفي اللحظة التي أدركت ذلك وذابت في شوق الكون استطاع أنْ يأخذها من دون استفسار أو ندم.

كانت غرفتها في الفندق تقع بشكل منحرف على الجهة المقابلة لغرفتهما وأقرب إلى المصعد. عندما وصلا إلى الباب قالت فجأة:

«أنا أعلم أنكَ لا تحبني – ولا أتوقع أنْ تفعل. لكنكَ قلتَ إنه كان يجب أنْ أُخبرك عن موعد عيد مولدي. حسن، لقد فعلت، والآن أريد هدية بمناسبة عيد مولدي أنْ تأتي إلى غرفتي دقيقة بينما أخبرك شيئاً. دقيقة واحدة فقط».

دخلا وأغلقا الباب، ووقفت روزميري قريبة منه، ولم تلمسه. كان الليل قد خطف تورُّد وجهها - كانت شديدة الشحوب عندئذٍ، بيضاء كزهرة قرنفل تُركت بعد انتهاء الرقص.

«عندما تبتسمين -» كان قد استعاد موقفه الأبوي، ربما بسبب قُرب نيكول الصامت، «أعتقدُ دائماً أنني سأرى فجوة أضعتِ فيها بعض الأسنان اللبنيّة».

لكنه كان قد تأخّر كثيراً - فقد اقتربت منه مع همس يائس.

«خُذني».

«آخذك إلى أين؟».

جمّدته الدهشة.

همستْ «هيا، أوه، أرجوك هيا، فليفعلوا ما يشاؤون. لا يهمني إذا لم يعجبني الأمر - لقد توقعت ذلك - لطالما كرهت التفكير في هذا أما الآن فلا. أنا أريده».

كانت مندهشة من نفسها - لم يكن قد خطر في بالها قط أنَّ في استطاعتها أنْ تتكلّم هكذا. كانت تنادي بأشياء قرأتْ عنها، وشاهدتها، وحلمت بها على مدى عقد من ساعات الرهبنة. وفجأةً علِمت أيضاً أنه أحد أعظم أدوارها التمثيلية وقد انغمست في أدائه بمزيد من الشغف.

قال ديك متأملاً «لا ينبغي أنْ يحدث هذا. أليس هذا من تأثير الشمبانيا فقط؟ دعينا ننسه بصورة أو بأخرى».

«أوه، كلا، بل *الآن*. أريد منك أنْ تفعل الآن، خذني، أرني الآن، أنا كلّي لك وأريد أنْ أكون كذلك».

«أولاً، هل فكّرتِ كم سيؤلم ذلك نيكول؟».

«لن تعلم - لن يكون لهذا علاقة بها».

تابع برفق.

«ثم إنني أحب نيكول».

«ولكن يمكنكَ أنْ تحب أكثر من شخص واحد، ألا تستطيع؟ أنا أحب أمي وأحبك - أكثر. أحبك أكثر الآن».

«- رابعاً، أنتِ لا تحبينني ولكن قد تفعلين لاحقاً، وسوف تبدئين حياتك بفوضى عارمة».

«كلا، أعدك بأنني لن أراك بعد الآن. سوف أستدعي أمي ونذهب إلى أميركا في الحال».

رفضَ هذا الحل. كان يتذكّر بوضوح شديد شباب ونضارة شفتيها. وتلبّس نبرة صوت أخرى.

«أنتِ فقط في مزاج خاص».

«أوه، أرجوك، لا يهمني إذا أنجبتُ طفلاً. يمكنني أنْ أذهب إلى مكسيكو كفتاة عاملة في الاستديو. أوه، إنَّ هذا مختلف كثيراً عن أي شيء فكّرت فيه - كنتُ أكره أنْ يُقبلونني جدياً». رأى أنها لا تزال تحت تأثير الانطباع بأنه يجب أنْ يحدث. «بعضهم كانت لهم أسنان ضخمة وكبيرة، ولكنك تختلف عنهم كلياً وأنت جميل. أريد منك أنْ تفعلها».

«أعتقد أنك تظنين أنَّ الناس يتبادلون القبـلات بطريقة ما وتريدين مني أنْ أقبّلك».

«أوه، لا تزعجني - أنا لست طفلة. أنا أعلم أنك لا تحبني». فجأة أصبحت متواضعة وهادئة. «أنا لا أتوقع الكثير. أنا أعلم أنني لا أعني لك أي شيء».

«هراء. لكنكِ تبدين صغيرة»، ثم أضاف بعد تفكير «- لا يزال أمامك الكثير لتتعلمي».

انتظرت روزميري، وهي تتنفّس بشوق إلى أنْ قال ديك «وأخيراً إنَّ الأمور ليست مُعدَّة لكي تفعلي ما تشائين».

تهدَّلَ وجهها في تعبير خوف وإحباط، وقال ديك بنبرة آلية «علينا ببساطة أنْ -»، وسكت، ولحق بها إلى السرير، وجلس بجوارها وهي

تبكي. فجأة اضطرب، ليس بسبب الناحية الأخلاقية من الأمر، لأنَّ استحالة وقوعه كانت بادية من الزوايا كلها، لكنه اضطرب ببساطة، ولبرهة من الزمن غاب الجمال المعتاد، وقوة جذب توازنه.

نشجت وقالت «أعلم أنكَ لن تفعل. كان مجرد أمل يائس».

نهضَ واقفاً.

«تصبحين على خير، يا طفلتي. هذا عار مُشين. دعينا ننس الأمر»، ونفحها بعض الثرثرة الطيبة قبل أنْ تأوي إلى النوم. «سوف تحظين بحب العديد من الناس وسيكون شيئاً جميلاً إذا قابلتِ حبّك الأول سليم الصحة، والعاطفة أيضاً. هذه فكرة قديمة الطراز، أليست كذلك؟». نظرتْ إليه وهو يخطو نحو الباب؛ نظرت إليه من دون أنْ تكون لديها أدنى فكرة عما يدور في رأسه، ورأته يخطو خطوة أخرى بطيئة الحركة، ويلتفت وينظر إليها من جديد، واشتهت لبرهة من الزمن أنْ تمسك به وتلتهمه، اشتهت فمه، وأُذنيه، وياقة معطفه، أرادت أنْ تحيط به وتكتنفه؛ رأت يده تسقط على أُكرة الباب. ثم استسلمت وغاصت على سريرها. حين أُغلِقَ الباب نهضت واقفة وذهبت إلى المرآة، بدأتْ تمشّط شعرها، وهي تجهش قليلاً. سرّحته روزميري مئة وخمسين مرة، كالمعتاد، ثم مئة وخمسين مرة أخرى. مشّطته إلى أنْ آلمتها ذراعها، ثم بدّلت الذراعين وتابعت التمشيط.

الفصل الرابع

استيقظتْ هادئة وشاعرة بالخزي. لم يبثّ مشهدُ جمالها في المرآة الطمأنينةَ في نفسها، بل أيقظ فقط ألَمَ الأمس؛ والرسالةُ، التي أعطتها إياها أمها، ووصلتها من الشاب الذي كان قد أخذها معه إلى الحفل الموسيقي في ييل في الخريف السابق، يُعلن فيها وصوله إلى باريس، لم تساعدها – ذلك كله بدا بعيداً نائياً. وخرجت من غرفتها، لأنَّ محنة لقاء آل دايفر كانت تُثقِل كاهلها بمشكلة عويصة. لكنها كانت مُستترة بثوب كتيم كثوب نيكول عندما تقابلتا وذهبتا معاً إلى سلسلة من عمليات تجريب الأثواب. ولكن كان شيئاً مُعزياً، عندما علّقت نيكول، فيما يخص بائعة مذهولة، قائلة «إنَّ معظم الناس يعتقدون أنَّ مشاعر الآخرين نحوهم أقوى مما هي في الحقيقة – يعتقدون أنَّ آراء الآخرين عنهم مغرقة في الاستحسان أو الاستهجان». بالأمس، أثناء تماديها، كان يمكن لروزميري أنْ تمقت هذه الملاحظة – أما اليوم وسط رغبتها في التقليل من تأثير ما حدث رحّبت بها بشغف. عبّرت عن إعجابها بجمال نيكول وحِكمتها، وأيضاً لأول مرة في حياتها شعرت بالغيرة. وقُبيل مغادرة فندق غوس كانت أمها قد قالت بتلك النبرة العادية، التي كانت روزميري تعلم أنَّها تُخفي أشد آرائها أهمية، إنَّ نيكول صاحبة جمال خارق، مع تضمين صريح بأنَّ روزميري ليست كذلك. لم يُزعج هذا روزميري، التي كان قد سُمِحَ لها مؤخراً أنْ تعلم أنها حتى فاتنة؛ بحيث أنَّ جمالها لم يبدُ قط أنه فطريّ بل مُكتسَب، كلغتها الفرنسيّة. ومع ذلك، في سيارة الأجرة نظرتْ إلى نيكول، وأجرت مقارنة بينها وبين نفسها. كانت هناك الإمكانات كلها اللازمة للحب الرومانسي

في ذلك الجسد الجميل والفم الرقيق، المشدود حيناً، ونصف المفتوح بصورة متوقعة أحياناً أمام العالم. لقد كانت نيكول جميلة منذ طفولتها وسوف تبقى جميلة لاحقاً عندما تصبح بشرتها على عظمتيّ وجنتيها مشدودة - البنية الأساسية كانت هناك. كانت شقراء-سكسونية-بيضاء، لكنها أضحتْ أجمل الآن بعد أنْ أصبح شَعرها داكناً أكثر مما كان وهو يُشبه سحابة وأجمل منها.

«نحن نُقيم هناك» وأشـــارت روزميري فجأة نحو بنـــاء في شـــارع رو ديه ســـان-بيير.

«هذا غريب. لأنني عندما كنتُ في الثانية عشرة أمضينا أمي وأنا وبيبي فصل الشتاء هناك»، وأشارت إلى فندق يقع مباشرة على الجهة المقابلة من الشارع. حدّقت الواجهتان القذرتان فيهما، كأصداء رمادية من عهد الطفولة.

تابعت نيكول قائلة «كنا قد بنينا حديثاً منزل ليك فوريست وكنا نقتصد. على الأقلّ أنا وبيبي والمربية اقتصدنا وأمي كانت تسافر».

قالت روزميري، مُدركةً أنَّ الكلمة كانت تعني أشياء مختلفة لهم، «نحن أيضاً كنا نقتصد».

«كانت أمي دائماً تتكلم عنه بعناية شديدة وتصفه بالفندق الصغير -»، وضحكت نيكول ضحكتها الجذّابة السريعة الصغيرة، «- أعني بدل قول فندق «رخيص». فإذا طلب منا أي صديق مختال عنواننا لم نكن نقول «نحن نُقيم في بؤرة صغيرة وقذرة في حي الهنود الحمر حيث نسعد بالمياه الجارية» - بل كنا نقول «نحن نقيم في فندق صغير». وكأنَّ الفنادق الكبيرة كلها شديدة الضوضاء والسوقية بالنسبة إلينا. وطبعاً كان الأصدقاء دائماً يفهمون فحوى كلامنا ويُخبرون الجميع عن وضعنا، لكنَّ أمي كانت دائماً تقول إنَّ ذلك يُبيِّن أننا نعرف طريقنا في أرجاء أوروبا. وكانت تعرف، طبعاً؛ كانت قد وُلِدَتْ مواطنة ألمانية. لكنَّ أمها كانت أميركية، ونشأتْ في شيكاغو، وكانت أميركيّة أكثر منها أوروبيّة».

كانتا ستقابلان الآخرين في غضون دقيقتين، وأعادت روزميري لمّ شتات نفسها مرة أخرى وهما تترجلان من سيارة الأجرة في شارع رو غينيمير، مقابل حدائق اللوكسمبور. كانوا يتناولون طعام الغداء في شقة آل نورث التي جُرِّدتْ من الأثاث تواً والكائنة فوق كتل أوراق الأشجار النضرة. بدا النهار لروزميري مختلفاً عن الذي سبقه. وعندما نظرت إليه وجهاً لوجه تقابلتْ عيونهما وتلامست كأجنحة الطيور. وبعد ذلك سار كل شيء على ما يُرام، كل شيء كان رائعاً، لقد عرفت أنه بدأ يقع في حبها. شعرت بسعادة جامحة، شعرت بدفء نسغ العاطفة يندفع في أرجاء جسدها. نظرتْ سراً إلى ديك لكنها عرفت أنَّ كل شيء على ما يُرام.

بعد تناول الطعام ذهب آل نورث وآل دايفر وروزميري إلى مهرجان الأفلام الفرانكو-أميركية. وانضمّ إليهم كوليس كلاي، صديقها الشاب من نيو هيفن، الذي اتصلتْ به هاتفياً. كان جورجيّاً، يحمل الآراء المنتظمة بشكل استثنائي، بل والمطبوعة، التي يحملها الجنوبيون الذين تلقّوا تعليمهم في الشمال. في الشتاء السابق ظنّت أنه جذّاب - في إحدى المناسبات أمسك كل منهما بيد الآخر في سيارة متوجهة من نيو هيفن إلى نيويورك؛ الآن لم يعُد له وجود بالنسبة إليها.

في غرفة العرض جلستْ بين كوليس كلاي وديك بينما ركّبَ العامل بكرات فيلم «*أثيرة والدها*» والمدير الفرنسي يرفرف حولها محاولاً أنْ يتكلَّم بلكنة أميركية سوقية. قال «نعم، يا فتى»، عندما وقعتْ مشكلة في آلة العرض، «ليس لدي أي موز». ثم أُطفئت الأنوار، وسمعت الطقة المفاجئة والضجيج المصحوب بالومض وأخيراً أصبحت وحدها مع ديك. تبادلا النظر في العتمة.

تمتم «عزيزتي روزميري». تلامست كتفاهما. تململت نيكول بقلق في آخر الصف وسعل آبيه بتشنّج وتمخّط؛ ثم استقروا جميعاً وبدأ عرض الفيلم.

ها هي ذي - بنت المدارس أيام زمان، شعرها منهمر على ظهرها

يتموج بتيبُّس كشَعر تمثال تاناغاري[1] الصلب؛ ها هي ذي - في *غاية* الشباب والبراءة - نِتاج عناية أمها المُحبّة؛ ها هي ذي - تجسّد فجاجة سلالة كاملة، تقصّ دمية جديدة من الورق المقوّى لتمرِّرها من أمام عقل عاهرة فارغ. تذكّرتْ كيف شعرتْ وهي ترتدي ذلك الثوب، الغض والجديد بصورة خاصة تحت الحرير الجديد والشاب.

أثيرة والدها. ألم تكن صغيرة شجاعة وتألمت؟ ما أعذبها، تلك الحلوة اللذيذة، ألم تكن شديدة الحلاوة؟ فرّتْ أمام قبضة يدها الصغيرة قِوى الشهوة والفساد؛ كلا، لقد توقفت مسيرة القدر، والمحتوم أصبح غير محتوم؛ وسقط المنطق، والجدل المنطقي، والعقلانية كلها. سوف تنسى النساء والأطباق القذرة التي في المنزل وتبكي؛ حتى داخل الفيلم بكت إحدى النساء طويلاً حتى كادت تخطف الأضواء من روزميري. بكت على موقع تصوير كلّف ثروة، في غرفة طعام دنكن فايف، وفي مطار، وأثناء سباق يخوت لم يظهر إلا في لقطتين، وداخل قطار أنفاق، وأخيراً في الحمّام. لكنَّ روزميري انتصرت - بامتياز شخصيتها، وشجاعتها وثباتها التي تعرَّضتْ لسوقيّة العالم، وروزميري تبيِّن ماذا تفعل بوجه لم يُصبح بعد منافقاً؛ ولكن كان مؤثراً جداً في الواقع أنَّ انفعالات المشاهدين جميعاً وصلتها على فترات أثناء عرض الفيلم. كانت هناك استراحة واحدة وأُضيئت الأنوار وبعد ثرثرة استحسان قال لها ديك بصدق: «أنا ببساطة مذهول. سوف تصبحين إحدى أفضل الممثلات على خشبة المسرح».

ثم عودة إلى فيلم «*أثيرة والدها*»: الآن الأيام الأكثر سعادة، ولقطة جميلة لروزميري وأمها مجتمعين أخيراً في جو تسوده عقدة الوالد الشديدة الوضوح حتى أنَّ ديك أجفلَ نيابة عن أطباء النفس جميعاً أمام

1- تمثال تناغري: نسبة إلى بلدة تاناغرا الإغريقية القديمة، كانت تقع إلى الشمال من مدينة آثينا الحالية. ازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، وعُرِفَتْ بتماثيلها الغضارية. - المترجم

المشهد العاطفي الرديء. اختفى المشهد عن الشاشة، وأُضيئت الأنوار، وحانت اللحظة.

أعلنت روزميري للجميع «لقد أعددتُ شيئاً واحداً. لقد أعددتُ اختباراً لديك».

«ماذا؟».

«اختباراً للشاشة، سوف يُجرونه الآن».

ساد صمت تام - ثم ضحك آل نورث المسترسل. راقبت روزميري ديك وهو يستوعب ما قصدت، تحرك وجهها أولاً بطريقة أيرلندية؛ في الوقت نفسه أدركت أنها ارتكبت خطأً في لعب دور الشخص الموثوق وبقيت لا تشك في أنَّ البطاقة مزيَّفة.

قال ديك بحزم «لا أريد أنْ أخضع للاختبار»؛ ثم، عندما نظر إلى الموقف ككل، تابع بخفّة، «روزميري، لقد خاب أملي. إنَّ السينما هي مهنة رائعة بالنسبة إلى امرأة - ولكن بحق الله، لا يمكنهم أنْ يُصوروني. أنا عالِم عجوز متقوقع داخل حياته الخاصة».

حثّته نيكول وميري ساخرتين على انتهاز الفرصة؛ ضايقتاه، وكلتاهما منزعجتان قليلاً لأنّهَ لا أحد طلب منهما أنْ تجلسا للتصوير. لكنَّ ديك أغلق الموضوع مع نقاش ممثلين لاذع: قال «إنَّ أقوى الحرّاس موضوع عند البوابة التي لا تؤدي إلى أي مكان. ربما لأنَّ حالة الفراغ مُخجلة إلى درجة لا يمكن عندها إفشاؤها».

في سيارة أجرة مع ديك وكوليس كلاي - كانوا سيُوصلون كوليس، وتقرّ أنْ يصحب ديك روزميري لتناول فنجان شاي رفضته نيكول وآل نورث لكي يؤدي آبيه أعمالاً تركها من دون إنجاز حتى اللحظة الأخيرة - وفي سيارة الأجرة عاتبته روزميري.

«فكّرتُ أنه إذا نجح الاختبار فقد آخذه معي إلى كاليفورنيا. ومن ثم ربما إذا أعجبهم تأتي وتصبح البطل إلى جانبي في السينما».

شعر بالارتباك. «إنها فكرة جميلة ولذيذة، ولكني أفضّل أنْ أتفرّج عليكِ. أنت أجمل ما تفرّجت عليه في حياتي».

قال كوليس «هذا فيلم عظيم. لقد شاهدته أربع مرات. وأعرف فتى في نيو هيفن شاهده عدداً كبيراً من المرات - كان يقطع المسافة كلها حتى هارتفورد ليشاهده مرة. وعندما اصطحبتُ روزميري إلى نيو هيفن كان من فرط الحياء بحيث رفضَ أنْ يُقابلها. هل تستطيع أنْ تتفوق عليه؟ إنَّ هذه الفتاة الصغيرة هزمتهم».

تبادل ديك وروزميري النظرات، راغبَين في الانفراد، لكنَّ كوليس لم يفهم.

اقترح قائلاً «أستطيع أنْ أوصلك إلى حيث تقصد؛ أنا سأمكث في لوتيتيا».

قال ديك «سوف نوصلك».

«سيكون أسهل عليّ أن أوصلكما. ولا تعب».

«أعتقد أنه سيكون من الأفضل إن أوصلناك».

باشر كولين بالقول «ولكن -»؛ أخيراً انتهز الفرصة وبدأ يتناقش مع روزميري حول موعد لقائهما التالي.

أخيراً رحل، مع مجموع الفريق الثالث التافه والغامض ولكن المُهين. توقفت السيارة بصورة غير متوقعة، ومزعجة، عند العنوان الذي أعطاه ديك. أخذَ نَفَساً عميقاً.

«هل ندخل؟».

قالت روزميري «لا يهمني، سوف أفعل أي شيء تريد».

فَكّر.

«أكاد أكون مضطراً إلى الدخول - إنها تريد أنْ تشتري بعض اللوحات من صديقٍ لي يحتاج إلى المال».

مسّدتْ روزميري القليل مما تبعثر بشكل مُعبِّر من شعرها.

قرّر «سوف نمكث خمس دقائق فقط. لن يُعجبكِ أولئك الناس».

افترضَتْ أنهم أناسٌ مملُّون وتقليديون، أو أفظاظ وسكارى، أو مُضجرون، وملحّون، أو أي من الأنواع التي يتجنَّبها آل دايفر. لم تكن مستعدة على الإطلاق لتقبُّل الانطباع الذي تركه المشهد العام عليها.

الفصل الخامس

كان منزلاً نُقِلَ تصميمه عن هيكل قصر الكاردينال جو ريتز في شارع مونسينيور، ولكن حالما دخلت روزميري من الباب لم يعُد هناك أيُّ شيء مما تعرفه من الماضي، أو من الحاضر. بدا أنَّ الغلاف الخارجي، البناء، يحاصر المستقبل، بحيث كان اجتياز تلك العتبة، إذا أمكن تسميتها هكذا، إلى الرواق الطويل من الفولاذ الأزرق اللون، المُلبَّس بالفضة، والواجهات التي لا حصر لها للعديد من المرايا المشطوبة الحواف بطريقة غريبة، أشبه بصدمة كهربائية، بتجربة عصبية مُحدّدة، فاسدة كوجبة إفطار من الشوفان والحشيش. لم يكن التأثير يُشبه في أي شيء تأثير أيّ جزءٍ من معرض الفنون الزخرفية – لأنه كان هناك أناس داخله، وليس أمامه. انتاب روزميري الشعور المنفصل الزائف والمنتشي لكونها في موقع تصوير وخمّنت أنَّ الحاضرين كلهم انتابهم أيضاً ذلك الشعور.

كان هناك ما يُقارب الثلاثين شخصاً، نساء في معظمهم، وكلهم من طراز لويزا م. ألكوت[1] أو مدام دو سيغور[2]؛ ويتصرفون في ذلك الموقع بحذر، ودقّة، كيدٍ إنسانية تلتقط قطعة زجاج مكسور خشنة الحواف. لا يمكن القول إنهم فُرادى أو دفعة واحدة يُهيمنون على البيئة، كما يهيمن المرء على عمل فنيّ ربما يمتلكه، مهما كان صعب المنال. لا أحد كان

1- لويزا ماي ألكوت (1832 – 1888): كاتبة أميركيّة. أشهر رواياتها «نساء صغيرات» 1868. – المترجم

2- مدام دو سيغور، أو كونتيسة دو سيغور (1799 – 1877): كاتبة فرنسيّة من أصل روسيّ. أشهر قصصها «أحزان صوفي» وهي مُخصّصة للأطفال. – المترجم

يعلم ماذا يعني ذلك المكان لأنه كان يتحول إلى شيء آخر، يُصبح أي شيء إلا غرفة؛ والتواجد فيها صعب كالسير على سلّم متحرّك صقيل بدرجة عالية، ولا أحد ينجح في ذلك إلا إذا كان يمتلك خواص يدٍ تتحرك بين زجاج مكسور - وتلك الخواص تقتصِرُ على أغلبية أولئك الحاضرين وتُعرِّفهم.

كانوا يتألفون من نوعين. هناك الأميركيون والإنكليز، الذين يتفرّقون طوال فصليّ الربيع والصيف، بحيث أصبح لكل ما يفعلونه الآن طابع الإلهام العصبي الصِرف. كانوا شديدي الصمت والكسل في ساعاتٍ معيّنة ومن ثم ينفجرون في شجارات مفاجئة وحالات انهيار وإغواء. والفئة الثانية، الذين يمكن وصفهم بالمستغلين، وتتألّف من المتطفلين، الجاديّن، الصاحين بالمقارنة، الذين لهم هدف في الحياة، وليس لديهم وقت للعبث. وأفضل حالات توازن هؤلاء تتحقق في تلك البيئة، والنبرة السائدة هناك، خلف النظام الجديد لقيم الضوء في الشقة، تصدرُ عنهم.

التهمَ فرانكنشتاين ديك وروزميري دفعة واحدة - فرقهما على الفور واكتشفت روزميري فجأةً أنها شخص منافق صغير، منغمسة في أعلى طبقات صوتها وتتمنّى أنْ يأتي المخرج. ولكن كان هناك ضجيج عال في الغرفة حتى أنها لم تشعر بأنَّ موقعها أشدّ تنافراً من موقع أي شخص آخر. بالإضافة إلى هذا، بعد تلقّي تدرّبها وبعد سلسلة من الحركات، ونوبات العمل، والمسيرات شبه العسكرية وجدت أنّه من المفترض أنها تتحدث مع فتاة أنيقة، مبتذلة، تحملُ وجه فتى جميل، لكنها كانت في الحقيقة منغمسة في حديث يجري على ما يُشبه سلّماً بلون رمادي حالك يقع بشكل منحرف قبالتها وبعيداً عنها بمقدار أربع أقدام.

كانت هناك ثلاث نساء جالسات على مقعد. كن ممشوقات القامة ونحيلات ذوات رؤوس صغيرة أنيقة كرؤوس عارضات الأزياء، وأثناء تبادلهن الحديث كانت الرؤوس تميل بجمال فوق أثوابهن الأنيقة الداكنة الألوان، أشبه بسيقان أزهار طويلة وأشبه برؤوس أفاعي الكوبرا.

قالت إحداهن، بصوت فخم وعميق «آه، إنهم يقدمون عرضاً جيداً. بل إنه في الواقع أفضل عرض في باريس - إنني آخر مَنْ يُنكر هذا. ولكن قبل أي شيء -» تنهدت. «هذه العبارات التي يُكررها مراراً - [إنَّ أقدم الساكنين نهشته القوارض] تجعلك تضحكين مرة واحدة».

قالت الثانية «أنا أُفضّل الأشخاص الذين تتسم حياتهم بمزيد من التنوُّع، وهذه المرأة لا تعجبني».

«لم يحدث قط أني تحمّست لهما، أو لبطانتهما. لماذا يصاحبان، مثلاً، المائع السيد نورث؟».

قالت الفتاة الأولى «لقد رحل. ولكن يجب أنْ تعترفي بأنَّه ربما الحفل المعنيّ هو أحد أشد التجمعات الإنسانية التي قابلتها سحراً».

كانت تلك أول إشارة فهمت روزميري من خلالها أنهنّ يتحدثن عن آل دايفر، وازداد توتر جسمها من فرط السخط. لكنَّ الفتاة التي كانت تتحدث معها، ذات القميص الأزرق المُنشّى والعينين الزرقاوين البراقتين والوجنتين الحمراوين والثوب الرمادي القاتم، الشبيهة بفتاة الملصقات، كانت قد بدأتْ تبالغ في حركاتها. كانت تزيل الأشياء الموجودة بينهما بحركة يائسة، خشية ألا تكون روزميري تراها، وترمي بها حتى لم يتبقَ أيُّ حجاب هش يُخفي الفتاة، ورأتها روزميري مع إحساس بالامتعاض.

توسّلتْ إليها الفتاة قائلة «ألا يمكنكِ أنْ تتناولي معنا طعام الغداء، أو ربما العشاء، أو الغداء بعد غد؟». كانت روزميري تتلفّت حولها باحثة عن ديك، فوجدته مع المضيفة، التي كان يتحدث معها منذ أنْ دخلوا. تقابلت عيونهما فأومأ برأسه بحركة مُقتضبة، وفي الوقت نفسه لاحظت النسوة الثلاث الثرثارات وجودها؛ اشرأبّت أعناقهن الطويلة نحوها وثبَّتن نظراتهن المنتقدة المُدقّقة عليها. بادلتهن النظرات بتحدٍ، وأشعرتهنّ بأنها سمعت ما كنّ يقلن. ثم تخلَّصتْ من مُحدّثتها اللجوج برحيلٍ سريع ولكن مؤدَّب كانت قد تعلّمته تواً من ديك، واقتربت لتنضمّ إليه. كانت المُضيفة - وهي ثريّة أميركية أخرى ممشوقة القامة،

تتحدث بلا مبالاة عن الرخاء الوطني - تنهال على ديك بسيلٍ جارف من الأسئلة عن فندق غوس، الذي كان من الواضح أنها ترغب في زيارته، وتضرب بإلحاح على نفوره. ذكّرها حضور روزميري بأنها كانت قليلة الصبر كمُضيفة فتلفّتت حولها وقالت: «هل قابلت أي شخص مُسلٍ، هل قابلت السيد -؟»، وراحت عيناها تتلمّسان وجود ذَكر يمكن أنْ يُثير اهتمام روزميري، لكنّ ديك قال إنَّهما يجب أنْ يرحلا. وغادرا على الفور، مجتازين عتبة المستقبل القصيرة المؤدية إلى الماضي المُفاجئ للواجهة الحجرية في الخارج.

قال «ألم يكن الجو فظيعاً؟».

كرّرت برضوخ «فظيع».

«روزميري؟».

غمغمت «ماذا؟» بصوتٍ وجِل.

«ينتابني شعور فظيع حول هذا».

كانت ترتعشُ مُصدِرة نشيجَ ألمٍ مسموع. تلعثمت قائلة «هل معك منديل؟». ولكن لم يكن هناك مُتّسع من الوقت للبكاء، وبما أنهما أصبحا الآن عاشقَين كانا يُسابقان بلهفة اللحظات السريعة، بينما خارج نوافذ سيارة الأجرة كان لون الغسق الأخضر والفاتح يتلاشى، واللافتات الحمراء النارية، والزرقاء الغازيّة، والخضراء الشبحيّة بدأتْ تسطع كما الدخان مخترقة المطر الهادئ. كانت الساعة تقترب من السادسة، والشوارع تمور بالحركة، والمقاهي تلمع، وساحة الكونكورد تمر بمُحاذاتهما بفخامة ورديّة مع انطلاق سيارة الأجرة شمالاً.

أخيراً تبادلا النظرات، وغمغما أسماءً كانت كالتعاويذ. وعلِقَ الاسمان بهدوء في الجو، وتلاشيا ببطءٍ أشدّ من الكلمات الأخرى، الأسماء الأخرى، ببطء أشدّ من وقع الموسيقى في الذهن.

قالت روزميري «لا أدري ماذا ألمّ بي في الليلة الفائتة، أكان السبب كأس الشمبانيا ذاك؟ لم يسبق لي أنْ فعلت شيئاً كهذا».

«لقد قلتِ ببساطة إنكِ تُحبّينني».

«أنا أحبكَ فعلاً - لا أستطيع أنْ أُغيِّر هذا». كان الوقت قد حان لكي تباشر روزميري البكاء، فبكتْ قليلاً داخل منديلها.

قال ديك «أخشى أنني أحبكِ، وهذا ليس أفضل ما يمكن أنْ يحدث».

من جديد الأسماء - ثم أخذا يتمايلان معاً وكأنَّ سيارة الأجرة كانت تؤرجحهما. انضغط ثدياها على صدره بقوة، وأصبح فمها نضراً ودافئاً، أصبحَ مُلكيّة مُشتركة. تخليا عن التفكير بارتياحٍ كاد يكون مؤلماً، تخليا عن النظر؛ أصبحا فقط يتنفسان ويسعى كل منهما نحو الآخر. كانا معاً في العالم الرقيق الرمادي للأثر اللطيف للتعب، عندما تسترخي الأعصاب ضمن مجموعات كأوتار البيانو ثم تقعقع فجأة ككراسٍ من الأماليد المجدولة. ولابد أنَّ الأعصاب الفجّة جداً والرقيقة تنضم إلى الأعصاب الأخرى، وتتلاقى الشفتان مع الشفتين، والثديان مع الصدر.

كانا لا يزالان في المرحلة الأشد سعادة من الحب. كان كلٌّ منهما ممتلئاً بالأوهام الجريئة حول الآخر، بأوهام هائلة، بحيث أنَّ اجتماع نفس مع نفس بدا على أرضٍ لا تهمّ فيها أي علاقات إنسانية أخرى. بدا أنَّ كلا منهما وصل إلى هناك ببراءة خارقة، وكأنَّ سلسلة من الحوادث الصِرف قد دفعتهما معاً، حوادث عديدة بحيث أنهما أُجبِرا على استنتاج أنَّ كلاً منهما وُلِد من أجل الآخر. وصلا بأيدٍ نظيفة، أو هكذا بدا، بعد الابتعاد عن كل ما هو غريب وسرّي.

ولكن بالنسبة إلى ديك كان ذلك القسم من الطريق قصيراً؛ جاء المنعطف قبل أنْ يصلا إلى الفندق.

قال، مع إحساس بالرعب، «لا مفرّ من الأمر. أنا أحبكِ، لكنَّ هذا لا يُغيِّر ما قلت في تلك الليلة».

«لم يعُد هذا يهمّ الآن. أنا أريد فقط أنْ أجعلك تحبني - إذا أحببتني سيُصبح كل شيء على ما يرام».

«لسوء الحظ أنا أفعل. ولكن يجب أنْ تعلم نيكول - ينبغي أنْ لا ينتابها أوهى ظل من شك. يجب أنْ نستمر أنا ونيكول معاً. إنَّ هذا بصورةٍ ما أشدّ أهمية من مجرد الرغبة في الاستمرار».

«قبّلني مرة أخرى».

قبّلها، لكنّه سرعان ما تركها.

«لا ينبغي أنْ تعاني نيكول - إنها تحبني وأنا أحبها - أنتِ تفهمين هذا».

فهمتْ؛ كان شيئاً من النوع الذي تفهمه جيداً، ألاّ تسبب الأذى للناس. كانت تعلم أنْ الثنائي دايفر يُحب أحدهما الآخر لأنه افتراضها الأول. لكنها مع ذلك ظنّتْ أنَّ العلاقة بينهما باردة، وأنها في الحقيقة أشبه بالحب الذي يربط بينها وبين أمها. عندما يكنّ الناس كل ذلك القدر من المشاعر للغرباء ألا يعني هذا الافتقار إلى التماسُك الداخلي؟

قال، مُخمّناً أفكارها، «أعني حباً حقيقياً، حباً حيوياً - إنَّ الأمر أعقد من طاقتي على شرحه لكِ. لقد كان مسؤولاً عن تلك المبارزة المجنونة».

«كيف عرفت بأمر المبارزة؟ ظننتُ أننا اتفقنا على ألا نطلعك».

«أتعتقدين أنّهَ في استطاعة آبيه أنْ يحتفظ بسرّ؟». تكلَّمَ بنبرة سخرية واضحة. «أعلني سراً عبر الراديو، وانشريه في مجلات الفضائح، ولكن إياكِ أنْ تبوحي به لرجلٍ يشرب أكثر من ثلاثة أكواب أو أربعة في اليوم».

ضحكت موافِقة، وبقيت قريبة منه.

«إذن أنت تفهمين أنَّ علاقاتي مع نيكول معقّدة. إنها ليست قوية جداً - إنها تبدو قوية، لكنها ليست كذلك. وهذا يُسبب الفوضى».

«أوه، أرجئ هذا الكلام إلى وقتٍ لاحق! الآن قبّلني - أحبّني الآن. سوف أحبّكَ ولن أدع نيكول تعرف».

«أنتِ رائعة».

وصلا إلى الفندق وسارت روزميري وراءه قليلاً، لكي تتأمّله وتُعجب

به، لكي تعبده. كانت خطوته نشطة وكأنه عائدٌ بعد أنْ قام بعمل عظيم ويُسرع للّحاق بالآخرين. إنه مُنظِّم المباهج الخاصة، القيِّم على السعادة المُبهرجة. كانت قبعته مثالية وكان يحمل عصا ثقيلة ويلبس قفازاً أصفر اللون. وتخيّلت الوقت الممتع الذي سيقضونه كلهم بوجوده هذه الليلة.

ارتقيا الدَرَج - خمسة مطالع. عند المسطبة الأولى توقفا وتبادلا القبلات؛ عند المسطبة التالية كانت حذرة، وعلى الثالثة أشدّ حذراً. على التالية - كان لا يزال هناك اثنتان - توقفتْ في منتصف المسافة وقبّلتهُ بسرعة قبلة الوداع. وبإلحاحٍ منه هبطت معه إلى التي في الأسفل برهة - ومن ثم صعدا أعلى فأعلى. وأخيراً كان الوداع، وامتدّت أيديهما لتتلامسا على طول انحراف الدرابزين ومن ثم تباعدت الأصابع منزلقة. عاد ديك أدراجه إلى الطابق السفلي ليضع بعض الترتيبات من أجل الأمسية. هرعتْ روزميري إلى غرفتها وكتبت رسالة إلى أمها؛ كان ضميرها يؤنبها لأنها لم تشتق لأمها أبداً.

الفصل السادس

على الرغم من أنَّ آل درايفر كانا بكل صدق غير مُباليين بالموضة المُنظَّمة، فإنهما مع ذلك كانا أيضاً من الذكاء بحيث لا يتخليان عن إيقاعها ووقعها المُعاصرَين - كانت حفلات ديك كلها تهتم بالإثارة، وكان شيء نفيس تلقّى نفحة من هواء الليل المُنعش بين فواصل جو الإثارة.

كان المشتركون في الحفلة في ذلك المساء يتحركون بسرعةٍ ملهاة فظّة. كانوا اثني عشر شخصاً، كانوا ستة عشر، ضمن مجموعات من أربعة أشخاص في سيارات منفصلة تقوم بجولة سريعة في أنحاء باريس. كان كل شيء متوقعاً. انضمّ إليهم الناس وكأنما بفعل السحر، صاحبوهم وكأنهم اختصاصيون، أو مرشدون تقريباً، خلال مرحلة من الأمسية، ثم أُهمِلوا وحلّ محلهم غيرهم، بحيث بدا كأنَّ نضارة كل واحد ادُّخِرَت له طوال النهار. واستحسنت روزميري مدى اختلافها عن أي حفلة في هوليوود، مهما كانت رائعة. ومن بين أنواع التسالي، كانت هناك سيارة شاه بلاد فارس. أما كيف طلب ديك هذه السيارة، وأي رشوة دفع لإحضارها، فحقائق لا صِلة لها بالموضوع. لقد اعتبرتها روزميري مجرد وجه جديد للروعة التي ملأتْ حياتها طوال عامَين. كانت السيارة قد صُمِّمت على هيكل خاص في أميركا. كانت دواليبها من الفضة، وكذلك أمر المشعاع. وكان الهيكل من الداخل مُطعَّماً بعددٍ هائل من الأشياء البرّاقة، التي كانت ستُستبدَل بأحجار كريمة حقيقية على يد جواهريّ

البلاط عندما تصل إلى طهران في الأسبوع التالي. في الخلفية كان هناك مقعد واحد حقيقي فقط، لأنَّ الشاه يجب أنْ يركب وحده، لذلك تناوبا على ركوبها والجلوس على الفرو الدّلق الذي يكسو الأرضية.

ولكن كان ديك دائماً موجوداً. وقد أكّدت روزميري لصورة أمها، التي كانت تحملها معها، أنها لم تعرف أبداً شخصاً آخر بلطفه، بلطف ديك الضافي في تلك الليلة. قارنته بالرجلَين الإنكليزيين اللذَين خاطبهما آبيه بضمير حيّ بـ«ميجور هنغست والسيد هورسا»، وبوريث عرش دولة اسكندنافية وبروائي عاد تواً من روسيا، وبآبيه، اليائس والذكي، وبكوليس كلاي، الذي انضمّ إليهما في مكانٍ ما ومكث - ولم تجد هناك أيَ وجه للمقارنة. والحماسة، وتماهي الذات، الكامنان خلف العرض كله فتناها؛ وتقنية تحريك أنماط عديدة متنوعة، وكلها ساكنة، وتعتمد على مؤونة من الانتباه كاعتماد كتيبة من المشاة على مؤونة الطعام، بدتْ سهلة إلى درجة أنّه كان لا يزال يحمل قطعاً من ذاته الأشدّ خصوصية لكل شخص.

بعد ذلك تذكرت الأوقات التي شعرت خلالها بالسعادة. المرة الأولى كانت عندما رقصت مع ديك وشعرتْ بجمالها يتلألأ براقاً وينعكس على قامته الممشوقة، وبنيته القوية وهما ينسابان، ويطفوان كأنهما في حلم ممتع - أخذ يُديرها ذات اليمين وذات اليسار برهافةِ الإيحاءِ بأنّها أشبه بطاقة مشرقة من الزهر، كقطعةٍ من القماش النفيس تُعرَض أمام خمسين عيناً. ومرّ وقتٌ لم يكونا خلاله يرقصان على الإطلاق، كانا ببساطة يتشبّث أحدهما بالآخر. وأحياناً في الصباح الباكر وهما وحدهما، كان يقترب جسدها الغض المُضمّخ بالبودرة والرطب منه مُسربلاً بثوبٍ مُتعب، وتبقى هناك، مضغوطة أمام خلفية من قبعات الآخرين وأوشحتهم...

الوقت الذي ضحكت فيه أكثر من أي وقت آخر جاء لاحقاً، كان عندما وقف ستة منهم، نُخبتهم، صفوةُ الأمسية من النبلاء، في البهو

الأمامي المُعتِم لفندق ريتز يُخبرون البوّاب الليلي بأنَّ الجنرال برشينغ في الخارج ويريد كافياراً وشمبانيا. «إنه لا يُطيق أي تأخير. إنَّ كل رجل، كل بندقية هي تحت تصرّفه». وفجأةً ظهرَ نُدُل مسعورون، ومُدّت مائدة في البهو، ودخل آبيه ممثلاً الجنرال برشينغ بينما وقفوا جميعاً في حالة استعداد وتمتموا على مسمعه فقرات تذكّروها من أغاني الحرب. وجد النُدُل أنفسهم، بردّة فعلهم الجريحة أمام هذه النتيجة المُخفِقة، مُهملين، لذلك نصبوا فخاً خاصاً بالنُدُل - جهازاً ضخماً وغريباً مُصمّماً من أثاث البهو كله ويعمل عمل إحدى الآلات الغريبة التي تظهر في الصور المتحركة غولدبرغ. هزّ آبيه رأسه بارتياب لدى رؤيته.

«لعله من الأفضل أنْ نسرق منشاراً موسيقياً و- -».

قاطعته ميري، «يكفي»، ثم أفضت سراً لروزميري «عندما يبدأ آبيه بتقديم اقتراحاته فهذا يعني أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى المنزل».

«يجب أنْ أوصِل آبيه إلى المنزل. إنَّ قطار السفينة[1] سوف ينقله في الساعة الحادية عشرة. الأمر في غاية الأهمية - أشعر بأنَّ المستقبل كله يتوقف على اللحاق به، ولكن مهما حاولت إقناعه سوف يفعل العكس».

تبرعت روزميري قائلة «سأحاول أنْ أقنعه».

قالت ميري بارتياب «أحقاً ؟ قد تنجحين».

ثم اقترب ديك من روزميري:

«أنا ونيكول ذاهبان إلى المنزل وقد ترغبين في اصطحابنا».

كان وجهها شاحباً من فرط التعب في الفجر الكاذب. كانت هناك بقعتان داكنتان باهتتان على وجنتها في المكان الذي كان متورداً خلال النهار.

قالت «لا أستطيع، لقد وعدتُ ميري نورث بالمكوث معهما - وإلا فلن يأوي آبيه إلى النوم. لعلّ في استطاعتك أنْ تفعل شيئاً».

1- قطار السفينة: قطار ينقل الركاب من السفينة وإليها. - المترجم

قال ينصحها «ألا تعلمين انكِ لا تستطيعين أنْ تغيِّري الناس؟ لو كان آبيه رفيقي في الغرفة في الجامعة، وثملاً للمرة الأولى، لاختلف الأمر. أما الآن فلا يمكن فعل شيء».

قالت، بشبه تحدٍ «حسن، يجب أنْ أمكث. يقول إنه سيأوي إلى السرير إذا رافقناه إلى هاليس».

قبّل باطن مرفقها بسرعة.

هتفتْ نيكول لميري وهم يغادرون «لا تدعي روزميري تذهب إلى المنزل وحدها؛ إننا نشعر بأننا مسؤولون عنها أمام أمها».

لاحقاً كانت روزميري وآل نورث ومُصنّع أصوات الدُمى من نيوارك وكوليس المتواجد في كل مكان وهندي الزيت الذي يرتدي ثوباً مُبهرجاً جورج ت. حامي الجياد يركبون مُعتلين آلافاً من ثمار الجَزَر عربةً لبيع الخضروات. كان التراب عالقاً في جذور الجزر الذي تفوح رائحته حلوة في الظلام، وكانت روزميري عالية جداً مع المجموع بحيث أنها كادت لا ترى الآخرين في الظل الطويل الذي يفصل مصابيح الشارع المتقطعة. وصلت أصواتهم من بعيد، وكأنهم يمرون بتجارب مختلفة عن تجاربها، مختلفة ونائية، لأنها كانت مع ديك في قلبها، تشعر بالأسف لأنها رافقت آل نورث، ومتمنية لو أنها كانت في الفندق وديك نائم في الطرف المقابل من الرواق، أو لو أنه كان هنا إلى جوارها والظلام الدافئ ينهمر عليهما.

هتفت لكوليس «لا ترتفع، سوف يتدحرج الجزر كله»، ورمت واحدة على آبيه، الذي كان جالساً بجوار السائق، متيبّساً كرجلٍ عجوز.

لاحقاً توجهت أخيراً إلى المنزل في وضح النهار، وبدأ الحمَام ينطلق فوق كنيسة سان-سولبيس. وبدأوا جميعاً يضحكون بعفوية، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لا يزالون في الليلة السابقة، بينما الناس في الشوارع متوهمون أنَّ الصباح الحار البرّاق قد حلّ.

قالت روزميري في نفسها «أخيراً حضرتُ حفلة صاخبة، لكنها ليست ممتعة في غياب ديك».

شعرتْ بأنها مخدوعة قليلاً وحزينة، ولكن سرعان ما ظهر شيء يتحرك للعيان. كانت شجرة كستناء الحصان ضخمة في ذروة ازدهارها متوجهة نحو الشانزليزيه، مربوطة الآن إلى شاحنة طويلة وتهتز ببساطة من فرط الضحك - أشبه بشخص مُسلٍّ في وضع ينال من هيبته، لكنه مع ذلك واثق من أنه مُسلّ. نظرتْ روزميري إليها برضا، وتطابقَتْ معها، وشاركتها الضحك بمرح، وفجأة بدا كل شيء رائعاً.

الفصل السابع

انطلقَ آبيه من محطة سان لازار عند الساعة الحادية عشرة – وقفَ وحيداً تحت قبّة الزجاج القذر، من بقايا حقبة السبعينيات، حقبة الكريستال بالاس؛ كانت يداه، بلونهما الرمادي المُبهم الذي لا يمكن اكتسابه إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة، داخل جيبيّ معطفه لكي يُخفي الأصابع المرتعشة. كان جلياً، وقد نزع قبعته، أنَّ الطبقة العليا فقط من شعره كانت مُسرّحة إلى الخلف؛ المستويات الأدنى كانت متجهة بحزم بشكل مائل. لم يكن أحد ليتعرَّف عليه بوصفه الرجل الذي سبح على شاطئ فندق غوس قبل أسبوعَين.

لقد وصل باكراً؛ تلفّت حوله إلى اليمين واليسار بعينيه فقط؛ كان استخدام أي من أجزاء جسمه الأخرى سيستهلك من سيطرته على نفسه طاقات عصبية. ومرّت الأمتعة التي تبدو جديدة من أمامه؛ وسرعان ما أخذ مسافرون مُحتمَلون بأجسام سمراء ضئيلة يهتفون: «جو–ولز *مرحبا!!!!*» بأصوات سمراء حادة.

في اللحظة التي تساءل إنْ كان لديه وقت ليتناول مشروباً على المائدة المفتوحة، وبدأ يقبض على حزمة نديّة من الأوراق النقدية من فئة الألف فرنك داخل جيبه، استقرت إحدى نظراته المتذبذبة على شكل نيكول واقفة على أعلى الدَرَج. راقبها – كانت تعبيرات وجهها تكشف عما في داخلها كما يبدو الناس بالنسبة إلى شخصٍ ينتظرهم، ولا يُلاحظ وجوده أحد. كانت عابسة، تفكّر في أطفالها، ليس حباً بهم بل لتقوم بإحصائهم جسدياً فقط– كقطة تتفقّد صِغارها بمخلبها.

عندما رأتْ آبيه، زال التعبير عن وجهها؛ كان وهج نور الصباح حزيناً، وظهر آبيه كئيباً تُظلل عينيه دوائر قاتمة على بشرته ذات اللون القرمزي. جلسا على المقعد.

قالت نيكول تدافع عن نفسها «لقد أتيتُ تلبية لطلبك». بدا أنَّ آبيه نسيَ سبب طلبه منها وكانت نيكول مستمتعة تماماً بالنظر إلى المسافرين المارين بها.

«ستكون تلك جميلة الجميلات على قاربك - تلك التي يودّعها الرجال جميعاً - هل فهمتَ لماذا اشترت ذلك الثوب؟» كانت نيكول تسرع في الكلام باطّراد. «هل فهمت لماذا لا أحد يمكن أنْ يشتريه غير جميلة الرحلة العالمية؟ هل فهمت؟ لم تفهم؟ استيقظ! هذه قصة ثوب - تلك المادة الزائدة تحكي قصة وثمة شخص ضمن الرحلة البحرية العالمية يشعر بالوحدة إلى درجة الرغبة في سماعها».

نطقت كلماتها الأخيرة بسرعة كبيرة؛ لقد كانت قد تكلَّمت أكثر من عادتها؛ ووجد آبيه صعوبة في أنْ يُدرك من تعبير وجهها الجادّ أنها تكلّمتْ أصلاً. وبذل جهداً لكي يتخذ وقفة تجعله يبدو كأنه واقف في حين أنه كان جالساً.

باشر بالقول «في ذلك اليوم اصطحبتِني إلى تلك الحفلة الغريبة - حفلة القديسة جنفييف -».

«أتذكّر. كانت مسلية، أليس كذلك؟».

«أنا لم أجدها مسلية. ولم أتسلَّ عندما رأيتكِ هذه المرة. لقد سئمتُكما كليكما، ولكن لا يبدو عليّ ذلك لأنكِ أنتِ نفسك سئمتني - أنتِ تعلمين ما أعني. ولو كان لدي أي قدر من الحماسة، لانتقلت إلى أناس جُدُد».

كان هناك زغب خشن على قفّاز نيكول المخملي عندما ردّت له الصاع صاعين:

«يبدو لي أنَّه من الحمق ألا تتسلّى، يا آبيه. على أي حال، أنت لا تعني ما تقول. إنني لا أفهم لماذا تخلّيتَ عن كل شيء».

تفكّر آبيه، باذلاً جهداً كي لا يسعل أو يتمخّط.

«أعتقد أني مللت؛ ثم إنَّ طريق العودة إلى الصراط المستقيم طويلة بحيث لا توصلني إلى أي غاية».

في الغالب يستطيع الرجل أنْ يمثّل دور الطفل العاجز أمام امرأة، لكنه يكاد لا ينجح أبداً في ذلك عندما يشعر بأنه يشبه كثيراً طفلاً عاجزاً.

قالت نيكول بحزم «لا عُذر لك في هذا».

كان شعور آبيه يزداد سوءاً مع مرور كل دقيقة - كل ما استطاع أنْ يفكّر فيه كان تعليقات بغيضة وعصبية فقط. ورأتْ نيكول أنَّ الموقف الصائب بالنسبة إليها هو أنْ تجلس وتحدّق أمامها مباشرة، ويداها في حجرها. لم يحدث بينهما أي تواصل بعض الوقت - كان كل منهما يهرع مُبتعداً عن الآخر. وخلافاً للعشّاق، لم يكن لهما ماضٍ؛ وخِلافاً للأزواج، لم يكن لهما مستقبل؛ ومع ذلك وحتى صباح ذلك اليوم كانت نيكول تحب آبيه أكثر من أي شخص آخر ما عدا ديك - وقد كان ثقيل الوزن، يخشى الكرش، ويُحبها منذ سنوات.

فجأة قال «لقد سئمت عوالم النساء».

«فلماذا إذن لا تصنع عالماً خاصاً بك؟».

«وسئمتُ الأصدقاء. والحل هو الحصول على متملقين متذلّلين».

حاولت نيكول أنْ تُجبر عقرب الدقائق في ساعة المحطة على الإسراع، ولكن، سألها «هل توافقين؟».

«أنا امرأة وعملي هو أنْ أجمع الأشياء».

«وعملي هو أنْ أُشتّتها».

قالت «عندما تسكر لا تُشتت إلا نفسك»، وقد أضحت الآن باردة، وخائفة وغير واثقة من نفسها. كانت المحطة تمتلئ بالمسافرين، ولكنْ لم يكن بينهم مَنْ تعرفه. وبعد برهة وقع بصرها بامتنان على فتاة ممشوقة القامة ذات شعر أشقر وتضع قلنسوة، كانت تُسقِطُ رسالة في صندوق البريد.

«ثمة فتاة يجب أنْ أُكلّمها، يا آبيه. آبيه، استيقظ! أيها الأحمق!».

في الحال لحق بها آبيه بعينيه. التفتت المرأة بحركة مُجفِلة لكي تُحيي نيكول، فعرفِ آبيه فيها شخصاً كان قد رآه في مكان ما من باريس. انتهز فرصة غياب نيكول لكي يسعل بشدّة مع قيء في منديله ويتمخّط بضجيجٍ مرتفع. أصبحَ الصباح أكثر دفئاً وتشبّعت ملابسه الداخلية بالعرقِ. ارتعشت أصابعه بعنف بحيث كلّفه إشعال سيجارة قدح أربعة عيدان كبريت؛ بدا له ضرورياً جداً أنْ يشق طريقه إلى المائدة المفتوحة لكي يتناول مشروباً، ولكن نيكول عادت على الفور.

قالت بفكاهة باردة «إنه خطأي. بعد أنْ توسّلتْ إليّ كي آتي لزيارتها، صدّتني بشدة. لقد نظرتْ إليّ وكأنني متعفنة»، وأطلقت ضحكة صغيرة، مرحة، ثم رفعت إصبعيها عالياً وقالت «دع الناس يأتوا إليك».

استعاد آبيه أنفاسه بعد سعال السيجارة وعلّقَ قائلاً:

«المشكلة هي أنه عندما تكونين صاحية لا ترغبين في رؤية أحد، وعندما تكونين ثملة لا يرغب أحد في رؤيتك».

ضحكت نيكول من جديد «مَنْ، تقصد أنا؟»؛ ولسبب ما بثَّ فيها اللقاء الأخير الروح المرحة.

«كلا – بل أنا».

«تحدث عن نفسك. أنا أحبّ الناس، الكثير من الناس – أحبّ –».

ثم ظهرت روزميري بصحبة ميري نورث، تسيران بخطوات بطيئة وتفتشان عن آبيه، فانفجرت نيكول بفظاظة تهتف «هيه! هاي! هيه!» وضحكت ولوّحت بعلبة المناديل التي اشترتها من أجل آبيه.

وقفوا ضمن مجموعة صغيرة مرتبكة تبدو ضئيلة في حضور آبيه العملاق: جلس بزاوية منحرفة عنهم كحطام سفينة شراعية، مُهيمناً بحضوره على ضعفه وانغماسه في لذاته، وضيق أفقه وشعوره بالمرارة. كانوا جميعاً يعون وقاره الرصين الذي يفيض منه، وإنجازه، المُتقطِّع،

والمكشوف، والمتفوق. لكنهم كانوا خائفين من إرادته الباقية، التي كانت ذات مرة إرادة الحياة، وأضحت الآن إرادة الموت.

جاء ديك وجلب معه مظهراً متوهجاً رائعاً ووثبَتْ عليه النسوة الثلاث كالقردة مع صرخات ارتياح، وجثمن على كتفيه، وعلى قمة قبعته الجميلة أو الرأس الذهبي لعصاه. للوهلة الأولى تمكنوا من تجاهل مشهد فسق آبيه الهائل. فهم ديك الموقف بسرعة واستوعبه بهدوء. لقد أخرجهم من ذواتهم إلى المحطة، موضحاً عجائبها. وفي مكان قريب كان بعض الأميركيين يتبادلون عبارات الوداع بأصوات تُحاكي خرير مياه تصب في مغطس قديم وكبير. بدا، وهم واقفون في المحطة، وباريس خلفهم، كأنهم يميلون قليلاً على مياه المحيط، ويُعانون من دوار البحر، كذرات تتحرّك لتشكّل النواة الأساسية لأناسٍ جُدُد.

وهكذا تدفّق الأميركيون الأثرياء خلال المحطة إلى الأرصفة بوجوه جديدة وصريحة، تنم عن ذكاء، ومُراعية للآخرين، فارغة من أي فِكر، ثمة مَنْ يُفكِّر بالنيابة عنها. وكان ظهور وجه إنكليزي بينهم يبدو حاداً وبارزاً. وعندما أصبح هناك عدد كافٍ من الأميركيين على الرصيف بدأ الانطباع الأول عن نظافتهم ومالهم يتلاشى ويتحول إلى غسقٍ عنصريّ مبهم أعاقهم وأعماهم هم ومراقبيهم.

قبضتْ نيكول على ذراع ديك، وهي تهتف، «انظر!»، التفتَ في الوقت المناسب ليرى ما حدثَ خلال نصف دقيقة. عند أحد مداخل الركاب على بُعد عربتين، برز مشهد حيوي فوق ضجيج عبارات الوداع عالية النبرة العديدة. فقد قامت المرأة ذات الشعر الذي يُشبه القلنسوة التي كانت نيكول قد تحدثت معها بحركة هروب صغيرة وغريبة من رجلٍ كانت تتحدث معه وأقحمَتْ بحركة مسعورة يدها إلى كيس نقودها؛ ثم خرق جوَّ الرصيف الضيق أزيزُ طلقتيّ مسدس. في الوقت نفسه أصدر المُحرِّك صفيراً ثاقباً وبدأ القطار يتحرَّك، مُغطياً برهة على ضجيج الطلقتين المعنيتين. لوَّح آبيه من جديد من نافذته، غير مُدرِك ما

حدث. ولكن قبل أنْ يتبدَّد الحشد، كان الآخرون قد شاهدوا الطلقتين تصلان إلى هدفهما، شاهدوا الهدفَ مُلقى على الرصيف.

لم يتوقف القطار إلا بعد مرور وقت طويل؛ انتظرت نيكول، وميري، وروزميري في موقع بعيد بينما شقّ ديك طريقه بصعوبة. ولم يكتشف مكانهن من جديد إلا بعد مرور خمس دقائق - في ذلك الوقت كان الحشد قد انقسمَ إلى قسمَين، وتبعا، على التوالي، الرجلَ المتمدد على المِحفّة والفتاةَ السائرة شاحبة وثابتة الخُطى بين رجليّ شرطة مذهولَين.

قال ديك على عجل «إنها ماريا واليس. والرجل الذي أطلقتِ النار عليه إنكليزي - لقد وجدوا مشقّة في التعرُّف على هويته، لأنها أطلقت عليه النار من خلال بطاقة هويته». كانوا يمشون بسرعة مبتعدين عن القطار، يترنحون مع الحشد. «لقد عرفت قسم الشرطة الذي سيأخذونها إليه، وسوف أذهب إلى هناك -».

اعترضت نيكول «ولكن أختها تقطن في باريس. لماذا لا نتصل بها هاتفياً؟ يبدو غريباً أنَّه لا أحد فكَّر في هذا. إنها متزوجة من فرنسيّ، وهو يستطيع أنْ يتصرّف أفضل منا».

تردّد ديك، وهزّ رأسه نفياً، وانطلق.

هتفت نيكول خلفه «انتظر! هذه حماقة - كيف في استطاعتك أنْ تكون ذا عون - وأنت لا تُحسِن الفرنسية؟».

«على الأقلّ سوف أحرص على ألا يُسيئوا معاملتها».

طمأنته نيكول بخفّة «سوف يحتجزونها حتماً. لقد أطلقت النار على الرجل **فعلاً**. الأفضل الاتصال فوراً بلورا - في استطاعتها أنْ تساعدها أفضل منا».

لم يقتنع ديك - وأيضاً كان يستعرض نفسه أمام روزميري.

قالت نيكول بحزم «انتظر»، وهرعت إلى مقصورة للهاتف.

قال بسخرية مُحبّة «عندما تتكفَّل نيكول بأمر، لا يمكن منعها من تحقيقه».

كان قد رأى روزميري للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم. تبادلا النظرات، في محاولة للتعرُّف إلى مشاعر اليوم السابق. للوهلة الأولى بدا كل منهما غير حقيقيّ للآخر – ومن ثم بدأت همهمة الحب البطيئة، الدافئة تعمل عملها من جديد.

قالت روزميري «أنت تحب أنْ تساعد الجميع، أليس كذلك؟».

«إنني أتظاهر بذلك فقط».

«أمي تحب أنْ تساعد الجميع – طبعاً هي لا تستطيع أنْ تساعد العديد منهم كما تفعل أنت»، وتنهّدت. «أحياناً أعتقد أني أشد الناس أنانيّة في العالم».

للمرة الأولى يُسبب ذِكر أمها الإزعاج لديك وليس السرور. أراد أنْ يمسح أمها عن الوجود، أنْ يُزيلها من غرفة الحضانة التي تحرص روزميري على ذِكرها.. ولكنه أدرك أنَّ دافعه يدل على أنَّ زمام الأمور أفلت منه – ماذا سيحدث لتلهّف روزميري إليه إذا ما تراخى ولو للحظة؟ لقد وجد، مع بعض الخوف، أنَّ الأمر يتجه نحو الحل؛ لا يمكن أنْ يبقى على حاله، يجب أنْ يتحرك أو يتراجع؛ للمرة الأولى تبدَّى له أنَّ روزميري أمسكت بزمام الأمور أفضل منه.

قبل أنْ يُكمل تصوره لمسار الإجراء، عادت نيكول.

«لقد عثرتُ على لورا. كان الخبر الأول الذي يصلها وأخذ صوتها يخفت ومن ثم يعلو من جديد – كأنها كانت تغيب عن الوعي ومن ثم تتماسك. قالت إنها كانت تعلم أنَّ أمراً سيحدث هذا الصباح».

قال ديك بصوت رقيق «كان ينبغي على ماريا أنْ تعمل مع دياغيليف[1]»، لكي يُعيدهم إلى الهدوء، «إنَّ لديها حسّاً جميلاً في تصميم الديكور – ناهيك عن الإيقاع. هل سيحدث مرة أخرى أنْ يُشاهد أحدنا قطاراً ينطلق من المحطة من دون أنْ يسمع بضع طلقات من النار؟».

1- سيرغي دياغيليف (1872 – 1929): مدير فرقة رقص الباليه روسي. أسّس وأدار فرقة باليه روس في باريس بين عامي 1909 و 1929، مُقدِّماً فن الباليه الروسي إلى الغرب. – المترجم

أخذوا يهبطون الـدَرَج الفولاذي العريض. قالت نيكول «أشعر بالأسى على الرجل المسكين. طبعاً هذا هو سبب طريقة كلامها الغريبة معي – كانت تستعد لإطلاق النار».

ضحكت، وروزميري ضحكت، أيضاً، لكنهما معاً كانتا مرعوبتين، وكلتاهما كانتا ترغبان في أنْ يُدلي ديك بتعليقٍ أخلاقيّ حول المسألة وألاّ يترك الأمر لهما. هذه الرغبة لم تكن واعية بصورة تامة، خاصة من طرف روزميري، التي تعوّدتْ على أنْ تعبُرَ مُزقٌ من تلك الأحداث رأسها مصحوبة بصراخ. لكنَّ صدمةً كاملة تراكمت داخلها، أيضاً. في تلك اللحظة كان ديك من فرط التأثّر بزخم انفعاله الذي أدركه حديثاً بحيث عجزٍ عن تحويل الأمور إلى شكل إجازة، ولذلك عندما شعرت المرأتان بأنَّ ثمة شيئاً مفقوداً، غاصتا في تعاسة مُبهمة.

ثم، وكأنَّ شـــيئاً لم يحــدث، تدفقـــت حيـــاة ثنائي آل دايفر وأصدقائهما إلى الشـــارع.

ولكن كان كل شيء قد حدث – لقد أنهى رحيل آبيه ومغادرة ميري الوشيكة إلى سالزبرغ بعد ظهيرة ذلك اليوم فترة مكوثهم في باريس. أو ربما كان إطلاق النار، الصدمة التي أنهت يعلم الله أي مسألة غامضة، هو الذي ألغاها. لقد دخلت حادثة إطلاق النار إلى حياتهم جميعاً؛ ولاحقتهم أصداء العنف إلى الرصيف، حيث كان هناك حمّالَان يقفان بجوار جثة بعد فحصها وينتظران سيارة أجرة.

«*Tu as vu le revolver?Il etait tres petit, vrai perle – un jouet*»

(أرأيتَ المسدس؟ إنه صغير جداً، من البلاستيك – إنه دمية)

قال الحمّال الآخر بحِكمة «*Mais assez puissant! tu as vu sa chemise?Assez de sang pour se croire a la guerre*»

(لكنه فعّال بما يكفي! أرأيتَ قميصه؟ إنه ملطّخ بالدم حتى أنكَ تؤمن بالحرب)

الفصل الثامن

في الساحة، أثناء خروجهم، كانت هناك بقعة كبيرة من زيت الغازولين المسفوح تسخن تحت شمس شهر تموز. كانت الحرارة فظيعة - وخِلافاً للحرارة الصافية، لم تعِد بأنْ تكون مهرباً ريفياً، لكنها أوحتْ فقط بطرق مختنقة بمرض الربو البشع نفسه. وأثناء تناولهم طعام الغداء، في الخارج، قبالة حدائق لوكسمبور، أصيبت بأعراض الطمث وشعرت بالغضب وانتابها ارتخاء نزق - هذه الأعراض هي التي أوحت إليها باتّهام نفسها بالأنانية وهي في المحطة.

لم يشعر ديك بحِدّة التغيُّر؛ كان تعيساً حتى الأعماق والازدياد الذي تلا في النزعة الذاتية أعماه برهة عمّا يجري حوله، وحرمه من التعرُّض لموجة المخيّلة العميقة التي اعتمد عليها لإصدار أحكامه.

بعد أنْ غادرتْهم ميري نورث، يصحبها أستاذ الغناء الإيطالي الذي كان قد انضمّ إليهم ليتناول القهوة وكان سيرافقها إلى القطار الذي ستستقلّه، نهضت روزميري بدورها، لتلحق بموعد لها في استوديو التصوير: «سأقابل بعض الموظفين».

ثم اقترحت «وبالمناسبة، إذا أتى كوليس كلاي، ذلك الفتى الجنوبيّ - أثناء تواجدكما هنا، أخبراه فقط بأنني لم أتمكن من الانتظار؛ اطلبا منه أنْ يتصل بي في الغد».

كانت قد تلبّست امتيازات طفلة، من فرط لا مبالاتها، كردّة فعل لِما تعرّضت له من اضطراب أخير - كانت النتيجة أنها ذكّرت آل دايفر

بحبهما الاستثنائي لأطفالهما. تلقّت روزميري تأنيباً حاداً بعبارة قصيرة عبرتْ بين المرأتين: «يُستحسن أنْ تتركي رسالة مع النادل»، كان صوت نيكول صارماً وخالياً من النبرة، «سوف نغادر في الحال».

فهمت روزميري الإيحاء، تقبّلته من دون إحساس بالامتعاض.

«سأترك الأمر إذن، إلى اللقاء أيها العزيزان».

طلب ديك الفاتورة؛ استرخى الثنائي دايفر، وهما يُخللان أسنانهما مؤقتاً.

قالا في وقت واحد «حسن -».

رأى ومضاً من التعاسة يرتسم على فمها، قصيراً إلى درجة أنه ما كان يمكن أنْ يُلاحظه إلا هو، وكان في استطاعته أنْ يتظاهر بأنه لم يره. بماذا كانت نيكول تفكر؟ لقد كانت روزميري واحدة من الذين «درسهم» خلال الأعوام السابقة؛ من بينهم مهرج سيرك فرنسي، آبيه وميري نورث، وراقصان، وكاتب، ورسّام، وممثل هزلي من الراند غينيول، ولوطي شبه مجنون من الباليه الروسي، ومغني طبقة تينور واعِد لازموه على مدة عام في ميلانو. وكانت نيكول تعلم جيداً مدى الجديّة التي أوَّلَ بها أولئك الأشخاص اهتمامه وحماسته؛ لكنها أدركتْ أيضاً أنَّ ديك لم يكن يقضي ليلة واحدة بعيداً عنها منذ زواجهما، إلا أثناء ولادة أطفالهما. من ناحية أخرى، كان يتصف بسِمة إرضاء يجب ببساطة استغلالها - إنّ الذين يتمتعون بتلك السِمة يجب أنْ يبقوا نشطين، ويستمروا في التواصل مع أناس لا فائدة منهم.

حينئذٍ حافظ ديك على صلابته وترك الدقائق تمر من دون أنْ يُبدي أي دلالة على الثقة بالنفس، أو إظهار أي دهشة متجددة باستمرار من كونهما شخصاً واحداً.

أرسل كوليس كلاي القادم من الجنوب عبارة بين الطاولات الملتصقة معاً وحيّا آل دايفر بشهامة. مثل تلك التحيات كانت دائماً تُدهشُ ديك -

والمعارف الذين يُحيّوهما بكلمة «هاي!»، أو يخاطبون فقط أحدهما دون الآخر. كان يشعر بتوتّر تجاه الأناس الذين يُفضِّل، في لحظات فتور المشاعر، أنْ يبقوا مختفين؛ وكون المرء قادراً على إضـــفاء العفوية على حضوره شـــكّل تحدياً للأســـاس الذي عاش عليه.

أعلن كوليس عن وصوله، غير مُدرك أنه لا يرتدي بذلة العرس، بقوله: «أعتقد أني تأخرت - لقد طار البيه». كان على ديك أنْ ينتزع شيئاً من نفسه قبل أنْ يتمكن من مسامحته لأنه لم يكن أول مَنْ يمدح نيكول.

غادرت مباشرة تقريباً وجلس هو مع كوليس، ورشَفَ ما تبقى في كأس النبيذ. كان يميل إلى كوليس - لأنه «من مخلفات الحرب»؛ كان التعامل معه أقلّ صعوبة من التعامُل مع الجنوبيين الذين عرفهم في نيو هيفن قبل عقدٍ من الزمان. أصغى ديك بسرور للمحادثة التي صاحبت عملية حشو الغليون العميق والبطيء. وفي أوائل المساء كان الأطفال والممرضات يتجولون داخل حدائق لوكسمبور؛ كانت تلك المرة الأولى منذ أشهر التي يترك فيها ديك زمام هذا الجزء من النهار يفلت من بين يديه.

فجأةً شعر بالدم البارد يسري في عروقه عندما أدرك محتوى حوار كوليس المنفرد السري.

«- إنها ليست باردة كما قد تعتقد ربما. أنا أعترف بأنني بقيتُ مدة طويلة اعتقدتُ أنها باردة. لكنها ارتبطت مع أحد أصدقائي أثناء رحلة من نيويورك إلى شيكاغو في عيد الفصح - فتى اسمه هيليس ظنَت أنه مجنون حقاً في نيو هيفن - كانت تجلس في مقصورة مع أحد أقربائي، لكنها أرادت أنْ تكون مع هيليس وحدهما، وهكذا جاء قريبي بعد الظهيرة ولعبنا الورق في مقصورتنا. وبعد مرور ساعتين عدنا فوجدنا روزميري وبيل هيليس واقفين في الردهة يتجادلان مع مُحصّلِ التذاكر - كانت روزميري شديدة الشحوب. إذ يبدو أنهما أغلقا الباب وأسدلا الستائر، وأعتقد أنه كان هناك أمرٌ جادّ يدور عندما جاء الرجل ليجمع التذاكر

وقرع الباب. اعتقدا أننا نحن نمزح معهما ولم يسمحا له بالدخول في أول الأمر، وعندما فتحا الباب كان شديد الغضب. سأل هيليس إنْ كانت تلك مقصورته وما إذا كان متزوجاً من روزميري حتى يُغلقا الباب هكذا، ففقد هيليس السيطرة على أعصابه وهو يُحاول أنْ يشرح له أنه ليس هناك من خطأ. قال إنَّ مُحصّل التذاكر أهان روزميري وطلب منه أنْ يتقاتلا، ولكنَّ ذلك المُحصّل كان يمكن أنْ يُسبب مشكلة - وصدّقني، أمضيتُ وقتاً طويلاً وأنا أهدِّئ الأمور».

شعر ديك، مع كل ما يمكن تصوره من تفاصيل، بل وبشعور بالحسد من سوء حظ الاثنين المشترك وهما في الردهة، بأنَّ تغييراً يطرأ داخله. كان مجرد وجود صورة لشخص ثالث، حتى وإنْ كانت باهتة، يتدخّل في علاقته بروزميري، لازماً لكي يُفقِده توازنه ويبثّ فيه أمواجاً من الألم، والبؤس، والرغبة، واليأس. اليد المستقرة على وجنة روزميري التي صوّرها بحيوية، والأنفاس اللاهثة، والإثارة الشاحبة للحدث مرئية من الخارج، والدفء السرّي المنيع يكمن في الداخل.

- هل تُمانع في أنْ أُسدل الستارة؟
- تفضّلي أرجوك. الضوء مُبهر هنا.

كان كوليس كلاي حينئذٍ يتكلّم عن سياسة الأخوة في نيو هيفن، بنبرة الصوت نفسها، بالتشديد نفسه. وكان ديك قد أدرك أنه أحبَّ روزميري بطريقة غريبة لم يفهمها ديك. وبدا أنَّ العلاقة مع هيليس لم تترك أي انطباع انفعالي على كوليس ما عدا أنها منحته الاعتقاد المرح بأنَّ روزميري «مخلوق بشري».

قال «إنَّ تكوين الجسد رائع. في الواقع، أجسادنا كلها كذلك. إنَّ نيو هيفن أصبحت كبيرة جداً الآن بحيث من المحزن أنّهَ علينا أنْ نستثني بعض الرجال».

- هل تمانع في أنْ أُسدل الستارة؟
- افعلي أرجوك. النور مُبهر هنا.

... ذهب ديك إلى باريس إلى مصرفه. استعرضَ الرجال الجالسين على الطاولات وهو يُحرر شيكاً لكي يُقرر إلى أي منهم سيُقدمه لكي يوافق عليه. وبينما كان يكتب انهمك في أدواته، تفحّصَ قلم الحبر بتدقيق، وهو يكتب باجتهاد على طاولة الكتابة العالية ذات السطح الزجاجي. وعند نقطة معيَّنة رفع عينيه الزائغتين لكي ينظر في اتجاه قسم البريد، ومن ثم صقل روحه من جديد بالتركيز على المواد التي يتعامل معها.

مع ذلك فشل في اتخاذ قرار بشأن الشخص الذي سيقدِّم إليه الشيك، الشخص الذي لن يُخمّن الورطة التعيسة التي وجد نفسه فيها، وأيضاً، الشخص الذي في الغالب لن يتكلَّم. كان هناك بيران، الفتى الدمث من نيويورك، الذي دعاه إلى تناول طعام الغداء في النادي الأميركي، وكساسوس، الإسباني، الذي كان يتناقش معه عادة حول صديق مشترك على الرغم من أنَّ ذلك الصديق خرج من حياته قبل سنين عديدة؛ وهناك مخهاوس، الذي يسأله دائماً ما إذا كان يود أنْ يسحب من نقود زوجته أم من نقوده.

لدى وصوله إلى المبلغ المكتوب على الأرومة، ووضعه خطّين تحته، قرّر أنْ يذهب إلى بيرس، الذي كان شاباً ولن يُضطر إلى المبالغة في التمثيل معه. في الغالب من الأسهل أنْ يُمثّل المرء على أنْ يُشاهد مَنْ يمثّل.

توجّه أولاً إلى طاولة البريد. بينما المرأة التي تخدمه تُثبِّت قطعة من الورقة بصدرها كادت تسقط عن الطاولة، تعجّب من مدى اختلاف الطرق التي تستخدم بها النساء أجسادهن عن الرجال. وأخذ رسائله جانباً لكي يفتحها. كانت تضم فاتورة من محل برينتانو، ورسالة من والده من ولاية بوفالو، مكتوبة بخط يد يُصبح مع مرور السنين أشدّ غموضاً؛ وكانت هناك بطاقة من تومي باربان مُرسَلة من مدينة فاس وتحمل رسالة مُثيرة للشِقاق؛ وثمة رسائل من أطباء في زيوريخ، وكلها مكتوبة بالألمانية؛ وفاتورة موضع شك من عامل الجص في مدينة كان؛

وفاتورة من صانع أثاث؛ ورسالة من ناشر صحيفة طبّية في بالتيمور، وإعلانات متنوعة، ودعوة إلى معرض لوحات لفنان مبتدئ؛ وكانت هناك أيضاً ثلاث رسائل من نيكول، ورسالة إلى روزميري أُرسِلت عبره.

- هل تمانع إذا أسدلتُ الستائر؟

تقدّم من بيرس، لكنه كان مشغولاً مع امرأة، وأدرك ديك من خطوته أنّه سيُضطر إلى تقديم الشيك إلى كساسوس على الطاولة التالية، الذي لم يكن لديه أي عميل.

«كيف حالك، يا دايفر؟» كان كساسوس ودوداً. نهضَ واقفاً، وانتشر شاربه مع امتداد ابتسامته. «قبل أيام كنا نتحدث عن فيذرستون وتذكّرتكَ - إنه في كاليفورنيا الآن».

اتّسعت عينا ديك ومال قليلاً نحو الأمام.

«في كاليفورنيا؟».

«هذا ما سمعت».

حمل ديك الشيك بتوازن؛ ولكي يُركِّز انتباه كساسوس على الشيك نظر نحو طاولة بيرس، ووجَّه إلى هذا الأخير برهة نظرة ثابتة ودّيّة عابثة مشروطة بنكتة قديمة تعود إلى ما قبل ثلاث سنوات، عندما كان بيرس على علاقة مع كونتيسة من ليثوانيا. تلاعب بيرس بتكشيرته إلى أن انتهى كساسوس من إجازة الشيك ولم يعُد لديه سبب لحجز ديك، الذي كان مُعجباً به، إلّا أنْ ينهض واقفاً حاملاً نظارته الأنفية ويُردد «نعم، إنه في كاليفورنيا».

في تلك الأثناء رأى ديك أنَّ بيران، الجالس على رأس رتل الطاولات، يتحدث مع بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل؛ ومن حركة عين بيران الجانبية فهم ديك أنه يفكّر في استدعائه وتقديمه للرجل، لكنه في آخر المطاف لم يفعل.

قاطع المزاج الودود لكساسوس بالزخم الذي استجمعه عند الطاولة

ذات السطح الزجاجي - أي نظر بإمعان إلى الشيك، وتفحّصه، ومن ثم ثبَّتَ نظره على مسائل خطيرة تقع بعد عمود الرخام الأول إلى يمين رأس صاحب المصرف، وقام بتحريك العصا، والقبعة، والرسائل التي كان يحمل - وودّعه ثم خرج. كان قد رشا البوّاب قبل وقت طويل؛ وقفزتْ سيارةُ الأجرة التي طلبها إلى حافة الرصيف.

«أريد أنْ أذهب إلى استوديو أفلام بار إكسلانس - إنه في شارع صغير في باسي. اذهب إلى مويت. سأدلّك عليه من هناك».

جعلته أحداث الساعات الثماني والأربعين الماضية مرتاباً إلى درجة أنه لم يعُد متأكّداً مما يريد أنْ يفعل؛ دفع أجرة السيارة في مويت ومشى في اتجاه الاستوديو، عابراً إلى الجانب المقابل من الشارع قبل أنْ يصل إلى المبنى. على الرغم من هيئته الوقور بملابسه الأنيقة، ومُلحقاتها الأخرى، كان يتهادى ويُقاد كحيوان. الوقار لا يتحقق إلا بالتخلُّص من ماضيه، بالجهد الذي بذل خلال السنوات الست الأخيرة. مشى برشاقة حول المبنى بحماقة مراهق من تاركينغتُن، مُسرعاً في الأماكن المُستترة خشية ألا يُلاحظ خروج روزميري من الاستديو. كان حياً كئيباً. وعلى بابٍ مُجاور للمكان رأى لافتة تقول «100,000 قميص». كانت القمصان تملأ الواجهة، مكدّسة، مع ربطات عنق، أو محشوة، أو منشورة على أرضية واجهة العرض بأناقة مُدّعية: «100,000 قميص» - عُدّها! وعلى الجانب الآخر قرأ: «حافظات أدوات الكتابة»، «حلويات»، «تنزيلات»، «تخفيضات» - وصورة كونستانس تالمادج[1] تظهر في محل Dejeuner de Soleil وأبعد قليلاً كان هناك المزيد من الإعلانات؛ «ملابس كهنوتية»، «ورقة نعي»، و«جنازات فخمة». حياة وموت.

كان يعلم أنَّ ما يفعله حينئذٍ يُشكّل مُنعطفاً في حياته - كان شيئاً مُخالفاً لكل ما سبقه، حتى للأثر الذي يمكن أنْ يكون قد أملَ في أنْ يتركه على روزميري. فلطالما رأته روزميري مِثالاً للتصرّف الصحيح -

1- سبقت ترجمتها.

كان سيره حول ذلك المبنى تعدياً. لكنَّ ضرورة أنْ يتصرّف ديك كما فعل كان إظهاراً لحقيقة دفينة: لقد اضطرّ إلى السير هناك، أو الوقوف هناك، وكُمّا قميصه مُطابقان لرسغيه وكُمّا معطفه يُطوقان كُمّي قميصه كصمّام كُم، وياقته مُطابقة بليونة لمحيط عنقه، وشعره الأحمر مقصوص بدقة، ويده تحمل حقيبته الصغيرة كأنها قطعة حلوى - تماماً كما وجد رجلٌ آخر أنَّه من الضروري أنْ يقف أمام كنيسة في فيرارا، وهو بملابس من خيش ورماد. كان ديك يقدِّم واجب العزاء لأشياء لا تُنسى، ما زالت نضرة وغير مُطهَّرة.

الفصل التاسع

بعد مرور ثلاثة أرباع الساعة بات جلياً أنَّ روزميري إما أنها فرّتْ أثناء إحدى جولاته حول المبنى أو أنها غادرتْ قبل أنْ يصل إلى الحي. ولجَ أحد المقاهي الصغيرة عند المنعطف، وابتاع قرصاً من الرصاص، وبعد أن انحشر داخل فجوة تقع بين المطبخ والمرحاض برائحته الكريهة، نادى على روا جورج (الملك جورج). لاحظ أثراً لـتشين–ستوكس[1] في تنفّسه – ولكن كما في كل شيء لم يعمل العَارض إلا على تحويله إلى مشاعره. أعطاه رقم الفندق؛ ثم وقف ممسكاً بسماعة الهاتف ومُحدِّقاً في القهوة؛ وبعد فترة طويلة وصلهُ صوتٌ خافتٌ وغريب يقول ألو.

«أنا ديك – كان يجب أنْ أتّصل بكِ».

ثم صمتٌ من جانبها – ثم قالت بشجاعة، وبطبقة صوت تتوافق مع مشاعره: «أنا سعيدة لأنكَ فعلت».

«أتيتُ لأقابلك في الاستديو – أنا في الخارج في باسي على الطرف المقابل له. فكّرت في أنْ نخرج لنتنزه في أرجاء البوا».

«أوه، لم أمكث هناك أكثر من دقيقة! أنا آسفة» ثم صمت.

«روزميري».

«نعم، ديك».

1- تنفُّس تشين–ستوكس: في علم الطب هو نوع بديل من التنفّس ضحل وعميق، كما عند مرضى الإغماء. سُمّيَ على اسميّ جون تشين (1777 – 1836)، وهو طبيب اسكتلندي؛ ووليم ستوكس (1804 – 1878) وهو طبيب أيرلندي. – المترجم

«اسمعي، أنا في وضع استثنائي فيما يخصُّك. عندما تتمكّن طفلة من إزعاج رجل في منتصف العمر - تُصبح الأمور صعبة».

«أنتَ لست في منتصف العمر، يا ديك - أنتَ أصغر مخلوق سناً في العالم».

«روزميري؟»، وساد صمت بينما كان يُحدِّق في رفٍ يحملُ أشدّ أنواع السموم تواضعاً في فرنسا - زجاجة من أوتـارد، ورَمْ سينت جيمس، وماري بيزار، ومزيج عصير البرتقال مع البنش، وفرنيه برانكا، وشيري روشيه، وأرمانياك.

«أأنت وحدك؟».

- *هل تمانع إذا أسدلتُ الستارة؟*

«ومع مَنْ تعتقدين أنّي سأكون؟».

«هذا هو حالي. أريد أنْ أكون معك الآن».

صمت، ثم تنهيد وجواب. «ليتك كنتَ معي الآن».

كانت هناك غرفة الفندق حيث استترتْ خلف رقم هاتف، ودفقات خفيفة من الموسيقى حزينة تكتنفها -

«واثنان - لشرب الشاي.

وأنا لك،

وأنت لي

وحدنا»

كانت هناك ذكرى غبار البودرة التي تكسو بشرتها سُمرة الشمس - عندما قبّل وجهها كان مُندّى عند أطراف شعرها؛ كان هناك ومض وجهٍ أبيض تحت وجهه، وتقوُّس كتف.

قال لنفسه «مستحيل». وبعد دقيقة كان في الشارع يسير قُدُماً نحو

الموبت، أو بعيداً عنه، وحقيبته الصغيرة لا تزال في يده، وعصاه ذات الرأس الذهبي يقبض عليها بزاوية تشبه حمل سيف.

عادتْ روزميري إلى طاولتها وأنهت كتابة رسالة إلى أمها.

«- لم أره إلا لفترة وجيزة لكنني رأيتُ أنه وسيم المنظر. لقد وقعت في حبه (طبعاً أنا أحبّ ديك أكثر، ولكنكِ تفهمين ما أعني). سوف يقوم بإخراج الفيلم وسيغادر في الحال إلى هوليوود، وأعتقد أنّ علينا نحن أيضاً أنْ نسافر. كوليس كلاي كان هنا. إنه يُعجبني لكنني لم أره كثيراً بسبب آل دايفر، الرائعَين حقاً، إنهما ألطف مَنْ عرفت من الناس. اليوم أشعر بأنني لستُ على ما يُرام وأنا أتناول الدواء، على الرغم من أني أرى أنه لا فائدة منه. بل لن أحاول أنْ أحكي لكِ كل ما حدث إلا بعد أنْ *أراك!!!* لذلك عندما تستلمين هذه الرسالة، أرسلي إليّ *برقية، برقية، برقية!* هل ستأتين إلى الشمال أم آتي أنا إلى الجنوب مع آل دايفر؟».

***

عند الساعة السادسة اتصل ديك بنيكول.

سألها «هل لديك خطط معيَّنة؟ هل ترغبين في فعل شيء هادئ - كتناول العشاء في الفندق ومن ثم مشاهدة مسرحية؟».

«هل ترغب أنت؟ سأفعل ما تشاء. لقد اتصلت بروزميري هاتفياً قبل قليلٍ فوجدتها تتناول العشاء في غرفتها. أعتقد أنَّ هذا أزعجنا جميعاً، ألا تعتقد؟».

اعترض «أنا لم أنزعج. عزيزتي، إذا لم تكوني مُرهقة جسدياً دعينا نفعل شيئاً. وإلا فسوف نتوجه جنوباً ونقضي أسبوعاً نتساءل لماذا لم نقابل بوشر. هذا أفضل من التأمّل الكئيب -».

هذا الكلام كان خطأً فاضحاً ووبَّخته نيكول عليه بحِدّة.

«نفكر بكآبة فيم؟».

«في ماريا واليس».

وافقتْ على الذهاب لمشاهدة المسرحية. كانَ عُرفاً بينهما ألّا يشعران بالإرهاق إزاء فعل أي شيء، وقد اكتشفا أنَّ ذلك يجعل أيامهما أكثر سعادة في العموم ويُنظِّم أمسياتهما أكثر. وعندما تنخفض معنوياتهما بصورة لا مناص منها يضعان اللوم على إرهاق الآخرين وتعبهم. وقبل أنْ يخرجا، كما يفعل أشدّ الأزواج أناقة في باريس، طرقا باب روزميري برفق. لم يحصلا على جواب؛ خمّنا أنها ما زالت نائمة فانتقلا إلى ليل باريس الصاخب والدافئ، وفي الطريق شربا كأساً من الفرموث ومشروبات أخرى في الظل بجوار حانة فوكيه.

الفصل العاشر

استيقظت نيكول متأخرة، وهي تغمغم بشيء داخل حلمها قبل أنْ تُباعد ما بين رموشها الطويلة المتشابكة بسبب النوم. كان سرير ديك خالياً – لم تُدرك إلا بعد مرور دقيقة أنَّ ما أيقظها كان قرعاً على باب الصالون.

هتفت: *Entrez!* (أدخلْ!)، ولكنها لم تتلقَّ جواباً، وبعد برهة ارتدت مبذلاً وذهبت لتفتحه. وجدت أمامها ***sergent de ville*** (رجل شرطة) دمثاً يجتاز عتبة الباب.

«السيد أفغان نورث – هل هو هنا؟».

«ماذا؟ كلا – لقد ذهب إلى أميركا».

«متى غادر، مدام؟».

«صباح يوم أمس».

هزّ رأسه ولوّح بإبهامه في وجهها نافياً بإيقاع أسرع.

«لقد كان في باريس ليلة أمس. إنه مُسجَّل هنا لكنَّ غرفته خالية. لقد أخبروني أنَّه يُستحسن أنْ أسأل في هذه الغرفة».

«يبدو لي هذا الكلام غريباً جداً – لقد شاهدناه يُغادر على متن قطار السفينة صباح أمس».

«مهما كان الأمر، لقد شوهِدَ هنا في صباح هذا اليوم. حتى ***carte d'identité*** (بطاقة هويته) شوهِدت. وها أنتِ ذي».

هتفت مذهولة «نحن لا نعلم أي شيء عن هذا».

أخذ يفكّر. كان رجلاً وسيماً، يفوح برائحة كريهة.

«ألم تكوني معه أبداً ليلة أمس؟».

«قلتُ لا».

«لقد ألقينا القبض على رجلٍ زنجي. ونحن مقتنعون أننا ألقينا القبض أخيراً على الزنجي الصحيح».

«أؤكد لك أنّه ليست لدي أي فكرة عما تقول. هذا إنْ كان المقصود هو السيد أبراهام نورث، الذي نعرف، حسن، إذا كان موجوداً في باريس ليلة أمس فلا عِلم لنا بهذا».

هزّ الرجل رأسه، ومصَّ شَفته العليا، مُقتنعاً ولكن مع خيبة أمل.

سألتْ نيكول «ماذا حدث؟».

عَرَضَ عليها يديه، ونفخ فمه المُغلق. كان قد بدأ يجدها جذّابة ولمعت عيناه وهو ينظر إليها.

«ماذا تتمنين، مدام؟ علاقة تدوم خلال الصيف. لقد تعرَّضَ السيد نورث للسرقة وقدَّمَ شكوى. وألقينا القبض على الوغد. على السيد أفغان أنْ يأتي لكي يتعرَّفَ عليه ويُوجّه التُهم المناسبة».

شدَّتْ نيكول المبذل حول جسمها وصرفته بخفّة. قامت وهي مذهولة بأخذ حمّام ثم ارتدت ملابسها. في ذلك الحين كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فاتصلت بروزميري، لكنها لم تحظَ بجواب - ثم اتصلت بمكتب الفندق فوجدت أنَّ آبيه مُسجَّل عندهم حقاً، في الساعة السادسة والنصف من صباح ذلك اليوم. لكنَّ غرفته كانت لا تزال خالية. انتظرتْ في صالون الجناح على أمل أنْ يصلها خبر من ديك؛ وعندما استسلمت وقررت أنْ تخرج، اتصل بها مكتب الفندق وأعلن:

«ميستر كروشو، ***un negre*** (زنجي)».

سألتْ «وماذا يُريد؟».

«يقول إنه يعرفكِ ويعرف الدكتور. يقول إنَّ الميستر فريمَن في السجن وهو صديق العالم أجمع. يقول إنَّ هناك ظُلماً ويتمنى أنْ يرى الميستر نورث قبل أنْ يتمّ القبض عليه هو أيضاً».

«نحن لا نعرف أيَّ شيء عن الأمر»، وأنكرتْ نيكول المسألة كلها وأعادت سمّاعة الهاتف بقوة إلى مكانها. لقد وضَّحَ ظهور آبيه من جديد لها كم كانت مُتعَبة من إسرافه في الشراب. وطرحتْه من تفكيرها وخرجتْ، وعند الحلاق التقت مُصادفة بروزميري، وتسوّقتا معاً لتشتريا أزهاراً اصطناعية وعقوداً من جميع الألوان في شارع ريفولي. وساعدتْ روزميري في اختيار حجر كريم لأمها، وبعض الأوشحة وعلب السجائر الجديدة لتأخذها معها إلى الوطن إلى شركات أعمال في كاليفورنيا. ولابنها أحضرت جنوداً من الإغريق والرومان، مجموعةً تشكّل جيشاً كاملاً، وكلَّفتها مبلغاً يفوق ألف فرنك. ومن جديد أنفقتا نقودهما بطرقٍ مختلفة، ومن جديد أبدتْ روزميري إعجابها بأسلوب نيكول في الإنفاق. كانت نيكول واثقة من أنَّ النقود التي أنفقت هي من حرّ مالها - كانت روزميري لا تزال تعتقد أنَّ نقودها أُقرِضَت لها بصورة مُعجزة وينبغي بالتالي أنْ تكون شديدة الحرص عليها.

كان إنفاق النقود تحت أشعة شمس المدينة الأجنبية أمراً ممتعاً، مع أجساد صحيحة تبعثُ فيوضاً من النضارة إلى وجهيهما؛ وأذرع وأيدٍ، وسيقان وكواحل تتمدَّد بثقة، تمتد أو تخطو بثقةِ نسوةٍ يعشقهن الرجال.

عندما عادتا إلى الفندق ووجدتا ديك هناك، كله إشراق ونضارة في الصباح، استمتعتا بمرح طفولي صِرف.

كان قد تلقّى تواً اتصالاً هاتفياً خاطئاً من آبيه الذي، كما بدا، أمضى فترة بعد الظهيرة مختبئاً.

«كانت إحدى أشدّ المكالمات الهاتفية غرابة التي أجريتها في حياتي».

لم يكن ديك قد تحدث مع آبيه فقط بل مع عدد آخر من الأشخاص أيضاً. عبر الهاتف تم التعريف بذلك العدد الفائض بصورة نموذجية بعبارة «- ثمة رجل يريد أنْ يتحدث معك جالس في غرفة الشاي، في الواقع يقول إنه كان هناك - على أي حال، كان في وضعٍ مُزرٍ ولا يستطيع أنْ

يذهب إلى بيته. ورأيي الشخصي هو - رأيي الشخصي هو أنه كان -»، ثم سُمِعَ صوت غصّة وبعد ذلك بقيَ ما حدث في الحفل في طي المجهول.

وصله عبر الهاتف عرضٌ مُكمِّل:

«رأيتُ أنه سيعجبك في كل الأحوال بوصفك طبيباً نفسياً». الشخص الغامض الذي أدلى بهذا التقرير وصل أخيراً إلى الهاتف؛ وبدوره فشل في أنْ يحظى بإعجاب ديك بوصفه طبيباً نفسياً أو أي شيء آخر. جرى الحديث مع آبيه على النحو التالي:

«ألو».

«حسن؟».

«حسن، ألو».

«مَنْ أنت؟».

«حسن» سُمِعَ شخير ضحك دخيل.

«حسن، سأجعل شخصاً آخر يتحدث معك».

استطاع ديك أنْ يسمع أحياناً صوت آبيه، مصحوباً بحركة أقدام سريعة، وسقوط سماعة الهاتف، ومقاطع بعيدة من الكلام، مثل «كلا، لا أريد، سيد نورث...». ثم قال صوت حاسم ونشِط: «إذا كنتَ صديقاً للسيد نورث فسوف تأتي وتأخذه من هنا».

ثم قاطعه آبيه، رصيناً ومملاً، وأفضى بالكلام كله بنبرة مُغالية من التصميم المباشَر.

«ديك، لقد تسببتُ في إثارةِ فتنةٍ عرقية في مونمارتر. سوف أذهب لأُخرِج فريمَن من السجن. إذا كان رجل زنجي من كوبنهاغن يصنع دهان أحذية - ألو، أتسمعني - حسن، اسمع، إذا جاء أحد إلى هناك -» من جديد تحولت السماعة إلى جوقة من الألحان الغفيرة.

سأل ديك «لماذا عدتَ إلى باريس؟».

«لقد وصلتُ حتى إيفرو، ثم قررتُ أنْ أستقلّ طائرة وأعود لكي أُقارنها بكنيسة سان سولبيس. أعني أني لا أنوي أنْ أُعيد سان سولبيس

إلى باريس. بل لا أعني بقولي فن الباروك! بل أعني سان جرمان. حباً بالله، انتظر دقيقة وسأجعل الخادم يُكلمك».

«إكراماً لله لا تفعل».

«اسمع - هل ميري على ما يرام؟».

«نعم».

«ديك، أريد منك أنْ تتكلم مع رجل قابلته هنا في صباح هذا اليوم، هو ابن ضابط في البحرية وقد لجأ إلى أطباء أوروبا كلها. دعني أخبرك عنه -».

عند هذه النقطة كان ديك قد قطع الخط - لعلها حركة تنم عن جحود، لأنه كان في حاجة إلى مادة مغذّية للنشاط الهادر في عقله.

أخبرت نيكول روزميري «كان آبيه في السابق لطيفاً. لطيفاً جداً. قبل زمن بعيد - عندما كنا ديك وأنا متزوجَين حديثاً. ليتكِ عرفته حينئذٍ. كان قد جاء ومكث معنا أسابيع طويلة وكنا نكاد لا نشعر بوجوده في المنزل. وأحياناً ترينه يلعب - وأحياناً يلج غرفة المكتبة مع آلة بيانو مكتومة الصوت ويداعبها على مدى ساعة - ديك، هل تذكُر تلك الخادمة؟ لقد ظنّتْ أنه شبح وأحياناً كان آبيه يُقابلها في الرواق فيُصدر في وجهها صوتاً مُخيفاً، وذات مرة رفضتْ أنْ تقدّم لنا الشاي - لكننا لم نهتم».

كان هناك الكثير من المرح - قبل زمن بعيد. حسدتهما روزميري على مرحهما، متخيّلة حياةً من الفراغ لا تشبه في شيء حياتها. لم تكن تعرف الكثير عن وقت الفراغ، لكنها كانت تحترم بسببه أولئك الذين لم يحظوا به أبداً. تخيّلته كفترة راحة، من دون أنْ تعلم أنَّ آل دايفر أبعد ما يكونان عن الاسترخاء كما تعرفه هي.

سألت «ما الذي أدّى به إلى هذا؟ لماذا لجأ إلى الخمر؟».

هزّتْ نيكول رأسها يميناً ويساراً، متنصلة من مسؤوليتها عن المسألة: «في هذه الأيام الكثير من الرجال الأذكياء ينهارون».

سأل ديك «ومتى لم يفعلوا؟ إنَّ الأذكياء من الرجال يتصرفون بتطرُّف لأنهم يجب أنْ يفعلوا ذلك - بعضهم لا يتحمّلون، فيتخلون عن الأمر».

«يجب أنْ يكون متجذِّراً أعمق من هذا». تشبّثتْ نيكول بحديثها؛ وشعرت أيضاً بالغضب لأنَّ ديك عارضها أمام روزميري. «إنَّ الفنانين - حسن، مثل فردينان ليسوا مُضطرين إلى الانغماس في شرب الخمر. لماذا الأميركيون فقط يدمنون الخمر؟».

كانت هناك أجوبة كثيرة على هذا السؤال لهذا قرّر ديك أنْ يتركه مُعلّقاً، لكي يُصدر طنين الانتصار في أُذنيّ نيكول. كان قد أصبح شديد الانتقاد لها. وعلى الرغم من أنه كان يرى أنها أشد مَنْ شاهد من البشر جاذبية، وعلى الرغم من أنه كان يحصل منها على كل ما يحتاج، فإنه شمّ رائحة قتال في الأفق، وكان في داخله يشدُّ من أزر نفسه ويتسلّح، ساعة بعد أخرى. لم يكن يميل إلى الانغماس في الذات وشعر بأنّه سمِح نسبيّاً في تلك اللحظة من تدليل نفسه، تاركاً الأمل في أنْ تُخمِّن نيكول علاقته بروزميري فقط من ناحية الإثارة الشعورية، يعميه. لم يكن متأكّداً - كانت في الليلة السابقة في المسرح قد أشارتْ بوضوح إلى روزميري على أنها طفلة.

تناول الثلاثة طعام الغداء في الطابق السفلي في جوٍ من السجّاد والنُدُل ذوي الأصوات الخافتة، الذين لا يهرعون بخطى سريعة وقوية الوطأة لأولئك الرجال الذين يجلبون الطعام الطيب إلى الطاولات التي تناولوا عليها مؤخراً طعام العشاء. هنا كانت عائلات من الأميركيين تُحدِّقُ حولها بحثاً عن عائلات من الأميركيين في محاولة للانخراط في الحديث معها.

كانت هناك مجموعة على الطاولة المجاورة لم يفهموا مناسبتها، تجمَّعَ حولها شابٌ ثري، يبدو أنه سكرتير، يُكرر عبارة «هل تسمح أنْ تفعل كذا»، وعدد من النساء. النسوة لم يكنّ شابات ولا متقدمات في السن أو ينتمين إلى طبقة اجتماعية معيَّنة؛ ومع ذلك أعطت المجموعة

الانطباع بالوحدة، بالتضامُن، على سبيل المثال، أكثر من كونها مجموعة من الزوجات ينتظرن انتهاء أزواجهن من اجتماعٍ مهنيّ. لقد كانت حتماً أقرب شَبَهاً بمجموعة متكاملة منها بأي مجموعةٍ سياحية يمكن تصورها.

دفعت الغريزةُ ديك إلى ابتلاع السخرية الجادّة التي تشكّلتْ على طرف لسانه؛ وطلب من النادل أنْ يسأل عنهم.

شرح النادل قائلاً «هؤلاء أمهات أصحاب النياشين».

أبدوا دهشتهم بأصوات منخفضة عالية. واغرورقت عينا روزميري بالدموع.

قالت نيكول «لعل الصغيرات في السن منهن هنّ الزوجات».

أثناء شربه النبيذ نظر ديك إليهن من جديد؛ تبيَّنَ في وجوههن السعيدة، وفي الوقار الذي يكتنف الحفل ويسودها، مشاعرَ أمومة أميركا أكبر سناً. وأضفت النسوة الوقورات اللائي أتين للتعزية في موتاهن، في شيءٍ لا يستطعن تعويضه، جمالاً على المكان. تخيَّل نفسه للحظةٍ جالساً على رُكبة والده مع موزلي في حين أصحاب الولاء والتقوى العجائز يُكافحون من حوله. ومع بذل بعض الجهد التفتَ إلى الخلف نحو مُرافقتيه على الطاولة وواجه العالم الجديد بأكمله الذي يؤمن به.

- هل تمانع في أنْ أُسدلَ الستارة؟

الفصل الحادي عشر

كان آبيه نورث لا يزال في حانة الريتز، منذ التاسعة صباحاً. وعندما وصل بحثاً عن ملاذ كانت النوافذ مُشرّعة وأشعة شمس غزيرة منهمكة في إثارة الغبار عن السجاد والوسائد المُغبرّة. كان الخدم يهرعون على طول الأروقة، متحررين في الجسد والروح، يتحركون في تلك اللحظة في الفضاء المحض. كان البار المُخصص للنساء، الذي يقع قبالة البار العام، صغيراً جداً - حتى بدا صعباً تخيُّل أنَّ الرواد الذين يعج بهم المكان يتسع لهم في المساء.

لم يكن بول الشهير، صاحب الامتياز، قد وصل، لكنَّ كلود، الذي يتفقَّد المرق، قطعَ عَملَه بمباغتةٍ مُحببة لكي يُعِدّ لآبيه شراباً مُنشِّطاً. جلسَ آبيه على مقعد مُستند إلى جدار. وبعد أنْ شرب كأسين بدأ يشعر بتحسُّن - بل أفضل بكثير إلى درجة أنه ارتقى إلى دكان الحلاّق وحلق ذقنه. وعندما عاد إلى البار كان بول قد وصل - في سيارته المصنوعة حسب الطلب، وترجّلَ منها بالطريقة الصحيحة إلى جادة ديه كابوسين. أُعجب بول بآبيه وتقدّم ليتحدث معه.

قال آبيه «كان من المُفترَض أنْ أسافر بالسفينة إلى الوطن في صباح هذا اليوم. أعني صباح أمس، أو كائناً ما كان».

سأله بول «ولِمَ لم تفعلْ؟».

فكّر آبيه، ثم توصّل أخيراً إلى سبب: «كنتُ أقرأ قصة متسلسلة في صحيفة *ليبرتي* وكانت الحلقة التالية ستصدر هنا في باريس - وهكذا لو كنت أبحرت لفقدتها - ولمَا كنتُ قرأتها».

«يبدو أنها قصة جيدة جداً».

«بل هي قصة رديييييئة».

قهقه بول بصوت مرتفع ثم سكت، متكئاً على ظهر أحد الكراسي:

«إذا كنتَ تريد حقاً أنْ تسافر، فهناك أصدقاء لك سيرحلون في الغد على متن السفينة *«فرانس»* - مستر ماذا كان اسمه - وسليم بيرسون. مستر - سأفكِّر في الأمر - طويل القامة وله لحية قصيرة».

أكمل آبيه «ياردلي».

«مستر ياردلي. كلاهما سيستقلان السفينة *فرانس*».

كان في طريقه إلى عمله، لكنّ آبيه احتجزه: «لكنني مُضطر إلى الذهاب عن طريق شربور. أمتعتي ذهبت عن ذلك الطريق».

قال بول، مبتعداً «استلم أمتعتك في نيويورك».

اقتنعَ آبيه بالتدريج بمنطق الاقتراح - وأخذ يزداد حماسة حول فكرة أنَّ هناك مَنْ يهتم لأمره، أو بالأحرى حول إطالة حالة عدم تحمُّل المسؤولية.

كان زبائن آخرون قد توافدوا إلى البار في تلك الأثناء: أولاً جاء رجل دانماركي ضخم الجثّة كان آبيه قد قابله في مكان ما. جلس الدانماركي على الجانب المقابل من المكان، وخمّنَ آبيه أنه سيمكث هناك طوال النهار، يشرب، ويأكل، ويتكلّم، أو يقرأ الصحف. وانتابته رغبة في أنْ يتفوّق عليه في المكوث. وعند الساعة الحادية عشرة بدأ طلاب المدرسة يتوافدون، يخطون بحذر مخافة أنْ يمزّق كل منهم حقيبة الآخر. في ذلك الوقت دفع الخادم إلى الاتصال هاتفياً بآل دايفر؛ وعندما اتصل بهما اتصل أيضاً بأصدقاء آخرين والغداء الذي قدّمه لهم جعلهم جميعاً يتصلون بهواتف مختلفة دفعة واحدة - والنتيجة كانت بصورة ما عامة. وكان عقله يعود بين حين وآخر إلى حقيقة أنَّ عليه أنْ يذهب ويُخرِج فريمَن من السجن، لكنه نفضَ عنه حقائق الكابوس وأجزاءه كلها.

مع حلول الساعة الواحدة كان البار قد ازدحم؛ ووسط المزيج الناتج من الأصوات كانت مجموعة النُدُل تعمل، يُثبّتون زبائنهم إلى حقائق الشـراب والنقود.

«ويُصبح العدد اثنين من الخمر... ومشروباً آخر... اثنين من المارتيني وواحدا... لا شيء لأجلك، سيد كوارترلي... يصبح المجموع ثلاث جولات. الحصيلة هي خمسة وسبعون فرنكاً، يا سيد كوارترلي. السيد شيفر قال إنه تناول هذا - أنت تناولت الأخير... أنا ألبّي فقط ما تطلب... شكراً جزيلاً».

وسط الفوضى فقد آبيه مقعده؛ والآن وقف بهدوء وهو يترنح ويتكلّم مع بعض الأشخاص الذين انضمَّ إليهم. لفَّ كلٌّ وِثاقاً حول ساقيه، لكنَّ آبيه نجح في تخليص نفسه من دون انزعاج، وأخذ يتلقّى سيلاً من الاعتذارات. وفي الحال دُعيَ إلى طعام الغداء، لكنه رفض الدعوة. شرحَ السبب قائلاً: كدنا نصل إلى بريغليث، ولديه عمل يؤديه في بريغليث. وبعد ذلك بقليل، وبسلوكِ مدمنٍ راقٍ على الخمر وهو سلوك سجين أو خادم لعائلة، ودَّع أحد معارفه، ثم استدار فاكتشف أنَّ لحظة البار الكبرى قد انتهت بسرعة كما بدأتْ.

على الطرف المقابل له كان الدانماركي ورفاقه قد طلبوا الطعام. وفعل آبيه مثله لكنه لم يلمسه. وبعد ذلك اكتفى بالجلوس، سعيداً بالعيش في الماضي. إنَّ الخمر يجعل الأشياء السعيدة الماضية مُعاصِرة للحاضر، وكأنَّها ما زالتْ مستمرة، مُعاصِرة حتى للمستقبل، كأنها توشك أنْ تحدث من جديد.

عند الساعة الرابعة تقدّم منه الخادم:

«هل ترغب في مقابلة شخص ملوّن اسمه جولز بيترسن؟».

«يا إلهي! كيف عثر عليّ؟».

«أنا لم أخبره بأنك موجود».

«فمن أخبره؟»، انكفأ آبيه على كؤوسه لكنَّه استعاد توازنه.

«يقول إنه مرّ على الحانات الأميركية والفنادق كلها».

«قُل له إني لست هنا -»، عندما استدار الخادم ليبتعد سأله آبيه: «هل يستطيع أنْ يأتي إلى هنا؟».

«سأرى».

بعد أنْ تلقّى بول السؤال نظر أمامه؛ هزّ رأسه نفياً، وعندما رأى آبيه اقترب منه.

«آسف؛ لا أستطيع أنْ أسمح بهذا».

رفعَ آبيه نفسه بصعوبة وخرج متوجهاً إلى شارع كامبون.

الفصل الثاني عشر

مشى ريتشارد دايفر، حاملاً حقيبته الصغيرة، من الدائرة السابعة - حيث ترك رسالة قصيرة لماريا واليس موقّعة باسم «ديكول»، وهي الكلمة التي كان هو ونيكول يوقّعان بها رسائلهما المتبادلة خلال أيام الحب الأولى - إلى خياط قمصانه الخاص، وهناك أثار الكتبة حوله ضجة لا تتناسب مع النقود التي أنفقها. كان خجلاً لأنه وعد أولئك الإنكليز المساكين بالكثير، بسلوكه الراقي، والسِمة التي توحي بأنه يمتلك مفتاح الأمان، خجلاً من جعل الخياط يُغيِّر موقع بوصة من الحرير على ذراعه. بعد ذلك ذهب إلى حانة كريون وشرب قليلاً من القهوة ومقدار إصبعَين من الجن.

لدى ولوجه الفندق بدت الأروقة برّاقة بصورة غير طبيعية؛ وعندما غادر أدركَ أنَّ ذلك يعود إلى أنَّ الظلام قد حلّ في الخارج. كانت الساعة الرابعة مساء والجو عاصفاً، وأوراق الأشجار في الشانزليزيه تغرد وتسقط، رقيقة وجامحة. انحدر ديك إلى شارع دو ريفولي، وقطعَ مسافة ساحتين تحت أقواس إلى المصرف الذي يتعامل معه، حيث بريده. ثم استقلّ سيارة أجرة وانطلق على طول الشانزليزيه يشق طريقه تحت تباشير المطر، جالساً وحده مع حبه.

عند الساعة الثانية في رواق فندق الملك جورج كان جمال نيكول بالنسبة إلى جمال روزميري كجمال فتاة ليوناردو بالنسبة إلى جمال فتاة

اللوحة. تقدَّم ديك تحت المطر، ممسوساً بالشيطان وخائفاً، في داخله أشواق رجال كُثُر ولا يرى أي شيء بسيط.

***

فتحت روزميري بابها وهي مُترعة بانفعالات لا يعرف بأمرها غيرها. حينئذٍ كانت ما يمكن أنْ يوصَف بأنه «شيء صغير جامح» - حتى بعد مرور أربع وعشرين ساعة كاملة لم تكن بعد قد تماسكت وانغمستْ في العبث بالعماء، وكأنَّ مصيرها لعبة الصورة المُقطّعة.- فوائد مستمرة، آمال مستمرة، تحكي عن ديك، ونيكول، وعن أمها، والمخرج الذي قابلته بالأمس، كانت كنقاط التوقف على خيط من الخرز.

عندما قرع ديك الباب كانت قد ارتدت ملابسها تواً وتراقب المطر، تفكّر في بعض أبيات من الشِعر، وفي قنوات التصريف التي فاضتْ في بيفرلي هيلز. عندما فتحت الباب رأته كشيء ثابت وقُدسي كما كان دائماً، كما يبدو العجائز في عيون الشبان، متصلبين وجامدين. وكان ديك يراها مع إحساس لا مفرّ منه بالإحباط. استغرق منه برهة ليستجيب لعذوبة ابتسامتها الطلقة، وجسدها المحسوب بالمليمتر بحيث يوحي ببرعم يعِدُ بزهرة. كان يعي انطباع قدمها الرطبة على البساط الذي على عتبة باب الحمّام.

قال بلهجة خفيفة لم يشعر بها «ملكة جمال التلفزيون». وضع قفازه، وحقيبته على طاولة الزينة، وأسند عصاه إلى الجدار. هيمنت ذقنه على خطوط الألم المُحيطة بفمه، ودفعتها عالياً نحو الجبين وزاويتيّ عينيه، كالخوف الذي لا يظهر للعيان.

قال برقّة «تعالي واجلسي على حجري بقربي، ودعيني أرى حول فمك الجميل».

اقتربت وجلست هناك وبينما المطر يقطر ببطء في الخارج - قطرة - قطرررة، وضعتْ شفتيها على الصورة الباردة الجميلة التي ابتكرتها.

سرعان ما قبّلته مراتٍ عِدّة في فمه. لم يكن قد رأى أي شيء شديد الإذهال كبشرتها، وبما أنَّ جمالها أحياناً يُعيد إلى المرء صور أفضل أفكاره، راح يفكِّر في مسؤوليته تجاه نيكول، وفي مسؤولية كونها على بُعد بابَين في الرواق.

قال «توقف المطر. هل ترين الشمس على البلاط؟».

نهضتْ روزميري واقفة ومالت نحو الأسفل وأدلتْ له بأشدّ أقوالها صِدقاً:

«أوه كم نحن *ممثلون* – أنتَ وأنا».

انتقلت إلى طاولة زينتها وحالما وضعت المشط على شعرها سُمِعَ قرع بطيء مُلحّ على الباب.

ذُهِلا حتى السكون؛ تكرّر القرع بإلحاح، وفي إدراكها المفاجئ أنَّ الباب ليس موصداً أنهتْ روزميري تسريح شعرها بحركة واحدة، وأومأتْ برأسها لديك، الذي قام بسرعة بإزالة التجاعيد عن السرير الذي كانا جالسَين عليه، وتوجّه نحو الباب. قال ديك بصوت طبيعي هادئ، وليس عالياً جداً:

«– إذن ليست لديكِ رغبة في الخروج، سأُخبر نيكول وسوف نقضي أمسية أخيرة هادئة جداً».

لم يكن هناك من داعٍ لاتّخاذ جانب الحذر، لأنَّ وضع المجتمعين في الخارج كان مزعجاً بحيث لا يُعيق إلا الأحكام العابرة على مسائل ليست مُلحّة بالنسبة إليهما. كان هناك آبيه، الذي تقدّمَ في السن بضعة أشهر خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، يبدو علية الخوف الشديد، ورجل ملوَّن تبدو عليه الجديّة، قدَّمه آبيه بأنه السيد بيترسن، من استوكهولم.

قال آبيه «إنه في وضع فظيع والخطأ خطأي. ونحن في حاجة إلى نصيحة جيدة».

قال ديك «تعالا إلى غرفتنا».

أصرّ آبيه على أنْ تأتي روزميري أيضاً، واجتازا الرواق إلى جناح آل دايفر. تبعهما جولز بيترسن، الزنجي الضئيل، المُحترَم، بالأسلوب الرقيق الجدير بالإطاحة بالحزب الجمهوري في الولايات الحدودية.

بدا أنَّ الأخير كان شاهداً شرعياً على خلافٍ دارَ في الصباح الباكر في مونبارناس؛ كان قد صحب آبيه إلى مركز للشرطة ودعم تأكيده أنَّ ورقة نقدية بقيمة ألف فرنك اختطفها من يده شخصٌ زنجي، وكان التعرُّف عليه هو إحدى نقاط القضية. وعاد آبيه وجولز بيترسن، مصحوبَين برجل شرطة إلى المقهى وتعرّفا بالسرعة القصوى على زنجي على أنه المجرم الذي كان، كما ثبت بعد ذلك بساعة، قد دخل المقهى فور مغادرة آبيه لها. وزادت الشرطة من تعقيد المسألة بإلقاء القبض على صاحب مطعم بارز، اسمه فريمَن، كان قد ولج المكان الذي يعمّه الضباب المُشبَع بعبق الكحول في وقتٍ مبكّر ومن ثم اختفى. والمتّهم الحقيقي، الذي كان اغتصبَ، كما نُقِلَ عن أصدقائه، فقط خمسين فرنكاً ثمن المشروبات التي كان آبيه قد طلبها، ظهر مؤخراً على مسرح الأحداث ليقوم بدور شرير.

باختصار، لقد نجح آبيه في غضون ساعة من الزمن في توريط نفسه في الحياة الخاصة، وضمائر، وانفعالات شخص أوروبي إفريقي وثلاثة من الأفرو-أميركيين يقطنون الحي اللاتيني. ولم يكن هناك أي شيء في الأفق يدل على أنه سينفصل عنهم، وانصرمَ النهار في جوّ من الوجوه الزنجية الغريبة التي تظهر فجأةً في أماكن غير متوقّعة وعند منعطفات فجائية، وأصوات زنجيّة مُلحّة عبر الهاتف.

كان آبيه قد نجح شخصياً في تجنُّبهم جميعاً، ما عدا جولز بيترسن. كان بيترسن بمنزلة الهندي الودود الذي ساعد رجلاً أبيض. الزنوج الذين عانوا من الخيانة لم يكونوا يلاحقون آبيه بقدر ما كانوا يسعون إلى بيترسن، وبيترسن كان يسعى وراء كل الحماية التي يمكن أنْ يحصل عليها من آبيه.

في استوكهولم كان بيترسن قد فشل كمُصنِّع لِمُلمِّع أحذية صغير والآن بات لا يمتلك إلا صيغة المادة وأدوات المهنة كافية لتملأ صندوقاً صغيراً؛ لكنَّ راعيه الجديد كان قد وعده في الساعات الأولى بأنْ يُطلقه في تجارته في فرساي. كان سائق آبيه الخاص صانع أحذية هناك وأعطى آبيه بيترسن مئتيّ فرنك على الحساب.

أصغتْ روزميري بامتعاض إلى هذا الهراء؛ كان استحسان غرابته يتطلّب حساً هائلاً بالفكاهة لا تتّصف به. الرجل القميء مع مصنعه القابل للحمل، وعيناه الخبيثتان اللتان كانتا، بين حين وآخر، تتحركان ضمن نصف دوائر بيضاء أمام مشهد مرعب؛ وشكل آبيه، بوجهه المبهم بقدر ما تسمح به الخيوط الرفيعة للشاش - هذا كله كان نائياً عنها نأي المرض.

قال بيترسن بنغمة دقيقة لكنها مشوَّهة خاصة بالبلدان الاستعمارية، «كل ما طلبت هو فرصة في الحياة. إنَّ أساليبي بسيطة، وصيغتي جيدة إلى درجة أنني طُرِدتُ من استوكهولم، مُحطَّماً، لأني لم أتخلَّص منها».

نظـــر إليه ديك بتهذيب - وبدأ يظهر عليه الاهتـــمام، ثم تلاشى، والتفتَ إلى آبيه.

«اذهب إلى أحد الفنادق ونمْ. وبعد أنْ ترتاح سوف يأتي السيد بيترسن ليراك».

قال مُحتجاً «ولكن ألا تدرك المشكلةَ التي وقع فيها بيترسن؟».

قال السيد بيترسن برهافة «سأنتظر في الرواق. ربما من الصعب عليكما أنْ تناقشا مشاكلي أمامي».

انسحبَ بعد أن انحنى انحناءً فرنسياً بأداءٍ ساخر ومُضحك؛ نهضَ آبيه واقفاً بدقّة قطارٍ يتحرك.

«يبدو أنَّي لست محبوباً اليوم».

قال له ديك «أنتَ محبوب لكنكَ غير مُحتَمَل. ونصيحتي لك أنْ تغادر هذا الفندق - عن طريق البار، إذا شئت. اذهب إلى فندق شامبور، أو إذا أردتَ الكثير من الخدمة، اذهب إلى الماجستيك».

«هل لي بمشروب إذا لم يكن ذلك مزعجاً؟».

قال ديك كاذباً «ليس لدينا أي شيء هنا».

صافح آبيه يد روزميري إيذاناً بالرحيل؛ ورسم على وجهه ببطء سِمة التماسُك، وبقيَ ممسكاً بيدها فترة طويلة وهو يشكّل جُملاً لم تتكوَّن.

«أنتِ أشدّ - واحدة من أشدّ -».

شعرتْ بالأسف، وبالاشمئزاز من يديه القذرتين، لكنها ضحكتْ بطريقة مُهذّبة، وكأنَّها لا تجد ما هو غريب في مراقبة رجل يمشي في حلمٍ بطيء الإيقاع. إنَّ الناس غالباً ما يُظهِرون احتراماً غريب الشكل لرجلٍ سكران، يُشبه احترام السلالات البسيطة للمجنون. الاحترام بدل الخوف. هناك شيء يوحي بالرهبة في شخصٍ فقدَ كل سيطرة على نفسه، ولن يفعل أي شيء. طبعاً نحن نجعله يدفع الثمن لاحقاً بسبب لحظة تفوّقه تلك، لحظة تأثيره تلك. التفتَ آبيه نحو ديك يُناشده للمرة الأخيرة.

«إذا ذهبتُ إلى فندق واسترخيت وهدأتُ، وأخذتُ قسطاً من النوم، وأبعدتُ عن ذهني أولئك السنغاليين - هل يمكنني أنْ أعود وأقضي الأمسية بجوار المدفأة؟».

أومأ له ديك برأسه إيجاباً، ليس بموافقة بل بمُحاكاة ساخرة، وقال: «إنكَ تغالي في تقدير قُدراتك الحالية».

«أراهن على أنه لو كانت نيكول موجودة لسمحت لي بالعودة».

«حسن»، وتوجه ديك إلى صينية كبيرة وأحضر صندوقاً وضعه على الطاولة المركزية؛ كان في داخلها عدد غفير من الأحرف من الورق المقوّى.

«يمكنكَ أنْ تأتي إذا شئت لتلعب لعبة الجناس التصحيفي[1]»

نظر آبيه إلى محتويات الصندوق بتعبير امتعاض جسدي، كأنما طُلِبَ منه أنْ يأكلها كأنها شوفان.

1- الجناس التصحيفي: لعبة يُشكّل فيها اللاعبون كلمات جديدة بتصحيف (أو إعادة ترتيب) الكلمات الأخرى أو إضافة بعض الأحرف إليها.

«ما هي لعبة الجناس التصحيفي؟ ألا يكفيني ما واجهتُ من غرابة -؟».

«إنها لعبة هادئة. تتعلم بها هجاء الكلمات - أي كلمة ما عدا كلمة كحول».

أدخلَ آبيه يده بين القِطع. «أراهن على أنَّ في استطاعتك أنْ تتهجّى كلمة كحول. هل أستطيع أنْ أعود إذا كنتُ أستطيع أنْ أتهجّى كلمة كحول؟».

«تستطيع أنْ تعود إذا أردتَ أنْ تلعب الجناس التصحيفي».

هزّ آبيه رأسه بنفي مُستسلماً.

«إذا كان هذا تفكيرك فلا فائدة - سوف أكون مجرد حجر عثرة في الطريق»، ولوّح بيده لديك مؤنّباً، «ولكن تذكّر ما قال جورج الثالث، قال إنَّه عندما كان غرانت[1] يصبحُ ثملًا كان يعضّ القادة الآخرين».

بنظرة يائسة أخيرة ألقاها على روزميري من زاويتيّ عينيه الذهبيتين، خرج. ارتاح لأنه لم يجد بيترسن في الرواق. وشعر بالضياع وبأنه شريد فعاد ليطلب من بول اسم تلك السفينة.

1- يوليسيس غرانت (1822 - 1885): عسكري ورجل سياسة أميركي، ورئيس الولايات المتحدة الأميركيّة الثامن عشر. دعم الرئيس إبراهام لينكولن في أثناء الحرب الأهليّة الأميركيّة. - المترجم

الفصل الثالث عشر

بعد خروجه، تعانق ديك وروزميري عناقاً سريعاً. كان غبار باريس لا يزال عالقاً عليهما معاً ومن خلاله كان يشم كلٌّ منهما الآخر: الحارس المطاطيّ على قلم حبر ديك، والعطر الخفيف للدفء من عنق روزميري وكتفيها. تشبّثَ ديك بالموقف دقيقة من الزمن؛ وكانت روزميري هي أول مَنْ عاد إلى أرض الواقع.

قالت «يجب أنْ أرحل، أيها الصغير».

طرفت عينا كل منهما للآخر عبر المسافة المُتّسعة بينهما، ووجدت روزميري لنفسها مخرجاً تعلّمته وهي صغيرة، لا إرشادات عليه للمساعدة.

فتحت باب غرفتها وتوجهت مباشرة إلى طاولة الكتابة، وتذكّرتْ فجأةً أنها خلعت ساعة يدها. كانت هناك؛ لبستها وألقتْ نظرة سريعة على الرسالة اليومية التي تكتبها لأمها، مُنهيةً الجملة الأخيرة فيها في ذهنها. ثم، وبالتدريج، أدركتْ من دون أنْ تلتفت أنها ليست وحدها في الغرفة.

في غرفة مأهولة هناك أشياء منعكسة لا تُلاحَظ إلا جزئياً؛ خشب مُلمَّع، ونحاس مصقول قليلاً، وفضّة، وعاج، وخلف هذه كلها ألف ناقل للضوء والظل شديد الرقّة بحيث لا يُفكّر المرء فيها هكذا، وأعالي أُطُر الصور، وحواف أقلام الرصاص أو المنافِض، أو زخارِف الكريستال أو الخزف؛ وكامل هذه الانعكاسات - المتوافقة مع انعكاسات لا تقلّ عنها رهافة للرؤية كما للشظايا المرافقة في اللاوعي التي يبدو أننا نتشبّث

بها، كما يُحافظ مُثبِّت الزجاج على القِطع غير المنتظمة التي قد تسقط أحياناً - هذه الحقيقة قد تفسِّر ما وصفته روزميري لاحقاً بصورة غامضة بأنه «إدراك» أنَّ هناك شخصاً في الغرفة، قبل أنْ تتمكّن من تحديده. ولكن عندما عرفت فعلاً ما هو التفتَتْ بسرعة بما يُشبه حركة خطوة في رقص الباليه ورأتْ جثة رجل زنجي مُمدَّدة على سريرها.

عندما صرخت «أاااا وووه!» ووقعت ساعة يدها التي لم تكن قد أحكمَتْ تثبيتها على طاولة الكتابة راودتها فكرة مستحيلة هي أنه آبيه نورث. ثم اندفعتْ نحو الباب ومنه إلى الرواق.

كان ديك ينهضُ ليقف؛ كان قد تفحَّصَ القفّاز الذي لبسه في ذلك اليوم ورماه على ركام من القفازات المتسخة بالتراب في زاوية صندوق؛ وعلَّقَ المعطف والبذلة ونشر قميصه على مشجب آخر - كانت خدعة من اختراعه. «سوف ترتدي قميصاً قذراً قليلاً لأنكَ ترفض أنْ ترتدي قميصاً غير مرتّب». كانت نيكول قد ولجت الغرفة وكانت تُسقِط إحدى منافض آبيه الغريبة في سلة المهملات عندما اقتحمت روزميري الغرفة.

«*ديك! ديك!* تعال وانظر!».

مشى ديك بخطى وئيدة عبر الرواق إلى غرفتها. ركع إلى مستوى قلب بيترسن، وتفحّصَ نبضه - كان الجسد دافئاً، والوجه، المُنهك ولا يمتّ إلى الحياة إلا جزئياً، كان ضخماً وقاسياً في حالة الموت؛ كان يحمل صندوق الأدوات تحت أحد ذراعيه، لكنَّ الحذاء المتدلّي من جانب السرير كان غير مُلمَّع وأسفله متهرِّئ. وحسب القانون الفرنسي لم يكن يحق لديك أنْ يلمس الجثّة، لكنّه حرَّكَ الذراع قليلاً ليرى شيئاً - كانت هناك بقعة على الغطاء العلوي الأخضر، وهذا يعني أنَّ هناك دماً باهت اللون على الغطاء الذي تحته.

أغلق ديك الباب ووقف يفكِّر؛ سمعَ وقع خطى حذرة في الرواق ومن ثم صوت نيكول يُناديه. فتح الباب وهمس: «أحضري الغطاء والملاءات العليا عن سريرينا - لا تدعي أحداً يراك» ثم، عندما شاهد

النظرة المتوترة على وجهها، أضاف بسرعة «اسمعي، لا تقلقي بهذا الشأن – إنه مجرد شجار بسيط مع زنجي».

«أريد للأمر أنْ ينتهي».

حين رفع ديك الجثة وجدها خفيفة وفقيرة التغذية. فعل ذلك لكي يندفع المزيد من نزيف الجرح إلى ملابس الرجل. مدّدها بجوار السرير ونزع غطاء السرير والملاءة العليا ثم فتح الباب قليلاً، أصغى – سمع قعقعة أطباق في الرواق السفلي تبعها صوت متفضِّل مرتفع «مرسي مدام»، لكنَّ النادل ذهب في الاتّجاه المقابل، نحو درج الخدم. وبسرعة تبادل ديم ونيكول الصُرر عبر الرواق؛ وبعد أنْ مدَّ هذا الغطاء على سرير روزميري، وقف ديك يتفصّد عرقاً في الغسق الدافئ، يفكر. خلال اللحظة التي تلت تفحّصه الجثّة اتّضحت له بعض النقاط؛ أولاً، أنَّ أول هندي عِدائي لآبيه تعقّب آثار الهندي الودود واكتشف وجوده في الرواق، وعندما لجأ هذا الأخير يائساً إلى غرفة روزميري، تصيَّده وذبحه؛ وثانياً، أنّه إذا سُمِحَ للظرف أنْ يتطوَّر بصورة طبيعية، لا تستطيع أي قوة على الأرض أنْ تزيل التهمة عن روزميري – لم يكن الكلام قد انتهى بعد حول قضية آربكلي. كان عقدها مشروطاً بالتزامها باستمرارها بصرامة وبصورة استثنائية في أداء أدوار شبيهة بدورها في فيلم «*أثيرة أبيها*».

قام ديك آلياً بالحركة القديمة برفع كُمّيه إلى أعلى، على الرغم من أنه كان يرتدي قميصاً تحتياً بلا أكمام، ومال على الجثّة. شبكَ كتفيّ المعطف بمُخل ثم دفع الباب بعقب حذائه وجرّ الجثة بسرعة إلى الوضعية المقبولة في الرواق. ثم عاد إلى غرفة روزميري ومسّدَ وبر السجادة الحمراء. وبعد ذلك توجه إلى جهاز الهاتف الذي في جناحه واتصل بمدير الفندق وصاحبه.

«ماكبث؟ – معك الدكتور دايفر – هناك أمر في غاية الأهمية. هل هذا الخط آمن؟».

كان شيئاً جيداً أنه بذل جهداً إضافياً ليتحصّن بقوة مع السيد ماكبث.

وهذه إحدى فوائد كل ذلك السرور الذي كان ديك قد أنفقه على منطقة شاسعة لا يمكن أنْ يعرف مداها.

«أثناء خروجنا من الجناح ارتطمنا بزنجي ميت... في الرواق... كلا، كلا، إنه مدني. انتظر دقيقة الآن - كنتُ أعلم انكَ لا ترغب في أنْ يتعثَّر بالجثة ولهذا أتصل بك. طبعاً يجب أنْ أطلب منكَ أنْ تُبقي اسمي بعيداً عن الأمر. لا أرغب في حضور الشرطة الفرنسية لمجرد أني اكتشفتُ وجود الرجل».

يا لها من مُراعاة ممتازة لظروف الفندق! لمجرد أنَّ السيد ماكبث شاهد، بأمّ عينيه، تلك المزايا في الدكتور دايفر قبل ليلتين، استطاع أنْ يُصدّق القصة من دون استفسار.

خلال دقيقة وصل السيد ماكبث وخلال دقيقة أخرى انضمّ إليه رجل شرطة. وخلال ذلك وجد وقتاً ليهمس لديك «يمكنكَ أنْ تطمئن إلى أنَّ أيَّ اسمٍ من أسماء الضيوف سوف يُحمى. إنني مُمتن لك لِما تكبدتَ من متاعب».

اتّخذَ السيد ماكبث خطوة فورية يمكن فقط تصوّرها، لكنَّها أثّرت في الشرطي بحيث جعله يشدّ شاربه في حركة من الاضطراب المسعور والجشع. ودوَّنَ بعض الملاحظات الروتينية واتصل بمركز عمله. في تلك الأثناء حُمِلَت البقايا، بخفّةٍ كان يمكن لجولز بيترسن، كرجل أعمال، أنْ يفهمها فهماً تاماً، ونُقِلَتْ إلى شقّة أخرى في أحد أرقى الفنادق في العالم.

وعاد ديك إلى صالونه.

صرخت روزميري «ماذا حدث؟ هل يُطلق الأميركيون كلهم النار بعضهم على بعض في باريس طوال الوقت؟».

أجاب «يبدو أنَّ هذا هو عزّ الموسم. أين نيكول؟».

«أعتقد أنها في الحمّام».

عشِقتْه لأنه أنقذها – لقد عبَرت الكوارث التي كان يمكن أنْ تنتج عن الحادث كما النبوءة في ذهنها؛ وأصغتْ بولهٍ جامح إلى صوته المُهذَّب، الواثق، القوي وهو يُطمئنها. ولكن قبل أنْ تصل إليه باندفاع الروح والجسد تركّزَ انتباهه على شيء آخر؛ ولج غرفة النوم ومنها انتقل إلى الحمّام. والآن أيضاً، استطاعت روزميري أنْ تسمع، أعلى فأعلى، الألفاظ اللاإنسانية التي نفذت من ثقب المفتاح ومن شقوق الباب، وانسابت إلى الجناح لتتّخذَ شكل الرعب من جديد.

لحِقَتْ روزميري بديك، معتقدةً أنَّ نيكول وقعت في الحمّام وتأذّتْ. لم يكن ذلك هو الحال عندما حدّقَتْ قبل أنْ يُبعِدها ديك بكتفيه ويحجب عنها الرؤية بفظاظة.

كانت نيكول راكعة بجانب المغطس وتتدلّى بشكل مائل. صرخت «أنتِ! أنتِ التي جئتِ لكي تتعدّي على الخصوصية الوحيدة التي حظيتُ بها من العالم – بغطائك المُلطَّخ بالدماء. سأرتديه من أجلك – لستُ خجلةً، على الرغم من أنّه أمر مؤسف. في أول نيسان أقمنا حفلة على ضفاف بحيرة زيوريخ، وكان الحمقى[1] كلهم هناك، وأردتُ أنْ أحضر مرتديةً ملاءة سرير لكنهم لم يسمحوا لي –».

«اضبطي نفسك!».

«– لذلك جلستُ في الحمّام وأحضروا إليّ دومينو[2] وقالوا ارتدي هذا. ففعلت. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل؟».

«اضبطي نفسك، نيكول!».

«لم أتوقع منكِ أنْ تُحبيني – كان الأوان قد فات – ولكن لا تدخلي الحمّام، إنه المكان الوحيد الذي أحتفظ فيه بخصوصيتي، وتجرّي أغطية مُلطّخة بالدم الأحمر وتطلبي مني أنْ أتدبّر أمرها».

1- مناسبة أول نيسان (أبريل)، أو كذبة نيسان (أبريل) تعني بالإنكليزية حرفياً يوم الحمقى كلهم. – المترجم
2- دومينو: برنس أو رداء للكتفَين يُرتدى مع قِناع في الكرنفالات. – المُترجِم

«اضبطي نفسك، انهضي –».

عادتْ روزميري إلى الصالون، ومن هناك سمعت باب الحمّام يُصفَع، ووقفت ترتجف: الآن باتتْ تعلم ما الذي شاهدته فيوليت ماكيسْكو في الحمّام في فيلا ديانا. رفعت سمّاعة الهاتف الذي كان يرنّ وكادت تصرخ من فرط الارتياح عندما وجدت أنه كوليس كلاي، الذي كان قد تبعها حتى شقّة آل دايفر. طلبتْ منه أنْ يصعد ريثما تُحضِر قبعتها، لأنها كانت تخاف أنْ تلج غرفتها وحدها.

الفصل الرابع عشر

جلس الدكتور ريتشارد دايفر والسيدة إلسي سبيرز في مقهى ديه زالي في شهر آب، تحت الأشجار المُغبرّة والباردة. كان بريق الميكا قد خفَّفت الأرضُ الحارَّةُ من لمعانه، وتسلَّلت بضعُ هبّات من الرياح الشمالية العاتية إلى الشاطئ عبر سهل الاستريل وهزّت قوارب الصيد في المرفأ، موجِّهةً الصواري هنا وهناك نحو السماء الخاملة.

قالت السيدة سبيرز «في صباح هذا اليوم تلقّيتُ رسالة. لابد أنكم أمضيتم وقتاً رهيباً مع أولئك الزنوج! لكنَّ روزميري قالت إنكَ عاملتها معاملة رائعة جداً».

«كان ينبغي أنْ تضع روزميري شريط الخدمة. كان شيئاً مُعذّباً – الشخص الوحيد الذي لم ينزعج كان آبيه نورث. لقد طار إلى الهافر – ربما لم يعلم بالأمر بعد».

قالت بعناية «أنا آسفة لانزعاج السيدة ديفر».

كانت روزميري قد كتبت لها من باريس قائلة:

«كادتْ نيكول تفقد عقلها. لم أرغب في المجيء إلى الجنوب برفقتهما لأنني شعرت بأنَّ لدى ديك ما يكفي من الهموم».

قال بصبر نافد تقريباً «إنها على ما يُرام الآن. إذن ستغادرين في الغد. متى ستُبحرين؟».

«فوراً».

«يا إلهي، إنَّ رحيلك أمر فظيع».

«نحن سعداء لأننا جئنا إلى هنا. لقد أمضينا وقتاً ممتعاً، والفضل لكَ. أنتَ أول رجل تُبدي روزميري اهتماماً به».

هبّة أخرى من الريح عصفت بتلال لا نابول الرخامية. كان في الجو رائحة تُنبئ بأنَّ الأرض تهرع نحو نوع آخر من أحوال الطقس؛ لقد انتهت لحظة منتصف فصل الصيف الخصبة التي تقع خارج الزمن.

«إنَّ لدى روزميري مُعجبين، ولكنها عاجلاً أم آجلاً دائماً تُحوِّل الرجل إليّ» - ضحكت السيدة سبيرز - «لتشريحه».

«إذن فقد نجوتُ».

«لم يكن في وسعي أنْ أفعلَ أي شيء. لقد وقعتْ في حبكَ قبل حتى أنْ أقابلك. وقد طلبتُ منها أنْ تمضي في ذلك».

وجد أنه ليس له أو لنيكول أيّ وجود في مخططات السيدة سبيرز - ورأى أنَّ انعدام أخلاقها نبعَ من ظروف انسحابها الخاصّ. كان من حقَها المعاش الذي تقاعدت مشاعرها على أساسه. لقد كانت النساء بالضرورة قادرات على فعل أي شيء تقريباً في كفاحهن للبقاء ولا يمكن إقناعهن بجرائم يقترفها الرجل كالـ«القسوة». وما دامت فوضى الحب والألم مستمرة ضمن حدود اللياقة كان في استطاعة السيدة سبيرز أنْ تنظر إليها بتجرُّد وفكاهةٍ جديرَين بخصيّ. بل إنها لم تسمح بإمكانية أنْ تتعرّض روزميري للأذى - أم هل كانت متأكدة من أنه لا يمكن أنْ تتأذّى؟

«إذا كان ما تقولين صحيحاً فلا أعتقد أنه سبّبَ لها أي أذى». كان لا يزال مُحافظاً حتى النهاية على تظاهره بأنّه مازال في استطاعته أنْ يفكر إيجابياً في روزميري. «لقد تجاوزت الأمر الآن. ومع ذلك - فإنَّ الكثير من المحطات الهامة في الحياة تبدأ بكونها مُصادفة».

أصرّت السيدة سبيرز قائلة «هذه لم تكن مُصادفة. أنتَ كنتَ الرجل الأول - أنت مَثلها الأعلى. إنها تُكرر هذا القول في كل رسالة لها».

«إنها شديدة التهذيب».

«أنت وروزميري أشدّ مَنْ عرفتُ تهذيباً، لكنَّها تعني ما تقول».

«إنَّ تهذيبي خدعة صادرة من القلب».

كان ذلك صحيحاً جزئياً. لقد تعلَّمَ ديك من والده السلوكَ الحسن الواعي نوعاً ما الذي يتصف به الشاب الجنوبي العائد إلى الشمال بعد انتهاء الحرب الأهلية. غالباً ما استغلَّ سلوكه هذا وفي الوقت نفسه مَقَتَهُ لأنه لا يمثّل احتجاجاً على مدى بشاعة الأنانية، بل على مدى بشاعة مظهرها.

فجأة قال لها «أنا أحبُّ روزميري. إنَّ التصريح بهذا إليك هو أنانيّة مني».

بدا له قولاً شديد الغرابة ورسمياً، وكأنَّ الطاولات نفسها والكراسي التي في مقهى ديه زاليه سوف تتذكّره إلى الأبد. وكان قد بدأ يشعر بغيابها عن هذه السماوات: على الشاطئ لم يتذكّر إلا بشرة كتفيها التي مزّقتها حرارة الشمس؛ وفي تارميه سحق آثار قدميها وهو يعبر الحديقة؛ والآن الفرقة الموسيقية تعزف لحن «أغنية مهرجان نيس»، كصدى أجواء العام السابق المرحة المتلاشية، وبدأت الرقصة الصغيرة واستمرَّتْ من حولها. وخلال مئة ساعة تمكّنت من امتلاك سِحر العالم الأسود كله؛ عشب ست الحسن الذي يسبّب العمى، والكافيين الذي يُحول الطاقة الجسدية إلى أخرى عصبية، ونبتة اللفّاح التي تفرض الانسجام.

مرة أخرى قبِلَ بصعوبة قصة مشاركة السيدة سبيرز العزلة.

قال «أنتِ وروزميري لا تشتركان في أي صِفة. الحِكمة التي حصلتْ عليها منكِ تتخّذ شكل شخصيتها، شكل قِناع تواجه به العالم. إنها لا تفكِّر؛ أعماقها الحقيقية أيرلندية ورومانسية وغير منطقية».

كانت السيدة سبيرز تعلم أيضاً أنَّ روزميري، على الرغم من مظهرها الخارجي الرقيق، هي مُهرة، حسب تصوُّر القبطان الدكتور هويت، الذي يمثّل الولايات المتحدة الأميركية، وكان يمكن لروزميري أنْ تكشِف عن أنها تحملُ قلباً كبيراً، وكبداً، وروحاً، تحتَ طبقة من الظرف.

ودّع ديك السيدة سبيرز وهو يعي سِحرها الغامر، ويعي أنها تعني له أكثر من مجرد آخر قطعة تضيع رُغماً عنه من روزميري. كان يمكن أنْ يكون قد اخترعَ روزميري؛ ولا يمكن أنْ يكون قد اخترع أمها. وإذا كانت العباءة، والمهمازان، والماس المتلألئ الذي كانت روزميري تضعه عندما رحلتْ، هي هبة منه، فمن الجميل في المقابل مراقبة جمال أمّها، لعِلمه أنه شيء لا فضل له فيه. كانت تبدو وكأنها تنتظر أحداً، رجلاً تخوضُ معه في أمرٍ أهمّ منها، معركةٍ أو عملية، ينبغي في أثناء ذلك ألا يُدفَع إلى الاستعجال أو التدخُّل في عمله. وبعد أنْ ينتهي الرجل ستكون هي في انتظاره، بلا غضب أو صبرٍ نافد في مكان ما على كرسي عالٍ، تقلِّبُ صفحات صحيفة.

«وداعاً - وأريد منكما أنتما الاثنتين أنْ تتذكّرا دائماً كم ازدادَ ولعُ نيكول وولعي بكما».

***

في فيلا ديانا، توجه إلى ورشة عمله وفتح مصراعيّ النافذة، الموصدَين في وجه بهاء منتصف النهار. على طاولتيه الطويلتين، وبفوضى منظَّمة، وضعَ مواد كتابه. المجلد الأول، مُخصّص للتصنيف، حقَّقَ بعضَ النجاح بطبعةٍ صغيرة متواضعة. وكان يُجري مفاوضات من أجل إصدار طبعة أخرى. المجلد الثاني سيكون الشكل المُضخَّم لكتابه الأول «عِلم نفس من أجل الأطباء النفسيين». وكالعديد من الرجال وجد أنَّ لديه فكرة أو فكرتين فقط - أنَّ مجموعته الصغيرة من الكتيبات التي صدرتْ حتى الآن طبعتُها الألمانية الخمسون تحتوي خلاصة فكره كله أو معرفته.

لكنه في الوقت الحالي قلقٌ حيال الأمر كله. إنه مستاء من السنوات الضائعة التي أمضاها في نيو هيفن، لكنه في الغالب شعر بالتناقض بين الرفاهية المتنامية التي يعيش فيها آل دايفر والحاجة إلى الظهور التي من الواضح أنها تتماشى معها. وعندما تذكّرَ قصة صديقه الروماني، التي تدور حول رجلٍ، عمل على مدى سنين طويلة على دماغ حيوان

المدرع، تخيّل الألمان الصبورين جالسين بالقرب من مكتبات برلين وفيينا متوقعين حضوره بجلَد. كان قد قرَّر تقريباً أنْ يختصر العمل في الطبعة الحالية وينشرها في مجلّد غير موثّق من مئة ألف كلمة كمقدّمة لمجلدات أخرى أكثر تعمّقاً ستُنشَر بعده.

وقد شدَّدَ على هذا القرار وهو يمشي تحت أشعة شمس أول المساء في أرجاء ورشته. ووِفقاً لخطّته الجديدة سوف ينتهي مع حلول فصل الربيع. وبدا له أنه عندما تُلاحق رجلاً بمثل طاقته على مدى عام شكوكٌ متزايدة، فإنَّ ذلك يُشير إلى خلل ما في الخطة.

وضع قضبانَ المعدن المُذهَّب التي كان يستخدمها كمِثقلة أوراق على طول حِزم الملاحظات. قام بالكنس، لأنه لم يكن يُسمح لأي خادم بالدخول إلى هنا، وعالج المغسلة كيفما اتّفق بسائل التنظيف، وأصلح الشاشة، وبعث بطلب إلى دار نشر في زيوريخ. ثم شربَ مقدار أونس من الجِن مع مقدارين من الماء.

رأى نيكول في الحديقة. وشعرَ على الفور بأنَّ عليه أن يُقابلها ومنحه توقُّع حصول ذلك إحساساً ثقيلاً. يجب أنْ يُحافظ أمامها على المظهر المثالي، الآن وغداً، في الأسبوع التالي وفي العام التالي. كان قد ضمّها بين ذراعيه طوال الليل في باريس أثناء نومها الخفيف تحت وهج الضوء الأزرق؛ في الصباح الباكر اقتحمَ عليها فوضاها قبل أنْ تتخذ شكلاً، بكلمات رقيقة وحامية، ونامت من جديد ووجهها متكئ على عِطر شَعرها الدافئ. وقبل أنْ تستيقظ قام بترتيب كل شيء عبر الهاتف في الغرفة المجاورة. وتقرّر أنْ تنتقل روزميري إلى فندق آخر. كانت ستقوم بدور «أثيرة والدها» وستتخلّى عن وداعهما. كان صاحب الفندق، السيد ماكبث، سيُصبح القردة الصينية الثلاثية[1]. حزمَ ديك ونيكول أمتعتهما وسط أكوام العلب والمناديل الورقية التي كانت تلفّ الكثير من المشتريات، وغادرا عند الظهيرة إلى الريفييرا.

1- أي لا يرى، لا يسمع ولا يتكلّم.

ثم كانت هناك ردَّة فعل. فبينما هما يستقران في الـ *wagon-lit* (عربة النوم) أدركَ ديك أنَّ نيكول كانت في انتظار ردّة الفعل تلك، وقد وَقَعَتْ بسرعة وبصورة يائسة، قبل أنْ يُغادر القطارُ الحزامَ - كان دافعه الغريزيّ الوحيد هو أنْ يترجَّل من القطار في أثناء تحرُّكه ببطء، ويهرع عائداً بحثاً عن مكان روزميري، وماذا تفعل. فتح كتاباً وأمال نظارة الأنف نحوه، مُدركاً أنَّ نيكول تراقبه من وسادتها عبر المقصورة. وعندما عجز عن القراءة، تظاهر بأنه مُتعب وأغمضَ عينيه، لكنها كانت لا تزال تراقبه، وعلى الرغم من أنها كانت شبه نائمة من تأثير الدواء، شعرت بارتياح بل وبالسعادة تقريباً لأنه أصبح ملكها من جديد.

كان الوضعُ أسوأ وهو مُغمض العينين، لأنه أضفى إيقاعاً على الإحساس بالعثور والفقدان، العثور والفقدان؛ ولكن لكي لا يبدو عليه القلق بقيَ على هذا الحال حتى الظهيرة. وعند موعد الغداء تحسّنت الأمور - كانَ دائماً يتألَّف من وجبة رائعة؛ تُعادل ألف وجبة غداء من وجبات النُّزُل والمطاعم، *وعربات النوم*، والطائرات، الخفيفة. لقد منحتهما الخدمة السريعة المألوفة لنُدُل القطارات، وزجاجات النبيذ والمياه المعدنية الصغيرة، والطعام الممتاز لباري-ليون ميديتيرانيه، وهماً بأنَّ كل شيء مازال على حاله كما في السابق، لكنَّها كانت أول رحلة قام بها مع نيكول هروباً بدل أنْ تكون إلى جهة معيَّنة. شرب محتوى زجاجة كاملة من النبيذ ما عدا مقدار كأس تركه لنيكول؛ وتحدثا عن المنزل والأطفال. ولكن حالما وصلا إلى المقصورة ران عليهما صمتٌ يُشبه صمت المطعم الكائن على الجهة المقابلة للوكسمبور. ومع تراجع الارتياح، بدا ضرورياً اقتفاء آثار الخطوات نفسها التي أوصلتنا إلى هناك. وانتاب ديك قلق غير مألوف؛ وفجأةً قالت نيكول:

«يبدو أنْ ترك روزميري هكذا كان أمراً سيئاً جداً - هل تعتقد أنها ستكون على ما يُرام؟».

«طبعاً. يمكنها أنْ تتأقلم في أي مكان -»، وخشية أنْ يبدو هذا الكلام

مُقلِّلاً من مقدرة نيكول على فعل هذا، أضاف، «على أي حال، هي ممثّلة، وعلى الرغم من وجود أمها الدائم يجب أنْ تهتم بأمر نفسها وحدها».

«إنها شديدة الجاذبية».

«إنها طفلة».

«وهي جذّابة، مع ذلك».

أخذا يتبادلان أطراف الحديث بلا هُدى، وكل منهما يتكلَّم نيابة عن الآخر.

قال ديك «إنها ليست بالذكاء الذي حسبت».

«إنها ذكية جداً».

«ولكن ليس كثيراً - يفوح منها عبقٌ مُلحّ من غرفة الحضانة».

«إنها فائقة - فائقة الجمال»، قالت نيكول هذا بأسلوب حيادي، مُشدِّد، «وأعتقد أنها جيدة جداً في السينما».

«الإخراج جيد. وعندما أُعيدُ التفكير فيه الآن، أرى أنه ليس فذّاً».

«أما أنا فأرى أنه كذلك. أستطيع أنْ أفهم لماذا هي جذّابة في عيون الرجال».

انقبضَ قلبه. أي رجال تعني؟ كم عددهم؟

- هل تُمانع إذا أسدلتُ الستارة؟

- افعلي أرجوك، الضوء مُبهر هنا.

أين هي الآن؟ ومع مَنْ منهم؟

«في غضون بضع سنوات سوف تبدو أكبر سناً منكِ».

«على العكس. لقد رسمت لها صورة أوّليّة ذات ليلة في أحد برامج المسرح. أعتقد أنَّ جمالها سيدوم».

كان كل منهما مضطرباً أثناء الليل. بعد يوم أو اثنين سوف يُحاول ديك أنْ يطرد شبح روزميري قبل أنْ يُصبح مُلازماً لهما، أما حينئذ فلم يكن يمتلك المقدرة على فعل ذلك. أحياناً الأصعب أنْ يتخلَّص المرء

من الألم من أنْ يتخلّص من المتعة، وقد استحوذت عليه الذِكرى إلى درجة أنه في الوقت الحالي لم يكن أمامه إلا الادّعاء. وهذا أصعب لأنه حالياً منزعجٍ من نيكول، التي، بعد تلك السنين كلها، تعرّفتْ على أعراض التوتّر عندها وتأخذ حذرها منها. لقد انهارت مرتين في غضون أسبوعَين: في ليلة تناول العشاء في تارمس، عندما عثر عليها في حمّامها في حالة من الضحك الهستيري وهي تُخبر السيدة مكيشْكو بأنها لا تستطيع أنْ تدخل الحمّام لأنَّ المفتاح وقع في أعماق البئر. وكانت السيدة مكيسْكو مندهشة وتشعر بالامتعاض، ومرتبكة ولكن بقدرٍ من التفهُّم. حينئذٍ لم يشعر ديك برعب شديد، لأنَّ نيكول بعد ذلك أبدتْ أسفها. واتّصلت بفندق غوس لكنَّ السيدة مكيسكو كانت قد غادرت.

الانهيار الذي حدث في باريس كان مختلفاً، وأضاف مغزى إلى الأول. ربما كان تنبّؤاً بجولة جديدة، بمرحلة من المرض. ولما كانت قد مرَّت بمعاناة غير مسبوقة خلال فترة انتكاسه الطويلة التي تلتْ مولد توبسي، طفلهما الثاني، كان قوياً في التعامل مع حالتها، فاصلاً بين نيكول المريضة ونيكول الصحيحة. وهذا جعل من الصعب الآن التمييز بين انعزاله المهني لحماية ذاته وبرودة جديدة من نوعها في قلبه. وبينما اللامبالاة المقصودة، أو المتروكة لتضمر، تتحول إلى فراغ، كان حتى تلك اللحظة قد تعلَّمَ أنْ يبقى من دون نيكول، يخدمها رُغماً عنه بالمحايلة وبالإهمال العاطفي. إنَّ المرء يكتب عن ندوبٍ ملتئمة، وهذا مُعادل ضعيف لمرضٍ جلدي، ولكن لا وجود لمثل هذا في حياة الفرد. هناك جراح تنكأ، تنكمش أحياناً إلى حجم رأس الدبوس، لكنها تبقى جراحاً. وندوب المعاناة أقرب شبَهاً بفقدان إصبع، أو بصر إحدى العينين. وقد لا نفتقدهما، ولا للحظة في العام، ولكن إذا فعلنا فلا يمكن فعل أي شيء بهذا الشأن.

الفصل الخامس عشر

عَثر على نيكول في الحديقة عاقدة ذراعيها عالياً على كتفيها. نظرتْ إليه بعينين رماديتين ثابتتين، بتساؤل طفلة تستفهم.

قال «ذهبتُ إلى كان؛ قابلتُ مُصادفة السيدة سبيرز. إنها مُغادرة غداً. أرادتْ أنْ تأتي معي لتودّعك - لكنّي أحبطتُ الفِكرة».

«يا للأسف. كنتُ أودّ أنْ أراها. إنها تعجبني».

«مَن في اعتقادِك رأيتُ أيضاً - بارتولوميو تيلر».

«لا أُصدِّق».

«لا يمكن أنْ أُخطئ في ذلك الوجه، ذلك الماكر الخبير العجوز. كان ينظر في المكان بحثاً عن معرض وحوش تشيرو - سينزلون جميعاً في العام القادم. أعتقد أنَّ السيدة أبرامز كانت بمنزلة قاعدة أمامية».

«وبيبي غضبتْ في الصيف الأول لمجيئنا إلى هنا».

«إنهم في الحقيقة لا يأبهون لمكان وجودهم، لذلك لا أفهم لماذا لا يمكثون في دوفيل ويتجمدون هناك».

«ألا نستطيع أنْ نروِّج لإشاعة تقول بتفشّي مرض الكوليرا أو ما شابه؟».

«لقد أخبرت بارتولوميو أنَّ بعض الفئات ماتت كالذباب هنا - أخبرته أنَّ حياة إنسان تافه قصيرة كحياة كمُطلِق مدفع رشّاش في الحرب».

«لم تفعل».

اعترفَ «كلا، لم أفعل. لقد كان شخصاً ممتعاً جداً. كان مشهداً جميلاً، هو وأنا نتصافح هناك في الجادة. أشبه بلقاء سيغموند فرويد ووارد ماكاليستر[1]».

لم يرغب ديك في الكلام - أراد أنْ ينفرد بنفسه لكي يتغلَّب تفكيره في العمل والمستقبل على تفكيره في الحب والحاضر. كانت نيكول على عِلم بالأمر ولكن بصورة غامضة ومأساوية، وكرهته قليلاً بطريقة حيوانية، ومع ذلك أرادتْ أنْ تتحرّش به.

قال ديك بخفّة «عزيزتي».

ولج المنزل، وقد نسي أمراً أراد أنْ يقوم به هناك، ومن ثم تذكّر أنه كان البيانو. جلس وهو يُصفِّر وعزفَ سماعياً:

«أتخيّلكِ جالسة على رُكبتي،

مع لحن شاي لشخصين وشخصين للشاي

وأنا لكِ وأنتِ لي - »

مع انسياب اللحن انساب إدراكٌ مفاجئ بأنَّ نيكول، عندما تسمعه، ستخمِّن بسرعة حنينه إلى الأسبوعين السابقين. ثم انطلقَ بعد عزف لحن سريع وغادر آلة البيانو.

كان من الصعب معرفة إلى أين يذهب. ألقى نظرة في أرجاء المنزل الذي بنَته نيكول، والذي دفع ثمنه جدّ نيكول. لم يكن يمتلك إلا ورشة عمله والأرض التي تقوم عليها. ومن مبلغ ثلاثة آلاف في العام وما يرِده من منشوراته دفع ثمن ملابسه ونفقاته الشخصية، ومؤونة القبو، وتعليم لانيير، الذي كان حتى ذلك الحين لا يتعدّى راتب مربية. لم تكن تُتّخذ أي خطوة من دون أنْ يكون لديك دور فيها. كان يعيش حياة متقشّفة،

1- وارد مكاليستر (1827 - 1895): متسلِّق إلى الطبقة الراقية وعضو في نادي «الأربعمئة» الأرستقراطي بأموال زوجته وصِلاته الكثيرة. - المترجم

ويُسافر بالدرجة الثالثة عندما يكون وحده، ويشرب أرخص أنواع النبيذ، ويعتني جيداً بملابسه، ويُعاقب نفسه على أي إسراف، وحافظ على استقلالٍ ماديّ مشروط. ولكن بعد نقطة معيَّنة، بات صعباً - وضرورياً باطراد أنْ يُقررا معاً الاستخدامات التي ينبغي أنْ تُصرف أموال نيكول عليها. ومن الطبيعي أنْ نيكول، رغبةً منها في امتلاكه، وفي أنْ يبقى حيث هو إلى الأبد، شجّعتْ كلَّ تهاونٍ من جانبه، وغمرته، بطرقٍ متعددة، بسيلٍ من السلع والنقود. وكانت بداية فكرة فيلا الجرف، التي كانا قد أتقناً صنعها وكأنها من الخيال ذات يوم، مِثالاً نموذجياً على القِوى التي تفصلهما عن أبسط الترتيبات في زيوريخ.

كانا يقولان «أما كان جميلاً لو -؟»؛ ثم بعد ذلك «ألن يكون جميلاً لو -؟».

لم يكن الأمر ممتعاً جداً. فقد اضطربَ عمله بسبب مشاكل نيكول؛ بالإضافة إلى أنَّ دخلها تزايد بسرعة كبيرة مؤخراً إلى درجة أنَّ ذلك قلَّل من شأن عمله. أيضاً، وبهدف شفائها، كان منذ سنوات يتظاهر بالتزامه الشديد بالمنزل الذي كان يبتعد عنه، وأصبح التظاهُر أكثر حِدّة من خلال ذلك الجمود الخالي من المجهود، الذي خضع حتماً من خلاله للمراقبة اللصيقة. وعندما لم يعُد في استطاعة ديك أنْ يعزف على البيانو ما يريد عزفه، كان ذلك إشارة إلى أنَّ حياته كانت تُختَزَل إلى لا شيء. أقام في المنزل في الغرفة الكبيرة فترة طويلة، مُصغياً إلى طنين الجرس الكهربائي، وإلى مرور الوقت.

الجزء الرابع

الهروب

1925 – 1929

الفصل الأول

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أصبحت الأمواج سوداء اللون تندفع من فوق الجدار البحري إلى طريق الشاطئ، واختفت مظاهر حياة الصيف التي كانت قد صمدت، وأضحت الشواطئ كئيبة ومُقفرة تحت عواصف الريح الشمالية والمطر. وأقفل فندق غوس أبوابه لإجراء أعمال الإصلاح والتوسيع، وأخذت سقالات الكازينو الصيفي في جوان ليه بان تصبح أكبر وأعظم. وعندما كان يذهب ديك ونيكول إلى كان، كانا يقابلان أناساً جدداً - أعضاء في الفرق الموسيقية، وروّاد مطاعم، ومتحمسين للبساتين، وبُناة سفن - لأنَّ ديك كان قد اشترى زورقاً صغيراً - وأعضاء «نقابة روح المبادرة». كانا يعرفان خدمهما حقّ المعرفة واعتنيا بتثقيف ولديهما. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) بدت نيكول من جديد متماسكة؛ عندما مرّ شهر من دون توتر، من دون الفم المشدود، والابتسام بلا سبب، والتعليق المُبهم، ذهبا إلى جبال الألب السويسرية لقضاء عطلة عيد الميلاد.

***

نفضَ ديك بقلنسوته الثلج عن بذلة التزلج ذات اللون الأزرق القاتم قبل أنْ يلج إلى الداخل. كان الصالون الشاسع، بأرضيته المُثلّمة بآثار عقدَين من مسامير النِعال، قد أُخليَ من أجل رقصة الشاي، وكان الشبان الأميركيون في ثمانينيات أعمارهم، المقيمون في المدارس القريبة من غستاد، يرقصون على الإيقاع المرح للحن «لا تُحضِر لولو»، أو يندفعون

بعنف مع أول نقرات رقصة التشارلستون. كانت مُستعمَرة من الشبان، والبسطاء، والأثرياء - كان الأثرياء كلهم متواجدين في سان مويتز. شعرت بيبي وارن أنَّ انضمامها إلى آل دايفر هنا كان دلالة على نكران الذات.

انتقى ديك الأختين بسهولة عبر المكان الممسوس برهافة، والمتمايل برفق - كانتا أشبه بمُلصقَين، رائعتين بزيهما الأبيض، ثوب نيكول بلون أزرق سماويّ، وثوب بيبي أحمر قرميديّ. كان الشاب الإنكليزي يتحدث معهما؛ لكنهما لم تولياه أيَّ انتباه، لأنّهما مُخدَّرتان إلى درجة التحديق برقصة المراهقين.

أضاء وجه نيكـول الأبيض الدافئ أكثر من ذي قبـل عندما رأتْ ديك «أين هو؟».

«لقد فاته القطار - سأقابله لاحقاً»، وجلس ديك، وهو يُدلّي حذاء ثقيلاً على رُكبته، «أنتما الاثنتان تبدوان معاً مُذهلتين. إنني بين حين وآخر أنسى أننا في الحفل نفسه وأُصدَم بقوة لدى رؤيتكما».

كانت بيبي ممشوقة القامة، جميلة، ممسوسة بعمق بكونها تجاوزت الثلاثين من العمر. وكدلالة على هذا كانت قد جرّتْ معها رجلَين من لندن، واحداً حديث التخرُّج من كمبريدج، وواحداً كبيراً في السن مُثقلاً بانغماسه في الفسق الفيكتوري. كانت بيبي تتصف ببعض مواصفات العانس - كانت تنفر من اللمس، تجفل إذا لمسها أحد فجأةً، وكان اللمس المُطوَّل كالقبلات والعناق يتسرّب مباشرة عبر لحمها وينتقل إلى واجهة وعيها. كانت نادراً ما تؤدي إيماءات بجذعها، بجسمها الخاص - بدل ذلك، كانت تضرب بقدمها وترمي رأسها عالياً بطريقة تكاد تكون عتيقة الطراز. كانت تتلذّذ بتوقّع الموت، المُتمثّل بالكوارث التي تقع لأصدقائها؛ وتتشبّث بعناد بفكرة المصير المأساوي لنيكول.

كان صديق بيبي الإنكليزي الأصغر سناً يرافق النساء ويجاريهن في ميولهن المناسبة ويعذّبهن في مجال الرقص. استدار ديك حول نفسه

بحركة بهلوانية مُغالية في الطموح، وراح يتسكّع ممتناً حول غرفة الحضانة مع الأطفال أو يشرب الكفاس مع طبيبٍ روسيّ في الفندق.

حثّته نيكول «أظهر السعادة، من فضلك. لِمَ لا تقابل بعض الفتيات الصغيرات وترقص معهنّ بعد الظهيرة؟».

«ماذا سأقول لهنّ؟».

ارتفع صوتها المنخفض، شبه الأجش بضع درجات، مُحاكياً نبرة غنج حزينة: «أخبريني» أيتها الصغيرة، مَنْ منكنّ أفضل من يغني: ماذا تعتقد أنك قلت؟».

«لا أحب الفتيات الصغيرات. إنهن يفُحنَ برائحة الصابون القشتالي والنعناع. عندما أرقص معهن، أشعر كأنني أدفع أمامي عربة أطفال».

كان موضوعاً خطراً - وحرِصَ، إلى درجة الحياء، على أنْ يُحدِّق بعيداً فوق رؤوس الصبايا.

قالت بيبي «هناك الكثير من الحركة. أولاً، هناك أنباء من الوطن - المنطقة التي كنا نسميها منطقة المحطة. في أول الأمر اشترت سكك الحديد مركزها فقط. والآن اشترت الباقي، وأصبحت تخصّ المحطّة الأم. المسألة تتعلَّق بتوظيف الأموال».

تظاهر الإنكليزي بأنه ينفر من ذلك التحوُّل الكبير في مجرى الحديث، فتوجه نحو الفتاة التي في حلبة الرقص، وتابعته بيبي برهة بعينيّ فتاة أميركية مرتابة واقعة طوال حياتها في حب الإنكليز، واستأنفت متحدية:

«إنه مال كثير. القطعة بمئة ألف. أنا منتبهة إلى توظيفي الخاص، لكنَّ نيكول لا تعرف أي شيء عن السندات المالية، ولا أظن أنك أنت تعرف».

قال ديك بغموض «يجب أنْ ألحق القطار».

في الخارج استنشق رقائق الثلج الرطبة التي لم يكن يستطيع أنْ يراها على صفحة السماء التي تزداد ظلمة. انساب ثلاثة أطفال مارّين به وهم يصرخون مُحذّرين بلغة غريبة؛ سمع صراخهم عند المنعطف

التالي، وأبعد قليلاً سمع رنين أجراس الزلاجة يرتقي التل في الظلام. تلألأت محطة العطلة بالترقّب، وانتظر الفتية والفتيات مجيء فتيان وفتيات جُدد، وعندما وصل القطار كان ديك قد حفظَ الإيقاع وتظاهر أمام فرانز غريغورفيوس بأنه كان يقتطع مقدار نصف ساعة من سلسلة لا نهائية من المتع. ولكن في تلك اللحظة كان لدى فرانز هدف حثيث شقَّ طريقه إلى أي مزاج مُعقّد عند ديك. كان ديك قد كتب «قد أذهب إلى زيوريخ لتمضية يوم، أو قد تنجح في المجيء إلى لوزان». واستطاع فرانز أنْ يقطع المسافة حتى غستاد.

كان فرانز في الأربعين من العمر. وعلى أساس نضجه الصحيّ كانت تستندُ مجموعة من السلوكيات الرسمية المُحبّبة، ولكن كان أشدّ أُلفة في جوٍ آمن محصورٍ نوعاً ما يستطيعُ منه أنْ يحتقر الأثرياء المكسورين الذين أعاد تثقيفهم. وربما إرثه العِلمي ورَّثه عالمه الأرحب، ولكن يبدو أنه اختار عن عمد وجهة نظر طبقةٍ أشدّ تواضعاً، خَياراً تمثَّل بانتقائه زوجته. وفي الفندق قامت بيبي وارن بتفحُّصه على عجل، وعندما فشلتْ في العثور على أي من الصِفات المُميِّزة التي تحترم، الفضائل والمزايا الأشدّ رهافة التي تتعرَّف عبرها الطبقات المُميَّزة بعضها على بعض، عامَلتْه بعد ذلك بأسلوب مُغاير. ولطالما كانت نيكول تخافه. ديك أحبه، كما يحب أصدقاءه، من دون تحفُّظ.

في المساء انزلقوا إلى أسفل التل نحو القرية، على تلك الزلاجات الصغيرة التي تؤدي عمل زورق الغندول نفسه في مدينة البندقية. كانت وِجهتهم فندقاً مزوَّداً ببارٍ سويسري من الطراز القديم، مبنيّاً من الخشب وممتازاً، كان مكاناً يحتوي ساعات، وبراميل صغيرة، وأباريق من الخزف، وقرون وعول. وكان أناس كثيرون قد اجتمعوا معاً على مائدة طويلة واحدة ويأكلون الفوندو[1] - وهو شكل غير قابل للهضم لطبق ويلزي مشابه، مُخفَّف بنبيذ مُتبَّل ساخن.

1- الفوندو: مزيج من الجبن المُذوَّب والزبد والبيض ومواد أخرى.

كان الجو مرحاً في الصالة الكبيرة؛ هكذا علّقَ الإنكليزيّ الأصغر سناً ووافق ديك على أنه الوصف الأمثل. وبفعل النبيذ المُنعش المُسكِر استرخى وتظاهر بأنَّ العالمَ عادَ من جديد وحدة واحدة على أيدي رجال حقبة التسعينيات بشعرهم الذهبيّ الأشيب، الذين صدحوا بأغانٍ قديمة على آلة البيانو، والأصوات الشابة والأزياء البراقة المتناغمة مع الدخان المتصاعد. وشعر لبرهة من الزمن أنهم على متن سفينة تقترب من اليابسة التي تلوح أمامهم؛ وارتسم على وجوه الفتيات كلها التوقّع البريء نفسه للاحتمالات المُتأصّلة في الوضع وفي الليل. نظر ليرى إنْ كانت تلك الفتاة المُميَّزة حاضرة، وتولّد لديه الانطباع بأنها جالسة على الطاولة خلفهم - ثم نسي أمرها وابتكر شيئاً وحاولَ أنْ يجعل فرقته تقضي وقتاً ممتعاً.

قال فرانز بالإنكليزية «يجب أنْ أتحدث معك. لم يتبقَّ لي إلا يومان أقضيهما هنا».

«لقد خمّنتُ أنَّ ثمة أمراً يدور في ذهنك».

«لديّ خطة - رائعة». سقطتْ يده على رُكبة ديك. «لديّ خطة لمصلحتنا نحن الاثنين».

«حسن؟».

«ديك - هناك عيادة يمكننا أنْ نحصل عليها معاً - عيادة قديمة في برون تقع على بحيرة زيوريخ. البناء كله حديث ما عدا بعض الأشياء. صاحبها مريض - يريد أنْ يرحل إلى النمسا، ويموت بصورة لائقة. إنها فرصة لا تُفوَّت. وأنت وأنا - يا لنا من ثنائي رائع! لا تقُل أيّ شيءٍ إلا بعد أنْ أنتهي».

من الومض الأصفر في عينيّ بيبي فهمَ ديك أنها تُصغي.

«يجب أنْ نتولى الأمر معاً. لن يشغلك كثيراً - سوف يكون بالنسبة إليك قاعدة، مُختبراً، مركزاً. تستطيع أنْ تُقيم فيه لا أكثر من ستة أشهر، عندما يكون الطقس جيداً. وفي الشتاء يمكنك أنْ تذهب إلى فرنسا

أو إلى أميركا وتكتب نصوصك المُستمدة مباشرة من تجربتك في العيادة»، وأخفضَ صوته، «وإذا أرادت العائلة أنْ تقضي فترة نقاهة، فإنَّ الجو العام وانتظام عمل العيادة رهن يديك». لم يُشجّع التعبير الذي ارتسمَ على وجه ديك الاستمرار في هذه الملاحظة، فتخلّى عنها فرانز وسكت بسرعة. «يمكننا أنْ نكون شركاء، أنا المُدير المُنفِّذ، وأنتَ المُنظِّر، المُستشار اللامع وما إلى ذلك. أنا أعرف نفسي - أعلمُ أني لا أتمتع بالعبقرية وأنت تتمتع بها. ولكن، بطريقتي الخاصة، معروفٌ عني مقدرتي؛ إنني كفؤ تماماً في أشد أساليب الطب حداثة. وفي فترة ما خدمتُ أشهراً كرئيس فعلي لعيادة قديمة. ويقول البروفيسور إنّ هذه الخطة ممتازة، وينصحني بالمُضيّ في تنفيذها. يقول إنه سيعيش إلى الأبد ويبقى يعمل حتى آخر دقيقة».

أخذ ديك يرسم صوراً في خياله للمشروع تمهيداً لتكوين حكم.

سأل: ماذا عن التمويل؟

رفع فرانز ذقنه، وحاجبيه، والتجاعيد العابرة لجبينه، ويديه، ومِرفقيه، وكتفيه؛ شدّ عضلات ساقيه، بحيث انتفخ قماش بنطلونه، وقفز قلبه إلى حنجرته واختنق صوته في سقف حلقه.

أخذ يندب «ها قد وصلنا! المال! في حوزتي بعض المال. الثمن بالعملة الأميركية مئتا ألف دولار. إنَّ الخطوات المُبتَـ...ـــكرة» كان يتذوَّق الصياغة بحذر، «- التي سوف تتفق معي على أنَّها خطوات ضرورية ستكلّف عشرين ألف دولار أميركي. لكنَّ العيادة هي منجم ذهب - أؤكد لك، لقد رأيتُ السجلات. مقابل استثمار مئتين وعشرين ألف دولار نحصل على دخلٍ مؤكّد قيمته - -».

كان فضول بيبي كبيراً إلى درجة أنَّ ديك أشركها في المحادثة.

سألها «حسب خبرتك، يا بيبي، هل اكتشفتِ أنه عندما يرغب شخصٌ أوروبي بقوة في أنْ يُقابل شخصاً أميركياً فإنَّ الأمر دائماً يتعلّق بالمال؟».

قالت ببراءة «ما الأمر؟».

«إنَّ هذا الـ Privat-dozent[1] يعتقد أنني وإياه يجب أنْ نباشر مشروعاً ضخماً ونحاول أنْ نجتذب المُصابين بالانهيارات العصبية من أميركا».

حدَّقَ فرانز بقلق إلى بيبي بينما تابع ديك قائلاً:

«ولكنْ مَنْ نحن، يا فرانز؟ أنت صاحب اسم كبير وأنا كتبتُ كتابين مدرسيين. هل هذا يكفي لجذب أي شخص؟ ثم إنني لا أمتلك ذلك المبلغ الكبير من المال - ليس في حوزتي عُشره». ابتسم فرانز ساخراً. «صِدقاً ليس في حوزتي. إنَّ نيكول وبيبي ثريتان مثل كروسوس[2]، لكني لم أنجح في وضع يديّ على أي من ثروتيهما بعد».

عندئذٍ كانوا جميعاً يُنصتون - تساءل ديك إنْ كانت الفتاة الجالسة على الطاولة خلفه تنصت أيضاً. أعجبته الفكرة. قرّر أنْ يدع بيبي تتكلَّم بالنيابة عنه، كما يترك الرجل غالباً المجال للنساء كي يرفعن أصواتهن في القضايا التي لا يد لهنّ فيها. وفجأةً أصبحتْ بيبي مثل جدّها، هادئة وخبيرة.

«أعتقد أنه ينبغي عليك أنْ تفكّر في هذا الاقتراح، يا ديك. لا أدري ماذا كان الدكتور غريغوري يقول - ولكن يبدو لي -».

خلفه كانت الفتاة تميل إلى الأمام داخل حلقة من الدخان وتلتقط شيئاً عن الأرض. تقابل وجه نيكول مع وجهه عبر الطاولة - تدفَّقَ جمالها، مستكيناً ومتكلِّفاً بتردُّد، إلى حبه، يُعانقه دائماً ليحميه.

«فكِّر في الأمر، ديك»، حثّه فرانز بحماس، «عندما يكتب المرء عن الطب النفسي، يجب أنْ يكون في حوزته تجارب سريرية ميدانية. إنَّ يونغ يكتب، وبلولر يكتب، وفرويد يكتب، وفوريل يكتب، وأدلر يكتب - ولديهم أيضاً تجارب مع الاضطراب العقلي».

1- عبارة بالألمانية لفظها بشكل مُبالغ فيه وهي في الأصل Privatdocent وتعني مُحاضر في الجامعة لم يكن في السابق يتلقى راتباً من الجامعة بل أجراً من الطلاب أنفسهم. - المترجم

2- كروسوس (توفي عام 546؟ قبل الميلاد): آخر ملوك مملكة ليديا.. كان معروفاً بثرائه الفاحش. - المترجم

ضحكت نيكول «ديك لديه أنا. أعتقد أنَّ هذا القدر من الاضطراب العقلي يكفي رجلاً واحداً».

قال فرانز بحذر «هذا أمر مختلف».

كانت بيبي تفكّر في أنه لو أنَّ نيكول تعيش بالقرب من عيادة فسوف تشعر دائماً باطمئنان تام عليها.

قالت «يجب أنْ نفكِّر في الأمر مليّاً».

على الرغم من أنَّ ديك سُرَّ بغطرستها، فإنه لم يُشجّعها.

قال برفق «القرار يعود إليّ، يا بيبي. لطيف منكِ أنكِ ترغبين في شراء عيادة لأجلي».

عندما أدركتْ بيبي أنها تدخّلتْ فيما لا يعنيها، انسحبت على عَجَل: «طبعاً، إنه شأنكَ أنت وحدك».

«إنَّ أمراً هاماً كهذا سوف يستغرق اتّخاذ قرار فيه أسابيع. وأتساءل إنْ كنتُ سأحب أنا ونيكول الاستقرار في زيوريخ –»، والتفتَ إلى فرانز، متوقعاً، «– أنا أعلم. في زيوريخ المنازل مزوَّدة بالغاز وبالمياه الجارية والأنوار الكهربائية – لقد عشت هناك على مدى ثلاث سنوات».

قال فرانز «سأتركك لتفكرّ فيه. وأنا واثق –».

بدأ مئة زوج من الأحذية بسعر خمسة جنيهات يحتشدون عند الباب، وانضموا إلى الصحافة. وفي الخارج تحت ضوء القمر الهش، رأى ديك الفتاة تربط مزلجتها إلى إحدى عربات الجليد على مسافة أمامه. تكوّموا داخل عربتهم المنزلقة وعلى صوت فرقعة السياط توتّرت الجياد، وانطلقت تشق بصدورها الهواء المظلم. مرتْ بهم أشكالٌ مسرعة ومتدافعة، الشبّان منهم يدفع كل منهم الآخر عن مزلجته وراكضين، يتوقفون على الثلج الهش، ثم يلهثون خلف الجياد لكي يسقطوا مُستنزفين على مزلجة أو يشتكوا من أنهم تُرِكوا وحدهم. وعلى جانبيّ الحقول ساد السكون الرحيم؛ والفضاء الذي كانت العربات تتحرك فيه

كان عالياً وغير محدود. في الريف كان الضجيج أقلّ، وكأنهم جميعاً يُصغون إلى الذئاب التي تسكن الثلوج الجانبية.

في سانن تدفقوا ليرقصوا رقصة محلية، واحتشدوا مع رعاة البقر، وخدم الفندق، وأصحاب المتاجر، ومعلمي التزلّج، والمرشدين، والسياح، والقرويين. كان ولوج مكان مُغلَق ودافئ بعد الشعور الحيواني بالاتحاد بالكون الشامل في الخارج يعني اتّخاذ اسم مهيب مؤثّر وتافه، هادر كوقع حذاء بمهماز في الحرب، كضرب كرة قدم على أرضية غرفة تغيير الملابس الإسمنتية. كان هناك صياح تقليدي، وقد جعل إيقاعه المألوف ديك ينفصل عما وجده للوهلة الأولى في المشهد العام رومانسياً. في أول الأمر ظنَّ أنَّ السببَ يعود إلى أنه طرد صورة الفتاة من وعيه؛ ثم تصوّر السبب ما قالته بيبي: «يجب أنْ نفكّر في الأمر مليّاً –» والكلمات التي قالتها لاحقاً: «نحن نمتلكك، وسوف تعترف بذلك عاجلاً أم آجلاً. من العبث مواصلة التظاهُر بالاستقلال».

لقد مرّت سنون منذ أنْ ضمر حقداً ضد أي مخلوق – منذ سنته الأولى في الجامعة في نيو هافن، عندما صادف مقالة شائعة عن «الصحة العقلية». أما الآن فثار غضبه على بيبي وفي الوقت نفسه حاولَ أنْ يكظمه داخله، مُحتقِراً عجرفة الأثرياء الباردة. وسوف تمرّ مئات السنين قبل أنْ تتمكن أي امرأة مسترجلة طارئة من فهم أنَّ نقطة ضعف الرجل هي كبرياؤه، لكنه يُصبح رقيقاً وهشاً حالما يتمّ العبثُ بها – على الرغم من أنَّ بعضهنّ يتملقن هذه الحقيقة بحذر. كانت مهنة الدكتور دايفر في تصنيف القشور المكسورة لنوع آخر من البيض قد ولَّدتْ لديه خوفاً من الانكسار. ولكن:

في طريق العودة إلى غستاد على متن عربة الجليد السلسة قال «هناك الكثير من السلوك المُهذَّب».

«كلا، الأمر ليس كذلك»، هكذا أصرّ موجّهاً كلامه إلى كتلة من الفرو، «إنَّ السلوك المهذّب هو اعتراف بأنّ الجميع من شدّة الرقة بحيث

يجب أنْ تتعامل معهم وأنت تلبس قفّازاً. أمّا الاحترام الإنساني - فهو ألّا تنعت رجلاً بالجبان أو بالكاذب بخفّة، ولكن إذا أمضيتَ حياتك وأنت تتجنّب مشاعر الناس وتغذّي غرورهم، لا يعود في إمكانك أنْ تعرف ما الذي يجب أنْ تحترمه فيهم».

قال الإنكليزي الأكبر سناً «أعتقد أنَّ الأميركيين يهتمون بحُسن سلوكهم بجدّية».

قال ديك «أعتقد ذلك. كان والدي يتّصف بحُسن سلوكٍ ورِثه عنِ العصر الذي كان الناس فيه يُطلقون النار أولاً ومن ثم يعتذرون. إنَّ الرجال يتسلّحون - وكما أعلم، أنتم معشر الأوروبيين لم تحملوا أسلحة في حياتكم المدنية منذ بداية القرن الثامن عشر -».

«لم نفعل في الحقيقة، ربما -».

«في الواقع لم نفعل. ليس حقاً».

قالت بيبي بنبرة تصالحية «ديك، أنت دائماً تتّصف بحُسن السلوك».

كانت النسوة يرمقنه عبر حديقة حيوان من الأثواب بشيءٍ من الخوف. لم يفهم الإنكليزي الأصغر سناً - كان من النوع الذي دائماً يقفز بين الأفاريز والشرفات، وكأنه يظنّ أنه يتنقّل بين حِبال أشرعة وصواري سفينة - وظل طوال طريق العودة إلى الفندق يملأ الجو برواية حكاية لا تُصدَّق عن مباراة بالملاكمة مع أفضل أصدقائه، عبّرا خلالها عن حب كل منهما للآخر وسبّب كل منهما الكدمات للآخر على مدى ساعة، ودائماً بتحفُّظ شديد. وأصبح ديك فكهاً.

«إذن كلما ضربك، كنتَ تعتبر ذلك دلالة على أنه صديق صدوق؟».

«كان احترامي له يزداد».

«ما لا أفهمه هو منطق هذا التصرف. أنتَ وأفضل أصدقائك تتشاجران من أجل مسألة تافهة -».

قال الإنكليزي الشاب ببرودة «إذا كنتَ لا تفهم، لا أستطيع أنْ أشرح لك».

قال ديك لنفسه – هذا ما أحصل عليه عندما أُصرِّح بما أفكِّر».

شعر بالخجل لأنه ضايق الرجل، مُدركاً أنَّ سُخف القصة يكمن في فجاجة الموقف بالإضافة إلى الأسلوب المُعقَّد لروايتها.

كانت روح الاحتفال قوية وتوجهوا مع الحشد إلى مطعم الشواء، حيث كان نادل تونسيّ يُعالج الإضاءة كما اللحن المتناغم، الذي كان لحنه الثاني هو ضوء القمر المنعكس عن حلبة التزلّج ويُحدّق في النوافذ الكبيرة. في ذلك الضوء، وجد ديك الفتاة بلا حياة ولا تُثير الاهتمام. فأشاح ببصره عنها لكي يستمتع بالظلام، بأطراف السجائر وهي تتحول إلى اللون الأخضر والفضي عندما تسطع الأضواء الحمراء، وإلى حزمة الضوء الأبيض التي تسقط على الراقصين عندما يُفتح باب البار ويُغلَق.

سأل «والآن أخبرني، يا فرانز، أتعتقد أنَّه في استطاعتك بعد السهر طوال الليل وأنت تشرب البيرة، أنْ تعود وتُقنع مرضاك بمهابتك الشخصية؟ ألا تعتقد أنهم سيرون أنَّ لديك مشكلة في معدتك؟».

أعلنتْ نيكول «أنا ذاهبة لأنام». رافقها ديك حتى باب المصعد.

«كنتُ أودّ أنْ آتي معك، ولكن يجب أنْ أبيِّن لفرانز أنني لا أنوي أنْ أُصبح صاحب عيادة».

ولجتْ نيكول المصعد.

قالت بتأمُّل «إنَّ بيبي تتمتع بقدر كبير من الحس السليم».

«إنَّ بيبي هي إحدى –».

صُفِعَ الباب. أنهى ديك الجملة في ذهنه وهو يواجه همهمة الآلة «– بيبي امرأة أنانية، تافهة».

ولكن بعد ذلك بيومين، أثناء التزلج بالعربة إلى المحطة مع فرانز، اعترفَ ديك بأنه يستحسن العرض.

اعترفَ قائلاً «لقد بدأنا ندور في دائرة مُفرغة، بعيشنا على هذا المستوى، هناك سلسلة من الضغوط، ونيكول لا تتحمّلها. إنَّ الطبيعة

الريفية لمنطقة الريفييرا في الصيف تتغيَّر على أي حال - في العام القادم سيُمضون عطلة موسمية».

مرّا بحلبات التزلّج الخضراء اللون والهشّة حيث كانت ألحان فالس فينر تهدر وألوان العديد من المدارس تومض على خلفية سماوات بلون أزرق باهت.

«- آمل أنْ نتمكن من تنفيذه، يا فرانز. لا يوجد شخص آخر أودّ أنْ أقوم بالمحاولة معه غيرك -».

«وداعاً، غستاد! وداعاً، أيتها الوجوه النضرة، والأزهار العذبة الباردة، ورقائق الثلج في الظلام. وداعاً، غستاد، وداعاً!».

الفصل الثاني

في صباح أحد أيام شهر تموز (يوليو) استيقظ ديك عند الساعة الخامسة بعد أنْ رأى حلماً طويلاً عن الحرب، ومشى إلى النافذة وحدّق منها إلى بحيرة زيوريخ. كان حلمه قد بدأ بفخامة رصينة؛ أزياء رسمية زرقاء اللون تعبر ساحة مظلمة تتبع فرقاً موسيقية تعزف الحركة الثانية من مقطوعة بروكوفييف «*حب البرتقالات الثلاث*»[1]. وسرعان ما ظهرت سيارات إطفاء، ترمز إلى حدوث كارثة، وثورة مرعبة للمشوهين في مركز للإسعاف. أضاء المصباح المجاور للسرير ودوّنه كله، وانتهى بعبارة شبه ساخرة: «إنها صدمة القذائف[2] عند الذين لم يُحاربوا».

أثناء جلوسه على حافة السرير شعر بخواء الغرفة، والمنزل، والليل. وفي الغرفة المجاورة تمتمت نيكول بشيء يدل على الكآبة، وشعر بالرثاء لإحساسها بالوحشة في أثناء نومها. بالنسبة إليه كان الزمن قد توقف ومن ثم كل بضع سنوات يتسارع باندفاع، كحركة تسارع فيلم سينمائي، أما بالنسبة إلى نيكول فكانت السنوات تتسرّب عبر الساعة والتقويم وعيد المولد، بالإضافة إلى الحقيقة المؤثّرة بأنّ جمالها زائل.

حتى هذا العام والنصف الذي أمضياه على شاطئ بحيرة زيوريخ

1- «حب البرتقالات الثلاث»: عنوان أوبرا هزلية ألّفها ووضع كلماتها الموسيقي الروسي سيرغي سيرغيفيتش بروكوفييف (1891 - 1953). ج- المترجم

2- صدمة القذائف: اضطراب عصبي أو عقلي يتميَّز بفقدان الذاكرة أو الكلام أو البصر ويظهر عند بعض الجنود الذين يخوضون غمار الحرب في العصر الحديث. - المترجم

بدا وقتاً مهدوراً بالنسبة إليها، تميَز الموسم فقط بعمال الطرقات وهم يتحولون إلى اللون الوردي في شهر أيار (مايو)، وإلى البُني في شهر تموز (يوليو)، وإلى الأسود في شهر أيلول (سبتمبر)، وإلى الأبيض من جديد في فصل الربيع. كانت قد نجت من مرضها الأول مع آمال جديدة، متوقعة الكثير، ومع ذلك محرومة من كل شيء ما عدا ديك، وكانت تربي أطفالاً لا يمكنها إلا أنْ تتظاهر برقّة أنها تحبهم، كيتامى يتلقون التوجيه. والأشخاص الذين أثاروا إعجابها، وهم متمردون في الغالب، كان تأثيرهم فيها سيئاً - بحثت فيهم عن الحيوية التي جعلتهم مستقلين أو خلاّقين أو صارمين، ولكن بلا فائدة - ذلك أنَّ أسرارهم كانت مدفونة عميقاً داخل صراعات فترة الطفولة التي نسوها. كانوا أشدّ اهتماماً بانسجام نيكول وسِحرها الظاهريين، بالوجه الآخر لمرضها. لقد عاشت حياة موحشة بامتلاكها ديك، الذي لم يرغب في امتلاكها.

كان قد حاول مراراً من دون نجاح أنْ يتركها. لقد أمضيا الكثير من الأوقات الممتعة معاً، وتبادلا أحاديث راقية بين ليال بيضاء من الحب، ولكن دائماً عندما يُدير وجهه عنها ليغوص في أعماق نفسه كان يتركها ممسكة بالفراغ بيديها وتُحدِّق إليه، تخلع عليه أسماء كثيرة، ولكن من دون أنْ تعلم أنه مجرد الأمل بأنْ يعود إليها سريعاً.

عصر وسادته بقوة، وتمدّد، واسند قفا عنقه إليها كما يفعل اليابانيون لكي يُخففوا من سرعة الدورة الدموية، ونام من جديد بعض الوقت. لاحقاً، أثناء حلاقة ذقنه، استيقظتْ نيكول وراحت تتمشى في المكان، وتوجّه أوامر سريعة، مُقتضَبة للأطفال والخدم. دخل لانيير ليتفرّج على والده وهو يحلق ذقنه - وبسبب عيشه بالقرب من عيادة نفسية ازدادت ثقته بصورة هائلة بوالده وإعجابه به، وفي الوقت نفسه بالغ في لا مبالاته بمعظم البالغين الآخرين؛ كان يرى المرضى إما من خلال تصرفاتهم الغريبة، أو كمخلوقات خاملة، مُغالية في مثاليتها وخالية من الشخصية.

كان فتى وسيماً، واعداً، كرّس ديك معظم وقته له، بعلاقة جديرة بضابط متعاطف ولكن متطلِّب وبمجنّد محترم.

سأل لانيير «لماذا تترك دائماً قليلاً من رغوة الصابون على قمة شعرك وأنت تحلق؟».

باعدَ ديك بحذر ما بين شفتيه اللتين يغطيهما الصابون وقال: «لم أتمكن أبداً من معرفة السبب. لطالما تساءلت. أعتقد لأنَّ الإصبع الأول يناله الصابون عندما أُحدِّد خط السبلة الجانبية، أما كيف يصل إلى قمة رأسي فهذا ما لا أعرف».

«سوف أراقب العملية كلها غداً».

«هذا هو سؤالك الوحيد قبل الإفطار».

«إنني لا أعتبره سؤالاً حقاً».

«هذه نقطة عليك».

بعد ذلك بنصف ساعة انطلقَ ديك إلى مركز إدارة المبنى. كان في السابعة والثلاثين - ولا يزال يرفض أنْ يُنمّي لحية ومع ذلك كانت تُحيط به هالة طبيّة أوضح مما بدا عليه وهو في الريفييرا. إنه الآن يعيش منذ ثمانية عشر شهراً في العيادة، وهي حتماً الأفضل في أوروبا. ومثل عيادة دوملر كانت على أحدث طراز - لم تعُد مبنى موحشاً، مُظلماً ومشؤوماً، بل قرية صغيرة، متكاملة بصورة خادعة، وموزّعة. كان ديك ونيكول قد أضافا الكثير في مجال الذوق، حتى باتت المؤسسة تتسم بالجمال، ويزورها كل طبيب نفسي يمرّ بزيوريخ. وبإضافة قسم صغير قد يُصبح أقرب شبهاً بنادٍ ريفي. كان القسمان «إيغلانتاين» و«بيتشز» المُخصّصان للغارقين في الظلام الأبدي، مخفيّين بشجيرات صغيرة من المبنى الرئيس، مموّهة النِقاط القوية. وخلفهما كانت مزرعة كبيرة للخضار، يُديرها المرضى جزئياً. وكانت هناك ثلاث ورش لعلاج الذات، كلها تحت سقف واحد، وفيها كان الدكتور دايفر يباشر معايناته الصباحية. ورشة النجارة، التي تعمّها أشعة الشمس، تفوح برائحة نشارة

الخشب الحلوة، بعصر الخشب البائد؛ ودائماً كانت هناك حفنة من الرجال، تضرب بالمطارق، تُخطط، تُثير الضجيج - رجال صامتون، يرفعون عيونهم الرزينة عن عملهم لدى مروره. وهو نفسه كان نجاراً ماهراً، ناقشهم قليلاً حول فعالية بعض الأدوات بصوت مُهتم، حميم وهادئ. وإلى جوارها كانت ورشة تغليف الكتب، هُيّئت لتتلاءم مع أشد المرضى حركة، ولكن الذين ليست لديهم دائماً فرصة كبيرة للشفاء. والغرفة الأخيرة كُرّستْ لأعمال الخرز، والحياكة والأشغال النحاسية. وجوه المرضى هنا كانت تحمل تعبير مَنْ تنفّس بعمق، وتخلّص من مشكلةٍ لا حلّ لها - لكنَّ تنهداتهم لا تدل إلا على بداية دورة أخرى لا تنتهي من الاستدلال المنطقي، ليس كما يجري مع الأشخاص الطبيعيين ولكن في المجال نفسه. تدور، وتدور، وتدور. دوران إلى الأبد. لكنَّ الألوان البرّاقة للمواد التي يعملون بها كانت تُعطي الغرباء وهماً لحظياً بأنَّ كل شيء على ما يُرام، كما في روضة الأطفال. كان أولئك المرضى يُشرقون عندما يدخل الدكتور دايفر عليهم. وكان معظمهم يحبونه أكثر مما يحبون الدكتور غريغوروفيوس. وأولئك الذين عاشوا ذات يوم في العالم الواسع كانوا يحبونه دائماً أكثر من غيره. والبعض رأوا أنه يُهملهم، أو أنه ليس بسيطاً، أو أنه متكلف. ولم تكن إجاباتهم تختلف عن تلك التي كان ديك يُثيرها في الحياة العادية. ولكن هنا كانت مُغلَّفة ومشوّهة.

كانت هناك امرأة إنكليزية تحدثه دائماً في موضوع تعتبر أنه خاص بها.

«هل لدينا موسيقى هذه الليلة؟».

أجاب «لا أعلم، لم أر الدكتور لاديسلو. هل استمتعت بالموسيقى التي عزفتها السيدة ساخس والسيد لونغستريت ليلة أمس؟».

«لم تكن سيئة».

«أعتقد أنها كانت جميلة - خاصة مقطوعة شوبان».

«أنا وجدتها بين-بين».

«متى ستُسمعيننا عزفكِ أنت؟».

هزّتْ كتفيها، وقد أسعدها السؤال كما أسعدها على مدى سنوات عديدة.

«في وقت من الأوقات. لكنَّ عزفي متواضع».

كانوا يعلمون أنها لا تُحسن العزف على الإطلاق - كان لديها أختان كانتا موسيقيتين لامعتين، لكنها لم تتمكن من تعلُّم النوتة عندما كنّ معاً صغيرات في السن.

انتقل ديك من الورش ليقوم بزيارة قسميّ إيغلانتاين وبيتشز؛ كانت نيكول قد صمّمت الزخرفة والأثاث على أساس ضروري من العوارض المتشابكة والقضبان المُستترة وقطع الأثاث الثابتة. واعتمدتْ في عملها على الكثير من المُخيّلة - كان افتقارها إلى الإبداع مصدره المشكلة نفسها - بحيث لا يحلم أي زائر مُثقّف بأنَّ الضوء، والمخرمات الجميلة في النافذة خاتمة قوية، صلبة، بحيث أنَّ القطع التي كانت تعكس الاتجاهات الأنبوبية الحديثة كانت أشدّ متانة من الابتكارات الضخمة للادوارديين[1] - حتى الأزهار كانت من أصابع الحديد وكل قطعة زخرفة عابرة أو مُثبّتة كانت ضرورية ضرورة العارضة في ناطحة السحاب. وكانت عيناها اللتان لا تعرفان التعب قد جعلتا كل غرفة تمنح كل ما فيها من فائدة. وشعرت بالفخر وأطلقت على نفسها بفظاظة لقب السمكري المتفوق.

يبدو لأولئك الذين تعمل بوصلاتهم بصورة طبيعية أنَّ هناك العديد من الأشياء الغريبة في تلك المنازل. كان الدكتور دايفر يتسلّى في قسم إيغلانتين، المبنى الخاص بالرجال - هنا كان شخص غريب الأطوار يحب الفضائحية ويعتقد أنّه إذا سار وهو عارٍ من ملابسه من دون أنْ يزعجه أحد من الإتوال إلى ساحة الكونكورد فسوف يحل العديد من المشاكل - ولعلّه، في اعتقاد ديك، كان على صواب.

1- الادوارديون: نسبة إلى أسلوب حياة وفنون وأسلوب العمارة والأزياء في عصر الملك إدوارد السابع (1841 - 1910) ابن الملكة فيكتوريا (1819 - 1901). - المترجم

الحالة الأكثر إثارة للاهتمام كانت في المبنى الرئيس. كان المريض امرأة في الثلاثين تُقيم في العيادة منذ ستة أشهر؛ كانت رسّامة أميركية عاشت طويلاً في باريس. ولم تكن تتوافر معلومات وافية عنها. وقد وجدها أحد أقربائها مُصادفة وقد جُنّت تماماً وذهب عقلها، وبعد أنْ أمضت فترة قاسية في أحد مراكز العلاج الصاخبة في ضواحي المدينة، نجح في إحضارها إلى سويسرا. في وقت دخولها كانت تتمتع بجمال أخّاذ - أما الآن فأضحت كتلة من الحساسية المتألّمة المفرطة. وكل اختبارات فحص الدم فشلت في إعطاء ردّة فعل إيجابية وصُنِّفت المشكلة بشكل غير مُرضٍ بأنها إكزيما عصبية. وبقيَتْ ضمن هذا التصنيف على مدى شهرين، كأنها سجينة قفص التعذيب. كانت متوازنة، وحتى لامعة، ضمن حدود هذيانها الخاص.

كانت مريضته الخاصة. وخلال نوبات من الحماس المفرط كان الطبيب الوحيد الذي في وسعه «أنْ يفعل أي شيء معها». وقبل أسابيع عِدّة، في إحدى ليالٍ عديدة أمضتها في تعذيب بلا نوم، نجح فرانز في تنويمها مغناطيسياً لتنال بضع ساعات من الراحة كانت في أمسّ الحاجة إليها، لكنه لم ينجح بعد ذلك أبداً في إعادة الكرّة. لم يكن التنويم المغناطيسي أداة موضع ثقة عند ديك ونادراً ما لجأ إليها، لأنه كان يعلم أنه لا يمكنه دائماً أنْ يستحضر المزاج اللازم لذلك - كان قد جرَّبه مرةً على نيكول فضحكت منه مؤنّبة.

لم تتمكن المرأة التي في الغرفة رقم عشرين من رؤيته عندما دخل - كانت المنطقة المُحيطة بعينيها متورمة بشدّة. وتكلّمت بصوت قوي، واضح، عميق ومُثير.

«إلى متى سيدوم هذا؟ هل سيستمر إلى الأبد؟».

«لن يطول الأمر الآن. يُخبرني الدكتور لاديسلو أنَّ تقدّماً كبيراً قد أُحرِز».

«لو أنني أعلم ما الذي اقترفتُ لأستحق هذا لقبلتُه بهدوء».

«ليس من الحِكمة أنْ نكون غامضين بهذا الشأن - لقد لاحظنا أنها ظاهرة عصبية. الأمر له علاقة باحمرار الوجه - عندما كنتِ فتاة، هل كنتِ تحمرين خجلاً بسهولة؟».

استلقت ووجهها ينظر إلى السقف.

«لم أعُد أجد ما يستدعي الاحمرار خجلاً منذ أنْ خلعت أضراس العقل».

«ألم تقترفي الآثام والأخطاء المعتادة في حياتك؟».

«ليس لديّ ما أندم عليه».

«أنتِ محظوظة جداً».

فكَّرت المرأة برهة؛ ثم خرج صوتها من خلال وجهها المُضمَّد مشـــوباً بأنغام ســـرّية:

«إنني أشارِك في مصير نساء عصري اللواتي تحدّين الرجال في المعركة».

أجاب، متبنياً أسلوبها الرسمي في الكلام، «ودُهِشتِ أيّما دهشة عندما اكتشفتِ أنها معركة كغيرها من المعارك».

«كغيرها من المعارك»، تفكّرت في هذا القول قليلاً، «إما أنْ تنتقي وضعاً، أنْ تنتزع انتصاراً صعباً، أو تتحطَّم وتُدمَّر - أنتَ صدى مُخيف صادر عن جدار مكسور».

قال لها «أنتِ لستِ مُحطَّمة ولا مُدمَّرة. أأنتِ واثقة حقاً من أنكِ خضتِ معركة حقيقية؟».

صرخت بحنق «انظر إليّ!».

«لقد عانيتِ، ولكن هناك العديد من النساء عانين قبل أنْ يعتبرنَ أنفسهن خطأً رجالاً». بدأ الحوار يتحول إلى جِدال فتراجع. «على أي حال لا ينبغي أنْ تخلطي بين فشل واحد وهزيمة نهائية».

قالت ساخرة «كلمات جميلة»، العبارة التي خرجت من خلال طبقة الألم هزمته.

باشر بالقول «نريد أنْ ننتقل إلى الأسباب الحقيقية التي أدّتْ إلى مجيئك إلى هنا»، لكنها قاطعته:

«إنني هنا كرمزٍ لشيء ما. وظننتُ أنكَ ستعرف ما هو».

قال بنبرة آليّة «أنتِ مريضة».

«إذن ما الذي اكتشفته تقريباً؟».

«مرضاً أخطر».

«أهذا كل شيء؟».

شعر بالامتعاض حين وجد نفسه يكذب قائلاً «هذا كل شيء»، ولكن في ذلك المكان والزمان ما كان يمكن لرحابة الموضوع أنْ تُختَصَر إلا بكذبة. «خارج هذا لا يوجد إلا الفوضى والعماء. لا أريد أنْ أُلقي على مسمعكِ محاضرة - إننا نعرف تماماً ما تعاني جسدياً. ولكن لا تستطيعين أنْ تُعيدي الأمور إلى نِصابها إلا بمواجهة مشاكلك اليومية، مهما بدتْ تافهة ومُضجِرة. مَنْ يدري - قد تتمكنين من جديد من تفحُّص -».

أبطأ لكي يتجنّب النهاية الحتمية لهذه الفكرة: «- تخوم الوعي». التخوم التي ينبغي على الفنانين أنْ يستكشفوها لم تكن لها، أبداً. كانت شديدة الرهافة، وفطريّة - قد تجد الراحة في نهاية المطاف في صوفيّةٍ هادئة. أما الاستكشاف فكان لأولئك الذين يحملون في عروقهم قدراً من دم الفلاحين، ذوي أفخاذ ضخمة وأقدام قوية ويمكنهم أنْ يتقبّلوا العِقاب كما يتناولون الخبز والملح، على كل جزء من لحمهم وروحهم.

- كاد يقول إنها ليست لك. إنها لعبة خشنة لا تليق بك.

مع ذلك في ذروة الفخامة الفظيعة لألمها واساها بلا تحفُّظ، بدافع جنسي تقريباً. ودَّ لو يضمها بين ذراعيه، كما فعل كثيراً مع نيكول، أراد أنْ يُحافظ حتى على أخطائها، التي كانت تشكّل بعمق جزءاً منها. الضوء البرتقالي المتسرّب من خلال الستارة المُنسدلة، وناووس جسدها المستلقي على السرير، والبقعة الظاهرة من وجهها، والصوت الذي يفتش عن فراغ مرضها ولا يعثر إلا على مجرّدات غامضة.

عندما نهضَ واقفاً فاضت الدموع غزيرة على ضماداتها.

همستْ «هذا من أجل شيء، يجب أنْ ينتج شيء عن ذلك».

انحنى وقبّلها على جبينها.

قال «علينا جميعاً أنْ نحاول أنْ نكون طيبين».

غادرها وأرسل إليها الممرضة. كان هناك مرضى آخرون يجب أنْ يعودهم: فتاة أميركية في الخامسة عشرة تربَّتْ على أساس أنَّ تكون فترة الطفولة كلها مرحاً - كان الدافع وراء زيارته لها أنها قامت بجزّ شعر رأسها بمقص أظافر. لم يكن هناك ما يمكن فعله من أجلها - عائلتها لها تاريخ في الاضطراب العصبي وماضيها يخلو من أي فترة استقرار يمكن الاعتماد عليها. لقد حاول الوالد، الطبيعي وحي الضمير، أنْ يحمي سلالة عُصابية من اضطرابات الحياة ولم ينجح إلا في منعها من تطوير قدراتها على التواؤم مع مفاجآت الحياة الحتمية. ولم يكن لدى ديك الكثير ليقوله: «هيلين، عندما ينتابك الشك يجب أنْ تسألي الممرضة، يجب أنْ تتعلمي أنْ تتقبّلي النصيحة. عِديني أنْ تفعلي».

ماذا يعني الوعد بالنسبة إلى عقل عليل؟ كان يقوم بزيارة منفيّ ضعيف من القوقاز مربوط بأمان فيما يُشبه الأرجوحة الشبكية، التي بدورها كانت مغمورة بحمّام طبي دافئ، وثلاث بنات لقائد برتغالي كنّ يتحوّلن ببطءٍ شديد نحو الشلل الجزئي.. وانتقل إلى الغرفة المجاورة لهنّ وأخبر طبيباً نفسياً منهاراً أنه أصبح أفضل حالاً، دائماً أفضل حالاً، وحاول الرجل أنْ يُفسّر تعبير وجهه بحثاً عن اليقين، لأنه متعلّق بالعالم الحقيقي فقط من خلال مثل تلك الطمأنينة التي يستشفها في رنين صوت الدكتور دايفر، أو غياب ذلك الرنين. وبعد ذلك صرف ممرِّضاً مناوباً لا عمل له وحينئذٍ كانت قد حانت ساعة تناول طعام الغداء.

الفصل الثالث

كان تناول وجبات الطعام مع المرضى روتيناً يومياً دأبَ على القيام به بفتور. كان التجمُّع، الذي طبعاً لم يكن يتضمن المقيمين في قسميّ إيغلانتين وبيتشز، يبدو تقليدياً للوهلة الأولى، ولكن كان يُخيِّم عليه جو كئيب ثقيل. كان الأطباء الحاضرون يتبادلون الأحاديث، أما معظم المرضى فقلما كانوا يتكلمون، ربما بسبب شعورهم بالإرهاق من الجهد المبذول في الصباح أو مبتئسين بسبب التجمُّع، ويأكلون وهم ينظرون في أطباقهم.

انتهت وجبة الغداء، وعاد ديك إلى دارته. كانت نيكول في الصالون ترسم على وجهها تعبيراً غريباً.

قالت «اقرأ هذا».

فتح الرسالة. كانت من امرأة سُرِّحتْ حديثاً، على الرغم من الشكوك التي انتابت المسؤولين عن المؤسسة. وهي تتّهمه فيها بعبارات صريحة بأنه أغوى ابنتها، التي كانت إلى جانب أمها خلال الفترة الحرجة من المرض. وافترضتْ أنَّ السيدة دايفر ستكون سعيدة بهذه المعلومات ولاطلاعها على «حقيقة» زوجها.

قرأ ديك الرسالة من جديد. وعلى الرغم من أنها كانت مُدبَّجة بلغة واضحة وموجزة لاحظ أنها رسالة كتبها شخص مهووس. كان في إحدى المناسبات قد سمح للفتاة، التي كانت سمراء مغناجا، بالركوب معه حتى زيوريخ، بطلبٍ منها، وفي المساء أعادها إلى

العيادة. وبطريقة فاترة، شبه متساهلة، قبّلها. ولاحقاً، حاولت أنْ تطوِّر العلاقة لكنه لم يُبدِ اهتماماً وبعد ذلك، وربما نتيجة لذلك أصبحت الفتاة تكرهه، ورحلت مع أمها.

قال «هذه الرسالة كتبها مخبول. أنا ليس لي أي علاقة من أي نوع بتلك الفتاة. بل إنها لم تعجبني».

قالت نيكول «نعم، لقد حاولت أنْ أعتقد هذا».

«لا أظنكِ تصدقينها؟».

«أنا كنتُ جالسة هنا».

أخفضَ صوته إلى نبرة محترمة وجلس إلى جوارها. «هذا سخف. هذه رسالة كتبها مريض عقليّ».

«أنا كنتُ مريضة في عقلي».

نهض واقفاً وتكلّم بنبرة أكثر رسمية. «لنفرض أنه ليس لدينا أي هراء، يا نيكول. اذهبي واحضري الطفلين وسوف نذهب».

ركبوا السيارة، بقيادة ديك، وساروا بمحاذاة البحيرة، مرتطمين باحتراق الضوء والماء على حاجب الريح، مخترقين شلالات الخضرة الدائمة. كانت سيارة ديك الرينو، الشديدة الصِغر إلى درجة أنهم جميعاً برزوا منها ما عدا الطفلين، اللذين جلست بينهما المربية كالصاري في المقعد الخلفي. كانوا يعرفون كل كيلومتر من الطريق - حيث يشمون رائحة إبر الصنوبر ودخان المدفأة الأسود. كانت الشمس العالية التي تحمل قسمات وجه تضربُ بأشعتها بضراوة قبعتي الطفلَين المصنوعتين من القش.

كانت نيكول صامتة؛ شعر ديك بالقلق من تحديقها القاسي المباشر. غالباً ما كان يشعر بالوحشة وهو معها، وكثيراً ما كانت تبعثُ فيه الضجر بالدفق القصير من الأسرار الشخصية التي تبوح بها له حصراً، «أنا هكذا - أنا أقرب شبهاً بهذا»، ولكن بعد ظهيرة ذلك اليوم كان سيسعده لو أنها تثرثر بشكل متقطِّع بعض الوقت وتمنحه شذرات من أفكارها. وكان الوضع دائماً مُهدِّداً عندما تنكمش داخل ذاتها وتُغلق الأبواب خلفها.

في زوغ ترجّلتْ المدموازيل وغادرتهم. واقترب آل دايفر من سوق أغيري خلال معرض لمراجل بخارية ضخمة أفسحت الطريق لهم. ركنَ ديك السيارة جانباً، وبينما نيكول تُحدّق إليه من دون أنْ تتحرك، قال: «هيا، يا عزيزتي». انفرجت شفتاها راسمة ابتسامة رهيبة مُفاجئة، وتقلّصت معدته، لكنه كرّر القول وكأنه لم يرها: «هيا، لكي يتمكن الأطفال من الخروج».

أجابت، وهي تنتزع الكلمات من قصةٍ تدور داخلها، تدور بسرعة تفوق قدرته على متابعتها، «أوه، سوف أخرج، لا تقلق بهذا الشأن، سأخرج -».

«إذن هيا».

أدارت وجهها بعيداً عنه وهو يسير إلى جوارها، لكنَّ الابتسامة كانت لا تزال تومض على امتداد وجهها، ساخرة ونائية. ولم تتمكن من تركيز انتباهها على شيء ما، على عرضٍ لمسرح العرائس، وتتكيَّف بتثبيت نظرها عليه، إلا بعد أنْ تكلّم معها لانيير مرات عِدّة.

حاول ديك أنْ يفكّر فيما سيفعل. كان ازدواج آرائه فيها - كزوج، وكطبيب نفسي - تشلّ قُدراته باطّراد. وخلال تلك السنوات التسع حملته معها مراراً إلى الطرف الآخر من الخط، جرّدته من أسلحته بإثارة شفقة عاطفيّة أو بدفق من الذكاء، الغريب والمُفكّك بحيث أنه لم يُدرك، إلا بعد الحادثة، مع وعيٍ بتخلّصه من التوتُّر، أنها نجحت في أنْ تُبطل أفضل حُكم له عليها.

كان نقاش دار مع توبسي حول غينيول - حول ما إذا كان عرض العرائس هو نفسه الذي شاهدوه قبل عام في مدينة كان - قد حُسِم، وعادت العائلة تسير بين الأكشاك تحت السماء اللامتناهية. وقلنسوات النساء، الجالسات على أثواب من المخمل، والأطراف المنشورة، والبرّاقة للعديد من السواري، بدت متواضعة أمام الدهان الأزرق والبرتقالي للعربات والعروض. وكان هناك ضجيج عرضٍ من العواء، والصخب الرنّان.

بدأتْ نيكول فجأة تركض، بمفاجأة سريعة إلى درجة أنَّ ديك لم

يلاحظ ابتعادها لبرهة من الزمن. لم يفتقدها ديك. رآها على مسافة بعيدة أمامه بثوبها الأصفر يتلوى مخترقاً الزحام، كدرزة صفراء على طول الحد بين الواقع واللاواقع، وانطلقَ يركض خلفها. ركضتْ سراً ولحقَ بها سرّاً. ومع ازدياد حِدَّة حرارة بعد الظهيرة وشدّتها بعد فرارها نسي أمر طفليه؛ فانعطفَ وعاد إليهما، وهو يجرّهما إلى هذه الجهة وتلك من ذراعيهما، وعيناه تقفزان من كشك إلى آخر.

هتف إلى امرأة شابة تقف خلف دولاب الحظ:

Madame, Est-que je peux laisser ces petits avec vous deux»
«minutes?C'est tres urgent- je vous donnerai dix francs

(مدام، هل لي أنْ أترك هذين الطفلين معك مدة دقيقتين؟ الأمر مُلح جداً - سأعطيك عشرة فرنكات)

«Mais oui» (طبعاً)

دفع بالطفلين إلى داخل الكشك.

«Alors- restez avec cette gentille dame» (حسن - امكثا مع هذه السيدة اللطيفة)

«Oui, ديك».

ومن جديد انطلق، لكنه كان قد أضاعها؛ دار حول دوامة الخيل، وبقي ملازماً لها إلى أنْ أدرك أنه يركض بجوارها، مُحدّقاً دائماً إلى الحصان نفسه. شقّ طريقه بالمرفق خلال الحشد داخل كشك المرطبات؛ ثم، عندما تذكر ما تتولَّع به نيكول، رفع بحركة سريعة طرف خيمة عرّافة وألقى نظرة داخلها. رحّبَ به صوتٌ رتيب:

La septieme fille d'une septieme fille ne sur les rives de»
«Nil – entrez, Monsieur-

(الابنة السابعة للابنة السابعة وُلِدَتْ على ضِفاف النيل - ادخل يا سيدي)

ترك طرف الخيمة، وتابع الركض نحو الموقع الذي ينتهي عنده

المتنزّه عند البحيرة حيث كان دولاب ملاه صغير يدور ببطء في وجه السماء. هناك عثر عليها.

كانت وحدها فيما كان عندئذٍ المقعد الأعلى على دولاب الملاهي، وعندما هبط، وجد أنها تضحك بمرح صاخب؛ عاد لينضم إلى الحشد الذي لاحظ، في دورة الدولاب الثانية، صخب هذيان نيكول.

«*Regardez-moi ca!*» (انظروا إليّ هنا!)

«*Regardez donc cette Anglaise!*» (انظروا إلى هذه الإنكليزية!)

من جديد هبطت إلى أسفل - هذه المرة كانت حركة الدولاب وموسيقاه تُبطئان، وتجمّع عددٌ من الأشخاص حول عربتها، وقد دفعتهم طريقة ضحكها إلى الابتسام تعاطفاً مع بلاهتها. ولكن عندما رأت نيكول ديك سكت ضحكها - وقامت بحركة تسلُّل مارة به ومبتعدة عنه، لكنه قبَض عليها من ذراعها وأمسك بها أثناء سيرهما بعيداً.

«لماذا فقدتِ السيطرة على نفسك هكذا؟».

«أنتَ تعلم السبب جيداً».

«لا، لا أعلم».

«هذا محال - اتركني - هذا امتهان لعقلي. ألا تعتقد أنني رأيتُ تلك الفتاة وهي تنظر إليك - تلك الفتاة الصغيرة السمراء. أوه، هذه مهزلة - إنها طفلة، لا يتجاوز عمرها خمسة عشر عاماً. ألا تعتقد أني رأيت؟».

«توقفي هنا دقيقة واهدئي».

جلسا على طاولة، وعيناها مترعتان بالشك، ويدها تتحرك عبر خط بصرها وكأنه محجوب. «أريد مشروباً - أريد براندي».

«لا يمكنكِ أنْ تشربي براندي - تستطيعين أنْ تتناولي جعة الربيع إذا شئتِ».

«ولِمَ لا أستطيع أنْ أشرب البراندي؟».

«لن نخوض في هذا. اسمعي - كلامك عن تلك الفتاة مجرد وهم، هل تفهمين هذه الكلمة؟».

«دائماً تقول إنه وهم عندما أرى ما لا تريد مني أنْ أرى».

كان يشعر بالذنب، كما يحدث في أحد تلك الكوابيس التي نرى فيها أنفسنا مُتّهمين بجريمة ونتيقّن من أننا ارتكبناها حتماً، ولكن عندما نستيقظ نُدرك أننا لم نرتكب شيئاً. وأشاح ببصره عنها.

«لقد تركتُ الطفلَين في عهدة امرأة غجرية في أحد الأكشاك. يجب أنْ نُحضرهما».

سألتْ «مَنْ تظن نفسك؟ مُهيمن على العقول؟».

قبل خمس عشرة دقيقة من ذلك كانوا يؤلفون عائلة متماسكة. الآن بعد أنْ حاصرها في الزاوية بكتفه العنيد، رآهم جميعاً، طفلاً وبالغاً، كحادث خطر.

«سنعود إلى المنزل».

«منزل!» هدرتْ بصوت مخذول إلى درجة أنَّ نبرات صوته الأعلى تماوجت وتكسّرت. «لكي نجلس ونعتقد أننا جميعاً نتعفّن ورماد الطفلين تتعفّن في كل صندوق أفتحه؟ هذه قذارة!».

بشبه ارتياح وجد أنَّ كلماتها طهّرتها، ورأت نيكول، التي أضحت حسّاسة حتى أسفل جلدها، روح الهزيمة في عينيه. أما وجهها فاسترخى وتوسلت قائلة «ساعدني، ساعدني، ديك!».

اجتاحته موجة من الألم. أمر فظيع ألّا ينتصب ذلك البرج الرائع، بل يتدلّى، يتدلّى منه. كان هذا الكلام صحيحاً بقدرٍ معيَّن: هذا قَدَر الرجال، الشعاع والفكرة، العارضة واللوغاريتم؛ لكنّ ديك ونيكول أصبحا بصورة ما كياناً واحداً ومتعادلَين، ليس متضادين ومتكاملين؛ هي أيضاً كانت ديك، كانت جفاف نقي عِظامه نفسه. لم يستطع أنْ يراقب مراحل تحلّلها من دون أنْ يُشارك فيها. تدفّق حدسه منه برقّة وحب – لم يكن في وسعه إلا أنْ يتخذ مساراً معاصراً مُميَّزاً، ليتوسط. كان سيُحضر ممرضة من زيوريخ، لتسهر على راحتها ليلاً.

«أنت *تستطيع* أنْ تساعدني».

تنمّرها العذب دفعه بعيداً حتى أطاح به. «لقد ساعدتني من قبل – وتستطيع أنْ تساعدني الآن».

«لا أستطيع أنْ أساعدك إلا بالطريقة القديمة».

«أحد ما يستطيع أنْ يساعدني».

«ربما. أنتِ تستطيعين أنْ تساعدي نفسك أفضل من غيرك. هيا نُحضر الطفلين».

كان هناك العديد من أكشاك اليانصيب المزودة بدواليب بيضاء. ذُهِلَ ديك عندما سأل في الكشك الأول وقوبلَ بإنكار صريح. وقفت نيكول بعيداً والشر في عينيها، ناكرة معرفتها الطفلين، مُعبّرة عن كراهيتها لهما لأنهما جزء من عالم مباشر سعت إلى جعله بلا شكل. وفي الحال عثر ديك عليهما، تُحيطُ بهما نساء كنّ يتفحّصنهما بابتهاج وكأنهما سلع جيدة، وأطفال فلاحين يُحدقون إليهما.

«***Merci, Monsieur, et Monseiur est trop genereux. C'etait un plaisir, M'sieur, Dame. Au revoir, mes petits***»

(شكراً، يا سيدي، إنَّ السيد في غاية الكرم. بكل سرور، يا سيدي، ويا سيدتي. وداعاً، يا صغيريّ)

انطلقوا عائدين والحرّ ينهال عليهم؛ كانت السيارة مُثقلة بجو من الخشية والأسى المشتركين، وارتسم على فميّ الطفلين تعبير جادٌ بسبب خيبة الأمل. وتجلّى الحزن بأشدّ ألوانه فظاعة، وسوداوية، وغرابة. وفي مكان ما حول زوغ، كرّرت نيكول، بجهد متشنج، ملاحظة كانت قد أدلتْ بها من قبل حول منزل أصفر اللون وغامض قائم بعيداً عن الطريق بدا أشبه برسم لم يجفّ بعد، لكنها كانت فقط محاولة للإمساك بطرف حبل كان ينحل بسرعة كبيرة.

حاول ديك أنْ يرتاح. سوف يبدأ الصراع في الحال في المنزل وربما عليه أنْ يستريح فترة طويلة يُعيد خلالها صياغة الكون من أجلها. وكلمة

شيزوفرينيا كلمة تصف انفصام الشخصية - كانت نيكول على التناوب شخصاً لا يحتاج إلى مَنْ يشرح له أي شيء وشخصاً لا شيء يمكن أنْ يُشرَح له. كانت ضرورية معاملتها بإصرار قوي ومُشدَّد، وإبقاء الطريق إلى الواقع دائماً سالكة، وجعل سلوك الطريق إلى الهروب أكثر صعوبة. لكنَّ روعة الجنون وتنوّعه يُشبهان دهاء مياهٍ تتسرّب من خلال، وفوق، وحول خندق. والوقوف في وجهه يتطلّب جبهة موحّدة من العديد من الأشخاص. وقد شعر أنّه بات من الضروري أنْ تقوم نيكول بعلاج نفسها بنفسها؛ أراد أنْ ينتظر إلى أنْ تتذكر المرات السابقة وتشعر بالاشمئزاز منها. وخطّطَ مع شعور بالتعب للعودة إلى الحِمية التي كان قد تراخى فيها خلال السنتين السابقتين.

كان قد ارتقى تلاً كطريقٍ مُختصَرة إلى العيادة، والآن، وهو يزيد السرعة على طريق مُختصرة، مستقيمة موازية لسفح التل، انحرفت السيارة بعنف يساراً، ثم يميناً، وارتكزت على دولابين فقط، وبينما ديك، وصراخ نيكول يخترق أذنه، يسحق اليد المجنونة التي كانت متشبثة بالمقود، اعتدلتْ السيارة من تلقاء نفسها، وانحرفت من جديد خارجة قليلاً عن الطريق؛ واقتحمت شجيرات قصيرة، ثم مالت من جديد، واستقرت ببطء بزاوية 90 درجة على إحدى الشجرات.

كان الطفلان يصرخان ونيكول تصرخ وتسبّ وتحاول أنْ تمزّق وجه ديك. أبعد ديك ذراع نيكول، وهو يفكر في ميل السيارة ويعجز عن تقديره، وارتقى إلى الجانب المرتفع وأخرج الولدين؛ ثم تيقّن من أنْ السيارة استقرّت في وضعيتها. وقبل أنْ يفعل أي شيء آخر وقف هناك يهتز ويلهث.

هتف «نعم -!».

كانت تضحك بعنف، بلا خجل، أو خوف، أو قلق. ما كان لأحد يقترب من المشهد ليتصوَّر أنها كانت السبب في وقوعه؛ ضحكت وكأنها في عملية هروب مرحة في عهد الطفولة.

اتّهمته قائلة «كنتَ خائفاً، أليس كذلك؟ أردتَ أنْ تنجو بحياتك!».

تكلّمت بعنف شديد حتى أنَّ ديك وسط حالة الصدمة تساءل إنْ كان حقاً خائفاً على حياته – لكنَّ الوجهين المشدودَين للطفلين، اللذين كانا يَنقلان نظرتهما من الأب إلى الأم، جعلاه يرغب في سحق قِناعها المُكشّر وتحويله إلى هلام.

فوقهم مباشرة على مسافة نصف كيلومتر على الطريق الملتوية ولكن على مسافة مئة ياردة فقط من الارتقاء، كان هناك نُزُل؛ كان أحد أجنحته ظاهراً من خلال التل الكثيف الأشجار.

قال للانير «أمسك بيد توبسي، هكذا، بإحكام، وارتقِ ذلك التل – أترى ذلك الدرب الصغير؟ عندما تصل إلى النُّزُل قُل لهم «*La voiture Divare est cassee*» (السيارة انحرفت تحطمت) يجب أنْ يهبط إلينا أحد».

سأل لانير، الذي لم يفهم ما الذي حدث بالضبط، لكنه متوقعاً حلول الظلام والمجهول:

«ماذا ستفعل، ديك؟».

«سنمكث هنا مع السيارة».

لم ينظر أي منهما إلى أمهما وهما ينطلقان مبتعدين. هتف ديك خلفهما، «انتبها وأنتما تجتازان الطريق الذي هناك في الأعلى! انظرا إلى كلا الاتجاهين!».

تبادل مع نيكول النظرات المباشرة، وعيونهما كنوافذ تتلظى باللهب عبر فناء المنزل نفسه. ثم أخرجت علبة التجميل، ونظرت في مرآتها وسرّحت شعر السبلتين نحو الخلف. تابع ديك الطفلين برهة وهما يرتقيان إلى أنْ غابا عن الأنظار بين أشجار الصنوبر في منتصف المسافة إلى أعلى؛ ثم مشى حول السيارة ليقدّر حجم الضرر ويفكّر كيف سيُعيدها إلى الطريق. استطاع أنْ يقتفي على التراب أثر المسار المُضطرب الذي طرقوه مسافة مئة قدم؛ كان مُترعاً بشعور عنيف بالاشمئزاز لا يُشبه الغضب.

في غضون بضع دقائق هبط صاحب النُزُل إليهما ركضاً.

هتف «يا إلهي! كيف حدث هذا؟ أكنتَ مُسرعاً؟ كم أنت محظوظ! لولا تلك الشجرة لأصبحتم في أسفل التل».

بحركة طبيعية أشار ديك إلى نيكول، مستفيداً من واقع حال إميل، والمئزر الأسود الواسع، والعرق المتشكّل على تضاعيف وجهه، لكي تدعه يُساعدها على الخروج من السيارة؛ على الأثر قفزت عبر الجانب الأسفل، وفقدت توازنها على المنحدر، فوقعت على رُكبتيها، ثم نهضت من جديد. وبينما هي تراقب الرجل يحاول أنْ يُحرّك السيارة أصبحت تعبيرات وجهها متحدّية. رحّب ديك حتى بمزاجها ذاك، قال:

«اذهبي وانتظري مع الطفلين، نيكول».

لم يتذكّر إلا بعد ذهابها أنها رغبت في شرب الكونياك، وأنَّ الكونياك متوفر هناك في الأعلى – وطلب من إميل أنْ يدع السيارة وشأنها؛ وقال إنهم سينتظرون السائق الخاص والسيارة الكبيرة لكي تجرّ سيارتهم إلى الطريق. وهرعا معاً يرتقيان إلى النُزُل.

الفصل الرابع

أخبر فرانز «أردتُ أنْ ابتعد مدة شهر أو نحوه، أطول مدة ممكنة».

«ولِمَ لا، ديك؟ ذلك كان ترتيبنا أصلاً - أنتَ الذي أصرّ على المكوث. لو أنكَ ونيكول -».

«لا أريد أنْ أذهب برفقة نيكول. أريد أنْ أكون وحدي. إنَّ هذا الحادث الأخير صرعني - لو أنني أحظى بساعتين من النوم، لكان ذلك أشبه بإحدى معجزات زوينغلي[1]».

«أتريده أنْ يكون رحيلاً متقشفاً؟».

«الكلمة الدقيقة هي غياب. اسمع: إذا ذهبتُ إلى برلين لحضور مؤتمر الطب النفسي هل تستطيع أنْ تحتفظ بالسر؟ منذ ثلاثة أشهر وهي على ما يُرام والممرضة تعجبها. يا إلهي، أنت الكائن البشري الوحيد في العالم الذي يمكنني أنْ أطلب منه هذا».

نخر فرانز، متفكّراً فيما إذا كان يمكن أنْ يكون موضع ثقة للتفكير دائماً في مصلحة شريكه.

***

في زيوريخ في الأسبوع الذي تلا قاد ديك سيارته إلى المطار واستقلّ

1- أولريتش هولدرلن زوينغلي (1484 - 1531): قائد إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في سويسرا. يُعتبَر تلميذ إراسموس ومُعاصِر مارتن لوثر وجون كالفن في الإصلاح، ويُعتبرون ثلاثي الإصلاح في ذلك العصر. حارب استعمال الصور في الكنائس. - المترجم

الطائرة الكبيرة للذهاب إلى ميونيخ. شعر، وهو يُحلق ويُحوِّم في المدى الأزرق، بالخَدَر، مُدركاً كم كان مُتعباً. تسلّل إليه هدوء مُقنع هائل وترك أمر المرض للمرضى، والهدير للمُحرِّكات، والاتّجاه لربّان الطائرة. لم تكن لديه أي نيّة في حضور أي جلسة من جلسات المؤتمر - كان في استطاعته أنْ يتصوَّر الأمر بوضوح تام، كتيّبات بقلم بلولر وفوريل الأب الذي يمكن أنْ يهضمه بصورة أفضل في المنزل، والأطروحة التي أعدّها الأميركي الذي عالج العتاه الباكر[1] بقلع أسنان مرضاه أو بكيّ اللوزتين، والاحترام شبه الساحر الذي ستُستَقبَل به هذه الفكرة، فقط لأنَّ أميركا هي بلد فاحش الثراء وقوي. المندوبون الآخرون القادمون من أميركا- شوارتز أحمر الشعر ذو وجه القديس وجَلَده غير المحدود على الجمع بين عالمين، بالإضافة إلى مجموعة من الأطباء العقليين ذوي وجوه بائسة، حضروا من جهة لكي يدعموا موقفهم، وبالتالي بلوغهم الثمار الناضجة للممارسة الجنائية، ومن جهة أخرى للتفوّق في السفسطة الحديثة التي في استطاعتهم أنْ يضمُّوها إلى مخزونهم، وحتى الفوضى اللامحدودة للقيم كلها. سيكون هناك لاتينيون ساخرون وبعض أنصار فرويد من فيينا. والأشدّ فصاحة بينهم سيكون يونغ العظيم، لطيفاً، فائق الحيوية، في جولاته بين غابات علم الإنسان وأمراض تلاميذ المدارس العصبية. أولاً سيكون هناك طاقم أميركي في المؤتمر، يكاد يكون روتارياً[2] في أشكاله وطقوسه، ثم سوف تشق الحيوية الأوروبية المُحكمة طريقها بروح قتالية، وأخيراً سيلعب الأميركيون ورقتهم الرابحة، الإعلان عن هِبات ومِنح هائلة، وعن مؤسسات جديدة ضخمة ومدارس تدريب، وفي حضور الأرقام سوف يشحب لون الأوروبيين ويبتعدون مذعورين. لكنه لن يكون حاضراً ليشهد على ذلك.

1- العتاه الباكر: ضرب من الجنون ينشأ عادة من أواخر عهد المراهقة ويتميَّز بفقدان الاهتمام بالناس وبالأشياء وبأسلوب غريب منحرف. - المترجم

2- روتارياً: أي عضو في أحد نوادي الروتاري. - المترجم

التفّوا حول منطقة جبال ألب فورارلبرغ، وشعر ديك ببهجة ريفية في مراقبة القُرى. كانت هناك دائماً أربع أو خمس منها على مرمى النظر، وكل منها مُتجمِّع حول كنيسة. كان النظر إلى الأرض من بعيد أمراً سهلاً، سهلاً كممارسة ألعاب كئيبة بالدُمى والجنود. هكذا ينظر الساسة والقادة العسكريون وكل المتقاعدين إلى الأشياء. على أي حال، تلك كانت نفحة طيبة من الراحة.

خاطبه رجل إنكليزيّ عبر الممر بين المقاعد، لكنه لاحقاً وجد في الإنكليزي سِمة بغيضة. كانت إنكلترا أشبه برجل ثريّ بعد حفل صاخب كارثيّ عوَّضَ عن أهل البيت بتبادل أطراف الحديث معهم كل بمفرده، في حين كان جلياً لهم أنه يُحاول فقط أنْ يستعيد احترامه لنفسه لكي ينتزع سلطته السابقة.

تبادل ديك معه المواضيع المتداوَلة في المجلات المعروضة على أرصفة المحطة: الـ «*سنشري*»، و«*موشن بيكتشر*»، و«*اليلوستراسيون*»، و«*فليغند بلاتر*»، ولكن كان من الممتع أكثر أنْ يهبط بمخيلته إلى القرى ويتصافح مع الشخصيات الريفية. جلس في الكنائس كما جلس في كنيسة والده في بوفالو، وسط العطر الرسمي لملابس يوم الأحد. أصغى إلى حِكمة الشرق الأدنى، صُلِبَ، ومات، ودُفِنَ في الكنيسة المُبهجة، ومرة أخرى انتابه القلق بين أنْ يضع خمسة سنتات أم عشـرة في طبق التبرعات، بسبب الفتاة الجالسة على المقعد خلفه.

فجأة استعار الإنكليزي مجلاته مع تغيُّر صغير في المحادثة، وراح ديك، الذي فرح بابتعاده عنه، يفكّر في الرحلة التي تنتظره. فكّر في عالم اللذة، كذئب في ملابس خروف مصنوعة من الصوف الأسترالي الطويل التيلة – في البحر المتوسط النقي مع القذارة العتيقة العذبة التي تكسو أشجار الزيتون، والفتاة القروية بالقرب من سافونا بوجه أخضر وورديّ بلون كتاب القدّاس المُزخرف. سوف يُمسك بها بيديه وينتزعها ويجتاز الحدود...

... ولكن هناك تخلّى عنها - يجب أنْ يحثّ الخُطى إلى جزر اليونان، والمياه العكرة لموانئ غريبة، والفتاة التائهة على الشاطئ، وقمر الأغاني الشعبية. كان جزء من عقل ديك يتألّف من ذكريات فترة فتوته المبهرجة. ولكنه استطاع، وسط ذلك الجو الرخيص نسبياً، أنْ يُبقي نار العقل المؤلمة والخافتة مُشتعلة.

الفصل الخامس

كان تومي باربان حاكماً، كان تومي بطلاً - صادفه ديك في مارينبلاتزا في ميونيخ، في أحد تلك المقاهي التي يرمي فيها لاعبو القمار النرد على البُسُط «المزخرفة». كان الجو مفعماً بالسياسة وبصفع أوراق اللعب.

كان تومي جالساً على طاولة يضحك ضحكه العسكري: «أومباه - ها-ها! أومباه - ها-ها!». في المعتاد لم يكن يشرب إلا قليلاً؛ كانت الشجاعة لعبته وكان رفاقه دائماً يخشونه قليلاً. ومؤخراً أُزيلت المنطقة الثامنة من مناطق جمجمته على يد جرّاح من وارسو وكان الجرح يلتئم تحت شعره، وأشد الأشخاص ضعفاً في المقهى كان في إمكانه أنْ يقتله بطرف فوطة معقودة.

قال روسي بائس، شاحب اللون، في الخمسين «- هذا الأمير تشيليتشيف - والسيد ماكيبين - والسيد هانان -»، وهذا الأخير كان كتلة حيوية من عينين سوداوين وشعر، مُهرّجاً؛ وقال لديك على الفور:

«أولاً وقبل أنْ نتصافح - ماذا تعني بعبثك مع عمتي؟»،

«في الواقع، أنا -».

«لقد سمعتني. ماذا تفعل هنا في ميونيخ، في كل الأحوال؟».

ضحك تومي «أومباها - ها-ها!».

«أليست لديك عمّات؟ لماذا لا تعبث معهنّ؟».

ضحك ديك، وعلى الأثر نقل الرجل هجومه:

«والآن دعنا من الحديث عن العمّات. كيف أعرف أنكَ لم تُلفِّق الأمر كله؟ ها أنت ذا رجل غريب تماماً لا أعرفه إلا منذ أقل من نصف ساعة، تأتي إليّ مع قصّة مُلفّقة عن عمّاتك. ما أدراني ما تخفي عني؟».

عاد تومي إلى الضحك، ثم قال بودّ، ولكن بحزم، «يكفي هذا، يا كارلي. اجلس، يا ديك - كيف حالك؟ كيف نيكول؟». لم يكن يضمر أي إعجاب خاص بأي إنسان أو يشعر بوجود الناس بقوة - كان مسترخياً تماماً بعد المعركة؛ كما يفعل الرياضي الجيد حين يلعب في خط الدفاع الثاني في أي نوع من الألعاب معظم الوقت، في حين أي رجل أقلّ شأناً منه يتظاهر بالاسترخاء في حين أنه في حالة متواصلة ومُدمِّرة من التوتر العصبي.

هانان الذي لم يكن مقموعاً تماماً، انتقل إلى آلة البيانو القريبة، وبنظرة اشمئزاز تتكرر على وجهه من ديك، أخذ يعزف بعض الأنغام، وبين وقت وآخر، يُتمتم «عمّاتك»، ثم بإيقاع منخفض «أنا لم أشاهد أي عمّات على أي حال. أنا قلت سروال تحتي».

كرّر تومي «حسن، كيف حالك؟ لا تبدو لي -» وكافح لإخراج الكلمة «- مرحاً كثيراً كما كنت في السابق، متأنّقاً، أنت تعلم ما أعني».

بدت ملاحظته أشبه بأحد تلك الاتهامات المُثيرة للغضب بضعف الحيوية، وأوشك ديك أنْ يردّ بالتعليق على الملابس الغريبة الأطوار التي يرتديها تومي والأمير تشيليتشيف، ملابس بأسلوب ونمط غريبين إلى درجة أنه يمكنهما أنْ يتهاديا بالسير في شارع بيل في يوم الأحد - وإذا بالتفسير يأتي.

قال الأمير «أرى أنكَ تتأمل ملابسنا. لقد قدِمنا تواً من روسيا».

قال تومي «هذه مصنوعة في بولونيا على يد خياط البلاط. هذه حقيقة - خياط بيلسودسكي الخاص».

سأل ديك «أكنتما تقومان بسياحة؟».

ضحكا، وصفع الأمير تومي بحركة غريبة على ظهره.

«نعم، كنا في سياحة. نعم، سياحة. لقد قمنا بالسياحة الكبرى في أرجاء روسيا. بكل حماس».

انتظر ديك تفسيراً. فصدر عن السيد ماكيبن بكلمتين:

«لقد هربا».

«أكنتما سجينين في روسيا؟».

شرح الأمير تشيليتشيف، وعيناه الصفراوان الميتتان تحدقان إلى ديك، «أنا كنت هناك، ليس سجيناً بل مختبئاً».

«هل وجدتَ صعوبة كبيرة في الخروج؟».

«بعض الصعوبة. لقد تركنا وراءنا ثلاثة من الحرس الأحمر موتى على الحدود. تومي خلَّف اثنين -»، ورفع إصبعَين كما يفعل الفرنسيون - «أنا تركت واحداً».

قال ماكيبن «هذا هو الجزء الذي لا أفهمه. لماذا اعترضوا على مغادرتكما».

التفت هانان عن البيانو وقال، وهو يغمز للآخرين، «إنَّ ماك يعتقد أنَّ الماركسي هو شخص تعلَّم في مدرسة القديس مرقص».

لقد كانت قصة فرار بأفضل شكل - رجلٌ أرستقراطي يختبئ طوال تسع سنوات مع خادم سابق ويعمل في مخبز تابع للحكومة؛ وابنة تبلغ الثامنة عشرة موجودة في باريس تعرف تومي باربان... خلال سرد الحكاية قرّر ديك أنَّ هذه القطعة القديمة من الورق الجاف من الماضي لا تستحق حياة الشبان الثلاثة. وطُرِحَ سؤال حول ما إذا كان تومي وتشيليتشيف حينئذٍ خائفَين.

قال تومي «عندما كنتُ أشعر بالبرد. أنا دائماً ينتابني الخوف عندما أشعر بالبرد. وأثناء الحرب كنتُ دائماً أخاف عندما أشعر بالبرد».

نهضَ ماكيبن واقفاً.

«يجب أنْ أذهب. غداً صباحاً سأرحل إلى إنسبروك بالسيارة مع زوجتي والأطفال - والمربية».

قال ديك «أنا ذاهب إلى هناك غداً، أيضاً».

هتف ماكيبن «أوه، أحقاً ؟ لِمَ لا تأتي معنا؟ إنَّ السيارة فسيحة ولا يوجد إلا زوجتي وأطفالي وأنا – والمربية –».

«لا يمكنني أنْ –».

ختم ماكيبن، وهو يُلقي نظرة شفقة على ديك «طبعاً هي ليست مجرد مربية. في الواقع إنَّ زوجتي تعرف ابنة حميك، بيبي وارن».

ولكن لم يكن ممكناً جرّ ديك إلى عقد اتفاق مُبهم.

«لقد وعدتُ أنْ أسافر مع شخصَين».

تجهم وجه ماكيبن «أوه، حسن، سأودعكم». صرفَ كلبَين أصيلين بعيداً عن طاولة قريبة وتلكّأ؛ تخيَّل ديك سيارة الباكارد مزدحمة منطلقة إلى إنسبروك مع آل ماكيبن وأولادهما وأمتعتهما والكلبين النابحين – والمربية.

قال تومي «تقول الصحيفة إنهم يعرفون الرجل الذي قتله. لكنَّ أقرباءه لم يرغبوا في ذكر ذلك في الصحف، لأنَّ الحادث وقع في حانة غير شرعية. فما رأيك في هذا؟».

«هذا ما يُعرَف بكبرياء العائلة».

عزفَ هانان لحناً صاخباً على البيانو لكي يجلب الانتباه إليه.

قال «لا أعتقد أنَّ قضيته الأولى تصمد. حتى باستثناء الأوروبيين هناك حفنة من الأميركيين يمكنهم أنْ يفعلوا ما فعله نورث».

كانت تلك أول إشارة حصل عليها ديك إلى أنهم يتحدثون عن آبيه نورث.

قال تومي «الفرق الوحيد هو أنَّ آبيه فعلها أولاً».

ألحّ هانان «لا أوافق. معروف عنه أنه موسيقي جيد لأنه أسرفَ في الشرب إلى درجة أنَّ أصدقاءه اضطروا إلى إخراجه من القضية بصورة ما –».

«ما قصة آبيه نورث؟ ما قصته؟ هل هو متورط؟».

«ألم تقرأ صحيفة *هيرالد* هذا الصباح؟».

«كلا».

«لقد مات. ضُرِبَ حتى الموت في حانة رخيصة في نيويورك. لم ينجح إلا في الزحف إلى حيث يُقيم في نادي راكيت لكي يموت -».

«*آبيه نورث؟*».

«نعم، هو، إنهم -».

«*آبيه نورث؟*»، نهض ديك واقفاً، «أأنت واثق من أنه مات؟».

استدار هانان نحو ماكيبن: «لم يزحف إلى نادي راكيت - بل إلى نادي هارفرد. أنا متأكّد من أنه لم ينتسب إلى نادي راكيت».

أصرّ ماكيبن «هذا ما قالته الصحيفة».

«لا بد أنَّ هناك خطأً. أنا متأكّد تماماً».

«*ضُرِبَ حتى الموت في حانة رخيصة*».

قال هانان «ولكن تصادفَ أني أعرف معظم أعضاء نادي راكيت. **لا بد** أنه نادي هارفرد».

نهضَ ديك، وتومي نهضَ أيضاً. انتفضَ الأمير تشيليتشيف خارجاً من حالة تأمُّل واهنة في لا شيء، ربما في ما إذا كانت أمامه فُرصٌ للخروج من روسيا، حالة تأمّل شغلته طويلاً حتى أصبحَ من المشكوك فيه أنه سيخرج منها على الفور، وانضمَّ إليهم في الرحيل.

«*آبيه ضُرِبَ حتى الموت*».

في الطريق إلى الفندق، وهي رحلة لم يكن ديك يعيها، قال تومي:

«نحن في انتظار الخيّاط كي يُنهي إنجاز بعض الملابس لكي نتمكَّن من الذهاب إلى باريس. أنا ذاهب إلى سوق البورصة ولن يستقبلوني إذا ظهرت بهذه الصورة. إنَّ الجميع في بلدكم يجمعون الملايين. هل أنت مُغادر حقاً غداً؟ إننا لا نستطيع حتى أنْ نتناول طعام العشاء معك. يبدو

أنَّ الأمير لديه عشيقة قديمة في ميونيخ. وقد عرَّجَ عليها ولكن اتّضح أنها ميتة منذ خمس سنوات وها نحن نتناول الطعام مع الابنتين».

أومأ الأمير برأسه إيجاباً.

«ربما كان في استطاعتي أنْ أُعدّ الأمر للدكتور دايفر».

قال ديك على الفور «كلا، كلا».

نام نوماً عميقاً واستيقظ على مسيرة حِداد بطيئة الحركة مارة من أمام نافذته. كان طابور طويل من الرجال بملابس رسمية، ويعتمرون خوذة عام 1914 المعروفة، ورجال ضخام يلبسون معاطف الفروك ويعتمرون قبعات من الحرير، تجّار، أرستقراطيون، ورجال عاديون. مجموعة من الشخصيات المحنكة ذاهبون ليضعوا أكاليل من الزهور على أضرحة الموتى. سار الموكب ببطء بما يُشبه التبجُّح بهيبة ضائعة، بجهد غابر، بحزنٍ منسيّ. كان الحزن على الوجوه رسمياً فقط، لكنَّ رِئتيّ ديك انفجرتا برهة بالندم على موت آبيه نورث، وعلى شبابه هو قبل عشر سنين.

الفصل السادس

وصل إلى إنسبرغ عند الغسق، وأرسل أمتعته إلى الفندق ومشى إلى قلب المدينة. عند الغروب ركع الإمبراطور ماكسيمليان يُصلي معتلياً رعاياه من المفجوعين من البرونز: في حديقة الجامعة تمشّى أربعة من اليسوعيين المبتدئين في حديقة الجامعة يقرأون. تماثيل الرخام التي تُذكّر بالحصارات، والزيجات، والمناسبات السنوية، بهَتَ لونها بسرعة عندما غابت الشمس، وتناولَ حساء الجزر مع السجق المقطَّع داخله، وشربَ أربع كيزان من البيرة ورفضَ كميةً هائلة من الحلوى يُعرَف باسم كعكة القيصر.

على الرغم من الجبال الشاهقة كانت سويسرا بعيدة جداً، وكانت نيكول بعيدة جداً. وأثناء تمشيه في الحديقة في وقت لاحق عندما أصبح الظلام حالكاً راح يفكّر فيها بتجرُّد، مُحبّاً لها من أجل أفضل صِفاتها. وتذكّر ذات مرة عندما كان العشب رطباً وجاءت إليه على عَجل، وخفّها الرقيق مُشبَّع بالندى. وقفتْ على حذائه منضمّة بشدّة إليه وأمسكتْ بوجهه، وكأنه كتاب مفتوح على صفحة معيَّنة.

همست «فكِّر كيف تُحبّني. أنا لا أطلب منكَ أنْ تحبّني دائماً هكذا، ولكن أطلب منكَ أنْ تتذكّر. في زاوية ما داخلي هناك دائماً الشخص الذي أنا عليه هذه الليلة».

لكنَّ ديك كان قد غادر إنقاذاً لروحه، وبدأ يفكِّر في ذلك. لقد أضاع ذاته – لم يتمكن من تحديد الساعة، أو اليوم أو الأسبوع، أو الشهر أو العام. وذات يوم نفذ في الأشياء، وحلَّ أشد المعادلات تعقيداً وكأنها

أبسط المسائل لأبسط مرضاه. وفي أوقات الفراغ كان يجد نيكول تُزهِر تحت حجر على ضفاف بحيرة زيوريخ ولحظة لقائه مع روزميري كان السهم قد أصبح كليلاً.

لقد ولَّدتْ مراقبته لوالده يُكافح في الأبرشيات الفقيرة لديه شهوة للمال ذات طبيعة ليست في أساسها مُكتَسَبة. لم تكن ضرورة صحيّة للشعور بالأمان - لم يكن قد شعر بمثل تلك الثقة بالنفس، ولا بمثل ذلك الامتلاك لزمام نفسه، أكثر مما حدث عندما تزوج من نيكول. لكنه كان يُعتبَر رجلاً عابثاً وسمح بصورة ما بالإقفال على مخزونه في أقبية وديعة ضمان آل وارن.

«كان ينبغي أنْ تكون هناك تسوية على الطريقة الأوروبية؛ لكنَّ الأمر لم ينته بعد. لقد بدَّدتُ تسع سنين في تعليم الأثرياء ألف باء اللياقة الإنسانية، لكنني لم أنتهِ بعد. ما زال في ذهني مواويل كثيرة أغنّيها».

تسكّع بين أكمات الورد ومساكب السرخس الحلوة الرطبة المبهَمَة. كان الجو دافئاً بالنسبة إلى شهر مثل تشرين الأول (أكتوبر)، لكنه بارد بحيث يرتدي المرء معطف جوخ ثقيلاً مزوَّداً عند العنق بأزرار صغيرة مرنة. انفصل شكل شخص عن شكل شجرة أسود وتبيَّن أنه امرأة كان قد مرّ بها في البهو وهي خارجة. لقد كان عاشقاً لكل امرأة جميلة يراها الآن، لشكلها وهي تلوح عن بُعد، ولظلالها على الجدار.

كان ظهرها يُواجهه وهي تواجه أضواء المدينة. أشعل عود ثقابٍ لابد أنها سمعت قدحه، لكنها لم تتحرَّك.

- أكانت تلك دعوة؟ أم دلالة على الشرود؟ لقد طال بقاؤه خارج عالم الرغبات البسيطة وإنجازاتها، وكان عاجزاً ومتردداً. وحسب عِلمه كان هناك دستور بين المتنقّلين بين المنتجعات المغمورة يستطيعون على أساسه أنْ يعثر كلٌ منهم على الآخر بسرعة.

- لعلّ الخطوة التالية يجب أنْ تصدر عنه. الأطفال الغرباء يجب أنْ يبتسم أحدهم للآخر ويقول «هيا بنا نلعب».

اقترب أكثر، وتحرّك الشبح بحركة جانبية. ربما سوف يُعامَل بازدراء كقارعي طبول كبش الفداء الذي سمعَ عنه في شبابه. ضربَ وجيبُ قلبه بقوة عند تلامسه مع المُبهم، والغامض، والضبابي والمُحيِّر. وفجأةً أشاح بوجهه، وعندما فعل خرقت الفتاة الغلالة السوداء التي شكّلتها من الأغصان الخضراء، وانعطفت حول مقعد بخطوة معتدلة ولكن حازمة وسارت على الدرب عائدة إلى الفندق.

في صباح اليوم التالي، انطلقَ ديك بمُصاحبة دليل ورجلَين آخرين في ارتقاء قمة باركارشبيتز. وحالما أصبحوا يُشرفون على أجراس الأبقار لأعلى المروج انتابهم شعور رائع - تطلّعَ ديك لتمضية الليل في الكوخ، مُستمتعاً بتعبه، وبكونه رئيساً للدليل، شاعراً بالابتهاج لكونه مجهول الهوية. ولكن عند حلول منتصف النهار، تبدّلتْ حالة الطقس إلى مطر متجمِّد وبرَد ورعد جبليّ. أراد ديك وأحد المتسلّقين الآخرين أنْ يستمرا، لكنَّ الدليل رفض ذلك. فعادوا آسفين يشقون طريقهم إلى إنسبرغ لكي يبدأوا من جديد في الغد.

بعد العشاء وشرب ملء زجاجة من النبيذ المحلي الثقيل في غرفة الطعام المُقفرة، شعر بالحماس، ومن دون أي سبب معيَّن، بدأ يفكّر في الحديقة. كان قد مرّ بالفتاة في البهو قبل العشاء، وهذه المرة نظرتْ إليه باستحسان، لكنّه بقيَ قلقاً: لماذا؟ كان في استطاعتي أنْ أحصل على نصيبي من النساء الجميلات في عصري متى شئت، فلماذا أبدأ الآن؟ بطيف، بقطعة من رغبتي؟ لماذا؟

تابعت مخيّلته عملها - انتصر الزهد، الغرابة الفعلية: يا إلهي، كان يمكن أيضاً أنْ أعود إلى الريفييرا وأضاجع جانيس كاريكامنتو أو فتاة ويلبرهازي. أأُحطُّ من قيمة كل تلك السنين بشيء رخيص وسهل؟

لكنه كان لا يزال متحمساً، وعاد من الشرفة وارتقى إلى غرفته لكي يُفكّر. إنَّ الانعزال مع الجسد والروح يُولِّد الوحشة، والوحشة تولّد المزيد من الوحشة.

في الطابق العِلوي راح يتمشى ويُفكّر في المسألة ويضع ملابس التسلّق على المدفأة مستفيداً من الحرارة الخفيفة: ومن جديد قابل برقية نيكول، لا تزال مختومة، رافقته يومياً من خلالها في خط رحلته. كان قد أرجأ فتحها قبل العشاء - ربما بسبب الحديقة. كانت برقية كبليّة آتية من بوفالو، عبر زيوريخ.

«توفي والدك بسلام هذه الليلة. *هولمز*».

شعر بإجفال حادّ بفعل الصدمة، واستجمعَ قِوى المقاومة ؛ ثم تدحرج متغلغلاً في عورته وبطنه وحنجرته.

أعاد قراءة الرسالة. جلس على السرير، يتنفّس ويُحدِّق؛ مفكِّراً أولاً بالفكرة الصِبيانية الأنانية القديمة التي ترافق موت أحد الوالدين، ماذا سيحدث لي الآن بعد أنْ رحل أول وأقوى حُماتي؟

مرّت هذه الفكرة التي تنتمي إلى الماضي وهو لا يزال يتمشّى في أرجاء الغرفة، متوقفاً بين حين وآخر لكي ينظر إلى البرقية. كان هولمز رسمياً هو مساعد خوري عند والده ولكنّه فعلياً، وعلى مدى عقود، كان قسيس الكنيسة. كيف توفي؟ بتقدُّم العمر - كان في الخامسة والسبعين من العمر. لقد عاش عمراً مديداً.

شعر ديك بالحزن لأنه مات وحيداً - لقد عاش بعد رحيل زوجته، وإخوته وأخواته؛ كان لديه أقرباء في فرجينيا، لكنهم كانوا فقراء ولا يستطيعون المجيء إلى الشمال، واضطرّ هولمز إلى التوقيع على البرقية. لقد أحبّ ديك والده - وعزا مراراً بعض الأحكام إلى ما كان يمكن لوالده ربما أنْ يفكِّر أو يفعل. كان ديك قد وُلِدَ بعد أشهر عِدّة من وفاة أختيه الصغيرتين، ولما أدرك والده أثَرَ ذلك على والدة ديك أنقذه من التدليل بأنْ أصبح مُرشده الأخلاقي. كان قد أصبح مُتعباً لكنّه استنهضَ همّته للقيام بتلك المهمة.

في الصيف كان الوالد والابن يتوجهان إلى البلدة معاً لكي يُلمّعان حذاءيهما - كان ديك يفعل ذلك بملابس البحار القطنية، وكان والده دائماً يفعل ذلك بثوب الكهنوت الأنيق والجميل - كان والده شديد الفخر بولده الصغير الوسيم، ونقل إليه كل معرفته عن الحياة، ولم تكن معرفة واسعة لكنَّ معظمها أشياء بسيطة وصحيحة، مسائل تتعلق بالسلوك ضمن نطاقه كرجل دين. «ذات مرة في بلدة غريبة في أول عهدي ككاهن، ولجتُ غرفةً مزدحمةً بالناس وشعرتُ بالارتباك لأنني لم أعرف مَنْ هو مُضيفي. تقدَّم مني عددٌ ممَّن أعرف، لكنني تجاهلتهم لأنني رأيتُ امرأة بشعرٍ وخَطَه الشيب جالسةً بجوار النافذة في الطرف المقابل من الغرفة. ذهبتُ إليها وعرَّفتُ عن نفسي. وبعد ذلك عقدتُ صداقات عديدة في تلك البلدة».

كان والده قد فعل ذلك بدافع من قلبه الطيب - كان والده متيقّناً من معدنه، مع افتخارٍ عميق بالأرملتين الفخورتين اللتين ربّتاه بحيث يؤمن بأنه لا شيء يعلو على الغرائز الصالحة، كالشرف، والكياسة، والشجاعة.

لطالما اعتبر الوالد أنَّ ثروة زوجته الصغيرة تخصّ ابنه، وأثناء دراسته في الجامعة وفي كلية الطب كان يُرسل إليه مبلغاً من المال يُغطي تكاليفه كلها أربع مرات في العام. كان أحد الذين يُقال عنهم بلهجة ختامية أنيقة في العصر الذهبي: «إنه جانتلمان حقيقي، ولكنه بلا طموح».

... أرسلَ ديك في طلب صحيفة. انتقى منها السفينة المتوجهة إلى أميركا وكان لا يزال يقطع أرض الغرفة جيئة وذهاباً من وإلى مكان البرقية المفتوحة على طاولة المكتب. ثم اتصل بنيكول في زيوريخ، متذكّراً العديد من الأشياء أثناء الانتظار، متمنياً لو أنه بقيَ دائماً طيباً كما كان في نيَّته أنْ يُصبح.

الفصل السابع

على مدى ساعة، وردّة فعل ديك العميقة تجاه وفاة والده تلازمه، والواجهة المهيبة لأرض وطنه، ميناء نيويورك، تبدو حزينة ومجيدة لعينه. ولكن حالما رسا على الشاطئ تلاشى هذا الشعور، لم يعُد ينتابه من جديد في الشوارع أو الفنادق أو القطارات التي حملته أولاً إلى بوفالو، ومن ثم شمالاً إلى فرجينيا مع جثمان والده. ولم يُعاوده شعوره بالانتماء إلى محيطه إلا بعد أنْ ولج القطار بحركة بطيئة أراضي مقاطعة ويستمورلاند الجيرية بغاباتها المنخفضة الأشجار؛ وفي المحطة شاهد نجماً يعرفه، وقمراً بارداً براقاً يخيِّمُ على تشيسابيك بيه؛ سمعَ قعقعة دواليب العربات الرباعية المزعجة وهي تدور، والأصوات البلهاء الجميلة، وخرير الأنهار البدائية الكسول تتدفّق بهدوء بأسمائها الهندية الرقيقة.

في اليوم التالي، في فناء الكنيسة وُوري والده الثرى بين مئات من آل دايفر، ودورسي، وهنتر. كانت لفتة ودّية جداً أنْ يُترَك هناك وأقرباؤه من حوله. كانت الأزهار منتشرة على التربة البنيّة غير المستوية. لم تعد لديه الآن أي صِلات تربطه بالمكان ولم يعتقد أنه سيعود إليه. ركع على التربة القاسية. إنه يعرف أولئك الموتى كلهم، بوجوههم التي تركت تقلّبات الطقس عليها آثارها وعيونهم الزرقاء الوامضة، والأجساد النحيلة العنيفة، والأرواح المصنوعة من تربة جديدة في ظلام القرن السابع عشر المُحتشِد بالغابات.

«وداعاً، يا أبي – وداعاً، يا آبائي جميعاً».

***

على رصيف السفينة البخارية ذي السقف الطويل، يُصبح المرء في بلدٍ لم يعد موجوداً هنا ولم يُصبح بعد هناك. القنطرة الصفراء الضبابية تضجّ بأصداء الهتافات. هناك هدير الشاحنات ودمدمة صناديق السيارات، وثرثرة طيور اللقلق الحادّة، وتباشير رائحة البحر الملحية. ويُسرع المرء في الاجتياز، على الرغم من توفّر الوقت؛ الماضي، القارة، أصبحت خلفه؛ المستقبل هو الفمُ المتوهجُ على جانب السفينة؛ والحاضر المُشوَّش هو الزقاق الغامض، المُضطرب.

يصل أعلى المعبر الخشبي ومشهد العالم يتكيَّف، ويضيق. يشعر المرء أنه مواطنٌ في ائتلافِ جمهورياتٍ أصغر حجماً من أندورا[1]، ولا يعود واثقاً من أي شيء. والرجال الجالسون على طاولة مُحاسبة السفينة أشكالهم غريبة تشبه أشكال الكبائن؛ وعيون المسافرين وأصدقائهم مملوءة بالازدراء. بعد ذلك هناك الصفير العالي والحزين، والاهتزاز الهائل ومن ثم تتحرك السفينة، الفكرة الإنسانية. وينزلق رصيف الميناء بما عليه من وجوه مبتعداً وتُصبح السفينة برهة كقطعة تمزّقت مُصادفة عنهم؛ تصبح الوجوه نائية، بلا صوت، والرصيف هو أحد تلك الأشكال الضبابية العديدة على طول الواجهة المائية. ويتدفق الميناء بنعومة نحو البحر.

ومعه تدفّقَ ألبرت مكيسْكو، الذي وصَفَته الصحف بأنه أنفس حمولة في السفينة البخارية. كان مكيسْكو يلقى رواجاً واسعاً. كانت رواياته خليطاً من أفضل أعمال مُعاصريه، إنجازاً فذّاً لا يُستهان به، بالإضافة إلى أنه يمتلك موهبة ترقيق والحطّ من قيمة ما يستعير، بحيث أنَّ العديد من القراء يُفتنون بالسهولة التي يُتابعون فيها كتاباته. وقد عمل النجاح على تحسين شخصيته وجعله متواضِعاً. لم يكن مخدوعاً بقدراته – كان يُدرك أنه يمتلك من الحيوية ما يفوق ما لدى العديد من الرجال ذوي

1- أندورا: إمارة صغيرة جبليّة في جنوب غرب أوروبا، تقع بين فرنسا وإسبانيا: يقول التراث إنَّ شارلمان منحها الاستقلال في القرن التاسع لأنها ساعدته في مُحاربة المسلمين. – المترجم

الموهبة المتفوقة، وقد صمّم على الاستمتاع بالنجاح الذي حقّقه. وكان جديراً به أنْ يقول «أنا لم أُنجز شيئاً بعد. لا أعتقد أنني أتمتع بأي عبقرية حقيقية. ولكن إذا واظبتُ على المحاولة فقد أؤلف كتاباً جيداً». كان قد قام بمحاولات جيدة من بدايات متواضعة. والمحاولات الفاشلة في الماضي تم نسيانها. في الحقيقة، كان نجاحه قائماً من الناحية النفسية على أساس ثُنائيته مع تومي باربان، وعلى ضوئه، مع ذبول ذِكره في ذاكرته، خلقَ، من جديد، احتراماً جديداً للنفس.

عندما لمح ديك دايفر في اليوم الثاني من الانطلاق، تردّد قليلاً، ثم عرَّفَ عن نفسه بطريقة ودّية وجلس. وضع ديك الكتاب الذي كان يقرأ جانباً، وبعد بضع دقائق استغرقها منه إدراكه التغيير الذي طرأ على مكيسكو، واختفاء انزعاج الرجل من حسّ الدونيّة، وجد نفسه مسروراً بالتحدّث معه. كان مكيسكو «واسع الاطّلاع» في سلسلة من المواضيع تتخطى موضوع غوثه - كان من المُثير الإصغاء إلى عددٍ غفير من الخليط السطحي الذي أشار إليه بوصفه آراءه. وتعارفا وانضمَّ ديك إلى آل مكيسكو وشاركهما عدة وجبات طعام. وكان آل مكيسكو قد دُعيا إلى الجلوس على مائدة قبطان السفينة، لكنهما أخبرا ديك بعنجهية مُحدَثة أنهما «لا يطيقان تلك العُصبة».

كانت فيوليت قد أضحت شخصية فخمة الآن، مُدجّجة بأحدث الأزياء الغالية، تفتنها الاكتشافات الصغيرة التي تقوم بها مراهقات الأسر الكريمة. وكان في وسعها، حقاً، أنْ تتعلّمها من أمها في البوا لكنَّ روحها وُلِدَتْ بشكل كئيب في دور السينما الصغيرة في أيداهو، ولم يكن لديها ما يكفي من الوقت تكرّسه لأمها. والآن هي «منتمية» - مع عِدة ملايين من الناس - وسعيدة، على الرغم من أنَّ زوجها لا يزال يُسكتها عندما تُصبح ساذجة بعنف.

انطلقَ آل مكيسْكو إلى جبل طارق. وفي مساء اليوم التالي في نابولي أقلَّ ديك عائلة ضائعة وفي حالةٍ بائسة تتألّف من فتاتين وأمهما في الحافلة

المتوجهة من الفندق إلى المحطة. كان قد رآها على متن السفينة. لقد اجتاحته رغبة طاغية في المساعدة، أو في استجلاب الإعجاب: وفَّر لها قسطاً من المرح؛ اشترى لها نبيذاً بعد تردُّد، وشاهدها بسرور وهي تستعيد ذاتها اللائقة. تظاهرَ بأنها هذا الشيء أو ذاك، وعندما استقرّ على مؤامرته، أسرفَ في شرب الخمر لكي يدعم الوهم، وطوال ذلك الوقت كانت تلك النسوة لا يفكّرن إلا في أنّ ذلك نعمة سقطت من السماء. ومع انصرام الليل انسحب من بينهن واهتزَّ القطار وشخر في كاسينو وفروسينون. وفي الصباح الباكر، بعد الرحيل الغريب الأطوار لبعض الأميركيين في محطة روما، ذهب ديك إلى فندق كويرينال، وهو مُرهق بعض الشيء.

أثناء جلوسه عند النضد حدَّقَ فجأةً ورفع رأسه، وكأنَّ الخمر يلعب برأسه، ويُدفئ بطانة معدته، دافعاً دفقاً إلى قمة رأسه، شاهد الشخص الذي جاء ليُقابله، الشخص الذي من أجله اجتاز البحر المتوسط.

في الوقت نفسه رأته روزميري، وتعرَّفت عليه قبل أنْ تُحدّد موقعه؛ نظرت خلفها مُجفلة، ثم تركت الفتاة التي كانت برفقتها وهرعت نحوه. وقف ديك منتصب القامة، حابساً أنفاسه، والتفت نحوها. وأثناء اجتيازها البهو، وجمالها يتهيّأ كمهرة صغيرة أُعطيت جرعة زيت البذرة السوداء وحوافرها مصقولة، صدَمته وأيقظته؛ لكنَّ كل شيء حدث بسرعة كبيرة بحيث لم يكن في وسعه إلا أنْ يعمل على إخفاء تعبه قدر إمكانه. ولكي يُقابل الثقة في عينيها المتلألئتين حشدَ حركة إيماء مُفتعلة مفادها، «سوف تظهرين هنا – من بين سكان العالم أجمع».

أطبقت يداها المكسوتان بقفاز على يديه على النضد؛ «ديك – نحن نصور رواية «*العظمة التي كانت روما* – على الأقلّ نعتقد أننا نفعل؛ قد نتوقف في أي يوم».

نظر إليها بإمعان، مُحاولاً أنْ يجعلها حييّة قليلاً، لكي لا تلاحق عن قُرب ذقنه غير الحليقة، وياقته المجعّدة التي نام وهو يضعها. ولحُسن الحظ كانت على عَجَل.

«إننا نبدأ باكراً لأنَّ الضباب يزول في الساعة الحادية عشرة - اتصل بي عند الثانية».

في غرفته استجمع ديك قِواه. حجز مكالمة هاتفية من أجل الظهيرة، وخلعَ ملابسه، وغاص بالمعنى الحرفي للكلمة في نومٍ عميق.

نام وفاته موعد المكالمة لكنه استيقظ عند الواحدة، منتعشاً. أفرغ حقيبته، وأرسل ملابسه للغسل. حلقَ ذقنه، وتمدَّد مدة نصف ساعة في حمّام دافئ ثم تناول طعام الإفطار. كانت الشمس قد غاصت في شارع فيا ناتزيوناليه وتركها تتسلل من خلال أستار الأبواب مع رنين خواتم نحاسيّة قديمة. وفي انتظار كيّ بذلته، قرأ في صحيفة *كورييير ديلا سيرا* عن «رواية سنكلير لويس القصيرة *وول ستريت* التي يُحلل فيها الحياة في بلدة أميركية صغيرة[1]». ثم حاول أنْ يفكّر في روزميري.

في أول الأمر لم تخطر في باله أي فكرة. كانت صغيرة وجذّابة، ولكن هكذا كان حال توبسي أيضاً. وخمَّنَ أنَّ لها عُشّاقاً وهي بادلتهم الحب على مدى السنوات الأربع الأخيرة. في الحقيقة، لا يعلم المرء مقدار الحيِّز الذي يحتله في حياة الناس. لكنّ حبّه ظهر من قلب هذا الضباب - إنَّ أفضل الصِلات تتم عندما يعرف المرء العوائق ومع ذلك يظل يرغب في الحِفاظ على العلاقة. عاد به الماضي إلى الوراء ورغب في ضمّ الطريقة السلسة التي تهبُ فيها نفسها داخل صَدَفتها النفيسة، إلى أنْ أغلقها، إلى أنْ لم تعُد موجودة خارجه. حاولَ أنْ يجمع كل ما يجذبها - كان أقلّ من حصيلة ما قبل أربع سنوات مضت. إنَّ الثامنة عشرة قد تنظر إلى الرابعة والعشرين من خلال ضباب المراهقة المتلاشي؛ لكنَّ الرابعة والعشرين قد ترى الثامنة والثلاثين بصفاءٍ بصير. زيادة على ذلك، كان ديك في ذروة عنفوانه الانفعاليّ في اللقاء الثاني؛ ومنذ ذلك الحين وهو مُصاب بآفة الحماسة.

عندما عاد خادمه الخاص ارتدى قميصاً ووضعَ ياقةً وربطةَ عنق

1- الجملة في الأصل وردت بالإيطاليّة. - المترجم

سوداء اللون مزوّدة بلؤلؤة؛ كانت حبال القيطان المُثبّتة إلى نظارته تمر من خلال حبّة لؤلؤ أخرى بالحجم نفسه تتدلى على مسافة بوصة. بعد النوم، استعاد وجهه السُمرةَ الوردية بعد قضاء العديد من فصول الصيف في الريفييرا، ولكي يكتسب المرونة وقف على يديه على كرسي إلى أنْ وقع قلمه الحبر والقطع النقدية. عند الساعة الثالثة اتصل بروزميري وطلب منها أنْ تصعد إليه. وبسبب حركاته البهلوانية أصابه دوار لحظيّ، فتوقف عند البار لكي يتناول الجن مع منشّط.

«مرحبا، دكتور دايفر!».

وفقط بسبب حضور روزميري في الفندق عرِفَ ديك على الفور أنَّ الرجل هو كوليس كلاي. كان لا يزال على ثقته القديمة بنفسه وظهرت عليه هيئة الثراء مع كتل لغدد كبيرة فجائية.

سأل كوليس «هل تعلم أنَّ روزميري هنا؟».

«قابلتُها مُصادفة».

«لقد كنتُ في فلورنسا وسمعت أنها هنا، لهذا جئت إلى هنا في الأسبوع الفائت. لن تتعرَّف على الطفلة الصغيرة». ثم عدَّل في صياغة الجملة، «أعني أنها تربَّتْ بعناية والآن أضحت امرأة مشهورة - إذا فهمتَ قصدي. صدّقني، إنَّ الشبان الإيطاليين يتهافتون عليها! وما أكثرهم!».

«أنتَ تدرس في فلورنسا؟».

«أنا؟ طبعاً، أنا أدرس الهندسة المعمارية هناك. سأعود في يوم الأحد - سأمكث لحضور السباقات».

منعه ديك بصعوبة من إضافة المشروب إلى الحساب الذي فتحه في البار، كتقرير سوق البورصة.

الفصل الثامن

عندما خرج ديك من المصعد سار على رواق ملتوٍ وانعطفَ أخيراً في اتّجاه صوتٍ بعيدٍ خارج باب مُضاء. كانت روزميري ترتدي بيجامتها السوداء؛ ومائدة الغداء لا تزال ممدودة في الغرفة؛ كانت تشرب القهوة.

قال «ما زلتِ جميلة؛ بل أجمل قليلاً من ذي قبل».

«هل تريد قهوة، أيها الشاب؟».

«آسف لأني كنتُ أشعث المظهر هذا الصباح».

«لا تبدو بحالٍ جيدة – هل أنت على ما يُرام الآن؟ أتريد قهوة؟».

«لا، شكراً».

«أراك أصبحتَ على ما يرام، لقد خفت عليك هذا الصباح. أمي ستأتي في الشهر القادم، إذا بقيَت الشركة. إنها دائماً تسألني إنْ كنتُ قد رأيتُك هنا، وكأنّها تعتقد أننا جيران مُقرّبون. لطالما أُعجِبَتْ أمي بك – لطالما شعرتْ بأنني يجب أنْ أتعرّف عليك».

«حسن، يسعدني أنها ما زالت تفكّر فيّ».

طمأنته روزميري «أوه، إنها تفعل، وكثيراً».

قال ديك «لقد رأيتكِ هنا وشاهدتكِ في الأفلام السينمائية. ذات مرة جعلتهم يقدمون عرضاً واحداً لأجلي لفيلم *أثيرة والدها*».

«لقد قمتُ بدورٍ جيد في هذا الفيلم إذا لم يكن قد قُصّ منه».

عبرت خلفه، وهي تلمس كتفه أثناء مرورها. اتصلتْ هاتفياً من أجل إزالة المائدة واستقرت على الأريكة الكبيرة.

«عندما قابلتُك كنتُ مجرد فتاة صغيرة، يا ديك. والآن أنا امرأة».

«أريد أنْ أعرف كل شيء عنك».

«كيف حال نيكول – ولانيير وتوبسي؟».

«إنهم في أحسن حال. كثيراً ما يتحدثون عنك –».

رنّ جرس الهاتف. وبينما كانت ترد على المكالمة راح ديك يتفحّص روايتين – واحدة من تأليف إدنا فربر، وواحدة من تأليف ألبرت مكيسكو. جاء النادل لأخذ المائدة؛ بعد أنْ حُرِمَتْ روزميري من وجودها بدتْ أكثر شعوراً بالوحدة وهي ببيجامتها السوداء.

«... لديّ زائر... كلا، لست في أحسن حال. يجب أنْ أذهب إلى الخيّاط لأقوم بعملية قياس طويلة... كلا، ليس الآن...».

ابتسمت روزميري لديك، وكأنّها مع اختفاء المائدة شعرتْ بالتحرُّر – وكأنهما نجحا معاً في التخلُّص من مشاكل العالم كلها وأصبحا الآن في سكينة في جنتهما الخاصة.

قالت «انتهينا. هل تعلم أني أمضيتُ الساعة الأخيرة في الاستعداد من أجلك».

لكنّ جرس الهاتف رنَّ من جديد يستدعيها. نهضَ ديك ليُغيِّر مكان قبعته من السرير إلى منصب الأمتعة، ووضعت روزميري يدها على سماعة الهاتف بخوف، «لا أظنك ذاهباً!».

«كلا».

بعد انتهاء الاتصال حاول أنْ يُلملم فترة المساء، قائلاً: «إنني أتوقع بعض الغذاء من الناس الآن».

وافقته روزميري «أنا أيضاً. الرجل الذي اتصل بي الآن كان يعرف أحد أقربائي ذات يوم. تصوّر أنّه يتصل من أجل سببٍ كهذا!».

نعم لقد أخفتت الأضواء من أجل الحب. لأي سبب آخر تريد أنْ تُسكته عن إبداء رأيه فيها لقد بعثَ بكلماته إليها كالرسائل، وكأنها غادرته قبل أنْ تصلها ببعض الوقت.

«من الصعب أنْ أجلس هنا بالقُرب منك، ولا أقبّلك». ثم تبادلا قبلة مشبوبة على الأرض وسط الغرفة. التصقت به، ثم عادتْ إلى أريكتها.

ما كان يمكن أنْ يستمر الوضع فقط ممتعاً في الغرفة. أماماً أو خلفاً؛ عندما رنّ جرس الهاتف مرة أخرى تمشّى إلى داخل غرفة النوم واستلقى على سريرها، فاتحاً رواية ألبرت مكيشْكو. وفي الحال دخلتْ روزميري وجلستْ إلى جواره.

علّقتْ «لديك أطول رموشٍ رأيتُها في حياتي».

«لقد عُدنا الآن إلى الحفل الموسيقي المُخصص للأطفال. من بين الحاضرين الآنسة روزميري هويت، المولعة بالرموش -».

قبّلته وجرّها نحو الأسفل بحيث أصبحا يستلقيان جنباً إلى جنب، ثم تبادلا القبل إلى أنْ أخذا يلهثان معاً. كان تنفّسها شاباً ومتلهفاً ومُثيراً، وكانت شفتاها مُشقّقتين قليلاً لكنهما رقيقتان عند الزاويتين.

عندما كانا لا يزالان أطرافاً وأقداماً وملابس، وصراع ذراعيه وظهره، وحنجرتها وثدييها، همستْ، «كلا، ليس الآن - هذه الأشياء موزونة».

ضغطَ بانضباط شغفَه في إحدى زوايا عقله، لكنه حمَلَ هشاشتها على ذراعه إلى أنْ أصبحتْ أعلى منه بمقدار نصف قدم، وقال بخفّة:

«حبيبتي - هذا لا يهم».

كان تعبير وجهها قد تغيّر وهو ينظر إليه؛ كان فيه ضوء القمر الأبدي.

قالت «سيكون ذلك عدالة شِعرية إذا صدر عنك». استدارت مبتعدة عنه، ومشت إلى المرآة، ولملمت شعرها المشوّش بيديها الاثنتين. وفي الحال قرّبتْ كرسياً من السرير وداعبت وجنته.

طلب منها «أخبريني الحقيقة عنك».

«أنا دائماً أُخبرك الحقيقة».

«تقريباً - ولكن بصورة مُفكّكة».

ضحكا معاً، لكنه تابع.

«أحقاً أنكِ عذراء؟».

غرّدتْ «كلاااا! لقد ضاجعتُ ستمئة وأربعين رجلاً – إذا كان هذا الجواب يُرضيك».

«هذا ليس من شأني».

«هل تريدني أنْ أكون حالة في الطب النفسي؟».

«بما أنني أعتبركِ فتاةً طبيعية جداً في الثانية والعشرين، تعيش في عام 1929، أعتقد أنه كانت لك بضع محاولات من الحب».

قالت «كلها كانت – مُجهضة».

لم يُصدقها ديك. لم يستطع أنْ يُقرر إنْ كانت تضع عن عمد حاجزاً بينهما أم أنَّ القصد هو جعل الاستسلام في النهاية أكثر أهمية.

اقترح «هيا نقوم بنزهة في بينتشيو».

انتفضَ وعدَّل من شأن ملابسه ومسّد شَعره. لقد جاءت لحظة وانقضتْ بصورة ما. لقد كان ديك على مدى ثلاث سنوات المثل الأعلى الذي كانت روزميري تقيس على أساسه باقي الرجال، وطبعاً تطورت مرتبته واتّخذت أبعاداً بطولية. لم ترِد له أنْ يكون مثل الآخرين، ومع ذلك كانت هناك المطالب المُلحّة نفسها، وكأنه أراد أنْ يقتطع جزءاً من نفسه، ويُخفيه في جيبه.

أثناء سيرهما على المرج بين الشجيرات والفلاسفة، وآلهة المروج والمياه الساقطة، أمسكت بذراعه بإحكام حميميّ، مُستقرةً عليها بسلسلة من التعديلات الصغيرة، وكأنها أرادت لها أنْ تكون في وضع صحيح لأنها ستتمسك بها إلى الأبد. انتزعت غصناً صغيراً وكسرته، لكنها لم تجد فيه أي مرونة. وفجأةً عندما شاهدت ما تريد في وجه ديك أمسكت بيده ذات القفاز وقبّلتها. ثم أخذتْ تثبُ كالطفلة من أجله إلى أنْ ابتسم وضحكتْ وبدآ يقضيان وقتاً ممتعاً.

«لا أستطيع أنْ أخرج معك هذه الليلة، يا عزيزتي، لأنني أعطيتُ

وعداً إلى بعض الأشخاص قبل وقت طويل. ولكن إذا استيقظتِ باكراً سأنقلك إلى موقع التصوير في الغد».

تناول الطعام وحده في الفندق، وأوى إلى الفراش باكراً، وقابل روزميري في البهو عند الساعة السادسة والنصف. وتوهجت وهي جالسة إلى جواره نضرةً وجديدة تحت أشعة شمس الصباح. خرجا عبر بورتا سان سيباستيانو وعلى طول الطريق الآبي إلى أنْ وصلا إلى موقع تصوير هائل في الساحة العامة أكبر من الساحة نفسها. ثم حوَّلته روزميري إلى رجل قاده بدوره وتجول بين المعدّات المسرحية الضخمة: الأقواس وصفوف المقاعد والساحة المفروشة بالرمال. كانت تعمل على خشبة مسرح تمثِّل غرفةَ حراس السجناء المسيحيين، وفي الحال ذهبا إلى هناك وراقبا نيكوتيرا، وهو أحد ساحري النساء العديدين الذين يحدوهم الأمل، يتبختر ويتّخذ وِقفات أمام عدد من النساء «الآسرات»، عيونهن كئيبة حالمة تبدو مُروِّعة بفعل المسكرة.

ظهرت روزميري بالرداء الروماني الطويل حتى الكاحلين.

همستْ لديك «راقب هذا. أريد رأيك. إنَّ كل مَنْ يُشاهد المتدافعين يقول -».

«مَنْ هم المتدافعون؟».

«الذين فرّوا بما سرقوا في اليوم السابق. يقولون إنه الدور الأول الذي ظهرت فيه جذّابة جنسياً».

«لا ألاحظ هذا».

«لن تلاحظ! لكنني كنتُ كذلك».

تحدَّثَ نيكوتيرا بردائه من جلد النمر بتأنٍ إلى روزميري بينما كان عامل الكهرباء يتناقش مع المخرج، وهو يميل عليه. وأخيراً دفع يده بخشونة عبر جبينه ومسح العرق، وعلّقَ دليل ديك: «ها قد عاد إلى العمل من جديد، وأي عمل!».

سأل ديك «مَنْ؟»، ولكنْ قبل أنْ يتمكّن الرجل من الإجابة اقتربَ المُخرج منهما بخُطى سريعة.

قال باتّقاد لديك «مَن الذي يعمل - أنتَ نفسك تعمل»، وكأنه يُخاطب هيئة مُحلّفين في محكمة، «عندما يكون منهمكاً في العمل يعتقد أنَّ الجميع مثله، وأكثر!». حدَّقَ بغضب إلى الدليل برهة أطول، ثم صفّقَ بيديه: «حسن - كل مَن في الموقع».

كان الأمر أشبه بزيارة عائلة مضطربة ضخمة. اقتربت ممثلة من ديك وتحدثت إليه على مدى خمس دقائق مُعتقدة أنه ممثل وصل حديثاً من لندن. وعندما اكتشفت خطأها ابتعدتْ مُسرعة مذعورة. وكانت المجموعة تشعر إما بتفوُّق هائل أو بعقدة النقص تجاه العالم الخارجي، لكنَّ القسم الأول كان السائد. لقد كانوا أناساً ذوي شجاعة ومثابرة؛ ارتقوا إلى موقع بارز في الدولة بحيث أنهم على مدى عقد من الزمان لم يرغبوا إلا في التسلية.

انتهتْ الجلسة مع تحوّل الضوء إلى ضبابيّ - ضوء جميل يُحبه الرسامون، ولكن، بالنسبة إلى آلة التصوير، لا يُقارَنْ بهواء كاليفورنيا النقيّ. تبعَ نيكوتيرا روزميري إلى السيارة وهمسَ لها بشيء - نظرتْ إليه من دون أنْ تبتسم وهي تودعه.

كان ديك وروزميري قد تناولا الغداء في كاستيللي دي سيزاري، وهو مطعم ممتاز يقع في دارة ذات مصطبة عالية تطل على أطلال ساحة رومانية تنتمي إلى فترة غير مُحدَّدة من الانحطاط. طلبت روزميري كأس كوكتيل مع قليل من النبيذ، وطلب ديك ما يكفي بحيث يتخلّص من إحساسه بالسخط. بعد ذلك عادا بالسيارة إلى الفندق، متوردَين وسعيدَين، فيما يُشبه الهدوء المنتشي. لقد أرادتْ أنْ تضاجَع، وما كان قد بدأ بافتتانٍ بريء على الشاطئ تحقّقَ أخيراً.

الفصل التاسع

حصلت روزميري على موعد آخر على العشاء، في حفل عيد ميلاد عضو في الشركة. والتقى ديك مُصادفة بكوليس كلاي في البهو، لكنه أراد أنْ يتناول العشاء وحده وادّعى بأنَّ لديه موعداً في إكسيليسيور. شرب الكوكتيل مع كوليس وتبلور سخطه المُبهم واتّضح أنه نَزَق – لم يعُد لديه عذر للتهرُّب من المستوصف. لم يكن ذلك افتتاناً بقدر ما هو ذكرى رومانسية. كانت نيكول هي فتاته – وغالباً ما ينفطر قلبه عليها، لكنها كانت فتاته. كان الوقت الذي يقضيه مع روزميري هو استرسال في المتعة – والوقت مع كاليس كان هباءً في هباء.

عند باب مدخل إكسيليسيور التقى بيبي وارن. عيناها الكبيرتان الجميلتان، تبدوان بالضبط ككرتين زجاجيتين، تحدّقان إليه بدهشة وفضول. «حسبتُ أنكَ في أميركا، يا ديك! هل نيكول معك؟».

«لقد عدتُ عن طريق نابولي».

ذكّرتها العصابة السوداء التي على ذراعه بأنْ تقول: «أنا شديدة الأسف من أجل مُصابك».

وطبعاً تناولا العشاء معاً.

سألته «أخبرني عن كل شيء».

أمدّها ديك برواية للحقائق، فعبست بيبي. وجدتْ أنَّه من الضروري أنْ تضع اللوم على شخص ما فيما يخص الكارثة التي حلّت بحياة أختها.

«هل تعتقد أنَّ الدكتور دوملر اتّخذ المسار الصحيح معها منذ البداية؟».

«لم يعُد هناك تنوّع في العلاج - طبعاً إنَّ المرء يحاول أنْ يبحث عن الشخصية المناسبة لمعالجة قضية معيَّنة».

«ديك، إنني لا أدّعي أنني أنصحكَ أو أنني أعرف أكثر منك عن الأمر، ولكن ألا تعتقد أنَّ التغيير قد يُفيدها - أنْ تخرج من جو المرض ذاك وتعيش في العالم كبقية الناس؟».

ذكَّرها قائلاً «لكنكِ كنتِ متحمّسة للعيادة. أخبرتني بأنكِ لا يمكن أنْ تشعري بالأمان بشأنها -».

«ذلك كان عندما كنتَ تعيش حياة الزهد تلك على شاطئ الريفييرا، فوق تل بعيد عن كل إنسان. أنا لا أنوي أنْ أعود إلى تلك الحياة. بل أعني، على سبيل المثال، لندن. إنَّ الإنكليز هم أشد سلالات العالم توازناً».

عارضها قائلاً «إنهم ليسوا كذلك».

«بل هم كذلك، أنا أعرفهم في الواقع. أعني أنه قد يكون مفيداً لك أنْ تسكن في لندن في فصل الربيع - أنا أعرف منزلاً لطيفاً في ساحة تالبوت يمكنك أنْ تستأجره، مفروشاً. أعني، أنْ تعيش مع شعبٍ إنكليزيّ عاقلٍ، ومتوازن».

كان يمكن أنْ تواصل الكلام وتخبره قصص الدعاية السياسية القديمة التي تنتمي إلى عام 1914 لو أنه لم يضحك ويقول:

«كنتُ أقرأ كتاباً من تأليف مايكل آرلن وإذا كان هذا - -».

قامت بتحطيم مايكل آرلن بحركة سريعة من ملعقة السلطة.

«إنه لا يتكلّم إلا عن المنحطين. إنني أعني بكلامي الإنكليز الجيدين».

عندما أخذتْ تُلغي أصدقاءها هكذا أخذ ديك يستبدلهم في ذهنه فقط بصورة الوجوه الغريبة، الجامدة التي تشغل الفنادق الصغيرة في أوروبا.

كرّرت بيبي، كتوطئة لجولة أخرى من الكلام «طبعاً هذا ليس من شأني، لكنَّ ترْكها وحدها في جو كذاك -».

«لقد ذهبتُ إلى أميركا بسبب وفاة والدي».

«أنا أفهم هذا، لقد عبّرت لك عن مدى أسفي على ذلك»، قالت هذا وهي تعبث بحبات العنب الزجاجية التي تتألف منها قِلادتها، «ولكن هناك كماً كبيراً من المال الآن. ما يكفي ويزيد الجميع، وينبغي استخدامه من أجل تحسين صحة نيكول».

«المشكلة الوحيدة هي أنني لا أستطيع أنْ أتخيّل نفسي مُقيماً في لندن».

«ولِمَ لا؟ أعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تعمل هناك كما في أي مكان آخر».

استرخى في جلسته ونظر إليها. إذا كانت قد ارتابت بالحقيقة القديمة العفنة، بالسبب الحقيقي لمرض نيكول، فإنها صمّمت حتماً على أنْ تنكرها بينها وبين نفسها، وتعيدها إلى خزانة مُغبرّة كما فعلت بإحدى اللوحات التي اشترتها خطأً.

تابعا الحديث في ألبيا، حيث اقترب كوليس كلاي من طاولتهما وجلس، وأخذ عازف غيتار موهوب ينقر على الأوتار ويغني Suona Fanfara Mia في القبو المُكدَّس ببراميل النبيذ.

قال ديك «قد لا أكون الشخص المناسب لنيكول، ومع ذلك كان يمكن لها ربما أنْ تتزوج من شخص من نمطي، شخص اعتقدتْ أنَّ في استطاعتها أنْ تعتمد عليه - بلا حدود».

فجأة قالت كأنها تفكّر بصوتٍ عالٍ «هل تعتقد أنها ستكون أكثر سعادة وهي مع شخص آخر؟ طبعاً يمكن ترتيب هذا الأمر».

ولم تُدرك إلا بعد أنْ رأتْ ديك ينحني إلى الأمام بضحكٍ لا يمكن كبحه استحالة تحقيق كلامها.

طمأنته «أوه، أنت تفهم ما أعني. إياك أنْ تفكّر لحظة واحدة في أننا لسنا ممتنين لِما فعلت. ونحن نعلم أنكَ مررتَ بوقتٍ عصيب -».

احتجَّ قائلاً «حباً بالله، لو لم أكنْ أحبّ نيكول لاختلف الأمر».

سألته بخوف «لكنّك تحب نيكول فعلاً؟».

كان كوليس عندئذٍ قد لحق بمجرى الحديث فأسرع ديك إلى تغييره: «ماذا لو تحدثنا في موضوع آخر – عنك، مثلاً. لماذا لا تتزوجين؟ لقد سمعنا أنكِ خُطِبتِ إلى اللورد بيلي، قريب الـ –».

تغلّب عليها الحياء وتملّصتْ قائلة «أوه، كلا، ذلك كان في العام الفائت».

أصرّ ديك بعناد «لماذا لا تتزوجين؟».

«لا أعلم. أحد الذين أحببت قُتِلَ في الحرب، والآخر تخلّى عني».

«أخبريني عن هذا. أخبريني عن حياتك الخاصة، بيبي، وعن آرائك. أنتِ لا تفعلين هذا أبداً – نحن دائماً نتحدث عن نيكول».

«كلاهما كانا من الإنكليز. لا أعتقد أن هناك أي نمط في العالم أرقى من الإنكليزي الممتاز، ما رأيك؟ فإذا كان موجوداً فأنا لم أقابله. هذا الرجل – أوه، إنها قصة طويلة. أنا أكره القصص الطويلة، ألا تكرهها أنت؟».

قال كوليس «كثيراً!».

«في الواقع، كلا – أنا أحبّها إذا كانت جيدة».

«هذا شيء أنتَ تفعله بصورة جيدة جداً، يا ديك. في استطاعتك أنْ تحرّك مجموعة من الناس بمجرد إيراد جملة أو قول هنا وهناك. أعتقد أنَّ هذه موهبة رائعة».

قال برقّة «إنها خدعة». هذا زاد آراءها التي يُعارضها فيها لتُصبح ثلاثة.

«طبعاً أنا أحب الأسلوب الرسمي – أحب أنْ تكون الأشياء هكذا، وبأعلى مستوى. أعلم أنكَ ربما لا تكون كذلك، ولكن يجب أنْ تعترف أنها دلالة الصلابة فيَّ».

لم يزعج ديك نفسه حتى بمُخالفة هذا.

«طبعاً أنا أعلم أنَّ الناس يقولون إنَّ بيبي وارن تهرع متجولة في أرجاء أوروبا، تلاحق بدعة بعد أخرى، وتفوِّت على نفسها أفضل ما في الحياة، لكنني أخالف هذا وأرى أنّي إحدى أولئك القلائل الذين يلاحقون أفضل الأشياء. لقد تعرّفت على أشدّ الناس إثارة للاهتمام في زمني».

غطّى الإيقاع الخفيف لأغنية أخرى على صوتها، لكنها رفعته ليطغي عليه، «ولم أرتكب إلا القليل من الأخطاء الكبيرة -».

«- ما عدا هذه الأخطاء الكبيرة جداً، يا بيبي».

لمحتْ في عينه شيئاً من المزاح فغيَّرت الموضوع. بدا مستحيلاً عليهما أنْ يتّفقا على أي شيء مُشترَك. ولكنْ أعجبه شيءٌ فيها، وأودعها الإكسيليسيور مع سلسلة من عبارات المديح جعلتها تُضيء.

***

أصرّت روزميري على استضافة ديك على الغداء في اليوم التالي. ذهبا إلى مقهى رصيف صغير يُديره إيطاليّ كان قد عمل في أميركا، وأكلا لحم الخنزير مع البيض وكعكة الوفل. بعد ذلك ذهبا إلى الفندق. وكان اكتشاف ديك أنه ليس في حالة حب معها، ولا هي تحبه، قد زاد ولم يُنقِص من شغفه بها. والآن وقد بات يعلم أنه لن يغوص أعمق في حياتها، أصبحتْ امرأة غريبة بالنسبة إليه. وافترضَ أنَّ العديد من الرجال لا يعنون أكثر من ذلك عندما يقولون إنهم عاشقون - ليس غوصاً عنيفاً في الروح، ليس غوص الألوان كلها في صِباغٍ مُبهِم، كما كان حبّه لنيكول. لقد جعلته بعض أفكاره حول نيكول، حول وجوب أنْ تموت، أنْ تغوص في ظلام عقليّ، أنْ تتزوج من رجلٍ آخر، مريضاً جسدياً.

كان نيكوتيرا في غرفة جلوس روزميري، ويتكلمان في شأنٍ من شؤون المهنة. وعندما أعطته روزميري طرف الجملة في الدور لكي يُكملها، غادر وهو يحتجّ مازحاً وغمز بوقاحة لديك. وكالمعتاد هدرَ جرس الهاتف وانهمكت روزميري في محادثة على مدى عشر دقائق وتفاقم نفاد صبر ديك.

اقترح قائلا «دعينا نصعد إلى غرفتي»، ووافقتْ.

تمدّدتْ على رُكبتيه على الأريكة الكبيرة؛ مرّر أصابعه خلال خصلات شعر جبينها الجميلة.

سألها «هلّا سمحت لي بأنْ أكون فضولياً بشأنكِ من جديد؟».

«ماذا تريد أنْ تعرف؟».

«عن الرجال. أنا فضوليّ، إذا لم أقُل مُتلهّفٌ».

«تعني بعد أنْ قابلتُك بكم من الوقت؟».

«أو قبل».

صُدِمَتْ «أوه، كلا. لا شيء قبل. كنتَ أول مَنْ أحببتُ. وما زلتَ الرجل الوحيد الذي أحببت حقاً. بعام تقريباً، أعتقد».

«مَنْ كان؟».

«أوه، رجلاً».

حاصرَ تملُّصها.

«أراهن على أني قادر على إخبارك عن الأمر؛ العلاقة الأولى لم تكن مُرضية وبعد ذلك سادت فترة فراغ طويلة. الثاني كان أفضل، لكنكِ لم تقعي في حبّ الرجل أصلاً. الثالث كان جيداً -».

تابع مُعذِّباً نفسه، «ثم حصلت على علاقة حقيقية جاءتك من حيث لا تدرين، وفي ذلك الوقت كنتِ تخشين من ألا يكون لديك ما تعطين لرجلٍ أحببته أخيراً». أخذ يزداد إحساسه بأنه من العصر الفيكتوري «بعد ذلك كانت هناك مجموعة من العلاقات العابرة فقط، استمرت حتى الوقت الحاضر. هل أقترب من الحقيقة؟».

ضحك ضحكاً يتراوح بين المرح والدموع.

ارتاح ديك عندما قالت «إنه خطأ من أوله إلى آخره. ولكن ذات يوم سأعثر على شخص أحبّه وأحبّه ولا أتركه أبداً».

هذه المرة هاتف ديك هو الذي رنّ وتعرَّفَ إلى صوت نيكوتيرا، يسأل عن روزميري. وضع راحة يده على ناقل الصوت.

«هل ترغبين في التحدُّث إليه؟».

انتقلتْ إلى الهاتف وثرثرت بإيطاليّة سريعة لم يفهمها ديك.

قال «هذه المكالمات الهاتفية تستغرق وقتاً طويلاً. لقد تجاوزت الساعة الرابعة ولديّ موعد عند الخامسة. يُستحسن أنْ تذهبي وتعبثي مع السينيور نيكوتيرا».

«كفاك سُخفاً».

«إذن أعتقد أنه بما أني هنا فينبغي أنْ تلغيه من حسابك».

«هذا صعب». وفجأةً بدأتْ تبكي. «ديك، أنا أحبك حقاً، لا أحد يُشبهك. ولكن ماذا لديك تُعطيه لي؟».

«وماذا لدى نيكوتيرا يُعطيه لأي شخص؟».

«هذا صعب».

لأنَّ الشباب يُنادي الشباب.

قال «إنه من أصل لاتيني!». كان مسعوراً من فرط الغيرة، ولم يرغب في أنْ يُجرَح من جديد.

قالت، وهي تشهق «إنه مجرد طفل. أنت تعلم أني لك قبل كل شيء».

كردّ فعل على هذا طوّقها بذراعيه، لكنّها تراجعت إلى الخلف بضجر؛ ظل يضمّها هكذا برهة كما في *لحن بطيء*، وهي مُغمضة العينين، وينهمرُ شعرها على ظهرها كشعرِ فتاةٍ غارقة.

«ديك، لم أشعر بأني مُشوّشة هكذا في أي وقت من حياتي».

كان أشبه بطائر أحمر فظ وابتعدت عنه بحركة غريزية عندما بدأتْ غيرته غير المُبررة تنهال على المُراعاة والتفهُّم اللذين كانت تشعر بهما بالتآلُف.

قال «أريد أنْ أعرف الحقيقة».

«إذن، أقول نعم. نحن نلتقي كثيراً، وهو يرغب في الزواج مني، ولكني لا أريد ذلك. ماذا في هذا؟ ماذا تتوقع مني أنْ أفعل؟ أنت لم تطلب الزواج مني أبداً. فهل تريد مني أنْ أبقى أعبث إلى الأبد مع أنصاف معتوهين أمثال كوليس كلاي؟».

«هل كنتِ مع نيكوتيرا في الليلة الفائتة؟».

قالت وهي تجهش «هذا ليس من شأنك. عفواً، يا ديك، هذا شأنك. أنت وأمي الشخصان الوحيدان في العالم اللذان أحبّهما».

«وماذا عن نيكوتيرا؟».

«وما أدراني؟».

كانت قد حقّقت التملُّص الذي يُضفي أهمية خفيّة على أقلّ الملاحظات أهمية.

«أتشعرين الآن كما شعرتِ نحوي في باريس؟».

«أشعر بالراحة وبالسعادة عندما أكون معك. في باريس كان الأمر مختلفاً. أما أنت فلم تعرف أبداً فحوى شعورك. أليس كذلك؟».

نهضَ واقفاً وبدأ يجمع ملابسه الخاصة بالسهرة – إذا اضطرّ إلى أنْ يجمع مرارة العالم وكراهيته كلها في قلبه، فلن يقع أسير علاقة حب أخرى.

أعلنتْ «لا يهمني أمر نيكوتيرا! ولكن لابد لي من الذهاب إلى ليفورنو مع الفرقة غداً. آه، لماذا كان لابد لهذا أنْ يحدث؟» وذرفت فيضاً آخر من الدموع. «يا للخسارة. لماذا أتيتَ إلى هنا؟ لماذا لم نكتفِ بالذكرى؟ أشعر كأني تشاجرت مع أمي».

أثناء ارتدائه ملابسه، نهضَت ومشت إلى الباب.

«لن أذهب إلى الحفل هذه الليلة». كانت تلك آخر محاولاتها. «سأبقى معك. لا أريد أنْ أذهب إلى أي مكان».

بدأ المدّ يرتفع من جديد، لكنه ارتدّ مبتعداً عنه.

قالت «سأكون في غرفتي. إلى اللقاء، ديك».

«إلى اللقاء».

«آه، خسارة، خسارة. يا للخسارة. ما معنى هذا كله على أي حال؟».

«لطالما تساءلت حول هذا».

«ولكن لماذا تسبّبه لي؟».

قال ببطء «أعتقد أنني أمثّل الموت الأسود. يبدو أني لم أعد أجلب السعادة للناس».

الفصل العاشر

كان في بار كويرينال خمسة أشخاص بعد وجبة العشاء، إيطالي ضئيل من الطبقة الراقية جلس على مقعد بلا ظهر وأجرى حديثاً متواصلاً مع الساقي الضجر الذي أخذ يُردّد «نعم... نعم... نعم»، ومصريّ متعجرف، تافه، يشعر بالوحدة لكنه حذر في تعامله مع المرأة، والرجلَان الأميركيان.

كان ديك دائماً واعياً بحيوية لِما يُحيط به، في حين عاش كوليس كلاي بغموض، أشدّ الانطباعات حِدّة التي تتلاشى على جهاز تسجيلٍ انكمشَ باكراً، لذلك كان الأول يتكلّم والثاني يُصغي، كرجلٍ يجلس بارتياح.

كان ديك، الذي أرهقته أحداث بعد الظهيرة، يُنفّس عن غضبه بصبّه على أهالي إيطاليا. تلفّت حول البار وكأنه يأمل في أنْ يكون أحد الإيطاليين سمعه وشعر بالامتعاض من كلامه.

«بعد ظهيرة هـذا اليوم تناولتُ الشاي مع بنت حمي في الإكسيليسيور. حصلنا على الطاولة الأخيرة ثم جاء رجلان وأخذا يتلفتان حولهما بحثاً عن طاولة فلم يجدا. فاقترب أحدهما منا وقال: أليست هذه الطاولة محجوزة للأميرة أورسيني؟ فقلت: لم تكن هناك علامة عليها، فقال: ولكن أعتقد أنها محجوزة للأميرة أورسيني، فلم أتمكن من إعطائه إجابة».

«فماذا فعل؟».

«انسحب». غيَّر ديك جلسته على كرسيه. «لا يُعجبني هؤلاء القوم. في يوم قريب تركتُ روزميري مدة دقيقتين أمام أحد المتاجر فبدأ ضابط يتمشّى جيئة وذهاباً أمامها، وهو ينقر طرف قبعته».

قال كوليس بعد برهة «لا أعلم، أفضّل أنْ أكون هنا بدل باريس حيث تتعرّض في كل دقيقة لأنْ ينشل أحدهم جيبك».

كان يستمتع بوقته، ويحمل على أي شيء يُهدد بإفساد استمتاعه ذاك. ألحّ قائلاً «لا أعلم، لا اعتراض لي على هذا المكان».

استحضرَ ديك الصورة التي كانت قد انطبعت قبل بضعة أيام في ذهنه، وحدَّقَ إليها. المسير الذي توجّه فيه إلى مقهى أميركان إكسبريس مروراً بمحلات بيع الحلويات ذات الرائحة الذكية في شارع فيا ناتزيوناليه، خلال البشاعة التي تمتد حتى أعلى الدَرَج الإسباني، حيث حامت روحه أمام أكشاك بيع الأزهار والمنزل الذي مات فيه كيتس. لم يكن يهتم إلا بالناس؛ لم يكد يعي الأماكن إلا فيما يتعلّق بأحوال الطقس فيها، إلى أنْ تزدان بالألوان بفعل أحداثٍ ملموسة. كانت مدينة روما هي نهاية حلمه بروزميري.

دخل خادم الفندق وأعطاه رسالة.

ورد فيها «*لم أذهب إلى الحفل. أنا في غرفتي. سوف نغادر إلى ليفورنو في الصباح الباكر*».

أعطى الرسالة للخادم مع إكرامية.

«قُلْ للآنسة هويت إنكَ لم تجدني»، واستدار إلى كوليس واقترح الذهاب إلى بونبونييري.

تفحّصا العاهرة الواقفة عند البار، من دون أنْ يولياها أدنى اهتمام تتطلّبه مهنتها، وبادلتهما التحديق بجراءة جليّة؛ اجتازا البهو المُقفِر المُكفهرّ بفعل الأثاث الذي يتكدّس في تضاعيفه الغبار الفيكتوري، وأومآ برأسيهما للبوّاب الليلي، الذي ردّ لهما الإيماء بالخنوع المرير الخاصّ بالخدم الليليّ. ثم في سيارة الأجرة التي ركباها في شوارع خالية

من البهجة وخلال ليل خريفي رطب. كانت الشوارع خالية من النساء، لم تكن تحتوي إلا على رجال شاحبين بمعاطف قاتمة مُثبَّتة بالأزرار حتى النحر، وقفوا ضمن مجموعات بجوار أكتاف من الحجارة الباردة.

شهقَ ديك «يا إلهي!».

«ما الأمر؟».

«كنتُ أفكّر في ذلك الرجل بعد ظهيرة هذا اليوم: «هذه الطاولة محجوزة للأميرة أورسيني». هل تعلم ما هي تلك العائلات الرومانية القديمة؟ إنها عصابات، إنهم الذين استحوذوا على المعابد والقصور بعد أنْ انهارت روما وأخذوا ينهبون الناس.

أصرّ كوليس «أنا أحب روما. لماذا لا تجرِّب السباقات؟».

«لا أحبّ السباقات».

«ولكن يتضح أنَّ النساء جميعاً...».

«أعلم أنّهَ لا شيء يعجبني هنا. أنا أحبّ فرنسا، حيث كل شخص يعتقد أنه نابوليون - أما هنا فكل شخص يعتقد أنه المسيح».

في بونبونييري هبطا إلى ملهى ليليّ مكسوّ بألواح الخشب، يبدو مؤقتاً بصورة يائسة وسط الحجارة الباردة. وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف لحن تانغو ومجموعة من الراقصين يشغلون حلبة الرقص الفسيحة ويؤدون تلك الخطوات الرشيقة والمرهفة التي تعتبرها العين الأميركية مُهينة. وفيض من النُدُل يحولون دون إثارة الجَلَبَة والهرج اللذين تُحدِثهما حتى حفنة من الرجال المنهمكين في العمل؛ ويُخيِّم على المشهد جو من انتظارِ توقفِ شيءٍ ما كشكلٍ من الحيوية الكئيبة - الرقص، الليل، توازن القِوى الذي يُحافظ على استقراره. كان يُؤكِّد للضيف الحسّاس أنَّ كائناً مهما كان ما يسعى إليه فلنْ يجده هنا.

كان ذلك واضحاً الوضوح كله بالنسبة إلى ديك. تلفّت حوله، آملاً في أنْ تلمح عينه شيئاً ما، بحيث تستمر الروح بدل المُخيّلة في العمل على مدى ساعة من الزمن. ولكن لم يجد شيئاً، وبعد برهة التفت إلى

كوليس. كان قد باح لكوليس ببعضٍ من أفكاره الحالية، وشعر بالضجر من ذاكرة جمهوره الضعيفة وافتقاره إلى الاستجابة. وبعد نصف ساعة من مُصاحبة كوليس شعرَ بالضرر الغريزي لحيويته الخاصة.

شربا مقدار زجاجة من الموسو الإيطالي وأصبح ديك شاحب اللون وصاخباً قليلاً. نادى على قائد الفرقة الموسيقية إلى طاولتهما؛ كان زنجياً من جزر البهاما، مغروراً وبغيضاً، وفي غضون بضع دقائق وقع شجار.

«أنت طلبتَ مني أنْ أجلس».

«حسن. وأنا نفحتكَ خمسين ليرة، صح؟».

«حسن. حسن. حسن».

«حسن، أنا أعطيتك خمسين ليرة، ألم أفعل؟ ثم أتيتَ وطلبتَ مني أنْ أدفع المزيد».

«أنتَ طلبتَ مني أنْ أجلس، ألم تفعل؟ ألم تفعل؟».

«لقد طلبتُ منكَ أنْ تجلس لكني أعطيتك خمسين ليرة، أليس كذلك؟».

«حسن. حسن».

نهضَ الزنجي واقفاً بنكد وابتعد، تاركاً ديك في مزاج أشدّ شراً. لكنه رأى فتاةً تبتسم له عبر الغرفة وفي الحال تحوّل سلوكه الروماني الباهت إلى آخرَ متواضع وراقٍ. كانت فتاة إنكليزية شابة، شقراء الشعر وصحيحة البدن، وذات وجه إنكليزيّ جميل، وابتسمت له من جديد مع دعوة فهمها، تُنكِر اللحم حتى وهي تطرّيه.

قال كوليس «في الأمر خُدعة أو أنني لا أفهم في لعبة البريدج».

نهضَ ديك واقفاً وقطع أرض الغرفة إليها.

«أترغبين في الرقص؟».

قالت المرأة التي في منتصف العمر وترافقها، بنبرة شبه مُعتذرة: «سوف أغادر قريباً».

صحا ديك بفعل الإثارة، ورقص. وجد في الفتاة إيحاءً بكل الأشياء الإنكليزية المرحة؛ كانت قصة الحدائق الآمنة المُحاطة من كل جانب بالبحر تتجلّى في صوتها المُشرق، وعندما مال إلى الخلف لينظر إليها، كان يعني ما قال لها بصدقٍ تامّ حتى أنَّ صوته ارتعش. وعدته أنْ تأتي وتجلس معهما بعد أنْ يُغادر مُرافقها. قبِلَ الإنكليزيّ عودتها بتكرار عبارات الاعتذار والابتسام.

عاد ديك إلى طاولته وطلب زجاجة أخرى من نبيذ سبومانته.

قال «إنها تشبه ممثلة في السينما، لا أتذكّر اسمها». وألقى نظرة نزقة عليها «أتساءل ما الذي يُبقيها؟».

قال كوليس مفكّراً «أودّ لو أعمل في مجال السينما. من المُفترَض فيّ أنْ أنخرط في مجال أعمال والدي لكني لا أحبه كثيراً. لا أتخيَّل جلوسي خلف مكتب في أتلانتا على مدى عشرين عاماً –».

قاومَ صوته ضغط حضارة مادية.

اقترح ديك «ألا يليقُ بك؟».

«لا، ليس هذا ما عنيت».

«بلى، عنيته».

«ما أدراك ما عنيتُ؟ لماذا لا تمارس مهنتك كطبيب، ما دمتَ ترغب كثيراً في العمل؟».

عند تلك النقطة كان ديك قد جعل منهما هما الاثنين شخصَين بائسين، ولكن في الوقت نفسه كانا قد أصبحا ثملَين من فرط الشرب ونسيا الأمر في الحال؛ وغادر كوليس، وتصافحا بحرارة.

قال ديك بحِكمة «فكِّر ملياً في الأمر».

«بمَ أفكّر ملياً؟».

«أنت تعلم». كان الأمر يتعلَّق بشيء حول انخراط كوليس بمهنة والده – نصيحة جيدة ومتينة.

حلَّقَ كلاي في الفضاء. وأنهى ديك شرب زجاجته ومن ثم عاد إلى الرقص مع الإنكليزية، قاهراً جسده الرافض بثورات جريئة وإيقاعات عسكرية مُصممة صارمة على حلبة الرقص. وفجأة حدثَ أشدّ الأمور غرابة. كان يرقص مع الفتاة، وإذ بالموسيقى تسكت - وإذ بها قد اختفت.

«هل رأيتها؟».

«أرى مَنْ؟».

«الفتاة التي كنتُ أرقصُ معها. اختفتْ فجأة. لابد أنها في المبنى».

«كلا! كلا! هذا مرحاض السيدات».

وقف بجوار البار. كان هناك رجلان آخران، لكنه لم يعرف كيف يفتح حديثاً معهما. كان يمكن أنْ يُخبرهما كل شيء عن روما وعن الأصول العنيفة لعائلتيّ كولونا وغيتاني، لكنه أدركَ أنَّ هذه البداية سوف تكون مُقتضبة نوعاً ما. وفجأة سقط صفٌ من دُمى ينتشي Yenci من رف السيجار على الأرض؛ سادت إثر ذلك الفوضى وانتابه إحساس بأنه المُسبِّب لها، فعاد إلى الملهى الليلي وشرب كوباً من القهوة السادة. وكان كوليس قد رحل والفتاة الإنكليزية رحلت وبدا أنّه لم يبق أمامه إلا أنْ يعود إلى الفندق ويستلقي مع قلبه الأسود. فدفعَ حسابه وأحضر قبعته ومعطفه.

كانت المياه القذرة تملأ المجاري وما بين حجارة الرصف الخشنة؛ وتصاعد ضباب المستنقعات من الريف، ونضح العرَق من الثقافات المُرهقة الملوّثة بهواء الصباح. أحاط به أربعة من سائقي سيارات الأجرة، وعيونهم الصغيرة جاحظة داخل محاجر قاتمة. أبعدَ عنه أحدهم مال بإلحاحٍ شديد نحو وجهه.

«*Quanto al Hotel Quirinal?*» (كم تأخذ لتقلّني إلى فندق كويرينال؟)

«*Cento lire*» (مئة ليرة)

أي ما يُعادل ست دولارات. هزّ رأسه رافضاً وعرضَ ثلاثين ليرة، وهو ضعف الأجرة أثناء النهار، لكنهم هزّوا أكتافهم معاً رافضين، وابتعدوا.

قال بحزم «*Trenta-cinque lire e mancie*»

«*Cento lire*»

ثم انتقل إلى الكلام بالإنكليزية.

«من أجل نصف ميل؟ سوف تقلونني مقابل أربعين ليرة».

«أوه، كلا».

كان شديد التعب. فتح باب إحدى سيارات الأجرة وولجها.

قال لسائق سيارة الأجرة الذي وقف بعناد خارج النافذة «إلى فندق كويرينال! امحُ ذلك التعبير الساخر عن وجهك وخُذني إلى الكويرينال».

«آه، كلا».

خرج ديك. عند باب البونبونييري كان هناك شخص يتجادل مع سائقي سيارات الأجرة، شخص كان حينئذٍ يحاول أنْ يشرح وجهة نظرهم لديك؛ ومن جديد اقترب أحد الرجال منه حتى الالتصاق، يلحّ ويومئ، وديك يدفعه بعيداً عنه.

«أريد أنْ أذهب إلى فندق كويرينال».

شرح المترجم «يقول مئة ليرة».

«أنا أفهم. سأعطيه خمسين ليرة. هيا»، وجّه الكلمة الأخيرة إلى الرجل المُلحّ الذي كان قد اقترب منه من جديد. نظر الرجل إليه وبصق باحتقار.

هاج طابع النزق العنيف الذي وسم الأسبوع داخل ديك وتلبّس عنفاً بسرعة البرق، منبع أرضه العريق والمُشـرِّف؛ وخطا إلى الأمام وصفع الرجل على وجهه.

اندفعوا نحوه، مُهدّدين، مُلوّحين بأذرعهم، مُحاولين من دون فائدة أنْ يُطبِقوا عليه - كان ديك مُستنداً إلى الجدار يُسدد ضربات خرقاء،

ويضحك قليلاً، وعلى مدى بضع دقائق كان القتال الساخر، في سلسلة من الاندفاعات المُحبَطة والضربات المكبوتة، المُرتجلة، يتحرك جيئة وذهاباً أمام الباب. ثم تعثّر ديك ووقع؛ وأُصيبَ بأذى في مكان ما لكنه كافح للنهوض من جديد، مُصارعاً الأذرع التي انفضّت عنه فجأةً. ثم كان هناك صوت جديد وجِدال جديد، لكنه اتّكأ على الجدار، يلهثُ حانقاً من موقفه المُهين. وأدرك أنَّ لا أحد يتعاطف معه، لكنه كان عاجزاً عن تصديق أنه كان على خطأ.

كانوا متوجهين إلى مركز الشرطة ليبتّ في الأمر. أُعيدت إليه قبعته، وبمساعدة أحدهم أمسك ذراعه بلطف مشى بخطوات واسعة ثم دخل مع سائقي سيارات الأجرة إلى الثكنة الجرداء حيث كان أفراد من الشرطة يتمددون تحت ضوء واحد مُعتم.

على طاولة مكتب كان يجلس رئيس الشرطة، خاطبه الشخص الوحيد الفضولي الذي تدخّل وأوقف القتال مطولاً بالإيطالية، وهو يُشير أحياناً إلى ديك ويترك سائقي سيارات الأجرة يُقاطعونه وهم يُطلقون عبارات قصيرة من السباب والإدانة. بدأ الرئيس يومئ برأسه بنزَق. رفعَ يده، وهو يتلفّظ ببضع عبارات التعجُّب وإذ بالخطاب المتعدد المصادر يخمد. ثم التفتَ إلى ديك:

سأله «بتحكي إيطالي؟».

«كلا».

«بتحكي فرنساوي؟».

أشرقَ ديك وقال «*Oui*».

Alors. Ecoute. Va au Quirinal. Espece d'endormi. Ecoute:» vous etes saoul. Payez ce qui le chauffeur demand. Comprendez-«vous?

(حسن. اسمع. اذهب إلى الكويرينال. اذهب إلى الفندق ونم. اسمع، أنت وحدك. ادفع ما طلبه السائق. أتفهم؟)

هزّ ديك رأسه رافضاً.

«*Non, je ne veux pas*» (كلا، لن أفعل)

«*Coment?*» (لماذا؟)

«*Je paierai quarante lires. C'est bien assez*» (سأدفع أربعين ليرة. هذا كاف)

نهضَ الرئيس واقفاً.

هتف مُنذراً *Ecoute, vous etes saoul. Vous avez, battu le chauffeur. Comme ci, comme ca* (اسمع، أنت وحدك، لقد ضربتَ السائق. هكذا، هكذا)، وأخذ يضرب الهواء بحركة حماسية بيده اليُمنى واليُسرى. *C'est bon que je vous donne la liberte. Payez ce qu'il a dit – cento lire. Va au Quirinal* (من حُسن حظك أني أخليت سبيلك. ادفع ما يقول – مئة ليرة. واذهب إلى الفندق)

تبادل ديك معه التحديق وقد استشاط غضبه مما يتعرّضَ له من مهانة.

التفت ديك بتهوُّر نحو الباب وقال «حسن» – كان يقف أمامه الرجل الذي أحضره إلى مركز الشرطة، ينظر إليه شذراً ويهز برأسه. صرخ «سأذهب إلى منزلي، ولكن أولاً يجب أنْ أربي هذا الطفل».

مشى متجاوزاً الشرطي المُحدِّق إلى ذي الوجه المُكشِّر، ولكمه بقوة بيُسراه بجوار الفك. فسقط الرجل على الأرض.

وقف برهة فوقه في انتصارٍ همجيّ – ولكن حتى مع أول نوبة شك سرتْ فيه دار العالم؛ كان مُكوَّماً على الأرض، وأخذ الرجال ينهالون عليه لكماً ورفساً بإيقاعٍ همجي. شعر بأنفه ينكسر كلوح خشب وبعينيه تهتزان وكأنهما شُدتا إلى الخلف على شريط من المطاط داخل الرأس. انكسر ضلع تحت وطء كعب القدم. وفي الحال فقد وعيه، واستعاده عندما نهضَ إلى وضعية الجلوس وكان مِعصماه يقرقعان معاً بالأصفاد. أخذ يُكافح بحركة آليّة. نهضَ الملازم ذو الملابس البسيطة الذي تلقّى اللكمة واقفاً وهو يربت على فكّه بمنديل وينظر فيه تقصّياً للدماء؛ اقترب

من ديك، ووقف متوازناً، ثم أرجع ذراعه نحو الخلف وسدّد له لكمة أطاحت به أرضاً.

عندما تمدّد الدكتور دايفر لا يُبدي حِراكاً تلقّى ملء دلوٍ من الماء. وبينما كانوا يجرّونه من رِسغيه خلال ضباب دمويّ، فتح إحدى عينيه بوهن فميَّز الوجه الإنساني المُخيف لأحد سائقي سيارات الأجرة.

صرخ بصوت خافت «اذهب إلى فندق إكسيليسيور. أخبر الآنسة وارن. مئتا ليرة! ***Due centi lire*** آه أيها القذر - اللعين - ».

ظلّ يجرّ خلال الضباب الدموي، وهو يختنق ويجهش، على أرض غير مستوية مبهمة إلى مكان ضيق أُلقيَ فيه على أرض حجرية. خرج الرجال، وأُرتِجَ الباب، وبقيَ وحيداً.

الفصل الحادي عشر

ظلّت بيبي وارن تلازم السرير حتى الواحدة بعد الظهر، تقرأ إحدى روايات ماريون كروفورد الرومانسية المُملّة بصورة غريبة؛ ثم ذهبت إلى النافذة وأطلّتْ منها على الشارع. على الطرف المقابل للفندق كان هناك اثنان من رجال الشرطة، يرتديان رداءين غريبين ليسا على مقاسهما ويعتمران قبعتيّ مهرّجين، يتمايلان إلى هذه الناحية وتلك، كشراعٍ يُغيِّر اتّجاهه، وأثناء مراقبتها لهما تذكّرتْ ضابط الحرس الذي حدَّقَ إليها بتركيز أثناء تناول الغداء. كان يتسم بعجرفةِ عضوٍ طويل القامة في سلالةٍ من القِصار، من دون أي فضل آخر غير طول قامته. وكان قد اقتربَ منها وقال: «هيا بنا، أنتِ وأنا»، وكان يمكن أنْ تُجيب: «ولِمَ لا؟» - على الأقلّ هكذا بدا الأمر الآن، ذلك أنها كانت لا تزال متحرِّرة بفعل ماضي حياتها غير المألوف.

عادت بها أفكارها ببطء من رجل الحرس إلى رجليّ الشرطة، ثم إلى ديك - ولجأت إلى السرير وأطفأتْ النور.

قُبيل الساعة الرابعة أيقظها طرق فظ على الباب.

«نعم - مَن الطارق؟».

«أنا البوّاب، مدام».

وضعت عليها رداء الكيمونو وواجهته ولا تزال ناعسة.

«إنَّ صديقك الذي اسمه ديفر في ورطة. لقد أثار الشغب مع رجال الشرطة، ووضعوه في السجن. وقد أرسل سيارة أجرة ليُخبرك بهذا،

ويقول سائق السيارة إنه وعدَ بأنْ يدفع له متيّ ليرة». سكتَ بحذر في انتظار موافقتها. «يقول السائق إنَّ السيد ديفر في حالة يُرثى لها. لقد تشاجر مع رجل الشرطة وهو جريح بشكل فظيع».

«سأنزل في الحال».

ارتدت ملابسها ودقات قلبها تتسارع من القلق وبعد مرور عشر دقائق خرجت من المصعد إلى البهو المُظلم. كان السائق الذي حمل الرسالة قد رحل: استدعى البوّاب سيارة أخرى وأخبره عن مكان السجن. في الطريق، انقشع الظلام قليلاً في الخارج وانكمشتْ أعصاب بيبي قليلاً، التي بالكاد استيقظتْ، أمام انعدام التوازُن بين الليل والنهار. بدأتْ تسابق النهار؛ أحياناً على الجادات العريضة التي قطعتها، ولكن كلما هدأ ما يضطرب فيها برهة، كانت تهب هنا وهناك هبّات عاصفة من الريح بنزَق ويبدأ من جديد الزحف البطيء للضوء. مرّت السيارة من أمام نافورة صاخبة ترشرش الماء على شكل شبح هائل، ثم انعطفتْ إلى زقاق شديد الالتواء بحيث أنَّ الأبنية كانت تنحرف وتتوتَّر لتلحق بها، وتخبّطتْ وقعقعتْ على حجارة الرصف، ثم توقفتْ مع هزّة عنيفة حيث يقوم كشكا خفير يلمعان أمام جدارٍ أخضر بفعل الرطوبة. وفجأة من داخل الظلمة البنفسجية لقنطرة أتاها صوت ديك، يهتف ويصرخ.

«أما من أحد يتكلّم الإنكليزية ؟ أما من أميركيين هنا؟ أما من إنكليز؟ هل هناك أي – آه، يا ربي! أيها الحثالة القذرون!».

خفتَ صوته وسمعت صوتاً مكتوماً لضرب على الباب. ثم بدأ الصوت يعلو من جديد.

«أما من أميركيين؟ أما من إنكليز؟».

تبعت مصدر الصوت وهي تركض مارة من تحت القنطرة إلى فناء، وأصابها دوار بسبب الفوضى اللحظية، ثم حدّدت غرفة الحارس الصغيرة مصدر الصراخ. نهض شرطيان ووقفا على أقدامهما، لكنَّ بيبي اندفعت متجاوزة إياهما نحو باب الزنزانة.

هتفت «ديك! ما المشكلة؟».

صرخ «لقد عصبوا عينيّ، وكبّلوني ومن ثم ضربوني، الملاعين – الـ –».

راحت بيبي تتحرك بسرعة البرق واقتربت من الشرطيين.

همست بشراسة حتى أنهما نفرا أمام حنقها المحتشد.

«*Non capisco inglese*» (أنا لا أفهم الإنكليزية)

لعنتهما بالفرنسية؛ وملأ حنقُها الجامحُ، المتحدي، الغرفةَ، واكتنفهما إلى أنْ انكمشا وتلوّيا من فرط اللوم الذي أنزلته عليهما. «افعلا شيئاً! افعلا شيئاً!».

«*Bene. Bay-nay! Bene!*» (حسن، حسن! حسن!)

من جديد أخذت تنهال عليهما بالتعنيف الشديد إلى أنْ أخذا يُغدقانها بالاعتذار بسبب ضعفهما، ويتبادلان النظرات مع إحساس بأنَّ ثمة خطأً ارتُكِبَ منذ البداية. ذهبت بيبي إلى باب الزنزانة، واتّكأتْ عليه، وكأنها تداعبه، وكأنَّ في استطاعتها أنْ تجعل ديك يشعر بحضورها وقوتها، وهتفت: «أنا ذاهبة إلى السفارة، وسأعود». رمت نظرة تهديد مُطلَق أخيرة إلى الشرطيين وهرعت خارجة.

انتقلت بالسيارة إلى السفارة الأميركية، وهناك دفعت النقود لسائق سيارة الأجرة بعد إلحاح منه وصرفته. كان الظلام لا يزال سائداً عندما أسرعت ترتقي الدَرج وتضغط على الجرس. كانت قد ضغطته ثلاث مرات قبل أنْ يفتح مُستخدَم إنكليزي ناعس الباب.

قالت «أريد أنْ أقابل أحداً. أي شخص – ولكن في الحال».

«لم يستيقظ أحد بعد. إننا لا نفتح الأبواب حتى الساعة التاسعة».

لوّحت بيدها بنزق في وجه الساعة.

«هذا أمر هامّ. هناك رجل – مواطن أميركي يُضرَب بوحشية. وهو في سجن إيطاليّ».

«لا أحد يقِظ الآن. في الساعة التاسعة –».

«لا أستطيع أنْ أنتظر. لقد عصبوا عينيّ الرجل - إنه صهري، ويرفضون أنْ يُطلقوا سراحه. يجب أنْ أتحدث مع أحد - ألا تفهم؟ أأنت مجنون؟ أأنت أبله، تقفُ هكذا وترسم هذه النظرة على وجهك؟».

«إنَّ هايم لا يستطيع أنْ يفعل أي شيء، يا مدام».

قبضت عليه من كتفيه وراحت تهزّه بعنف «يجب أنْ توقظ أحدهم. إنها مسألة حياة أو موت. إذا لم توقظ أحدهم فسوف يقع لك أمر فظيع -».

«من فضلك لا تضعي يديك عليّ، يا مدام».

من مكان يقع فوق المُستخدَم وخلفه انساب صوت غروتون الضجر.

«ما الذي يحدث هناك؟».

أجاب المُستخدَم بارتياح:

«إنها سيدة، يا سيدي، وقد قامت بهزّي». كان قد خطا مُبتعداً لكي يتكلّم واندفعت بيبي إلى الأمام نحو الصالة. على مسطبة دَرَج عالية، وقف شاب واحد، كان قد نهضَ تواً من النوم يتدثّر برداء فارسيّ أبيض مُزخرف. كان وجهه ذا لون ورديّ شنيع وغير طبيعي، حيويّ لكنه ميِّت، وقد ثبَّتَ على فمه ما بدا أنه كمّامة. عندما رأى بيبي أرجعَ رأسه نحو الظل.

كرّر «ما الأمر؟».

أخبرته بيبي، وهي تتقدّم بغضب نحو الدَرَج. وفي سياق رواية قصتها أدركتْ أنَّ الكمّامة هي في الواقع رِباط لشارب وأنَّ وجه الرجل مكسوّ بكريم بارد ورديّ اللون، لكنَّ الحقيقة تطابقتْ بهدوء مع الكابوس. هتفت بحماس، إنَّ ما ينبغي عمله هو أنْ يأتي معها إلى السجن في الحال ويُخرِج ديك.

قال «إنها مسألة خطيرة».

وافقته بنبرة استرضاء «نعم، نعم».

تسللت إلى صوته نبرة تحدٍ شخصيّ «أعني محاولته تلك التشاجر

مع الشرطة. أخشى أنه ليس في استطاعتي أنْ أفعل أي شيء حتى حلول الساعة التاسعة».

كرّرت مشدوهة «حتى الساعة التاسعة. ولكن في استطاعتك حتماً أنْ تفعل شيئاً! تستطيع أنْ تأتي معي إلى السجن وتحرص على ألا يتمادوا في إيذائه».

«من غير المسموح لنا أنْ نقوم بشيء كهذا. إنَّ القنصلية هي التي تعالج مثل هذه المسائل. القنصلية سوف تفتح أبوابها في التاسعة».

أثار وجهه، المُقيَّد حتى السبلة بشريط الرباط، حنق بيبي.

«لا أستطيع أنْ أنتظر حتى التاسعة. إنَّ صهري يقول إنهم أعموا عينيه - إنه يتألّم بشدّة! يجب أنْ أُخرِجه. يجب أنْ أجد طبيباً». أطلقت العنان لنفسها وبدأتْ تبكي بغضب وهي تتكلَّم، لأنها أدركتْ أنه سيستجيب لغضبها وليس لكلماتها، «يجب أنْ تفعل شيئاً بهذا الشأن. إنَّ عملك هو حماية المواطنين الأميركيين في وقت الشدّة».

لكنه كان ينحدر من الساحل الشرقي وشديد القسوة عليها. هزّ رأسه بأناة تعليقاً على فشلها في فهم موقفه وشدّ رداءه الفارسي حوله وهبط بضع درجات.

قال للمُستخدم «دوِّن عنوان القنصلية من أجل هذه السيدة، وابحث عن عنوان الدكتور كولاتزو ورقم هاتفه ودوّنه أيضاً»، ثم التفت إلى بيبي، مع تعبيرِ وجهِ مسيح ساخط، «سيدتي العزيزة، إنَّ الهيئة الدبلوماسية تمثّل حكومة الولايات المتحدة لدى الحكومة الإيطالية. ولا علاقة لها بحماية مواطنين، اللهم إلا في ظل تعليمات خاصة تصدر عن وزارة الخارجية. لقد خرق صهرك قوانين هذا البلد وأُودِع السجن، تماماً كما يمكن أنْ يودَع مواطن إيطالي السجن في نيويورك. الجهة الوحيدة القادرة على إطلاق سراحه هي المحاكم الإيطالية، وإذا كان لدى صهرك حجّة مُقنعة يستطيع أنْ يحصل على عونٍ ونصيحة من القنصلية، التي تحمي حقوق المواطنين الأميركيين. إنَّ القنصلية

لا تفتح أبوابها إلا في الساعة التاسعة. وحتى لو كان أخي لما استطعتُ أنْ أفعل أي شيء -».

قاطعتْه قائلة «ألا تستطيع أنْ تتصل بالقنصلية؟».

«لا نستطيع أنْ نتدخّل في شؤون القنصلية. عندما يصل القنصل إلى هناك في التاسعة -».

«هل تستطيع أنْ تُعطيني عنوان منزله؟».

بعد توقف وجيز هزّ الرجل رأســـه رفضاً. أخذ المُذكّرة من المُســـتخدَم وأعطاها إياها.

«الآن سوف أستأذن منك».

ظلّ لبقاً معها حتى وصلت الباب: لبرهة من الزمن سقط لونُ الفجر البنفسجي بشكلٍ حادّ على قِناعه الورديّ وعلى الحقيبة الكتّان التي دعمت شاربه؛ ثم أصبحت بيبي واقفة وحدها على الدرج الأمامي. كانت قد أمضتْ في السـفارة مدة عشر دقائق.

كانت الساحة التي تطلّ عليها خالية إلا من رجل عجوز يجمع أعقاب السجائر بعصا ذات رأس مُدبّب. وفي الحال أوقفتْ بيبي سيارة أجرة واستقلتها وذهبت بها إلى القنصلية، ولكن لم يكن هناك أحد ما عدا ثلاث نساء بائسات يكشطن الدَرج. لم تتمكّن من إفهامهنّ أنها تريد عنوان منزل القنصل - وفي فورة قلقٍ مُفاجئة اندفعت إلى الخارج وأخبرت سائق السيارة أنْ يحملها إلى السجن. لم يكن يعرف مكانه، ولكن باستخدام كلمات sempre diretto, destro, sinistra ناورته حتى وصلت إلى موقع قريب، فترجّلت وراحت تستكشف متاهة أزقة مألوفة. لكنَّ الأبنية والأزقة بدت متشابهة كلها. ثم لدى خروجها من أحد الأزقة إلى ساحة دي سبانيا شاهدت شركة أميركان إكسبريس فانتفضَ قلبها لدى رؤيتها كلمة «أميركان» على اللافتة. كانت الواجهة مُضاءة فهرعت تجتاز الساحة وحاولت أنْ تفتح الباب،

لكنه كان مُقفلاً وفي الداخل أشارت الساعة إلى السابعة. ثم فكّرتْ في كوليس كلاي.

تذكّرتْ اسم الفندق الذي ينزل فيه، كان دارة فاسدة الهواء مختومة باللون الأحمر الفاقع وتقع قِبالة فندق إكسيليسيور. المرأة التي كانت تؤدي نوبتها في المكتب لم ترغب في مساعدتها - ولم تكن لديها السلطة لتوقظ السيد كلاي ورفضتْ أنْ تدع الآنسة وارن تصعد إلى غرفته وحدها؛ وعندما اقتنعت أخيراً بأن تلك ليست زيارة غرامية رافقتها.

كان كوليس مستلقياً عارياً على سريره. كان قد عاد وهو سكران، وعندما استيقظ استغرق منه إدراك عريه بضع لحظات. وكفّر عن ذلك بالمبالغة بإظهار الاحتشام. أخذ ملابسه إلى غرفة الحمّام وارتداها هناك على عجل، وهو يُتمتم لنفسه «اللعنة. لابد أنها أطالت النظر إليّ». وبعد أنْ أجرى بضع مكالمات هاتفية عثر هو وبيبي على السجن وتوجها إليه.

كان باب الزنزانة مفتوحاً وكان ديك يجلس متراخياً على كرسي في غرفة الحارس. كان الشرطي قد غسل بعض الدم الذي نزف من وجهه، ومشّط له شعره، ووضع قبعته بشكل يُخفي رأسه. وقفت بيبي عند الباب وهي ترتعش.

قالت «سوف يبقى السيد كلاي معك. أريد أنْ أذهب إلى القنصلية وأُحضر طبيباً».

«حسن».

«ابقَ هادئاً فقط».

«حسن».

«سأعود».

انطلقت بالسيارة إلى القنصلية؛ كانت الساعة عندئذٍ قد تجاوزت الثامنة، وسُمِحَ لها بالجلوس في غرفة الانتظار. وفي حوالي الساعة التاسعة وصل القنصل وأعادت بيبي، المتوترة والعاجزة والمُرهقة، رواية

قصتها.انزعج القنصل. وحذّرها من التورّط في مشاجرات في المدن الغربية، لكنّ اهتمامه كان في الأساس بوجوب أنْ تنتظر في الخارج - استشّفت اليأس في عينيه العجوزين ورغبته في ألا يكون له أي دور في تلك الكارثة. وفي انتظار أنْ يفعل شيئاً قامت بالاتصال بطبيب لكي يذهب إلى ديك. كان هناك أناسٌ آخرون في غرفة الانتظار وسُمح لعدد آخر بدخول غرفة مكتب القنصل. وبعد مرور نصف ساعة انتهزت فرصة خروج أحدهم واندفعت متجاوزة السكرتيرة وولجت الغرفة.

«هذا تصرّف مُشين! ثمة شخص أميركي ضُرِبَ حتى كاد يموت وأُلقيَ به في السجن وأنت لا تُبدي حِراكاً لتساعده».

«انتظري دقيقة. سيدة -».

«لقد انتظرت مدة كافية. تعالَ معي في الحال إلى السجن وأخرجه!».

«سيدة -».

«نحن أُناس ذوو مقام رفيع في أميركا -»، رسم فمها تعبيراً قاسياً وهي تتابع قائلة «لولا الفضيحة لاستطعنا - سوف أحرص على أنْ يصل أمر لا مبالاتك بهذه المسألة إلى الجهة المعنيّة. لو أنَّ صهري كان مواطناً بريطانياً لأصبحَ حراً منذ ساعات، لكنّ اهتمامك مُنصبّ أكثر على ما ستظنه الشرطة في سبب وجودك هنا».

«سيدة -».

«اعتمِرْ قبعتك وتعال معي فوراً».

أثار ذِكر قبعته الرعب فيه، وبدأ يُنظِّف نظارته على عجل ويعبث بأوراقه. لم يُفده ذلك بشيء: فقد نهضت المرأة الأميركية، ووقفتْ فوقه؛ لقد كان المزاج اللاعقلانيّ الكاسح الذي كسر الظهر الأخلاقي لسلالة بأكملها فوق طاقة احتماله. رنّ الجرس استدعاءً لنائب القنصل - وانتصرت بيبي.

***

جلس ديك تحت أشعة الشمس التي سقطت وافرة من خلال نافذة غرفة الحارس. كان كوليس معه بالإضافة إلى شرطيين، وكانوا ينتظرون حدوث شيء. استطاع ديك برؤية عينه الواحدة الضيقة أنْ يرى الشرطيَّين؛ كانا فلاحين من توسكانيا بشِفاه عُليا قصيرة ووجد صعوبة في ربطهما بالوحشية التي عومِلَ بها في الليلة السابقة. أرسل أحدهما ليُحضر له كوباً من البيرة.

أنعشته البيرة وأُضيئت الحادثة برهة بشعاع من الفكاهة المتهكّمة. وتكوَّنَ لدى كوليس انطباعٌ بأنَّ الفتاة الإنكليزية لها صِلة بالكارثة، لكنّ ديك كان متأكّداً من أنها اختفت قبل وقوعها بزمن طويل. كوليس كان لا يزال مستغرقاً في حقيقة أنَّ الآنسة وارن قد وجدته عارياً وهو في سريره.

كان حنق ديك قد تراجع داخله قليلاً وشعر بانعدام هائل مُجرم لإحساسه بالمسؤولية. فما حدث له كان فظيعاً إلى درجة أنه لم يكن أيّ شيء سيُحدثُ أي فرق إلا إذا استطاع أنْ يخنقه حتى الموت، ولما كان هذا الأمر مُستبعَداً، استولى عليه اليأس. من الآن فصاعداً سيُصبح شخصاً مختلفاً، وانتابته وهو في حالته المزرية مشاعر غريبة حول ما ستكون عليه ذاته الجديدة. كانت المسألة تتسّم بسِمة العمل الموضوعي الصادر عن الله. لا يمكن لأي شخص آريّ ناضج أنْ يستفيد من المهانة؛ عندما يُسامح، يُصبح ذلك جزءاً من حياته، يتطابقَ مع الشيء الذي أهانه - إنها نتيجة مستحيلة في هذه الحالة.

عندما تحدَّث كوليس عن العقاب، هزّ ديك رأسه ولزم الصمت. ثم دخل الغرفة ملازمٌ في الشرطة، أنيق الملبس، مصقول، حيويّ، وكأنه ثلاثة رجال وقفز الحرّاس في حالة انتباه. قبضَ على زجاجة البيرة الفارغة وانهال بسيل من التقريع على رجاله. كان يتسم بروح جديدة، وكان أول ما ينبغي فعله هو إخراج زجاجة البيرة من غرفة الحرس. نظر ديك إلى كوليس وضحك.

وصل نائب القنصل، وهو شاب منهك من فرط العمل اسمه

سوانسون، وخرجوا جميعاً إلى الفناء؛ سار كوليس وسوانسون على جانبيّ ديك والشرطيان خلفهم مباشرة. كان صباحاً ضبابياً يسوده اللون الأصفر؛ الساحات والممرات المُقنطرة مزدحمة وديك، الذي أنزل قبعته إلى مقدمة رأسه، يُسرع خُطاه، بانتظام، إلى أنْ ركض أحد الشرطيين القَصير القامة إلى جانبه وأبدى احتجاجه. فقام سوانسون بترتيب الأمور.

قال ديك بمرح «أرى أني ألحقت العار بك، أليس كذلك؟».

أجاب سوانسون بارتباك «كُدتَ تعرِّض نفسك للقتل بالتقاتل مع الإيطاليين. قد يخلون سبيلك هذه المرة، ولكن لو كنتَ إيطالياً لعوقبتَ بالسجن لمدة شهرين. بلا أدنى شك!».

«هل سبقَ لكَ أنْ سُجِنت؟».

ضحك سوانسون.

أعلن ديك لكلاي «يُعجبني. إنه شاب ظريف ويُعطي الناس نصائح ممتازة، لكني أراهن على أنه هو نفسه دخل السجن. ولعله أمضى أسابيع فيه».

ضحك سوانسون.

«أعني أنك يجب أنْ تكون حذراً. أنت لا تعلم طبيعة هؤلاء الناس».

اندفع ديك يقول بغضب «أوه، أعلم كيف هم. إنهم قذرون ملاعين»، ثم التفتَ إلى الشرطيين: «هل فهمتما ما قلت؟».

قال سوانسون بسرعة «سأتركك هنا. لقد أخبرت أختك زوجتك أني سأفعل هذا - سوف يُقابلك مُحامينا في الطابق العِلوي من قاعة المحكمة. يجب أنْ تكون حذراً».

صافحه ديك بأدب «الوداع، شكراً جزيلاً لك. أشعر بأنَّ مستقبلك باهر -».

أسرع سوانسون مبتعداً مع ابتسامةٍ أخرى، مُستعيداً تعبير الاستنكار الرسمي على وجهه.

ثم وصلوا إلى فناء مُحاط من جهاته الأربع بدرَج يؤدي إلى الخارج ويصعد إلى غرف عليا. أثناء اجتيازهم الرايات تعالت أصوات الأنين، والهسيس، وأصوات الاستهجان في الفناء، أصوات ملؤها الحنق والتأنيب. حدّق ديك فيما حوله.

سأل، مشدوهاً «ما هذا؟».

تكلّم أحد الشرطيين مع مجموعة من الرجال فخمدت الأصوات.

وصلوا إلى غرفة المحكمة. تكلّم محامٍ إيطاليّ رث من القنصلية مطولاً مع القاضي بينما انتظر ديك وكوليس جانباً. التفت شخص يُحسن الإنكليزية إلى النافذة التي تطلّ على الفناء وفسّر الأصوات التي رافقت اجتيازهم الفناء. فقد كان أحد مواطني فراسكاتي قد اغتصبَ وذبحَ طفلة في الخامسة من العمر وكان من المُفترَض أنْ يُجلب في صباح ذلك اليوم - وافترض الحشد أنه ديك.

في غضون بضع دقائق أخبر المحامي ديك أنه قد أُطلِقَ سراحه - اعتبرت المحكمة أنه تلقّى ما يكفي من العقاب.

صرخ ديك «يكفي! عوقبتُ من أجل ماذا؟».

قال كوليس «هيا، لم يعُد في وسعك أنْ تفعل أيّ شيء الآن».

«ولكن ماذا اقترفت، خلاف أني تشاجرتُ مع سائق سيارة أُجرة؟».

«إنهم يدّعون أنكَ تقـدّمتَ من التحـرّي كما لو أنكَ تنوي أنْ تصافحه وضربته -».

«هذا ليس صحيحاً! لقد أخبرته أني أنوي أنْ أضربه - لم أكن أعلم أنه تحـرّي».

حثّه المحامي «يُستحسن أنْ تتجاوز هذا».

أمسكه كوليس من ذراعه وهبط الدرج «هيا بنا».

صرخ ديك «أريد أنْ أُلقي خطاباً. أريد أنْ أشرح لهؤلاء الناس كيف اغتصبتُ طفلة في الخامسة من العمر. فقد -».

«هيا بنا».

كانت بيبي تنتظر مع الطبيب في سيارة أجرة. لم يرغب ديك في النظر إليها وكره الطبيب، الذي بيَّنَ مظهره الصارم أنه أحد أشدّ الأنماط الأوروبية شناعة، الأخلاقي اللاتيني. لخّصَ ديك تصوّره للكارثة، ولكن لم يكن لدى أحد ما يقول. وفي غرفته في الفندق غسل الطبيب ما تبقّى من الدماء والعرق اللزج، وطبّب أنفه، وأضلاعه وأصابعه المكسورة، وعقّمَ الجراح الأقلّ خطورة ووضع ضمادة يُرجى منها الشِفاء على عينه. طلب ديك مقدار ربع جرعة من المورفين، لأنه كان لا يزال يقِظاً تماماً بسبب توتره العصبي. وبعون من المورفين استغرقَ في النوم؛ ثم غادر الطبيب وكوليس وانتظرت بيبي معه إلى أنْ تحضر امرأة من وكالة التمريض الإنكليزية. كانت ليلة عصيبة لكنها ارتاحت لشعورها بأنهم أصبحوا الآن، مهما كان سجل ديك السابق، يتفوقون عليه أخلاقياً طالما أنه بقيَ ذا فائدة.

الجزء الخامس

في الطريق إلى الوطن
1929 - 1930

الفصل الأول

لحقَتْ فراو كيثه غريغوروفيوس بزوجها على الطريق إلى دارتهما.

سألته بنبرة معتدلة «كيف حال نيكول؟»؛ لكنها تكلَّمت وهي تلهث، مُفشيةً حقيقة أنها لجمت السؤال في ذهنها أثناء الركض.

نظر فرانز إليها مندهشاً.

«نيكول ليست مريضة. ما الذي يدعوك إلى طرح مثل هذا السؤال، يا عزيزتي؟».

«أنتَ تُكثر من زيارتها - ظننتُ أنها مريضة».

«سوف نتحدث عن هذا في المنزل».

وافقَت كيثه بخنوع. كانت غرفة مكتبها تقع في الطابق العِلوي في مبنى الإدارة، وكان الأطفال مع معلّمهم في غرفة المعيشة؛ وصعدا إلى غرفة النوم.

قالت كيثه قبل أنْ يتمكن من الكلام «عُذراً، يا فرانز. عُذراً، يا عزيزي، لا يحقّ لي أنْ أقول هذا. أنا أعرف التزاماتي وأنا فخورة بها. ولكن بيني وبين نيكول بعض الضغائن».

هدر فرانز «إنَّ الطيور في أعشاشها تتّفق». وعندما وجد أنَّ نبرة صوته غير مناسِبة للعاطفة المُعبَّر عنها كرَّر إعلانه بالإيقاع المنضبط والمتأني الذي جدير بمُعلّمه القديم، دكتور دوملر، أنْ يُضفي به أهمية على أشدّ الأشياء تفاهة. «إنَّ - الطيور - في - أعشاشها - *تتَّفق!*».

«أنا أدرك هذا. أنت لم ترني أعامل نيكول بفظاظة».

«لقد شاهدتُ قلّة ذوقك. إنَّ نيكول شبه مريضة - قد تبقى مريضة طوال حياتها. وفي غياب ديك أنا المسؤول». تردّد؛ أحياناً كان يُحاول أنْ يُخفي الأنباء عن كيث بنوع من المُزاح الصامت. «وصلت برقية من روما صباح اليوم. لقد أُصيبَ ديك بالبرد وسوف يتوجه إلى الوطن غداً».

شعرت كيثه بارتياح، وواصلت كلامها بنبرة أقلّ ذاتيّة:

«أعتقد أنَّ نيكول أقلّ مرضاً مما يعتقد أي شخص - إنها فقط تحب مرضها وتحتفظ به كأداة سيطرة. ينبغي أنْ تمثّل في السينما، كصاحبتك نورما تالميدج - هناك يمكن للنساء الأميركيات جميعاً أنْ يكن سعيدات».

«أتغارين من نورما تالميدج، وهي تمثل في فيلم؟».

«أنا لا أحبّ الأميركيين. إنهم أنانيون، *أنانيون!*».

«ألا يُعجبك ديك؟».

اعترفت «يُعجبني. إنه مختلف، يُفكّر في الآخرين».

قال فرانز لنفسه، وكذلك حال نورما تالميدج. لابد أنَّ نورما تالميدج تُخفي وراء مظهرها الجميل امرأة نبيلة وراقية. لابد أنهم يُجبرونها على أداء أدوار بلهاء: لابد أنَّ معرفة نورما تالميدج امتياز عظيم.

كانت كيثه قد نسيتْ أمر نورما تالميدج، كشبح حيّ أبدتْ غيظها منه بمرارة ذات ليلة وهما يقودان السيارة إلى المنزل عائدَين من حضور فيلم سينمائيّ في زيوريخ.

قالت «- لقد تزوج ديك نيكول من أجل مالها. تلك كانت نقطة ضعفه - هذا ما ألمحتَ إليه بنفسك ذات ليلة».

«أنت حقود».

ردّت «ما كان ينبغي أنْ أقول هذا. علينا أنْ نعيش جميعاً في وئام كالطيور، حسب قولك. لكنَّ الأمر يبقى صعباً، عندما تتصرف نيكول كـ - عندما تتراجع قليلاً إلى الخلف، وكأنها تحبس أنفاسها - كأنَّ رائحتي *كريهة!*».

لقد لامست كيثه حقيقةً مادية. كانت تؤدي عملها كله بنفسها، وتشتري بعض الملابس، باقتصاد. وكان جدِيراً بعاملة أميركية في محل تجاري،

تغسل غيارَين من الملابس الداخلية في كل ليلة، أنْ تلاحظ في شخص كيثه أثر عَرَق الأمس المُتجدِّد، ليس رائحةً بل نشادر يُذكِّر بسرمدية الكدّ والتحلُّل. كان هذا بالنسبة إلى فرانز طبيعياً كالرائحة الغامضة القوية التي تنبعث من شَعر كيثه، وكان سيشتاق إلى تلك الرائحة بالقدر نفسه؛ ولكن بالنسبة إلى نيكول، التي تكره بالفِطرة رائحة أصابع الممرضة التي تُلبِسها ملابسها، فكانت إهانة يجب تحمّلها.

تابعت كيثه «والطفلان. إنها لا تحب أنْ يلعبا مع أطفالنا -»، لكنَّ فرانز كان قد سمع ما يكفي:

«امسكي لسانك - إنَّ هذا النوع من الحديث يمكن أنْ يؤذيني مهنياً، بما أننا ندين بهذه العيادة لمال نيكول. دعينا نتناول طعام الغداء».

أدركتْ كيثه أنَّ ثورة غضبها كانت فكرة طائشة، لكنَّ ملاحظة فرانز الأخيرة ذكّرتها بأنّ الأميركيين الآخرين لديهم مال، وبعد مرور أسبوع عبّرت عن كراهيتها لنيكول بكلمات جديدة.

المناسبة كانت وجبة العشاء التي دعا إليها آل دايفر إبان عودة ديك. وما إن تلاشى وقع أقدامهما على الممشى حتى أغلقت الباب وقالت لفرانز:

«هل رأيتَ الهالة التي تُحيط بعينيه؟ لقد كان يعيش حياة فسق».

طلب منها فرانز «على رسلك. لقد أخبرني ديك عن ذلك حالما عاد إلى الوطن. كان يُمارس الملاكمة أثناء رحلته على باخرة ترانس-أتلانتيك. إنَّ المسافرين على متن بواخر شركة ترانس-أتلانتيك يمارسون الملاكمة كثيراً».

قالت هازئة «أتريد مني أنْ أصدق هذا؟ لقد كان يتألَّم لمجرد تحريك ذراعيه ومازال يحمل نُدباً لم يندمل على صدغه - يمكنـــكَ أنْ ترى الموقع الذي أُزيل من الشَــعر».

لم يكن فرانز قد لاحظ تلك التفاصيل.

سألت كيثه «ماذا؟ أتعتقد أنَّ مثل هذا التصرُّف يُفيد سُمعة العيادة؟ يا لرائحة الخمر التي شممتُها منه هذه الليلة، وفي أوقات كثيرة أخرى منذ عودته».

أخفضت صوتها ليتناسب مع ثِقل ما ستقول: «لم يعُد ديك رجلاً جديّاً».

هزّ فرانز وهو يرتقي الدَرَج، مُبعِداً عنه إلحاحها. وفي غرفة نومهما التفت نحوها.

«إنه من دون أدنى شك رجل جديّ وذكي. من بين الرجال جميعاً الذين نالوا شهاداتهم في الطب العصبي من زيوريخ، اعتُبِرَ ديك الأشدّ ذكاءً - بل أشدّ ذكاءً مما كنتُ يوماً».

«يا للعار!».

«إنها الحقيقة - العار هو ألا أعترف بها. إنني أتحول إلى ديك في الحالات المُعقّدة جداً. إنَّ منشوراته لا تزال الأفضل في مجالها - اذهبي إلى المكتبة الطبيّة واسألي. إنَّ معظم الطلاب يعتقدون أنه إنكليزيّ - لا يصدقون أنَّ مثل تلك الشمولية يمكن أنْ تخرج من أميركا». أنَّ بألفة، وهو يتناول المنامة من تحت الوسادة، «أنا لا أفهم لماذا تتكلّمين بهذا الشكل، يا كيثه - حسبتُ أنكِ مُعجبة به».

قالت كيثه «يا للعار! أنت الصلب، أنت الذي يقوم بالعمل. إنها أشبه بقصة الأرنب والسلحفاة - وفي رأيي أنَّ الأرنب أنهى السباق».

«هراء! هراء!».

«حسن إذن. فالأمر صحيح».

بيده المفتوحة دفع عنه الهواء بحركة رشيقة.

«كفى!».

النتيجة كانت أنهما تبادلا وجهات النظر كمُتجادلَين. واعترفت كيثه بينها وبين نفسها بأنها كانت مُغالية في قسوتها على ديك الذي تكنّ له الإعجاب وتجلّه، وأعطاها حقّ قدرها وتفهّمها. أما فرانز، فبعد أنْ استقرّت فكرة كيثه في وجدانه، لم يعُد بعدها يُصدّق أنَّ ديك رجل جادّ. ومع مرور الوقت اقتنع بأنه لم يعتقد ذلك أبداً.

الفصل الثاني

أخبر ديك نيكول نسخة مُهذَّبة من كارثة روما - في نسخته هبَّ بدافعٍ إنسانيّ بحث إلى إنقاذ صديقٍ سكّير. كان في استطاعته أنْ يضع ثقته في بيبي وارن كي تُمسك لسانها، بما أنه رسم الأثر الكارثيّ للحقيقة على نيكول. لكنَّ هذا كله كان شيئاً قليلاً بالنسبة إلى الأثر المتبقّي للحادثة فيه.

وفي ما يُشبه ردّ الفعل اعتبر أنه يقوم بجهد جبار في عمله، بحيث لم يجد فرانز، وهو يُحاول أنْ ينفصل عنه، قاعدةً يُثير منها خِلافاً. لا صداقةَ تستحق اسمها دُمِّرَتْ في غضون ساعة من دون أنْ تُسبّب بعض الألم - لذلك ترك فرانز نفسه يعتقد باقتناع متزايد أنَّ ديك سافر عقلياً وانفعالياً بسرعة كبيرة بحيث أنَّ الاهتزازات أثّرت فيه؛ كان هذا تبايُناً اعتُبِرَ في السابق فضيلة في علاقتهما. لذلك، بسبب الحاجة المُلحّة، تُصنع الأحذية من جلد العام الفائت.

حلّ شهر أيار (مايو) قبل أنْ تسنح الفرصة لفرانز ليُقحِم الإسفين الأول. ففي ظهيرة أحد الأيام جاء ديك إلى مكتبه شاحب اللون ومُتعباً وجلس، ثم قال:

«حسن، لقد رحلتْ».

«ماتت؟».

«توقف قلبها».

جلسَ ديك مُرهقاً على الكرسي الأقرب إلى الباب. على مدى ثلاث ليالٍ مكثَ مع فنانة مجهولة جرباء أحبّها، رسمياً من أجل تقاسُم

الأدرنالين، لكنَّ السبب الحقيقي كان من أجل إلقاء أكبر قدر ممكن من الضوء الباهت على الظلام الممتد أمامه.

قدَّرَ فرانز مشاعره جزئياً، وأسرع بإعطاء رأيه:

«إنه السفلس العصبي. إنَّ فحوصات فاسرمن التي أجريناها كلها قالت هذا. السائل الشوكي -».

قال ديك «لا يهم. أوه، يا الله، لا يهم! إذا كانتْ قد حرِصتْ على أنْ تحتفظ بالسرّ وتأخذه معها، فلنتوقَّف عند هذا الحدّ».

«يُستحسن أنْ ترتاح هذا اليوم».

«لا تقلق، أنا ذاهب».

كان فرانز قد وضع إسفينه؛ وعندما رفع عينيه عن البرقية التي كان يكتب نصّها وموجّهة إلى شقيق المرأة سأل: «أم هل ترغب في القيام برحلة صغيرة؟».

«ليس الآن».

«لا أقصد إجازة. هناك حالة في لوزان. كنتُ أتحدث عبر الهاتف مع شخص من تشيللي طوال فترة الصباح -».

قال ديك «لقد كانت شجاعة جداً. واستغرقَ منها الأمر مدة طويلة».

هزّ فرانز رأسه متعاطفاً ولملم ديك شتات نفسه. «عُذراً لمقاطعتكَ».

«هذا مجرّد تغيير. إنَّ الوضع أشبه بمشكلة أب مع ابنه - الأب لا يستطيع أنْ يُحضِر الابن إلى هنا. إنه يريد شخصاً يذهب إلى هناك».

«ما نوع المشكلة؟ إدمان كحول؟ شذوذ جنسي؟ عندما تقول لوزان -».

«إنه طرف من كل شيء».

«أنا سأذهب. هل يتعلّق الأمر بالمال؟».

«بل بالكثير من المال. ضعْ في حسابك أنْ تمكث يومين أو ثلاثة أيام، وأحضِر الصبي إلى هنا إذا كان في الأمر حاجة إلى مراقبته. على أي حال خُذ وقتك، ودقِّق في قضيتك؛ امزج بين العمل والمتعة».

بعد ساعتين من النوم في القطار شعر ديك باستعادة النشاط، ودخل في حوارٍ وديّ مع سينيور بادرو إي سيوداد ريال.

تلك الحوارات كانت متشابهة. وفي الغالب كانت هستريا ممثّل العائلة وحدها مُثيرة للاهتمام من الناحية النفسية كحالة المريض. ولم يكن هذا الشخص استثناءً: سينيور بادرو إي سيوداد ريال، الإسباني الوسيم ذو البشرة الرمادية الحديدية، والهيئة النبيلة، مع توابع الثروة والسلطة كلها، الذي كان غاضباً وهو يزرع أرض جناحه في فندق أوتيل ديه تروا موند وحكى حكاية ابنه بلا انضباط كامرأة سكرى.

«إنني أحصد ثمار ما زرعت. إنَّ ابني فاسد. كان فاسداً في مدرسة هارو، وكان فاسداً في كلية كينغز كوليج، وفي كمبريدج. وفساده لا علاج له. والآن وقد أضحى مدمناً على الشرب بات الأمر جلياً أكثر فأكثر، والفضيحة مستمرة. لقد جرّبتُ كل شيء - وضعت خطة مع طبيب صديق لي، أرسلتهما معاً في جولة في إسبانيا. كان فرانشيسكو يتلقى في كل ليلة جرعة من عقار مُهيِّج ومن ثم يذهب الاثنان إلى مبغى محترم - بدا كأنَّ العلاج نفع على مدى أسبوع أو اثنين ولكن من دون أي نتيجة. وأخيراً، في الأسبوع الفائت وفي هذه الغرفة بالذات، وليس في غرفة الاستحمام» - وأشار إليها - «دفعتُ فرانشيسكو إلى التجرّد من ملابسه حتى الخصر ورحت أضربه بالسوط -».

جلس وقد ناله الإرهاق من فرط الانفعال وتكلّم ديك:

«ذلك التصرف كان أحمق - ورِحلتُه إلى إسبانيا أيضاً كانت عقيمة -». كافح ليكبح فورة من الفرح - لأنَّ أيَّ طبيب محترم كان سيستسلم لمثل تلك التجربة الجديرة بهاوٍ!» - سينيور، يجب أنْ أخبركَ أننا في مثل هذه الحالات لا نعِدُ بأي شيء. وفيما يتعلَّق بالإدمان على الخمر غالباً نُحقق بعض النجاح - مع بعض التعاون. أولاً يجب أنْ نواجه الفتى ونكسب قدراً كافياً من ثقته لنعرف إنْ كان لديه أي قدر من الوعي بالمسألة».

كان الفتى، الذي جلس معه على المصطبة، في حوالي العشرين من العمر، وسيماً ونشطاً.

قال ديك «أود أنْ أعرف رأيك. هل تشعر أنَّ الموقف يزداد سوءاً؟ وهل تريد أنْ تتصرف بهذا الشأن؟».

قال فرانشيسكو «أعتقد أنّي أفعل. أنا شديد التعاسة».

«هل تعتقد أنَّ السبب هو معاقرة الخمر أم الشذوذ؟».

«أعتقد أنَّ السُكْر سببه الأمر الثاني». بقيَ جديّاً برهة – وفجأة انفجر بنوبة من الظُرف المنفلت وضحك قائلاً، «لا فائدة. في كلية كينغ كنتُ معروفاً بلقب شاذّ تشيلي. وتلك الرحلة إلى إسبانيا – كل ما فَعَلَتْه أنها جعلتني أشعر بالغثيان لمجرد مرأى امرأة».

قاطعه ديك بحِدَّة.

«إذا كنتَ سعيداً وسط هذه الفوضى، لا أستطيع أنْ أساعدك وأنا أُبدِّد وقتي».

«كلا، دعنا نتحدث – إنني أحتقر غالبية الآخرين بالطريقة نفسها». كان الفتى يتَّصِف بقدر من الرجولة، انحرفت الآن فأضحت مقاومة حيوية لوالده. ولكن كان في عينيه نظرة الوغد النموذجية التي يتلبّسها المُثليون جنسياً أثناء مناقشة الموضوع.

قال له ديك «إنه أمر سرّي في أوضح صوره. سوف تقضي حياتك تعاني منه، ومن عواقبه، ولن يسنح لك الوقت أو الطاقة للقيام بأي عمل آخر لائق أو اجتماعي. إذا أردت أنْ تواجه العالم فينبغي أنْ تبدأ بكبح شهوانيتك – وقبل كل شيء، الخمر الذي يُثيرها –».

كان يتكلّم بطريقة آلية، لأنه كان قد تخلّى عن الحالة قبل ذلك بعشر دقائق. وواصلا الحديث بشكل ودّي على مدى ساعة أخرى عن منزل الفتى في تشيلي وعن طموحاته. كان ذلك أقرب ما استطاع ديك أنْ يصل إليه لفهم تلك الشخصية فقط من الزاوية المَرَضيّة – لقد أدركَ أنَّ هذا السِحر بالذات مكَّنَ فرانشيسكو من القيام بأعماله الشائنة، وبالنسبة إلى

ديك لطالما كان للسِحر وجود مستقل، سواء أكان على صورة الشهامة المجنونة للبائس الذي مات في العيادة في صباح ذلك اليوم، أو الجمال الشجاع الذي اختزله ذلك الشاب الضائع وحوّله إلى حكاية قديمة كئيبة. حاول ديك أنْ يُشرّحه إلى قِطع صغيرة بحيث يمكن تخزينها، مُدركاً أنَّ كُليّة حياةٍ ما قد تختلف في نوعيتها عن أجزائها، وبدا أيضاً أنَّ حياة المرء في ثلاثينيات عمره يمكن ملاحظتها فقط من أجزائها. حبّه لنيكول وروزميري، صداقته مع آبيه نورث، وتومي باربان في عالم نهاية الحرب المكسور - في مثل هذه العلاقات بدا أنَّ هذه الشخصيات كانت شديدة القُرب منه بحيث أصبح هو الشخصية نفسها؛ بدا أنَّ ثمة ضرورة لأخذ كل شيء أو لا شيء؛ وكأنّه سيبقى حتى آخر حياته مُداناً لحملِهِ معه ذوات عدد من الناس، قابلهم مُبكّراً وأحبّهم مبكّراً، ولأنه أصبح كاملاً مثلهم تماماً. كان في الأمر عنصر وحشة - من السهل أنْ يُحَبّ - ومن الصعب أنْ يُحِب.

أثناء جلوسه في الشرفة مع الشاب فرانشيسكو، انساب شبح الماضي وولج مجال بصره. ذكرٌ طويل القامة، يتهادى بصورة فريدة، منفصلاً عن الشجيرات، تقدَّم من ديك وفرانشيسكو بتصميم ضعيف. للوهلة الأولى شكَّلَ جزءاً اعتذارياً من المشهد المهزوز بحيث بالكاد ميَّزه ديك - نهضَ ديك واقفاً على قدميه، وتصافح مع الهواء المُجرّد، وهو يفكّر «يا إلهي، لقد عبثتُ بالعش!» ويُحاول أنْ يتذكّر اسم الرجل.

«أنت الدكتور دايفر، أليس كذلك؟».

«أهلاً، أهلاً - الدكتور همفري، أليس كذلك؟».

«رويال همفري. لقد أسعدني أنْ أتناول طعام العشاء ذات ليلة في حديقتك الغنّاء».

قال ديك «طبعاً»، مُحاولاً أنْ يكبح حماسة الدكتور همفري، وخاض في تواريخ موضوعية، «كان ذلك في عام ألف وتسعمئة - وأربعة وعشرين - أو خمسة وعشرين -».

كان قد بقيَ واقفاً، لكنَّ رويال همفري، الذي بدا حييّاً كما ظهر للوهلة الأولى، لم يكن متوانياً في اختياره: تحدث إلى فرانشيسكو بشكل سريع، وحميم، لكنَّ هذا الأخير انضمّ إلى ديك، شاعراً بالخجل من نفسه، في محاولة لإبعاده.

«دكتور دايفر - هناك شيء واحد يجب أنْ أقوله قبل أنْ أذهب. أنا لم أنسَ أبداً تلك الليلة في حديقتك - كم كنتَ وزوجتك لطيفَين. بالنسبة إليّ إنها إحدى أجمل الذكريات في حياتي، ومن أسعدها. ولطالما اعتبرتُ أنها أشدّ تجمُّع للناس تحضُّراً شهدته في حياتي».

تابع ديك تراجعه بحركة السرطان الجانبية نحو أقرب باب في الفندق.

«يُسعدني أنكَ تذكّرت. والآن يجب أنْ أرى -».

تابع رويال همفري الكلام بتعاطُف «أنا أتفهَّم. لقد سمعتُ أنه يحتضر».

«مَن الذي يحتضِر؟».

«ربما ما كان ينبغي أنْ أقول ذلك - ولكننا نشترك في الطبيب نفسه».

سكتَ ديك، وهو يتأمّله مندهشاً. «عمَّن تتكلَّم؟».

«ألا تعلم، إنه والد زوجتك - لعلّي -».

«ماذا *تقول*؟».

«أعتقد - أنت تعني أنّي أول شخص -».

«تعني أنَّ والد زوجتي هنا، في لوزان».

«عجباً، حسبتُ أنكَ تعلم - حسبتُ أنَّ هذا هو سبب وجودك هنا».

«أيّ طبيب يعتني به؟».

دوّنَ ديك الاسم في مفكرة، ثم استأذن، وهرع إلى كشك الهاتف.

أبدى الدكتور دانغو استعداده لمقابلة دكتور دايفر في منزله في الحال.

كان الدكتور دانغو شاباً من جنوا؛ للوهلة الأولى خشيَ أنْ يخسر

مريضاً مُربحاً، ولكـن، حين طمْأنه ديك، أفشـى لحـظة حقيقة أنَّ السـيد وارن في الحقيـقة يحتضر.

«إنه لم يتجاوز الخمسين لكنَّ كبده توقف عن تجديد نفسه؛ والعامل الذي عجّل في ذلك هو الإدمان على الخمر».

«ألا يستجيب؟».

«إنَّ الرجل لا يستطيع أنْ يتناول أي شيء غير السوائل - لقد منحته ثلاثة أيام، أسبوع، على أبعد تقدير».

«هل ابنته الكبرى، الآنسة وارن، على عِلم بحالته؟».

«نزولاً عند رغبته لا أحد على عِلم بحالته غير خادمه. وفي صباح هذا اليوم فقط شعرتُ بأنني يجب أنْ أخبره - واستقبلَ النبأ بحماس، على الرغم من أنه كان في مزاج شديد التديُّن ومُستسلِم منذ بداية مرضه».

فكّرَ ديك: «حسن -»، ثم قرّر ببطء «على أي حال سأعتني بأمر العائلة. لكنّي أتصور أنهم سيحتاجون إلى استشارة».

«كما تشاء».

«أنا أعلم أنني أتكلّم باسمهم عندما أطلب منكَ أنْ تستدعي أحد أشهر الأطباء حول البحيرة - هربروغ، من جنوا».

«أنا كنتُ أفكّر في هربروغ».

«حتى ذلك الحين، أنا هنا على مدى يوم على الأقلّ وسأبقى على اتّصال بك».

في مساء ذلك اليوم ذهب ديك إلى سينيور بادرو إي سيوداد ريال وتحدثا.

قال الرجل العجوز «في تشيلي لدينا عقارات شاسعة - ويمكن لابني أنْ يعتني بها. أو أستطيع أنْ أجعله ينخرط في أحد المشاريع العديدة في باريس -». هزّ رأسه ومشى نحو النوافذ التي ينهمر عليها مطر الربيع بمرحٍ شديد حتى أنَّ طيـور البجع لم تحاول أنْ تختبئ. «ابني الوحيد! ألا تَسـتطيع أنْ تصحبه معك؟».

فجأة ركع الإسباني على رُكبتيه عند قدميّ ديك.

«ألا تستطيع أنْ تُشفي ابني الوحيد؟ أنا أؤمن بك - تستطيع أنْ تأخذه معك، اشفه».

«من المستحيل تعهّد شخص على هذه الأسس. ولن أفعل حتى لو استطعت».

نهض الإسباني واقفاً على قدميه.

«لقد تسرّعتُ - لقد بالغتُ -».

هبط ديك إلى البهو وقابل الدكتور دانغو في المصعد.

قال الأخير «كنتُ أوشك أنْ أزورك في غرفتك. هل نستطيع أنْ نتحدث على المصطبة؟».

سأل ديك «هل توفي السيد وارن؟».

«إنه على حاله - الاستشارة ستتم في الصباح. حتى ذلك الحين يريد أنْ يرى ابنته - زوجتك - وهو شديد الحماس لذلك. يبدو أنَّ شجاراً قد نشب -».

«أنا أعلم بهذا كله».

تبادل الطبيبان النظرات، وهما يفكّران.

اقترح دانغو «لماذا لا تتكلّم معه قبل أنْ تُقرّر؟ سوف يكون موته سامياً - مجرد ضعف وغرق».

وافق ديك بعد جهد.

«حسن».

الجناح الذي كان فيه ديفيرو يضعف ويغرق بسمو كان بحجم جناح سينيور بادرو إي سيوداد ريال - في أرجاء فندقه كله كان هناك العديد من الغرف التي تضم آثاراً ثمينة، وهاربين من العدالة، ومُطالبين بعروش إمارات مُغتَصَبة، يعيشون على مشتقات الأفيون أو المنوم يُصغون على الدوام، كأنّما إلى مذياع لا يمكن تفاديه، لألحان خشنة تحكي عن آثام

قديمة. هذه الزاوية من أوروبا لا تجذب الناس بقدر ما تقبلهم من دون طرح أسئلة مزعجة. هنا الدروب تتقاطع - يتوجه الناس إلى مصبحات خاصة أو منتجعات لعلاج مرض السل في الجبال، أناسٌ لم يعودوا *persona grata* (مرغوباً فيهم) في فرنسا أو إيطاليا.

كان الجناح مُظلماً. وثمة راهبة ذات وجه ورِع تعتني بالرجل الذي كانت أصابعه النحيلة تعبث بمسبحة على الغطاء الأبيض. كان لا يزال وسيماً وصوته يُذكِّر بخرير الفرديّة العميق وهو يُكلِّم ديك، بعد أنْ تركهما دانغو معاً.

«في ختام الحياة نحصل على الكثير من الفهم. الآن فقط، يا دكتور دايفر، بتُّ أُدرك كل شيء».

انتظر ديك.

«لقد كنتُ رجلاً شريراً. يجب أنْ تعلم أنَّه ليس من الصواب على الإطلاق أنْ أرى نيكول من جديد، لكنَّ رجلاً أعظم منا يتكلَّم ليغفر ويُشفِق». تسللت المسبحة من بين يديه الضعيفتين وانزلقت عن أغطية السرير الناعمة. التقطها ديك وأعطاه إياها. «لو أنَّ في استطاعتي أنْ أرى نيكول عشر دقائق لأخرجَتني سعادتي من العالم كله».

قال ديك «إنه ليس قراراً أستطيع أنْ أتّخذه بنفسي. إنَّ نيكول ليست قوية». لقد اتّخذَ قراره، لكنه تظاهرَ بالتردُّد. «أستطيع أنْ أكِلَ الأمرَ إلى مساعدي الخبير».

«إنَّ ما يقوله مساعدك يُناسبني - حسن جداً، يا دكتور. دعني أقول لك إنني أدينُ لك بالكثير -».

نهضَ ديك بسرعة.

«سأُعلِمك بالنتيجة عبر الدكتور دانغو».

في غرفته اتصل هاتفياً بالعيادة على بحيرة زيوريخ. وبعد طول انتظار أجابت كيثه من منزلها.

«أريد أنْ أتكلم مع فرانز».

«إنَّ فرانز في أعلى الجبل. أنا ذاهبة إليه بنفسي - هل أستطيع أنْ أنقل إليه كلامك، يا ديك؟».

«الأمر يتعلّق بنيكول - إنَّ والدها يحتضر هنا في لوزان. أخبري فرانز بهذا، لكي تُبيِّني له أهمية الوضع؛ واطلبي منه أنْ يتصل بي هاتفياً من هناك».

«سأفعل».

«أخبريه أني سأكون في غرفتي هنا في الفندق من الثالثة وحتى الخامسة، وأيضاً من السابعة وحتى الثامنة، وبعد ذلك فليُرسل من يستدعيني من قاعة الطعام».

أثناء تقسيمه تلك الساعات نسي أنْ يُضيف أنَّه ينبغي عدم إخبار نيكول بأي شيء؛ وعندما تذكّر ذلك كان الخط قد انقطع. طبعاً يجب أنْ تُدرك كيثه هذا».

... لم يكن لدى كيثه نيّة مقصودة في إخبار نيكول عن المكالمة عندما ارتقت الهضبة المُقفرة المكسوة بالأزهارالجبلية البريّة وتهب عليها الرياح السريّة، إلى حيث يؤخَذ المرضى لكي يُمارسوا التزلج في فصل الشتاء وارتقاء الجبل في فصل الصيف. عندما ترجلت من القطار رأتْ نيكول تسوقُ الطفلَين بين بعض الصخب المُنظّم. لدى اقترابها، أحاطتْ كتف نيكول برفق بذراعها، قائلة «أنت بارعة في التعامل مع الأطفال - يجب أنْ تعلميهما أكثر عن السباحة في الصيف».

كانوا قد شعروا بالحرّ بسبب اللعب، وقامت نيكول بحركة آلية بالابتعاد عن ذراع كيثه بصورة شبه فظّة. سقطت يد كيثه بصورة خرقاء في الهواء، ومن ثم أبدتْ هي أيضاً ردّ فعل، لفظياً، مُعبِّراً عن رثائها.

سألتها بحِدّة «أظننتِ أني سأعانقكِ؟ الأمر فقط يتعلّق بديك، لقد تحدثتُ معه عبر الهاتف وشعرت بالرثاء -».

«هل وقع مكروه لديك؟».

فجأةً أدركتْ كيثه خطأها، لكنها كانت قد طرقت مساراً تنقصه اللباقة

ولم يبقَ أمامها خيار غير الإجابة مع ملاحقة نيكول لها بأسئلةٍ مُلحّة: «... إذن *لماذا* كنتِ قلقة؟».

«الأمر لا يتعلّق بديك. يجب أنْ أتحدث مع فرانز».

«إذا فالأمر يتعلّق *فعلاً* بديك».

تبدّى الرعب على قسمات وجهها وظهر الفزع على وجهيّ طفليّ دايفر، القريبَين. انهارت كيثه وهي تقول: «والدك مريض في لوزان - ديك يريد أنْ يتحدث مع فرانز عن الأمر».

سألت نيكول «أهو مريض جداً؟» - في الوقت الذي جاء فيه فرانز بسلوكه المضياف الودود. فسلّمته كيثه مع شعور بالامتنان ما تبقّى من المسؤولية، لكنَّ الضرر كان قد حصل».

أعلنتْ نيكول أنا ذاهبة إلى لوزان».

قال فرانز «انتظري لحظة. لا أعتقد أنَّ هذا تصرُّف حكيم. يجب أنْ أتحدث هاتفياً مع ديك أولاً».

احتجَّت نيكول «إذن سيفوتني القطار الهابط، ومن ثم سيفوتني قطار الساعة الثالثة المنطلق من زيوريخ. إذا كان والدي يحتضر فيجب -». تركت الجملة مُعلّقة في الهواء، خائفةً من صياغتها. «يجب أنْ أذهب. يجب أنْ أُسرع للّحاق بالقطار». كانت تركض حتى وهي تتكلَّم نحو سلسلة من عربات القطار التي ملأتْ التل الجرِد بدفعات من البخار والهدير. وهتفت إلى مَنْ خلفها «إذا اتصلتَ بديك أبلغه أني قادمة إليه، فرانز!».

... كان ديك في غرفته الخاصة في الفندق يقرأ صحيفة *نيويورك هيرالد* عندما اندفعت إليه الراهبة الشبيهة بطائر السنونو - وفي الوقت نفسه رنّ جرس الهاتف.

سألها ديك، يحدوه الأمل «هل مات؟».

«*Monsieur, il est parti* - لقد غادر»

«*Comment?*» (ماذا؟)

«*Il est parti* - ومساعده أيضاً غادر مع حقائبه!».

كان أمراً لا يُصدَّق. أنْ ينهض رجل في مثل حالته ويُغادر.

أجابَ ديك على مكالمة فرانز. قال مُحتجاً «ما كان ينبغي أنْ تُخبر نيكول».

«كيثه هي التي أخبرتها، بطريقة طائشة».

«أعتقدُ أنَّ الخطأ خطأي. إياك أنْ تُطلِع امرأة على أمر إلا بعد أنْ يتمّ. على أي حال، سأستقبل نيكول... بالمناسبة، فرانز، لقد حدث أشد ما يمكن أنْ تتصور من الأمور جنوناً هنا - لقد غادر العجوز سريره ورحل...».

«ماذا؟ ماذا قلت؟».

«أقول إنه مشى، العجوز وارن - لقد غادر!».

«ولكن لِمَ لا؟».

«كان من المُفترَض أنه يحتضر بسبب الانهيار العام... لقد نهضَ وخرج، أعتقد أنه عاد إلى شيكاغو... لا أعلم، الممرضة عندي الآن... لا أعلم يا فرانز - لقد سمعتُ الخبر تواً... اتصل بي لاحقاً».

أمضى ما يُقارب الساعتين وهو يقتفي تحرّكات وارن. لقد انتهز المريض فرصة تبديل ممرضات النهار والليل ليلجأ إلى الحانة، وهناك جرع أربع كؤوس من الويسكي؛ وسدّد فاتورة الفندق بورقة مالية من فئة الألف دولار، وأعطى تعليماته لموظف الاستعلامات بأنْ يُرسل إليه الباقي، ورحل، ربما إلى أميركا. ولم ينتج عن اندفاع ديك ودانغو في اللحظة الأخيرة لكي يقبضا عليه في المحطة إلا فشل ديك في استقبال نيكول؛ وعندما تقابلا في بهو الفندق بدا عليها فجأة التعب، وكانت تزمّ شفتيها بصورة أقلقته.

سألته «كيف حال أبي؟».

«إنه أفضل حالاً الآن. لقد اتَّضح أنه يتمتع بالكثير من الطاقة المُخزّنة»، ثم تردّد، لينقل إليها الخبر بهدوء. «في الحقيقة، لقد نهضَ وغادر».

كانت المطاردة قد استهلكت موعد تناول الطعام، فرغب في شرب كأس، وقادها، مرتبكاً، إلى مطعم يُقدم الشِواء، وتابع الكلام وهما يجلسان على أريكتين من الجلد الوثير ويطلبان كأساً من مشروب مُسكِر وآخر من البيرة: «لقد ارتكبَ الرجل الذي كان يعتني به في التشخيص أو ما شابه – انتظري لحظة، لم يُتح لي الوقت الكافي لأفكر فيما حدث».

«تقول *غادر*؟».

«استقلَّ قطار المساء المتوجِّه إلى باريس».

جلسا صامتَين. وغمر نيكول شعور هائل من فتور الشعور المأساوي.

أخيراً قال ديك «إنها الغريزة. لقد كان يحتضر حقاً، لكنه حاول أنْ يستعيد التناغُم – إنه ليس أول شخص يهرب من سرير احتضاره – إنه كساعة قديمة – كما تعلمين، تهزّينها وإذا بها بفعل العادة المحض تسير من جديد. الآن أبوك –».

قالت «أوه، لا تخبرني».

تابع «كان وقوده الأساسي هو الخوف. لقد خاف، فنهضَ وخرج. لعله سيعيش حتى التسعين –».

قالت «أرجوك لا تزد في الكلام. أرجوك لا – لم يعُد في استطاعتي التحمُّل».

«حسن. إنَّ الشيطان الصغير الذي جئتُ إلى هنا لأراه ميئوس منه. يمكننا أنْ نعود في الغد».

قالت فجأةً «لا أفهم لماذا أنت مُضطر إلى – التورط في هذا كله».

«أوه، ألستِ كذلك؟ أحياناً أنا أيضاً لا أفهم».

وضعتْ يدها على يده.

«أوه، أنا آسفة لأني قلت هذا، يا ديك».

جلب أحدهم جهاز فونوغراف إلى الحانة، فجلسا يُصغيان إلى لحن «عُرس الدمية الملوّنة».

الفصل الثالث

في صباح أحد أيام الأسبوع التالي، أثناء توقف ديك لإحضار بريده، شعر ببعض الهرج في الخارج: كان المريض فون كون موريس مُغادراً. كان والداه، الأستراليان، يضعان أمتعته بحماس داخل سيارة الليموزين الكبيرة، وبجوارهما وقف الدكتور لاديسلاو، يحتجّ بمواقف غير فعّالة على إيماءات موريس، الأب، العنيفة. وكان الشاب ينظر إلى انطلاق رحلته بسخرية مترفّعة عندما اقترب منه الدكتور دايفر.

«ألا ترى أنَّ هذه المغادرة مُفاجئة قليلاً، يا سيد موريس؟».

أجفل السيد موريس عندما رأى ديك - بدا وجهه المتورّد ووجنتاه الكبيرتان بجوار بذلته كأنها تنطفئ وتُنير كالمصابيح الكهربائية. اقترب من ديك كأنه ينوي أنْ يضربه.

باشر بالقول «حان وقت رحيلنا، نحن والذين جاؤوا معنا»، ثم سكت ليلتقط أنفاسه. «حان الوقت، يا دكتور دايفر. حان الوقت».

اقترح ديك «هلا أتيتَ إلى غرفة مكتبي؟».

«كلا! سأتحدث معك، لكنني أنفضُ يديّ منك ومن عيادتك».

«أنا آسف على هذا».

هزّ إصبعه في وجه ديك. «لقد كنتُ أُخبر هذا الطبيب هنا، أننا هدرنا وقتنا ومالنا».

تململ الدكتور لاديسلاو بحركة سلبية ضعيفة، راسماً إشارة تملُّص

سلافيّة غامضة. إنَّ ديك لم يُحب لاديسلاو أبداً. ونجح في أنْ يسير مع الأسترالي الغاضب على الدرب المؤدي إلى غرفة مكتبه، مُحاولاً أنْ يُقنعه بالدخول؛ لكنَّ الرجل هزّ رأسه رافضاً.

«*أنت* السبب، يا دكتور دايفر، *أنت*، الرجل نفسه. لقد لجأتُ إلى الدكتور لاديسلاو لأنني لم أجدك، يا دكتور دايفر، ولأنّه لا يُتوقّع حضور الدكتور غريغوروفيوس قبل الغروب، وأنا لن أنتظر. كلا، يا سيدي! لن أنتظر دقيقة واحدة بعد أنْ أخبرني ابني الحقيقة».

اقترب مُهدِّداً من ديك، الذي أبقى يديه حرّتين بحيث يُوقِعه أرضاً إذا لزم الأمر. «إنَّ ابني هنا للعلاج من الإدمان على الخمر، وقد أخبرنا أنه اشتمَّ رائحة الخمر في أنفاسك. نعم، يا سيدي!»، وقام بحركة شمّ سريعة، وغير ناجحة كما بدا. «ليس مرة فقط، بل مرتين كما يقول فون كون أنه اشتمّ في أنفاسك. إنني وزوجتي لم نقرب الخمر مرةً في حياتنا. لقد أوكلنا أمر فون كون إليك لكي تُشفيه، وفي غضون شهر اشتمّ مرتين رائحة الخمر في أنفاسك! فإلى أي نوع من العلاج تلجؤون؟».

تردّد ديك؛ كان السيد موريس قادراً تماماً على إثارة شجار على ممشى العيادة.

«قبل أي شيء، يا سيد موريس، إنَّ بعض الناس لن يتخلّوا عمّا يعتبرونه ضرورياً من أجل ابنك -».

صرخ موريس بغضب «ولكن أنتَ طبيب، يا رجل! عندما يشرب العمال البيرة فهذا من سوء حظهم - ولكن أنتَ هنا من المفترض أنْ تعالج -».

«لقد تماديتَ كثيراً. لقد جاء ابنكَ إلينا لأنه مدمن على السرقة».

قال الرجل بشبه زعيق «وما سبب ذلك؟ إنه الخمر - الإدمان على الخمر. هل تعرف ما هو الإدمان؟ إنه إدمان! لقد شنق عمّي نفسه بسببه، أتسمع! ويأتي ابني إلى المصحة، وإذا بالطبيب تفوح رائحته منه!»

«يجب أنْ أطلب منك أنْ تغادر».

«أنت *تطلب* مني! نحن *أصلاً* مغادرون!».

«لو أنكَ تتحكَّم في أعصابك لأعطيتك نتائج المعالجة حتى الآن. وطبعاً، بما أنَّ هذا هو شعورك، فإننا لا نرغب في استقبال ابنك مريضاً عندنا -».

«أتجرؤ على أنْ تطلب مني أنْ أتحكّم في أعصابي؟».

استدعى ديك الدكتور لاديسلاو، وعندما جاء، قال: «هل لك أنْ تودِّع المريض وعائلته بالنيابة عنا؟».

انحنى قليلاً لموريس وولج غرفة مكتبه، وقف بجمود برهة عند الباب من الداخل. وراح يراقبهم وهم يبتعدون، الأبوان الفظّان، وابنهما الرقيق، المنحطّ: كان سهلاً التكهُّن بأنَّ العائلة ستجوب أرجاء أوروبا، وتتنمَّر على مَنْ هم أعلى شأناً منها بتجاهُلٍ شديد ومال كثير. لكنَّ السؤال الذي شغل بال ديك بعد اختفاء الموكب كان إلى أي مدى كان السبب في إثارة هذا الموضوع. كان يشرب خمر كلاريه مع كل وجبة، ويتناول كأساً أخرى ليلاً، في العموم كان من الرَم الساخن، وأحياناً يشرب الجِن في فترات بعد الظهيرة - كان من الصعب تقصّي رائحة الجِن من أنفاسه. وفي المُعدَّل كان يستهلك نصف وعاء من الكحول في اليوم، وهذا كثير على قُدرة جسمه على استهلاكه.

طرد من نفسه ميلاً إلى تبرير سلوكه، وجلس على طاولة المكتب ودوّنَ، كوصفة طبية، برنامجَ حِمية يقضي بتخفيض كمية الخمر إلى النصف. إذ لا يُسمَح بشم رائحة الخمر من أنفاس الأطباء، وسائقي السيارات، ورجال الدين البروتستانت، مثلما يُسمح للرسامين، وسماسرة البورصة، وقادة الفرسان؛ وديك لا يلوم إلا نفسه على سلوكه الطائش. لكنَّ المسألة لم تتَّضح أبداً بعد ذلك بنصف ساعة عندما توقفَ فرانز بسيارته على ممر السيارات، منتعشاً بعد أنْ أمضى مدة أسبوعَين في جبال الألب، متلهّفاً لاستئناف عمله الذي انهمكَ فيه قبل أنْ يصل مكتبه. هناك قابله ديك.

«كيف وجدت جبل إفريست؟».

«كان يمكن أنْ نُعطي جبل إفريست حقّه من دون أنْ نرتقي. لقد أحسنّا تصوره. كيف حـال كل شيء؟ كيف حال زوجتي كيثه، وكيف زوجتـك نيكول؟».

«كل شيء على ما يُرام في المنزل. ولكن يا إلهي، يا فرانز، لقد وقع شجار فظيع في صباح هذا اليوم».

«كيف؟ ماذا حدث؟».

تمشّى ديك في أرجاء الغرفة في حين اتّصل فرانز هاتفياً بمنزله. وبعد تبادل العبارات العائلية، قال ديك: «لقد أخذوا فتى آل موريس - ودار شجار».

تجهَّمَ وجه فرانز المرح.

«أنا أعلم أنه غادر. لقد قابلتُ لاديسلاو على الشرفة».

«ماذا قال لا ديسلاو؟».

«فقط أنَّ الشاب موريس غادر - وأنَّك ستُخبرني عن هذا. ماذا لديك عنه؟».

«الأسباب المتنافرة المعتادة».

«ذلك الفتى كان شيطاناً».

وافقه ديك «كان يُعاني من فقدان الحسّ. على أي حال، عندما حضرت كان الوالد قد تغلّب على لاديسلاو في موضوع استعماري. وماذا عن لاديسلاو؟ هل نحتفظ به؟ أنا أقول كلا - إنه ليس مناسباً، ولا يبدو أنه يُحسن التعامل مع أي شيء». تردّد ديك في قول الحقيقة، ابتعد ليمنح نفسه فسحة لكي يقوم بالتلخيص. جثم فرانز على حافة طاولة المكتب، وهو لا يزال يرتدي المئزر الكتّان وقفاز السفر. قال ديك:

«أحد التعليقات التي قالها الفتى لوالده أنَّ مساعدك الشهير سكّير. الرجل أحمق، ويبدو أنَّ خليفته اقتفى آثاراً من الخمر المحلي عليّ».

جلس فرانز، متأملاً. وأخيراً قال «يمكنكَ أنْ تشرح لي الأمر».

اقترح ديك «لِمَ لا أفعل الآن؟ يجب أنْ تعلم أني آخر رجل يمكن أنْ يُسيء استخدام الخمر». لمعت عيناه وعينا فرانز وهما يتبادلان النظر، اثنتان مقابل اثنتين. «لقد أثار لاديسلاو غضب الرجل إلى درجة أني اتخذت أمامه موقفاً دفاعياً. كان يمكن أنْ يدور الشجار أمام المرضى، ويمكنك أنْ تتصور مدى صعوبة الأمر وأنت تدافع عن نفسك في موقف كهذا!».

نزع فرانز قفازه وخلع معطفه. توجه نحو الباب وأخبر السكرتيرة «لا أحد يزعجنا»، وعاد إلى الغرفة وارتمى عند الطاولة الطويلة وأخذ يعبث ببريده، يكاد لا يفكّر وهو في جلسته تلك، بل يستحضر تعبيراً مناسباً لِما سيقول.

«ديك، أنا أعلم جيداً أنكَ رجل متمالك الأعصاب، ومتوازن، على الرغم من أننا لا نتّفق تماماً حول موضوع الكحول. لكنَّ الوقت قد حان - يا ديك، يجب أنْ أقول بصراحة إني كنتُ أعلم مرات عِدة أنكَ تشرب الخمر عندما لا يجدر بك أنْ تفعل. هناك سبب لهذا. لماذا لا تحاول أنْ تأخذ فترة تقشّف؟».

صحَّح له ديك تلقائياً «تقصد إجازة. إنَّ الرحيل ليس حلاً بالنسبة إليّ».

كلاهما كانا غاضبَين، فرانز لأنَّ عودته أضحت مشوبة وضبابية.

«أحياناً لا تستخدم حسّك السليم، يا ديك».

«إنني دائماً لا أفهم معنى تعبير الحسّ السليم الذي تُوصَف به المشاكل العويصة - اللهم إلا إذا كانت تعني أنَّ الطبيب العام يستطيع أنْ يُجري عملية بصورة أفضل من الطبيب المُختص».

اجتاحه إحساس غامر بالاشمئزاز من الوضع. من أجل الشرح، أو تقديم الحل - وهما العملان الطبيعيان في مثل عمرهما - يُستحسن الاستمرار في التعامُل مع الصدى الأجش للحقيقة القديمة في الآذان.

قال فجأةً «لا فائدة من هذا».

اعترفَ فرانز «حسن، هذا ما اتَّضَح لي. أنت لم تعُد متحمساً لهذا المشروع، يا ديك».

«أعلم. أريد أنْ أرحل - يمكننا أنْ نجد طريقة نحصل بها على نقود نيكول بالتدريج».

«لقد فكّرتُ في هذا، أيضاً، يا ديك - وبدأتُ أتوصل إلى هذه النتيجة. في استطاعتي أنْ أتدبّر دعماً آخر، وسوف نتمكن من الحصول على مالك كله بحلول نهاية العام».

لم يكن ديك قد نوى أنْ يتخذ قراراً بهذه السرعة ولا كان متهيّئاً لإذعان فرانز السريع جداً في تلك الأثناء، لكنه ارتاح. ولطالما شعر، مع يأس، بأخلاقيات مهنته تنهار وتغدو كتلة بلا حياة.

الفصل الرابع

قرَّرَ آل دايفر أنْ يعودوا إلى الريفييرا، موطنهم. وكانت فيلا ديانا قد أُجِّرتْ من جديد مدة فصل الصيف، وهكذا قسّموا ذلك الوقت بين ارتياد المنتجعات الألمانية والبلدات الفرنسية الشهيرة بكاتدرائياتها، حيث كانوا دائماً يقضون وقتاً سعيداً لبضعة أيام. مارس ديك الكتابة بلا أسلوب معيَّن؛ كانت واحداً من تلك الأجزاء من الحياة التي هي انتظار؛ ليس تطوُّر صحة نيكول، التي بدا أنها تزدهر أثناء السفر، ولا العمل، بل ببساطة مجرد انتظار. والعامل الذي كان يُضفي هدفاً لتلك الفترة هو الطفلان.

ازداد اهتمام ديك بهما مع ازدياد سنيّ عمريهما، إذ كانا حينئذٍ في السابعة والتاسعة. وقد نجح في التواصُل معهما متجاوزاً المُستخدمين على أساس أنَّ إجبار الطفلين والخوف من إجبارهما بديلان غير كافيين للمراقبة الدقيقة والطويلة، وتقصّي البيانات وموازنتها وتقديرها، حتى وصل إلى نتيجة أنه ينبغي عدم الانزلاق إلى ما دون مستوى معيَّن للواجب. وتوصل إلى معرفتهما بصورة أفضل مما فعلت نيكول، وتبادل معهما الحديث ولعب معهما مطولاً أثناء تذوّقه أنواعاً واسعة من النبيذ من بلدان متعددة. كانا يتسمان بذلك السِحر الكئيب، الحزين تقريباً، الخاصّ بالأطفال الذين تعلّموا باكراً ألا يبكوا أو يضحكوا بإسراف؛ بدا أنهما لا يتأثّران بالانفعالات الشديدة، لكنهما يرضيان بنظام بسيط وبالمتع البسيطة المسموح بها لهما. عاشا على المستوى المتوازي الذي وُجِدَ أنه مناسب في ظل تجربة العائلات العريقة في العالم الغربي، على التربية داخل

البيوت بدل الاختلاط مع المجتمع. فقد اعتقد ديك، مثلاً، أنَّ لا شيء يُفضي إلى تطوير المراقبة أفضل من الصمت الإجباري.

كان لانيير صبياً لا يمكن التكهُّن بتصرفاته، يتّصف بفضول خارق. كان سؤال «حسن، كم كلب بوميراني يحتاج الأمر للعق أسد، يا أبتِ؟» من الأسئلة النموذجية التي تزعج ديك. أما توبسي فكانت أسهل في التعامل معها. كانت في السابعة وفي غاية الجمال ورفيعة التهذيب كنيكول، وفي الماضي انتاب ديك القلق عليها. ومؤخراً أصبحتْ عنيفة كأي طفل أميركي آخر. كان راضياً عنهما كليهما، لكنه لا ينقل إليها الحقيقة إلا بأسلوبٍ ضمنيّ. لم يكن يُسمح لهما بخرق قوانين السلوك القويم - قال ديك «إما أنْ يتعلَّم المرء التهذيب في المنزل، أو يقوم العالم بتعليمه إياه بالسوط وقد يتأذّى أثناء ذلك. لماذا أهتمّ بما إذا كانت توبسي «تعبدني» أم لا؟ أنا لا أربيها لتكون زوجتي».

عنصر آخر ميَّز هذا الصيف والخريف بالنسبة إلى آل دايفر وهو وفرة المال. فنظراً إلى أنهم باعوا حصصهم في العيادة، وإلى التطورات التي طرأت في أميركا، أصبح الآن يتوفر لديهم الكثير من المال بحيث أنَّ مجرد إنفاقه، والاهتمام بالسلع، أصبح هوساً. كان الأسلوب الذي يُسافرون به مذهلاً.

انظر إليهم، مثلاً، عندما يتوقف القطار عند بوين، حيث يقومون بزيارة تدوم أسبوعَين. كان الانتقال من عربة النوم قد بدأ عند الحدود الإيطالية. جاءت خادمة زوجة الحاكم وخادمة مدام دايفر من عربة الدرجة الثانية لتساعدا في حمل الأمتعة والكلاب. مدموازيل بلوا سوف تُشرف على الأمتعة التي يمكن حملها باليد، وأوكلتْ أمر كلاب سيليهام إلى إحدى الخادمات، وكلبيّ البيكيني إلى أخرى. وليس من الضروري أنَّ الفقر في الروح عند المرأة يجعلها تُحيط نفسها بالحياة - بل يمكن أنْ يكون بسبب الإفراط في الاهتمام، وفيما عدا فترات مرضها العابرة، كانت نيكول قادرة على القيام بكل شيء. وفي الحال سوف يُفرَّغ من الشاحنة أربعة

صناديق من الملابس، صندوق للحذاء، وصناديق تضم ثلاث قبعات وثلاث علب تحوي قبعتين، وصندوق كبير يحتوي صناديق أمتعة الخدم، وخزانة أضابير يمكن حملها، وخزانة أدوية، وحاوية لزيت المصابيح، وطقم أوعية للنزهات، وأربعة مضارب للعبة كرة المضرب داخل خزائن وصناديق، وجهاز فونوغراف، وآلة كاتبة. وبين الفراغات حُفِظَت من أجل العائلة وبطانتها كميةٌ من الأغراض المُكمِّلة من المقابض، والحقائب المدرسية، والرُزم، ولكل منها رقم، حتى المُلصَق على صندوق عصي الخيزران. وهكذا، يمكن التحقُّق من كل شيء خلال دقيقتين على رصيف أي محطة، البعض من أجل التخزين، والبعض من أجل أخذها معهم اعتماداً على «قائمة الرحلة الخفيفة «أو قائمة الرحلة الثقيلة»، يمكن مراجعتها على الفور وحملها مُدوّنة على ألواح ذات حواف معدنية داخل كيس نقود نيكول. لقد اخترعت هذا النظام وهي طفلة عندما كانت تسافر مع أمها الضعيفة. كان مُعادلاً لنظام ضابط التموين العسكري الذي عليه أنْ يُفكّر في بطون ومُعدّات ثلاثة آلاف رجل.

انتقل آل دايفر من القطار واحتشدوا داخل الغسق المُبكّر للوادي. راقب القرويون عملية الترجل من السفينة برهبة تشبه تلك التي تلت رحلات اللورد بايرون الإيطالية قبل ذلك بقرن. كانت مُضيفتهم هي الكونتيسة دي مينغيتي، التي كان اسمها حتى وقت قريب ميري نورث. والرحلة التي بدأتْ في غرفةٍ تقع في أعلى محل توريق الجدران في نيوارك انتهت بزواجٍ استثنائي.

«كونت دي مينغيتي» كان مجرد لقب بابويّ؛ أما ثروة زوج ميري فتدفّقتْ من كونه حاكماً ومالكاً لودائع مصرفيّة في جنوب غرب آسيا. لم يكن خفيفاً بما يكفي بحيث يُسافر في حافلة بولمن جنوب خط ميسون ديكسون[1]؛ كان

1- خط ميسون-ديكسون: هو الخط الوهمي الذي يفصل شمال الولايات المتحدة الأميركية عن جنوبها، أو بين الولايات الحرة وتلك المُستعبَدة، خلال الحرب الأهلية الأميركية، بين 1861 – 1865. – المترجم

ينحدر من سلالة قبليّة-بربرية-سبئية[1]-هندوسية امتدت عبر شمال إفريقيا وآسيا، ويتعاطفُ مع الأوروبيين أكثر من تعاطفه مع وجوه الموانئ الهجينة.

عندما تقابلت هاتان العائلتان الفخمتان، واحدة من الشرق، وواحدة من الغرب، وجهاً لوجه على رصيف المحطة، بدا رونق عائلة دايفر بالمقارنة بساطةً رائدة. كان يصطحب مُضيفيهم قهرمانٌ إيطاليّ يحمل صولجاناً، وأربعة من الخدم المُعمَّمين يمتطون دراجات نارية، وامرأتان تغطيان نصفيّ وجهيهما بالخمار وقفتا باحترام خلف ميري بمسافة قليلة وألقتا السلام على نيكول، فأجفلتْ جرّاء ذلك.

كان الاحتفاء بالنسبة إلى ميري وأيضاً إلى آل دايفر له سِمة هزلية قليلاً؛ فقهقهت ميري مُعتذرة، ومُستخفّة؛ لكنَّ صوتها، عندما قدَّمت زوجها بلقبه الآسيويّ، تدفَّقَ فخوراً وعالياً.

في غرفتهم، وبينما كانوا يرتدون ملابس العشاء كشَّر ديك ونيكول كلٌ في وجه الآخر بطريقة تنم عن رهبة: إنَّ هؤلاء الأغنياء الذين يرغبون في أنْ يُعتَبروا ديموقراطيين يتظاهرون في الخفاء بأنهم يكادون يطيرون من فرط الإحساس بالتيه.

تمتم ديك من خلال رغوة الحلاقة «إنَّ الصغيرة ميري نورث تعرف ما تريد؛ لقد ثقّفها آبيه، وهي الآن متزوجة من شبيه لبوذا. وإذا تحولت أوروبا إلى البلشفية فسوف يتّضح أنها عروس ستالين».

تلفّتت نيكول حولها من موقعها عند حقيبة أدوات الزينة. لكنها ضحكتْ وقالت «انتبه إلى كلامك، يا ديك، من فضلك. إنهم فاحشو الثراء. إنَّ قصف المدافع ينهال عليهم أو يُحييهم أو ما شابه. وميري تستقل الحافلة الملكية في لندن».

وافقها «حسن». عندما سمع نيكول عند الباب تطلب الدبابيس، هتف «أتساءل إنْ كان في استطاعتي أنْ أشرب بعض الويسكي؛ إنَّني أشعر بهواء الجبال».

1- سبئية: نسبة إلى مملكة سبأ القديمة. - المترجم

سرعان ما هتفت نيكول من خلال باب الحمّام «هي ستلبي طلبك. إنها إحدى تينك المرأتين اللتين كانتا في المحطة. لقد رفعت الخِمار عن وجهها».

سألها «ماذا أخبرتْكِ ميري عن الحياة؟».

«لم تقُل الكثير. كانت مهتمة بالحياة الراقية - طرحتْ عليّ الكثير من الأسئلة عن نَسَبي وما شابه، وكأنّني أعلم أي شيء عنه. ولكن يبدو أنّ العريس لديه طفلان شديدا السُمرة من زواج سابقٍ - أحدهما مريض بمرض آسيويّ لا يستطيعون تشخيصه. يجب أنْ أُحذِّر الطفلين منه. يبدو لي شديد الغرابة. سوف تلاحظ ميري كيف ننظر إليه». وقفت قلقة برهة.

طمأنها ديك «سوف تتفهّم. لعلّ الطفل أوى إلى السرير».

على مائدة العشاء تحدث ديك مع حسين، الذي كان يدرس في مدرسة إنكليزية حكومية. سألَ حسين عن السندات وعن هوليوود، فشحذَ ديك مُخيلته بشرب الشمبانيا، وحكى له حكايات لا تُصدَّق.

سأل حسين «مليارات؟».

أكّد له ديك «بل تريليونات».

«لم أكن أعلم حقاً -».

تراجع ديك «حسن، ربما فقط ملايين. ويُخصَّص لكل ضيف ينزل في الفندق حريم - أو ما يشبه الحريم».

«غير الممثّلين والمخرجين؟».

«كل ضيف ينزل في الفندق - حتى الباعة الجوالين. في الواقع، لقد حاولوا أنْ يُرسلوا إليّ عدداً من المُرشحين، لكنّ نيكول لم تتحمل الأمر».

وبّخته نيكول عندما أصبحا وحدهما في غرفتهما، «ما سبب كل تلك المغالاة؟ لماذا استخدمت كلمة spic[1] أمامه؟».

1- سبيك: لفظة عامية تُشير إلى أحد قاطني بلد من بلدان أميركا اللاتينية المتحدثة بالإسبانية. - المترجم

«أعذريني، كنتُ أقصد كلمة دخان[1]. زلّة لسان».

«ديك، هذا ليس من شيمك أبداً».

«أعذريني من جديد. لم أُعد أتصرف على طبيعتي».

في تلك الليلة فتح ديك نافذة في غرفة الاستحمام تشرف على فناء ضيّق وطويل من القصر، رماديّ بلون الجرذان، ولكن في تلك اللحظة كانت تتردَّد في أرجائه موسيقى غريبة وكئيبة، حزينة كصوت الناي. كان هناك رجلان يغنيان بلغة شرقيّة أو بلهجة فيها الكثير من أحرف الكاف واللام - أطلّ منها لكنه لم يتمكن من رؤيتهما؛ من الواضح أنَّ في اللحن صِبغة دينية، وتركهما يُصليان بالنيابة عنه وهو المُتعب والمُجرَّد من المشاعر، ولكن لماذا، ربما لكي لا يضيع في كآبته المتفاقمة، لم يعرف بالضبط.

في اليوم التالي، وعلى سفح تلٍ قليل الأشجار، أطلقوا النار على طيور هزيلة، تمتُّ بصِلة قرابة بعيدة إلى طيور الحجل. تمَّ الأمر بتقليد غامض للسلوك الإنكليزي، مع فريق من مُثيري الطرائد الذين تنقصهم الخِبرة ونجح ديك في تجنُّب إصابتها بإطلاق النار فقط نحو الأعلى مباشرة.

لدى عودتهم كان لانيير ينتظر في جناحهم.

«أبي، لقد أمرتني أنْ أخبرك فوراً إذا اقتربنا من الصبي المريض».

استدارت نيكول حول عقبيها، واتّخذت موقف الحذر على الفور.

تابع لانيير، ملتفتاً نحوها «- إذن، أمي، إنَّ الصبي يأخذ حماماً في مساء كل يوم وفي هذه الليلة أخذ حمّامه مباشرة قبل أنْ أستحم أنا ويجب أنْ أستحم بالمياه التي استعملها، وكانت قذرة».

«ماذا؟ ماذا قلت؟».

«لقد رأيتهم يُخرِجون توني منه، ثم نادوا عليّ لكي أدخله وكانت المياه قذرة».

1- يقصد أنَّ كلمتيّ spic و smoke متقاربتان قليلاً في اللفظ. - المترجم

«ولكن – هل استحممت؟».

«نعم، أمي».

هتفَ ديك «يا للسماء!».

سأل: «لِم لم تقُم لوسيين بإعداد حمامك؟».

«لوسيين لا تستطيع. السخّان يتصرّف بغرابة – لقد أحرقَ ذراعها في الليلة الفائتة وباتت تخافه، ولذلك قامت إحدى المرأتين –».

«ادخل هذا الحمّام واستحمّ الآن».

قال لانيير من ممر الباب «لا تقُلْ إني أخبرتك».

دخل ديك معه وأخذ يرش مادة الكبريت على المغطس؛ وبعد أنْ أغلق الباب، قال لنيكول:

«إما أنْ نتحدث مع ميري أو نغادر».

وافقته وتابع قائلاً: «إنَّ الناس يعتقدون أنَّ أولادهم أكثر نظافة بما لا يُقارَن من أولاد الآخرين، وأمراضهم أقلّ انتقالاً بالعدوى».

دخل ديك وشرب من الوعاء، وهو يمضغ قطعة بسكويت بطريقة همجية على وقْع صبّ الماء الصادر من غرفة الاستحمام.

اقترح قائلاً «قُولي للوسيين أنَ عليها أنْ تتعلَّم كيف تشغّل السخّان –».

في تلك اللحظة دخلت المرأة الآسيوية بنفسها واقتربت من الباب.

«إنَّ الكونتيسة –».

أومأ إليها كي تدخل وأغلق الباب.

سألها بلطف «هل تحسّنت صحة الصغير المريض؟».

«إنه أفضل، نعم، لكنَّ النوبات لا تزال تأتيه كثيراً».

«هذا أمر مؤسف جداً – أنا شديد الأسف. ولكن في الواقع ينبغي ألا يغتسل طفلانا في المياه التي استعملها هو. هذا أمر لا جدال فيه – أنا متأكّد من أنَّ سيدتكِ سوف تغضب كثيراً إذا علِمتْ أنكِ فعلتِ أمراً كهذا».

بدتْ وكأنَّ صاعقة ضربتها «أنا؟ لماذا، أنا فقط وجدتُ أنَّ خادمتكم تواجه صعوبة في التعامل مع السخّان - فشرحت لها عنه وفتحت صنبور الماء».

«ولكن مع وجود شخص مريض يجب أنْ تُفرغي المغطس من مياه الاستحمام كلها، وتنظّفي المغطس».

«أنا؟».

شعرت بالاختناق فسحبت نفساً طويلاً، وأصدرتْ نشيجاً متشنجاً واندفعتْ خارجة من الغرفة.

قال بمزاج نكِد «لا ينبغي أنْ تتسلَّق على الحضارة الغربية على حسابنا».

على مائدة العشاء في تلك الليلة قرَّر أنَّ زيارتهم يجب أنْ تُختَصَر حتماً: بدا أنَّ حسين لا يُلاحظ في بلده إلا العديد من الجبال وبعض الماعز ورُعاة الماعز. كان شاباً مُحافِظاً - وإخراجه من تحفّظه يتطلّب جهداً مُخلصاً كان ديك حينئذٍ يوفّره من أجل عائلته. وبعد انتهاء وجبة العشاء مباشرة ترك حسين ميري وآل دايفر وحدهم، لكنَّ الاتحاد القديم كان قد تفرَّقَ - امتدتْ بينهم مساحات اجتماعية قلقة كانت ميري على وشك أنْ تغزوها. شعر ديك بالارتياح عندما تلقّت ميري، عند الساعة التاسعة والنصف، وقرأتْ رسالة ثم نهضت واقفة.

«يجب أنْ تعذراني. إنَّ زوجي سيغادر في رحلة قصيرة - ويجب أنْ أرافقه».

في صباح اليوم التالي، أسرعت الخادمة إلى إحضار القهوة، ودخلت ميري غرفتهما. كانت ترتدي ملابسها ولم يكونا قد ارتديا ملابسهما، وبدا أنها استيقظت منذ وقت طويل، وأصبح وجهها أكثر قسوة بما يحمل من غضبٍ هادئ، متشنج.

«ما هذه القصة التي تقول إنَّ لانيير استحمَّ في حمام قذر؟».

بدأ ديك بالاحتجاج، لكنها قاطعته:

«*ما هذه* القصة التي تقول إنكَ أمرتَ أخت زوجي بتنظيف مغطس لانيير؟»

ظلّت واقفة تُحدِّقُ إليهما، وهما جالسان في سريريهما عاجزان كأبلهَين، يرزحان تحت ثقليّ صينيَّتي الطعام. هتفاً معاً: «*أخته!*».

«وأنكما أصدرتما أمراً لإحدى أُختيه بتنظيف المغطس!».

انطلقَ صوتاهما «لم نفعل - أنا تكلّمتُ مع خادمة محلية -».

«أنتَ تكلمت مع أخت حسين».

لم يقوَ ديك إلا على قول: «حسبتُ أنهما خادمتان محليتان».

«لقد أخبروكما أنهما من الهيمادون».

«ماذا؟» وخرج ديك من السرير وولج رداءه.

«لقد شرحتُ الكلمة لك على البيانو في الليلة قبل السابقة. لا تقُل لي إنكَ كنتَ من فرط المرح بحيث لم تفهم».

«ماذا كنتِ قد قلتِ؟ لم أسمع البداية. لم أكن على تواصُل - نحن لم نُقِم أيّ تواصل، يا ميري. حسن، كل ما يمكننا أنْ نفعل هو أنْ نقابلها ونعتذر».

«تقابلها وتعتذر! لقد شرحتُ لك أنه عندما يتزوج أكبر عضو سناً في العائلة - عندما يتزوج أكبر فرد سناً، حسن، تكرِّس أكبر أختين سناً نفسيهما لتكونا من الهيمادون، أي وصيفتين لزوجته».

«ألهذا السبب غادر حسين المنزل ليلة أمس؟».

تردّدت ميري؛ ثم أومأت برأسها إيجاباً.

«كان مُضطراً إلى ذلك - لقد غادروا كلهم. كان ذلك ضرورياً للحِفاظ على شرفه».

هنا نهضَ كلا عضويّ عائلة دايفر من السرير وارتديا ملابسهما؛ وتابعت ميري بالقول:

«وما قصة مياه الاستحمام؟ وكأنَّ شيئاً كهذا يمكن أنْ يحدث في هذا المنزل! سوف نسأل لانيير عن الأمر».

جلس ديك على حافة السرير مُشيراً بإيماء سريّ إلى نيكول بما معناه أنَّ عليها أنْ تتولى الأمر نيابة عنه. في تلك الأثناء، مشت ميري نحو الباب وتحدثتْ إلى أحد المساعدين بالإيطالية.

قالت نيكول «انتظر لحظة، لن أقبل هذا».

أجابتْ ميري بنبرة لم تكن قد استخدمتها مع نيكول من قبل «لقد اتّهمتنا. والآن من حقي أنْ أرى».

ارتدتْ نيكول بعض الملابس وكأنها درع للصدر قائلة «لن أسمح بإحضار الولد».

قال ديك «لا بأس، أدخلي لانيير. سوف نُنهي مسألة مغطس الاستحمام - حقيقة كانت أم كذباً».

حدَّقَ لانيير، وهو شبه عارٍ عقلياً وجسدياً، إلى وجوه الأشخاص البالغين الحانقة.

سألته ميري «اسمع، يا لانيير. ما الذي دعاك إلى الاعتقاد أنَّك اغتسلتَ بمياهٍ سبقَ استعمالها؟».

أضاف ديك «انطق».

«لقد كانت قذرة، هذا كل شيء».

«ألم تسمع المياه النظيفة تجري، من غرفتك، في الغرفة المجاورة».

اعترفَ لانيير بأنَّ هذا ممكن، لكنه كرر وجهة نظره - المياه كانت قذرة. كان خائفاً قليلاً؛ حاول أنْ يتخيل:

«لا يمكن أنْ تكون جارية، لأنَّ -».

ألقوا عليه نظرة ثابتة.

«ولِمَ لا؟».

كان واقفاً برداء الكيمونو الصغير مُثيراً شفقة والديه عليه ويتسبَّب بنفاد صبر ميري - ثم قال:

«المياه كانت قذرة، كانت مملوءة برغوة الصابون».

باشــرت ميري بالقول «عندما لا تكون واثقاً مما تقول -»، لكنَّ نيكول قاطعتها.

«كفى، ميري. إذا كانت هناك رغوة صابون قذرة في المياه فمن المنطقي أنْ يعتقد أنَّ المياه قذرة. لقد أخبره والده أنْ يأتي -».

«لا يمكن أنْ تكون هناك رغوة صابون قذرة في الماء».

ألقى لانيير نظرة تأنيب إلى والده، الذي أفشى أمره. فأدارته نيكول من كتفيه نحو الوراء وأرسلته إلى خارج الغرفة؛ وعمل ديك على كسر الجو المشحون بالضحك.

ثم، كأنَّ الصوت أثار الماضي، الصداقة القديمة، خمّنت ميري كم ابتعدتْ عنهما وقالت بنبرة صوت مُهدِّئة: «الأمر هكذا دائماً مع الأطفال».

ازداد قلقها وهي تتذكّر الماضي. سيكون من الحمق أنْ تذهبا - إنَّ حسين يريد أنْ يقوم برحلته هذه، في كل الأحوال. قبل كل شيء، أنتما ضيفاي وأفسدتما الأمر». لكنَّ ديك، الذي ازداد غضباً بسبب هذا الالتواء واستخدامها كلمة أفسدتما، أشاح بوجهه وبدأ يحشد قِواه، قائلاً:

«إنَّ ما حدث للشابتين أمر مؤسف جداً. أودّ أنْ أعتذر لتلك التي أتت إلى هنا».

«ليتك أصغيتَ وأنت على مقعد البيانو!».

«لكنكِ أصبحتِ مملة جداً يا ميري. لقد أصغيتُ قدر استطاعتي».

نصحته نيكول «اصمتْ!».

قالت ميري بمرارة «لقد بادلته المديح بمثله. وداعـاً، نيكول»، وخرجت.

بعد ذلك كله لم يبقَ هناك أي شك في أنها ستأتي لتودّعهم لدى رحيلهم؛ أعدّ القهرمان أمر الرحيل. ترك ديك رسائل رسمية لحسين وللأختين. لم يبقَ أمامهم إلا الرحيل، لكنهم جميعاً، خاصة لانيير، انزعجوا.

على متن القطار أصرّ لانيير «أنا أصرّ على أنَّ مياه الاستحمام كانت قذرة».

قال والده «لا بأس. يُستحسن أنْ تنسى الأمر - إلا إذا أردت مني أنْ أُطلّقك. هل تعلم أنه كان هناك قانون جديد في فرنسا يمكن بموجبه تطليق الابن؟».

ضجَّ لانيير بالابتهاج واتّحدَ آل دايفر من جديد - تساءلَ ديك كم مرة أخرى يمكن تحقيق ذلك.

الفصل الخامس

اقتربت نيكول من النافذة ومالتْ على عتبتها لتُلقي نظرة على مشادة تتفاقم على المصطبة؛ أشرقت شمس شهر نيسان ورديّة على الوجه الملائكي لأوغسطين، الطبّاخة، وزرقاء على سكين اللحّام الذي لوّحتْ له بيدها السكرى. كانت معهم منذ عودتهم إلى فيلا ديانا في شهر شباط (فبراير).

بسبب عقبة الظِلّة لم تتمكن إلا من رؤية رأس ديك ويده حاملة إحدى مجموعته من عصي الخيزران الثقيلة ذات مقبض البرونز. السكين وعصا الخيزران، اللتان تُهدِّد كلٌ منهما الأخرى، كانتا كمرجل ثلاثي القوائم وسيف قصير في قتال للمصارعين. ووصلتها كلمات ديك أولاً:

«- لا يهمني كم تشربين من نبيذ المطبخ، ولكن عندما أضبطكِ تجرعين من زجاجة شابلي موتون -».

صرخت أوغسطين، شاهرة سيفها القصير «تتكلَّم عن شرب الخمر! أنت تشربه - طوال الوقت!».

هتفت نيكول من فوق الظِلّة: «ما الأمر، ديك؟»، فأجابها بالإنكليزية: «العجوز كانت تُجهِزُ على الخمر المُعتَّق. سأطردها - على الأقلّ أحاول أنْ أفعل».

«يا للسماء! حسن، لا تدعها تنال منك بذلك السكين».

هزّتْ أوغسطين سكينها عالياً في وجه نيكول. كان شكل فمها العجوز يُشبه ثمرتي كرز صغيرتين متداخلتين.

«أود أنْ أقول، يا مدام، إنْ كنتِ تعلمين أنَّ زوجك يعاقر الخمر في منزله الريفيّ كعاملٍ يوميّ -».

قاطعتها نيكول «اخرسي واخرجي! سوف نستدعي الشرطة».

«*أنتِ* ستستدعين الشرطة! إنَّ أخي جندي في الجيش! *أنتِ* - أيتها الأميركية المُقرِفة؟».

هتف ديك بالإنكليزية لنيكول:

«أبعدي الطفلَين عن المنزل إلى أنْ أُسوّي هذا الأمر».

«- أميركيون مُقرفون يأتون إلى هنا ويجرعون أفضل أنواع نبيذنا» هكذا صرخت أوغسطين بصوتٍ ثوريّ.

كانت نبرة ديك في الكلام أشد صرامة.

«يجب أنْ تغادري الآن! سوف ندفع لك مستحقاتك».

«أنت واثق من قدرتك على تسديد ما عليك! إذن دعني أقول لك -» واقتربت ولوّحت بالسكين بغضبٍ شديد حتى أنَّ ديك رفع عصاه، فاندفعتْ نحو المطبخ ثم عادت مع ساطور مُدعَّم بفأس.

لم يكن الموقف جيداً. فقد كانت أوغسطين امرأة قوية ولا يمكن تجريدها من سلاحها إلا بالمجازفة بأنْ تنتج عن ذلك عواقب وخيمة لها - وتعقيدات قانونية حادة تقع على رأس مَن يعبث مع مواطن فرنسي. هتف ديك عالياً لنيكول، في محاولة للمراوغة:

«اتصلي بمركز الشرطة»، ثم هتف لأوغسطين، مُشيراً إلى أسلحتها «هذا سيؤدي إلى القبض عليكِ».

ضحكت بطريقة شيطانية «ها- *ها!*»؛ لكنها لم تقترب أكثر. اتصلت نيكول بالشرطة، لكنَّ الإجابة كانت أشبه بضحك أوغسطين. سمعتْ همهمات وتبادل للكلمات - وفجأة انقطع الاتصال.

عادت إلى النافذة، وهتفت لديك: «زِد لها المبلغ».

«ليتني أستطيع بلوغ جهاز الهاتف!»، ولمّا لم يكن هذا الكلام عملياً، أذعن ديك. مقابل خمسين فرنكاً، زيدت لتُصبح مئة لأنه استسلم لفكرة

التخلُّص منها على عجل، سلَّمت أوغسطين حصنها، وهي تحمي تراجعها بقنابل عاصفة من «ابن حرام!»، واشترطت لمغادرتها أنْ يأتي ابن أختها ويأخذ أمتعتها. أثناء انتظاره بحذر بالقرب من المطبخ، سمع ديك صوت فرقعة قنينة زجاجة، لكنه استسلم للأمر. لم يقع مزيد من المتاعب. عندما وصل ابن أختها، اعتذر الجميع، وهتفت أوغسطين لديك مودّعة بمرح ثم نادت باتجاه نافذة نيكول «*Au revoir, Madame! Bonne chance!*» (وداعاً مدام، حظاً سعيداً!)

ذهب آل دايفر إلى مدينة نيس وتناولوا طبق حساء السمك المؤلف من يخنة السمك الصخري وصِغار جراد البحر المُخفَّف بالزعفران، وزجاجة من الشابليه الباردة. وعبَّر عن شفقته على أوغسطين.

قالت نيكول «أنا لستُ آسفة على الإطلاق».

«أنا آسف - ومع ذلك أتمنى لو أنني رميتُ بها من أعلى الجُرف».

في تلك الأيام كان هناك القليل من المواضيع التي تجرّآ على مناقشتها؛ نادراً ما كانا يعثران على الكلمة الصحيحة عندما يحتاجان إليها، كانت دائماً تصل متأخّرة لحظة عندما يعجز أحدهما عن التواصُل مع الآخر. وفي تلك الليلة أيقظهما انفجار أوغسطين من أحلام يقظة كلٍ منهما؛ تبادلا أطراف الحديث مع حرارة وبرودة الحساء المُتبَّل والنبيذ الذي يُزيد الإحساس بالعطش.

اقترحتْ نيكول «لا يمكننا أنْ نستمر على هذا المنوال؟ أم هل نستطيع؟ - ما رأيك؟»، وعندما أجفلت لأنَّ ديك لم يُنكِر ذلك، تابعت قائلة، «أحياناً أعتقد أنه خطأي - لقد دمّرتك».

سأل بمرح «إذن فأنا مُدمَّر، أحقاً؟».

«ليس هذا ما قصدت. لكنكَ كنتَ ترغب في ابتكار الأشياء - الآن تبدو أنك تُحطّمها».

توتَّرَ لأنه تعرَّض للانتقاد بهذه العبارات الصريحة، لكنَّ صمته

المُضخَّم أخافها أكثر. وخمَّنتْ أنَّ ثمة شيئاً يتنامى خلف ذلك الصمت، خلف تينك العينين القاسيتين، الزرقاوين، إنه الاهتمام غير الطبيعي تقريباً بالطفلَين. كانت نوبات الغضب غير المعتادة تُفاجئها – كان يُعبِّر فجأة مطوّلاً عن احتقاره لشخص، أو سلالة، أو طبقة اجتماعية، أو أسلوب حياة، أو طريقة تفكير. كأنَّ قصة متقلّبة الأمزجة تروي نفسها بنفسها داخله، كانت فقط تُخمّن أحداثها حين تظهر فجأة على السطح.

سألته «ما الذي نلته، في نهاية المطاف؟».

«معرفة أنكِ تزدادين قوة في كل يوم. معرفة أنّ قانونك يتبع قانون تناقُص الغلّة[1]»

جاءها صوته من بعيد، كأنه يتكلَّم عن شيء ناءٍ ومدرسيّ؛ جعلها إحساسها بالخوف تهتف «ديك!» مدّتْ يدها عبر الطاولة. وبحركة لا إراديّة سحب ديك يده وأضاف: «هناك مشكلة كبيرة يجب التفكير فيها، أليس كذلك؟ المسألة لا تتعلّق بكِ وحدك فقط». غطّى يدها بيده وقال بالصوت الممتع القديم لمتآمر سعياً إلى المتعة، والخبث، والفائدة والبهجة:

«أترين ذلك القارب البعيد هناك؟».

كان ذلك لنشاً بمحرِّك لصاحبه ت.ف غولدينغ راسياً بهدوء بين الأمواج الصغيرة لخليج نيس، دائماً يقوم برحلات رومانسية لا تقوم على حركة واقعيّة. «سوف نذهب إليه الآن ونسأل الناس على متنه عن حالهم. وسوف نرى إنْ كانوا سعداء».

اعترضتْ نيكول «إننا نكاد لا نعرف الرجل».

«لقد حثّنا على ذلك. ثم – إنَّ بيبي تعرفه – لقد تزوجت منه عملياً، ألم تفعــل – ألم تفعل؟».

1- قانون تناقُص الغلّة: قانون يقول إنَّ زيادة العمل أو رأس المال إلى أبعد نقطة معيَّنة لا يترتّب عليه زيادة مناسبة في الإنتاج.

عندما أبحرا من المرفأ بقارب مُستأجَر كان غسق الصيف قد حلّ والأضواء تنبعث على دفعات على طول حبال أشرعة وصواري قارب «مارجين». عندما اقتربا منه، تجدّدت شكوك نيكول:

«إنه يُقيم حفلاً –».

خمّنَ «إنه مجرد مذياع».

هتفا – نظر رجل عجوز ضخم أشيب الشعر يرتدي بزّة بيضاء من أعلى، هاتفاً:

«هل أنتما آل دايفر؟».

«وأنتم قارب *مارجن!*».

تحرّك قاربهما تحت الدَرَج؛ عندما ارتقيا ظهر القارب أحنى غولدينغ قامته الضخمة لكي يُساعد نيكول على الصعود.

«وصلتما بالضبط على موعد العشاء».

كانت هناك فرقة موسيقية صغيرة تعزف في المؤخرة:

«أنا لك إذا طلبت،

ولكن لا تستطيع أنْ تطلب مني أنْ أُحسِن السلوك –».

بينما ذراعا غولدينغ العملاقتان تدفعهما من الخلف من دون أنْ تلامسهما، بدأتْ نيكول تندم أكثر لأنهما جاءا، ويزداد نفاد صبرها من ديك. وبما أنهما اتّخذا موقف الترفّع عن الناس المرحين هنا، في وقت كان عمل ديك وصحّتها يتناقضان مع ما يجري حولهما، ظهرا كرافضَين. لقد ترجمَتْ بدائلُ الريفيرا خلال السنوات التالية هذا على أنه عِدائيّة غامضة. ومع ذلك، بما أنّ نيكول اتّخذت ذلك الموقف، شعرت بأنه ينبغي عدم القبول بتسوية رخيصة مقابل مسرّة مؤقتة.

أثناء اجتيازهما الصالون المركزي شاهدا أمامهما أشخاصاً يرقصون

في الإضاءة المُعتمة في مؤخر الزورق الدائريّ. كان وهماً خلقَه سِحر الموسيقى، والإضاءة الغريبة، والمياه التي تكتنف الجهات كلها. في الحقيقة، فيما عدا الخدم المنهمكين في أعمالهم، كان الضيوف يسترخون على ديوان عريض يمتد على طول انعطاف ظهر الزورق. كانت هناك ملابس بيضاء، وحمراء، وضبابية وصدور العديد من الرجال المكوية، تسبّب أحدهم، انفصل عنهم وعرَّفَ عن نفسه، في إخراجِ صيحةِ ابتهاجٍ صغيرة نادرة من نيكول.

«تومي!».

أزاحت نيكول السِمة الفرنسية لانحنائه الرسمي نحو يدها، وضغطتْ وجهها على وجهه. جلسا، أو بالأحرى استلقيا معاً، على المقعد الأنطوني[1]. كان وجهه الوسيم شديد السُمرة بحيث خسِر جمال سُمرة الشمس العميقة، من دون أنْ يبلغ الجمال الحزين للزنوج - كان مجرد جلد متهرِّئ. السِمة الأجنبية لافتقاره للنُضرة بسبب شموس مجهولة، وتغذِّيه من أراضٍ غريبة، وارتباك لغته بفعل تأثيرات لهجات محلية عديدة، وردود أفعاله المتناغمة مع مصادر خوف غريبة - هذه الأشياء كلها أبهرت نيكول وبثّت فيها الارتياح؛ في لحظة لقائهما استلقت في حضنه، روحياً، وانسابت انسابت... ثم فرض حب البقاء نفسه عليها، فعادت إلى عالمها، وقالت بخفّة:

«تبدو ككل المغامرين الذين نشاهدهم في الأفلام - ولكن لماذا طال غيابك؟».

نظر تومي باربان إليها، غير فاهم بل متيقّظاً؛ وومض بؤبؤا عينيه.

تابعت، في مُحاكاة حَلْقيّة ساخرة للاشيء، «إنَّ خمس سنوات مدة

1- أنطوني: نسبة إلى السور الأنطوني الطويل، وهو جبهة دفاع رومانية تمتد عبر جنوب اسكتلندا من نهر كلايد وحتى فيرث أوف فورث. بُنيَ في عام 142 ميلادي بأمر من الإمبراطور الروماني أنطونيوس بيوس، أو أنطوني الورِع، (86 - 161 م)، وهو الابن المُتبنّى للإمبراطور هادريان وخليفته. المقصود هنا أنّ المقعد طويل. - المترجم

طويلة جداً. أما كان في وسعك أنْ تذبح عدداً من المخلوقات وتقفل عائداً، وتتنفَّس هواءنا فترة من الوقت؟».

في حضورها العزيز تحول تومي إلى السلوك الأوروبي بسرعة.

«Mais pour nous autres heros il faut du temps, Nicole. Nous ne pouvons pas faire de petits exercices d'histoire- il faut faire les grandes compositions»

(ولكن بالنسبة إلينا نحن الأبطال الآخرين الأمر يستغرق وقتاً، نيكول. يجب عدم الاكتفاء بالأعمال الصغيرة في التاريخ - بل يجب القيام بإنجازات عظيمة)

«حدّثني بالإنكليزية، يا تومي».

«Parlez francais avec moi, Nicloe» (بل حدثيني بالفرنسية، يا نيكول)

«لكنَّ المعاني تختلف. بالفرنسية تستطيع أنْ تكون بطولياً وشهماً وفخماً، وأنت تعلم هذا. ولكن بالإنكليزية لا تستطيع أنْ تكون بطولياً أو شهماً من دون أنْ تكون سخيفاً قليلاً، وأنت تعلم هذا، أيضاً. وهذا يُضفي عليّ تميُّزاً».

فجأة قهقه «ولكن قبل كل شيء - حتى بالإنكليزية أنا شجاع، وبطوليّ، وكل ما إلى ذلك».

تظاهرتْ بأنها مذهولة من فرط الإعجاب، لكنه لم يرتبك.

قال «أنا لا أعرف إلا ما أراه في السينما».

«أكل شيء يُشبه ما يظهر في السينما؟».

«السينما ليست بهذا السوء. لديكِ مثلاً هذا المدعو رونالد كولمَنْ[1] - هل شاهدتِ أفلامه عن كتيبة إفريقيا؟ إنها ليست سيئة على الإطلاق».

1- رونالد كولمن (1891 - 1958): ممثل مسرحي وسينمائي بريطاني. تميز بأسلوب وصوت خاصين. من أفلامه «سجين زندا»، «قصة مدينتين»، «شمبانيا للقيصر»..... - المترجم

«حسن، كلما ذهبت إلى السينما سأعلمُ أنكَ تمرُّ بالضبط بما أشاهد في تلك اللحظة».

أثناء تكلّمها كانت نيكول تعي وجود شابة صغيرة، شاحبة، وجميلة، ذات شعر جميل معدنيّ اللون، يكاد يبدو أخضر اللون تحت أضواء متن الزورق، كانت جالسة على الجانب المقابل لمكان جلوس تومي وقد تكون جزءاً إما من حديثهما أو حديث من يجلس بجوارهما. كان من الواضح أنها تحتكر تومي، لأنها عندئذٍ كانت قد تخلّت عن الأمل في جذب انتباهه بما كان ذات يوم يُسمّى فظاظة، واجتازت أرض متن الزورق الهلاليّة بوقاحة.

قال تومي بهدوء، وشبه مُزاح، «قبل أي شيء، أنا بطل. وفي المعتاد أتحلّى بشجاعة ضارية، كالأسد مثلاً، أو كشخص سكّير».

انتظرتْ نيكول إلى أنْ تلاشى صدى غروره بنفسه داخل عقله - كانت تعلم أنه ربما لم يُدلِ بمثل ذلك التصريح من قبل. ثم بحثت بين الغرباء ووجدتْ، كالمعتاد، أنَّ العُصابيين الشرسين يتظاهرون بالهدوء، يُحبّون الريف فقط بسبب رعبهم من المدينة، من هدير أصواتهم التي حدّدت النبرة والطبقة. سألتْ:

«مَنْ تلك المرأة ذات الثوب الأبيض؟».

«المرأة التي كانت تجلس بجواري؟ إنها ليدي كارولاين سيبلبي-بيرس». أصغيا برهة إلى صوتها المتناهي إليهما:

«الرجل وغد، لكنه خبيث. بقينا يقظين طوال الليل نلعب الورق، وهو يُدين لي بألف فرنك سويسري».

ضحك تومي وقال: «إنها الآن أخبث امرأة في لندن - كلما عدتُ إلى أوروبا أجد مجموعة جديدة من أشد نساء لندن خبثاً. وهي آخرهن - على الرغم من أني أعتقد أنَّ هناك واحدة أخرى لا تقلّ عنها خُبثاً».

ألقت نيكول من جديد نظرة إلى المرأة عبر أرض متن الزورق.

كانت هشّة، وهزيلة- لم تكد تصدّق أنَّ تينك الكتفين الضيقين، والذراعين النحيلين تستطيع أنْ ترفع عالياً رأي الانحطاط، الرمز الأخير للإمبراطورية الآفلة. كانت أقرب شَبَهاً بإحدى نساء جون هيلد[1] ذوات الصدور المُسطّحة من مجموعة من الشقراوات الممشوقات النحيلات اللائي كنّ موديلات للرسامين والروائيين قبل الحرب.

اقترب غولدينغ، يُكافح رنين جثّته الضخمة، التي عبَّرتْ عن إرادته كأنما من خلال مُكبِّر صوت هائل الحجم، واستسلمت نيكول، مازالت مترددة، لملاحظاته المُضجرة: حول أنَّ «مارجين» سيتوجه إلى مدينة كان بعد العشاء مباشرة؛ وأنَّ في استطاعتهم دائماً أنْ يُعِدّوا بعض الكافيار والشمبانيا، على الرغم من أنهم تناولوا طعام العشاء؛ وأنَّ ديك على أي حال يتكلّم عبر الهاتف الآن، يأمر سائقهما الخاص في نيس كي يعود بالسيارة إلى كان ويتركها أمام مقهى كافيه ديزالييه، حيث يمكن لآل دايفر أنْ يستعيدوها من هناك.

انتقلوا إلى قاعة الطعام وجلس ديك بجوار ليدي كارولاين. ولاحظتْ نيكول أنَّ وجهه المتورِّد عادة هربت منه الدماء؛ تكلَّمَ بصوتٍ جازم، ولم يبلغ سَمع نيكول منه إلا نُتفٌ:

«... لا بأس بلغتك الإنكليزية، أنتِ تؤدين رقصة الموت... سيبويز في أطلال الحصن، أعني سيبويز عند البوابة والمرح داخل الحصن وما إلى ذلك. القبعة الخضراء، القبعة المسحوقة، بلا مستقبل».

كانت إجابات ليدي كارولاين بجُملٍ مُقتضَبة تذيّلها كلمة «ماذا؟» وتُشدّد عليها بكلمة «تماماً!»، وبالكلمة الباعثة على الابتئاس «تشيريو!» التي كانت دائماً تنطوي على خطر ظاهر، لكنَّ ديك بدا شارداً ولم يُلاحظ الإشارات المُحذِّرة. وفجأةً أدلى ببيان يتَّسم بحماسة خاصة،

1- جون هيلد (1889 – 1958): رسام كاريكاتيري أميركي في المجلات. اشتهر خاصة برسم فتيات مستهترات مرحات وراقصات اشتُهرن خلال حقبة عشرينيات القرن العشرين بلقب «فلابر». - المترجم

فات نيكول فحواه، لكنها رأت وجه المرأة الشابة يكفهرّ ويتوتّر، وسمعتها تجيب بحِدّة:

«قبل كل شيء، السيئ يبقى سيئاً والصديق يبقى صديقاً».

ها قد وجّه إهانة من جديد إلى أحدهم - أما كان في وسعه أنْ يُمسك لسانه مدة أطول؟ كم من الوقت؟ حتى الموت إذن.

عند آلة البيانو، كان شاب اسكتلندي أشقر الشعر من أفراد الفرقة الموسيقية (المُسماة باسم طبلها «عازفو جاز راغتايم في كلية أدنبورو») قد باشر الغناء على نغمة قصيدة داني ديفر[1] الرتيبة، وأرفق ذلك بعزف منخفض على البيانو. كان ينطق كلماته بدقّة بالغة، وكأنها تؤثّر فيه تأثيراً لا يُحتمَل:

«كانت هناك شابة من الجحيم،
أجفلتْ لدى سماعها قرع ناقوس،
لأنها كانت سيئة - سيئة - سيئة،
أجفلت لدى سماع قرع ناقوس،
قادماً من الجحيم (بوووم بوووم)
من الجحيم (تووووت تووووت)
كانت هناك شابة من الجحيم -»

همس تومي لنيكول «ما معنى هذا كله؟».

أمدّته الفتاة الجالسة على الطرف المقابل له بالجواب:

«إنَّ كارولاين سيبلي-بيرز هي التي ألّفت الكلمات. وهو وضع الموسيقى».

1- «داني ديفر»: قصيدة للكاتب الإنكليزي روديار كيبلينج (عام 1890)، وتحكي عن عملية إعدام الجندي البريطاني جاني ديفر في الهند لارتكابه جريمة قتل، والقصيدة هي تجميع لتعليقات رفاقه من الجنود وهم يشاهدون عملية إعدامه شنقاً. - المترجم

غمغمَ تومي مع بداية البيت التالي «*Quel enfantillage!*» (يا له من شيء صبيانيّ!)، مُشيراً إلى نزوع السيدة المُجفِلة، «*On dirait qu'il recite Racin!*» (كأنه يُلقي أشعار راسين!)

ظاهرياً، على الأقل، لم تكن ليدي كارولاين تولي أداء عملها أي انتباه. وعندما نظرت نيكول إليها من جديد وجدت نفسها متأثّرة، ليس بالخُلُق ولا بالشخصية، بل بالقوة المُستمدّة من الموقف فقط؛ اعتقدتْ نيكول أنها هائلة، وقد تأكّدتْ وِجهة النظر هذه عندما نهضَ المدعوون عن المائدة. بقيَ ديك جالساً على مقعده وعلى وجهه تعبير غريب؛ ثم صاح بتهوّر وحماقة.

«لا أحبّ التلميح في هذا الهمس الإنكليزي الذي يصمُّ الآذان».

كانت ليدي كارولين في منتصف الطريق إلى خارج الغرفة فالتفتت ومشت عائدة إليه؛ وتكلّمت بصوتٍ منخفض سريع جعلته مسموعاً للجميع عن عمد.

«أنت أتيتَ إليّ وطلبته مني - منتقصاً أهل بلدي، مُنتقصاً صديقتي، ميري مينغيتي. لقد قلتُ ببساطة إنكَ شوهِدتَ في صُحبة مجموعة مُثيرة للريبة في لوزان. فهل هذا همسٌ يُصمّ الآذان؟ أم أنه ببساطة يصمّ أُذنيك *أنت*؟ ».

قال ديك، متأخراً قليلاً «إنَّه لا يزال غير صارخ بالقدر الكافي. إذن فأنا في الواقع سيئ السُمعة -».

صاحَ غولدينغ «ماذا! ماذا!» وحثّ ضيوفه نحو الخارج بتهديد جسمه القويّ. ورأتْ نيكول من زاوية الباب أنَّ ديك لا يزال جالساً على الطاولة. كانت حانقة على المرأة بسبب تصريحها المنافي للعقل، وعلى ديك لأنه أحضرها إلى هنا، ولأنه أصبح مُشوّشاً، ولم يُشذِّب سُخريته، ولأنه خرج من الأمر مُهاناً. وكانت منزعجة أكثر لأنها علِمتْ أنَّ استحواذها على تومي باربان لدى وصولهما قد أثار غضب المرأة الإنكليزية أولاً.

بعد برهة من ذلك رأتْ ديك واقفاً على الممر الخشبي للقارب، وبدا متمالكاً تماماً لنفسه ويتحدث مع غولدينغ؛ ثم وعلى مدى نصف ساعة

لم تره في أي مكان على سطح القارب وتخلّت عن مشاركتها في لعبة مالاويّة[1] مُعقّدة، تُلعَب بخيط وبحبات من القهوة، وقالت لتومي:

«يجب أنْ أعثر على ديك».

منذ انتهاء وجبة العشاء كان اللنش يتحرّك غرباً. وانساب الليل الرقيق على كلا الجانبين، وهدرت محركات الديزل بهدوء، وكانت رياح الربيع تطيِّر شعر نيكول بسرعة عندما وصلت المنحنى، وخفَّ قلقها بصورة كبيرة عندما شاهدت ديك واقفاً في الزاوية بجوار سارية العلم. كان صوته صافياً عندما رآها.

«ليلة جميلة».

«كنتُ قلقة».

«أوه، أكنتِ قلقة؟».

«أوه، لا تتكلَّم هكذا. كان سيُسعدني كثيراً لو في استطاعتي أنْ أفعل شيئاً قليلاً لأجلك، يا ديك».

أشاح بوجهه عنها، نحو خِمار من أضواء النجوم يمتد فوق إفريقيا.

«أعتقد أنَّ هذا صحيح، نيكول. وأحياناً أعتقد أنه كلما قلّ ما تقدمينه، تصبحين أكثر سعادة».

«لا تقُل هذا - لا تتفوّه بمثل هذه الأشياء».

لم يكن وجهه، الشاحب تحت الضوء الذي كان الرذاذ الأبيض يمرّ منه ويقفز عائداً إلى السماء البرّاقة، يحتوي على أيٍ من خطوط الانزعاج التي توقّعَت أنْ تراها. بل كان مُحايداً؛ أخذتْ عيناه تتمركّزان عليها بالتدريج وكأنها بيدق ينوي تحريكه؛ وبالأسلوب البطيء نفسه قبض عليها من معصمها وقرَّبها منه.

سأل بهدوء «أنتِ دمّرتني - أليس كذلك؟ إذاً فنحن الاثنان مُدمَّران. لذلك -».

1- مالاويّة: نسبة إلى جزيرة مالاوي.

سرت فيها البرودة من فرط الرعب، ووضعت رسغها الآخر تحت رحمة قبضته. حسن، ستذهب معه - ومن جديد شعرت بجمال الليل بحيوية خلال لحظة واحدة من الاستجابة التامة ونكران الذات - حسن، إذن -.

ولكن الآن أضحتْ حرة بصورة غير متوقعة واستدار ديك، وهو يتنهّد «هراء! هراء!».

انهمرت الدموع على وجه نيكول. سرعان ما سمعَتْ أحدهم يقترب؛ كان تومي.

قال «ها قد عثرتِ عليه! لقد ظنّتْ نيكول أنكَ ربما قفزت من اليخت، يا ديك، لأنَّ تلك *الدجاجة* الإنكليزية الحقيرة تهجّمت عليك».

قال ديك باعتدال «سيكون مشهداً جذاباً إذا قفزت من اللنش».

وافقت نيكول على عجل «أحقاً؟ دعنا نستعر بعض سترات النجاة ونقفز. أعتقد أننا يجب أنْ نفعل شيئاً خاصاً. أشعر أنَّ حياتنا كلها كانت مكبوتة بإفراط».

تنشّقَ تومي باتجاه أحدهما ثم الآخر، في محاولة ليستنشق الوضع مع هواء الليل. «سوف نذهب ونسأل سيدة المرح والمتعة عما يجب فعله - عليها أنْ تكون على عِلم بآخر المستجدات. وسوف نحفظ أغنيتها عن ظهر قلب: هناك شابة من l'enfer (الجحيم) وسوف أترجمها وأجني ثروة من نجاحها في الكازينو».

سأله ديك وهما يسيران على طول القارب «هل أنت ثري، يا توم؟».

«ليس في ظل الظروف الجارية. لقد سئمت عمل السمسرة وتركته. ولكن في حوزتي أسهماً جيدة بين أيدي أصدقاء يحتفظون بها لأجلي. كل شيء يسير على ما يرام».

قالت نيكول «إنَّ ديك يُصبح ثرياً». كان صوتها قد بدأ يرتعش كرد فعل.

على مؤخر سطح القارب لوّح غولدينغ بمخالبه الضخمة دافعاً ثلاثة أزواج من الراقصين ليرقصوا. وكانت نيكول وتومي قد انضما إليهم عندما قال تومي: «يبدو أنَّ ديك بدأ يشرب».

قالت نيكول بإخلاص «باعتدال فقط».

«هناك أشخاص يستطيعون أنْ يشربوا وآخرون لا يستطيعون. من الواضح أنَّ ديك لا يستطيع. عليك أنْ تقولي له ألا يفعل».

هتفت بذهول «أنا! *أنا* أُملي على ديك ما ينبغي وما لا ينبغي عليه أنْ يفعل!».

لكنَّ ديك كان مشوّشاً وناعساً بتكتُّم عندما وصلوا رصيف مدينة كان. ساعده غولدينغ على الهبوط إلى داخل لنش *مارجين*، وعلى الأثر قامت ليدي كارولاين بتغيير مكانها بطريقة منافية للذوق. وعلى سطح القارب انحنى مودِّعاً بطريقة رسمية مُبالغ فيها، وبدا لبرهة من الزمن كأنه ينوي أنْ يحثّها على الإسراع بسخرية لاذعة، لكنَّ عِظام ذراع تومي ضربت الجزء اللين من ذراعه ومشوا نحو سيارة آل دايفر.

اقترحَ تومي «سأقلّكما إلى المنزل».

«لا تزعج نفسك - يمكننا أنْ نستقل سيارة أجرة».

«أحب أنْ أفعل ذلك، إذا كان في استطاعتكما أنْ تتحملاني».

في المقعد الخلفي من السيارة بقيَ ديك هادئاً إلى أنْ تجاوزوا كتلة فندق غولف جوان الضخمة، ومن ثم كرنفال جوان ليه بان، حيث يعجّ الليل بالموسيقى والضجيج بلغات عديدة. وعندما بدأت السيارة ترتقي التل نحو تارم، اعتدل في جلسته فجأة، بسبب ميل السيارة، وألقى خطبة منمّقة:

«إنه ممثل ساحر للـ -» وتلعثم برهة، «- شركة - أحضر لي عقلاً مُشوّشاً a l'Anglaise». ثم استغرق في نوم عميق، متجشئاً بين حين وآخر برضا في الليل الرخيّ، الدافئ.

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي جاء ديك باكراً إلى غرفة نيكول. «لقد انتظرتُ إلى أنْ سمعتك تستيقظين. لا حاجة إلى القول كم أنا منزعج مما حدث ليلة أمس – ولكن ما رأيكِ في أنْ ننسى الأمر؟».

أجابت ببرودة، وهي تواجه المرآة، «أوافق».

«هل تومي هو الذي أوصلنا إلى المنزل ؟ أم أنني كنتُ أحلم؟».

«أنت تعلم أنه فعل».

اعترفَ «يبدو أمراً مُحتملاً، لأني سمعته يسعل. أعتقد أني سأعرِّج عليه».

كانت سعيدة عندما تركها، للمرة الأولى في حياتها – بدا أنَّ الصِفة الشنيعة في أنْ يكون على صواب قد تخلّت عنه أخيراً.

كان تومي يتململ في سريره، لكي يستيقظ ويشرب القهوة مع الحليب.

سأله ديك «أتشعر بتحسّن؟».

عندما اشتكى تومي من التهاب حلقه اتّخذ موقفاً مهنياً.

«يُستحسن أنْ تستعمل سائل غرغرة أو ما شابه».

«ألديك منه؟».

«الغريب أنه ليس لدي – ربما نيكول لديها».

«لا تزعجها».

«لقد استيقظَتْ».

استدار ديك ببطء. «هل توقعتَ أنْ تكون ميتة لأنني كنتُ ثملاً؟».

كانت نبرة صوته لطيفة. «إنَّ نيكول مصنوعة الآن من خشب صنوبر جورجيا، وهو أقوى نوع معروف من الأخشاب، ولا يبزّه إلا ليغنوم فيته من نيوزيلاندا –».

أثناء هبوط نيكول إلى الطابق السفلي سمعتْ طرف الحديث. علِمتْ، كما لطالما علِمتْ، أنَّ تومي أحبّها؛ وأنه يكره ديك، وأنَّ ديك علِمَ ذلك قبله، وكان يتصرف بطريقة إيجابية كردّ فعل على عاطفة الرجل من طرف واحد. هذه الفكرة تبعتها لحظة من الرضا الأنثوي الصِرف. مالت فوق مائدة إفطار طفليها وأعطتْ توجيهاتها للمربية، بينما الرجلان في الطابق العِلوي مهتمان بأمرها.

لاحقاً في الحديقة كانت سعيدة؛ لم ترغب في حدوث أي شيء، ما عدا أنْ يبقى الوضع على ما هو عليه بينما الرجلان يتلقّفانها بينهما بعقليهما؛ لم يكن لها وجود منذ زمن بعيد، حتى ككرة.

«لذيذ، يا أرانب، أليس كذلك – أم لا؟ هيه، أيها الأرنب – هيه أنت! أليس لذيذاً؟ – هيه؟ أم أنَّ طعمه يبدو غريباً عليك؟».

وافق الأرنب، بعد أنْ تذوَّقَ لا شيء على الإطلاق عملياً غير أوراق الملفوف، بعد أنْ حرَّك أنفه بضع مرات حذرة.

تابعت نيكول عملها الروتيني في الحديقة. جمعت الأزهار التي قطفتها في بقع مُعيَّنة لكي يُحضرها البستانيّ إلى المنزل لاحقاً. وصلت إلى السور البحري واستغرقت في مزاج مُحبّ للتواصُل ولا أحد تتواصل معه؛ فتوقفت وتأمّلتْ. صُعِقَتْ قليلاً أمام فكرة اهتمامها برجلٍ آخر – ولكن بقية النساء لديهن عشّاق – ولِمَ لا أفعل أنا؟ في صباح اليوم الربيعي الصافي اختفت عوائق عالم الذكر وراحت تفكر بمرح كزهرة، بينما الريح تبعثر شعرها إلى أنْ أخذ رأسها يتحرك معه. كان لدى النسوة الأخريات عشاق – إنَّ القِوى نفسها التي جعلتها في الليلة الفائتة تستسلم لديك حتى درجة الموت، تجعلها الآن تهزّ رأسها إيجاباً للريح، راضية وسعيدة بمنطقها، ولِمَ لا أفعل؟

جلستْ على السور المنخفض وأطلّت على البحر. ولكن من بحرٍ آخر، بحر الخيال المترامي، اصطادتْ شيئاً ملموساً لتضعه بجوار غنائمها الأخرى. فإذا لم تكن، في روحها، في حاجة إلى التوحُّد مع ديك إلى الأبد كما ظهر هو في الليلة السابقة، فلابد أنها شيء إضافيّ، وليس مجرد صورة في ذهنه، مُدانة حتى مواكب لا نهاية لها تدور على طول مُحيط ميدالية.

كانت نيكول قد اختارت هذا الجزء من السور لتجلس عليه لأنَّ الجُرف يُرسل ظله على مرج مائل فيه حديقة خضروات محروثة. شاهدت بين كتلة من الأغصان رجلين يُمسكان مدمات ورفوشا ويتحدثان بمزيج من لهجتيّ نيسوا والبروفنسال. جذبها كلامهما وإيماءاتهما فالتقطت ما يلي:

«لقد مدّدتها هنا».

«أنا أخذتها إلى خلف الكروم هناك».

«إنها لا تهتم - ولا هو. بسبب ذلك الكلب المقدس. حسن، لقد مدّدتها هنا -».

«هل معك مدمة؟».

«إنها معك، أيها المهرج».

«حسن، لا يهمني أين مدّدتها. حتى تلك الليلة لم يكن صدري قد لامس صدر أي امرأة منذ أنْ تزوجت - قبل اثني عشر عاماً. والآن تقول لي -».

«ولكن اسمع قصة الكلب -».

راقبتهما نيكول من بين الأغصان؛ بدا أنّه لا بأس فيما يقولان - هناك أمر جيد بالنسبة إلى شخص، وأمر آخر لشخص آخر. ومع ذلك ما سمعَتْ كان يمتّ إلى عالم الرجال؛ في طريق عودتها إلى المنزل، عاودها الشك من جديد.

كان ديك وتومي على المصطبة. مشت بينهما وولجت المنزل، وأحضرت أوراق الرسم وباشرت رسم رأس تومي.

قال ديك بخفّة «الأيدي لا تتعطّل أبداً - والمغزل يدور». كيف أمكنه أنْ يتكلّم بهذه التفاهة والدم لا يزال ينزف من وجنتيه بحيث أنَّ كثّة شعر اللحية الأسمر المحمرّ بدت حمراء كعينيه؟ التفتت نحو تومي قائلة:

«أستطيع دائماً أنْ أقوم بعمل ما. كان عندي قرد بولينيزي صغير حيويّ ولطيف وكنتُ ألاعبه على مدى ساعات إلى أنْ بدأ الناس يُطلقون نكاتاً فظّة وكئيبة حوله -».

أبقتْ عينيها عن عمد بعيداً عن ديك. وسرعان ما استأذن وولج إلى الداخل. رأته يصبّ لنفسه ملء كأسين من الماء، وازدادت قسوة.

باشر تومي بالقول «نيكول -»، لكنه قاطع نفسه لكي يُزيل الخشونة من حنجرته.

اقترحت قائلة «سأحضر لك مرهماً خاصاً من الكافور. إنه أميركيّ - ديك يؤمن بمفعوله. لن أغيب أكثر من دقيقة».

«يجب أنْ أرحل، حقاً».

خرج ديك وجلس. «يؤمن بمَ؟».

عندما عادت مع البرطمان لم يكن أي من الرجلين قد تحرّك من مكانه، على الرغم من أنها خمّنت أنه دار بينهما حديث حماسي نوعاً ما حول أمر ما.

كان السائق الخاص يقف عند الباب، حاملاً حقيبة تحتوي ملابس تومي من الليلة السابقة. حرّك مشهد تومي مرتدياً ملابس استعارها من ديك مشاعر الحزن فيها، والزيف، وكأنَّ تومي لم يكن قادراً على شراء مثل تلك الملابس.

قالت «عندما تصل إلى الفندق ادْعَكْ هذا المرهم عند نَحرك وعلى صدرك ومن ثم استنشقه».

غمغم ديك بينما كان تومي يهبط الدَرَج «لا تُعطِ تومي البرطمان كله - يجب طلبه من باريس - إنه مفقود من السوق هنا».

عاد تومي حتى أصبح على مرمى السمع ووقف ثلاثتهم تحت أشعة الشمس، وكان تومي أمام السيارة مباشرة، بحيث بدا عندما مال إلى الأمام أنَّ ظهره سيلمسها.

هبطت نيكول إلى الممر.

نصحته «والآن خذه. إنه نادر جداً».

سمعَتْ صمت ديك يزداد وهو إلى جوارها؛ ابتعدت مقدار خطوة عنه ولوّحت بيدها بينما السيارة تبتعد حاملة تومي ومرهم الكافور الخاص. ثم استدارت لتأخذ دواءها الخاص.

قال ديك «لم يكن هناك من داعٍ لتلك الإيماءة. نحن هنا أربعة أشخاص - وعلى مدى سنين كلما أُصيبَ أحد بسعال -».

تبادلا النظرات.

«يمكننا دائماً أنْ نحصل على برطمان آخر -»، ثم فقدت سيطرتها على أعصابها وتبعته على الفور إلى أعلى الدرج، حيث تمدد على سريره ولم يقُل أي شيء.

سألته «هل تريد أنْ يُجلَب طعام الغداء إليك هنا؟».

أومأ برأسه إيجاباً وبقيَ مستلقياً وهادئاً، يُحدّقُ بالسقف. ذهبت والشك ينتابها لتُصدر أمرها. من جديد في الطابق العِلوي نظرت إلى داخل غرفته - العينان الزرقاوان، كمصباحي كشّاف، تعبثان في سماء مظلمة. وقفتْ دقيقة عند ممر الباب، مُدركةً الإثم الذي ارتكبتْ في حقّه، وشبه خائفة من أنْ تدخل... مدّتْ يدها كأنما لتدعك رأسه، لكنها استدارت مبتعدة كحيوان مرتاب. لم يعُد في استطاعة نيكول أنْ تتحمّل الوضع أكثر من ذلك؛ هرعت تهبط الدَّرج كخادمة مرعوبة، خائفة مما سيقتات عليه الرجل المُبتلي الذي في الأعلى بينما هي تواصل الرضاعة الجافة من صدره الهزيل.

***

في غضون أسبوع نسيت نيكول إعجابها بتومي - لم تكن من النوع الذي يتذكّر الأشخاص وتنساهم بسهولة. ولكن مع أول هبّات رياح شهر حزيران (يونيو) الحارة سمعت أنه في نيس. بعثَ رسالة مُقتضبة إليهما معاً - وفتحتها وهي تحت المظلة، مع بريد آخر أُحضِرَ إليها من المنزل. وبعد أنْ قرأتها رمتها إلى ديك، وهو بدوره رمى ببرقية إلى حجر منامتها الخاصة بالشاطئ:

«عزيزيّ سأكون عند آل غوس غداً من دون والدتي لسوء الحظ أعتمد على مقابلتي لكما».

روزميري

قالت نيكول بتجهُّم «سيسعدني أنْ أراها».

الفصل السابع

لكنها ذهبت إلى الشاطئ مع ديك في صباح اليوم التالي مع خشيتها المتجددة من أنْ يعمل ديك على العثور على حل يائس. ومنذ الليلة التي أمضياها على متن يخت غولدينغ وهي تشعر بما يحدث. كانت تقف بتوازُن دقيق بين موطئ قدم قديم لطالما ضمن لها الأمان، والقفزة المرتقبة التي يجب أنْ تقوم بها وتتغيَّر كلياً، إلى درجة أنها لم تجرؤ على وضع المسألة في موقع متقدم حقيقي في الوعي. ظهرت شخصية ديك وشخصيتها، المشوّهتان، المُبهمتان، كشبحين منهمكين في رقصة عجيبة. وعلى مدى أشهر طويلة بدا أنَّ كل كلمة يغلبُ عليها معنى آخر، سرعان ما يُكشَف عنه تحت ظروف يُحدِّدها ديك. وعلى الرغم من أنَّ هذه الحالة الذهنية ربما كانت مُشجعة أكثر – فإنَّ سنين طويلة من مجرد الوجود كان لها تأثيرٌ مُنشِّط على أجزاء من طبيعتها قتلها مرضها المُبكِّر ولم يبلغها ديك، ليس بسبب أخطاء ارتكبها، بل ببساطة لأنه لا يمكن لطبيعة أي إنسان أنْ تمتد وتنتشر بصورة كاملة داخل إنسان آخر – إلا أنها كانت لا تزال مُقلِقة. إنَّ الجانب الأشد تعاسة في علاقاتهما كان تفاقُم لا مبالاة ديك، التي وجدت حالياً تعبيراً عنها بالإفراط في شرب الخمر. ولم تكن نيكول تعلم إنْ كان يجب سحقها أم الصفح عنها – وصوت ديك، الذي ينبض بالزيف، شوّشَ القضية؛ لم تتمكن من تخمين سلوكه القادم مع بطء التقدُّم، أو ما سيحدث في النهاية، عند لحظة القفز.

لم تكن قلقة بشأن ما سينتج لاحقاً – اعتقدتْ أنَّ ذلك سيرفع العبء

عن كاهلها، وسيزيح الغشاوة عن عينيها. لقد قُدِّر لنيكول أنْ تتغيَّر، أنْ تُحلِّق بزعانف المال وأجنحته. ونظام الأشياء الجديد سيكون أشبه بهيكل سيارة سباق، أُخفيَ طوال سنين تحت هيكل سيارة ليموزين عائلية، ويجب تعريته وإعادته إلى أصله. كانت نيكول قد بدأتْ تشعر بالنسيم المنعش - إنَّ الألم هو ما كانت تخشاه، والطريقة المُخيفة لمجيئه.

خرج آل دايفر إلى الشاطئ هي بثوبها الأبيض وهو ببنطلونه الأبيض القصير الشديد البياض بالمقارنة بلون جسديهما. رأتْ نيكول ديك يُنعم النظر حوله بحثاً عن الطفلَين بين الأشكال المشوّشة وظلال العديد من المظلات، وبينما تخلى ذهنه عنها مؤقتاً، ولم يعُد يشد قبضته عليها، نظرتْ إليه بتجرُّد وقرّرت أنه يفتش عن طفليه، ليس لحمايتهما بل للاحتماء بهما. لعله يخشى الشاطئ، كحاكم مخلوع يقوم بزيارةٍ سرية لبلاطِه القديم. لقد أصبحت تكره عالَمه بنكاتِهِ المرهفة وتهذيبه، ناسيةً أنه كان على مدى سنين عديدة العالم الوحيد المفتوح أمامها. دعيه ينظر إليه - شاطئه، الذي تحول الآن وأضحى يتناسب مع أذواق مَنْ لا ذوق لهم؛ يمكنه أنْ يفتش عنه على مدى يوم فلن يعثر على حجرٍ واحد من حجارة سور الصين الذي أحاطه ذات مرة به، ولا أثر لقدم لصديق قديم.

للحظة من الزمن شعرت نيكول بالأسف على هذا الوضع؛ متذكرةً الكأس التي استخرجها من بين ركام القمامة، متذكّرة بنطلونات البحارة والسترات الصوفية التي اشترياها من أحد شوارع نيس الخلفية - ملابس أضحت لاحقاً موضة رائجة من الحرير بين دور الأزياء الباريسية - متذكّرة الفتيات الفرنسيات الصغيرات البسيطات وهن يرتقين حائل الأمواج ويهتفن «*Dites donc! Dites donc!*» (هيه! هيه!) كالعصافير، وطقس فترة الصباح، والانبساط الهادئ والمريح نحو البحر والشمس - إنَّ العديد من مخترعاته، مدفونة أعمق من طبقة الرمال تحت عدد كبير من السنين... والآن أصبح مكان السباحة «نادياً»، على الرغم من أنه

من الصعب، كالجمعية العالمية التي يُمثّلها، القول مَنْ هو الممنوع من الانتساب إليه.

من جديد أصبحت نيكول أشدّ قسوة عندما ركع ديك على دثار القش وأخذ يبحث عن روزميري. لاحقتْ عيناها عينيه، بحثاً بين ممتلكات جديدة، عن أراجيح ألعاب رياضية فوق المياه، عن حلقات تتدلّى، عن غرف استحمام قابلة للحمل، والأبراج الطافية، والأنوار الكاشفة من بقايا احتفالات الليلة السابقة، والمائدة المفتوحة ذات المسحة الفنية العصرية، البيضاء من تشكيلة مبتذلة من عدد لا يُحصى من مقابض الدراجات الهوائية.

كانت المياه هي آخر مكان بحث فيه عن روزميري، لأنه لم يتبقَ إلا عدد صغير من الناس يسبحون في تلك الجنة الزرقاء، بعض الأطفال وخادم مُحب للاستعراض أمضى فترة الصباح وهو يؤدي حركات غطس رائعة من صخرة علوها خمس أقدام - ومعظم زوار فندق غوس تعرّوا من المنامات التي تُخفي تهدُّل أجسامهم فقط لكي يسبحوا قليلاً بعد السُكر عند الساعة الواحدة.

علّقتْ نيكول «ها هي».

راقبت عينيّ ديك وهما تقتفيان أثر روزميري من طوفٍ إلى طوف؛ لكنّ التنهّد الذي هزّ صدرها كان شيئاً مكبوتاً منذ خمس سنوات.

اقترح «هيا نسبح ونتحدث مع روزميري».

«اذهب أنت».

«سنذهب كلانا». صارعَتْ برهة ضد قراره، لكنهما في النهاية سبحا معاً، مقتفيين أثر روزميري عن طريق قطيعٍ من السمك الصغير كان يُلاحقها، ويستمد لمعانه منها، الطُعم اللامِع في صنارة صيد سمك التروت.

بقيَت نيكول في الماء بينما ارتفع ديك ليكون بجوار روزميري وجلس

الاثنان يقطران ويتحدثان، بالضبط كما لو أنهما ليسا عاشقين ولم يلمس أحدهما الآخر. كانت روزميري جميلة - صعقَ شبابُها نيكول التي، مع ذلك، ابتهجتْ لأنَّ الفتاة الشابة كانت أقل نحولاً بمقدار شعرة منها. راحت نيكول تسبح في دوائر وتُصغي إلى روزميري التي كانت تتظاهر بالتسلية، والاستمتاع، والترقّب - وهي أشد ثقة بنفسها مما كانت قبل خمسة أعوام.

«إنني أشتاق إلى أمي كثيراً، لكنها ستقابلني في باريس، يوم الاثنين».

قال ديك «قبل خمسة أعوام أتيتِ إلى هنا. وكنتِ فتاة صغيرة مضحكة، وترتدين أحد تلك الأثواب الفضفاضة التي يقدمها الفندق!».

«ما أقوى ذاكرتك في هذه الأشياء! لطالما كنتَ هكذا - ودائماً تتذكر الأشياء اللطيفة».

رأتْ نيكول لعبة المديح القديمة تبدأ من جديد فغاصت تحت الماء، ثم ظهرتْ من جديد لتسمع:

«سوف أتظاهر بأننا قبل خمس سنوات وأنني عدتُ إلى سن الثامنة عشرة. لطالما جعلتماني أشعر بـ.. ـكما تعلم، بـ كما تعلم، بما يُشبه السعادة - أنت ونيكول. إنني أشعر كأنكما على الشاطئ هناك، تحت إحدى تلك المظلات - أشد مَنْ قابلتُ من الناس لطفاً، أو ربما سأقابلهم».

تابعتْ نيكول السباحة، ورأت أنَّ سحابة قنوط ديك ترتفع قليلاً عندما بدأ يعبث مع روزميري، مُخرجاً خِبرته القديمة في التعامل مع الناس، كقطعة فنية فقدت بريقها؛ وخمّنت أنه مع مشروب أو ما شابه سوف يُصبح مستعداً لأداء الحركات الجريئة على الحلقات المتدلية إكراماً لها، متعثراً في أداء الحركات الجريئة التي كان يُنفّذها بسهولة في السابق. وقد لاحظت أنه في هذا الصيف، وللمرة الأولى، تجنّبَ ممارسة الغوص.

لاحقاً، وهي تشق طريقها بمراوغة من طوف إلى طوف، لحق بها ديك.

«إنَّ بعض أصدقاء روزميري لديهم قارب سريع، الذي هناك. ألا ترغبين في ممارسة التزلج على اللوح المائي؟ أعتقد أنه سيكون شيئاً مسلياً».

عندما تذكّرتْ أنه ذات يوم كان في استطاعته أنْ يقف على يديه على كرسيّ قائم على طرف لوح خشب، استغرقت في تأمّله كما تتأمّل لانيير. وفي الصيف ما قبل الأخير وعلى ضفاف بحيرة زيوريخ لعبا لعبة المياه الممتعة تلك، وكان ديك قد رفع رجلاً زنته مئتا رطل من لوح الخشب إلى كتفيه ومن ثم وقف على قدميه. لكنَّ النساء يتزوجن من مواهب أزواجهن كلها ومن الطبيعي، لاحقاً، ألاّ يعدن يُعجبن بهم كثيراً إذا ازداد ادّعاؤهم بأنهم كذلك. ونيكول لم تكن حتى تظاهرت بأنها مُعجبة به، على الرغم من أنها قالت له «نعم»، و«نعم أعتقد ذلك، أيضاً».

لكنها كانت تعلم أنه أصبح مُتعباً قليلاً، وأنَّ قُرب شباب روزميري المُثير هو فقط الذي يحثّ الجهد الوشيك - كانت قد شاهدته يستمد الإلهام نفسه من الجسدَين الجديدَين لطفليها وتساءلتْ ببرود إنْ كان سيجعل من نفسه فُرجة. كان الثنائي دايفر أكبر سناً من الآخرين على القارب - الشبان كانوا مهذبين، مُراعين، لكنَّ نيكول شعرت بأنّهم من الداخل يقولون «من هؤلاء الأشخاص، أصلاً؟»، واشتاقت إلى موهبة ديك السلسة في السيطرة على المواقف وببراعة - كان قد ركّز على ما سيُحاول أنْ يفعل.

خفَتَ هدير المحرك على بُعد مئتيّ ياردة من الشاطئ وقام أحد الشبان بالقفز من الحافة مباشرة. سبح وهو على لوح التزلج المتلوّي، الذي لا وِجهة له، ثبّته، وارتقى ببطء على رُكبتيه عليه - ثم نهض واقفاً على قدميه مع تزايد سرعة القارب. مال نحو الخلف، وتأرجح على لوحه الخفيف بحركة خرقاء من جانب إلى جانب، بأقواسٍ بطيئة، محبوس الأنفاس،

ومع نهاية كل تأرجح تمتطي الأقواس الجوانب المنتفخة المتشكلة. على الأثر المباشر المتخلف على الماء من مؤخر القارب أفلت الحبل، وتوازن برهة، ثم وقع إلى الخلف في الماء، واختفى كتمثال المجد، ثم عاد إلى الظهور كرأسٍ لا أهمية له بينما استدار القارب عائداً إليه.

رفضت نيكول أنْ تؤدي دورها؛ ثم امتطت روزميري اللوح بأناقة وتحفّظ، ترافقها صيحات التشجيع الطريفة من مُعجبيها. تدافَعَ ثلاثةٌ منهم بتبجُّح لنيل شرف دفعها إلى القارب، فنجحت، وهي بينهم، في جرح رُكبتها ووركها على جانبه.

قال المكسيكي على المقود «الآن دورك، يا دكتور».

قام ديك وآخر شاب بالقفز من الحافة، وسبحا إلى اللوح. كان ديك ينوي أنْ يُجرب حركة الرفع المشهور بها وبدأتْ نيكول تراقب مع ابتسامة تأنيب. وكان هذا الاستعراض الجسدي هو أشد ما يُثير غضب روزميري.

بعد أنْ ظل الرجلان ممتطيين اللوح مسافة كافية بحيث يتوازنان، ركع ديك، وبعد أنْ وضع قفا عنقه تحت تصرف ملتقى فخذيّ الرجل الآخر، أمسك الحبل من بين ساقيه، وبدأ ينهض ببطء.

لاحظ الأشخاص الذين في القارب، ويراقبون عن كثب، أنه يواجه صعوبات. كان يرتكز على إحدى رُكبتيه؛ وكانت اللعبة تقضي بأنْ يقفَ مستقيماً بالحركة نفسها التي تخلى بها عن وضعية الركوع. ارتاح برهة، ثم تشنّج تعبير وجهه عندما بذل أقصى جهده في الشدّ، ونهض.

كان اللوح ضيّقاً، وكان الرجل، على الرغم من أنَّ وزنه يقلّ عن مئة وخمسين، مرتبكاً من وزنه وقبَض بخشونة على رأس ديك. وعندما استقام ديك واقفاً، مع بذلِ آخر جهد رفعٍ بظهره، انزلقَ اللوح نحو الجانب وسقط الاثنان في البحر.

على متن القارب هتفت روزميري: «رائع! كادا ينجحان».

ولكن عندما عادا إلى مجموع السابحين راقبت نيكول تعبير وجه ديك. كان زاخراً بالانزعاج كما توقّعتْ، لأنه كان قد قام بالحركة بسهولة قبل عامين فقط.

في المرة الثانية كان أكثر حذراً. نهضَ قليلاً، مُختبراً توازن حمله، واستقرَّ من جديد على رُكبته؛ ثم، زمجر قائلاً «آليه أووب!» وبدأ ينهض - ولكن قبل أنْ يتمكن من الوقوف مستقيماً تماماً، انثنت ساقاه فجأة ودفع اللوح بعيداً بقدمه لكي يتفادى تلقّي ضربة أثناء سقوطه.

هذه المرة عندما عاد الزورق «بيبي *غار*» كان جلياً للمسافرين جميعاً أنه غاضب.

هتف، وهو يطأ الماء، «هل لديك مانع في المحاولة مرة أخرى. كدنا ننجح».

«طبعاً. هيا».

بدا لنيكول شديد الشحوب، فحذّرته:

«ألا تعتقد أنَّ هذا يكفي الآن؟».

لم يُجب. الشريك الأول كان قد اكتفى وسُحِبَ إلى الجانب، واضطر المكسيكي الذي يقود اليخت أنْ يحل محله.

كان أثقل وزناً من الرجل الأول. بينما القارب يستعد للانطلاق، ارتاح ديك برهة، منبطحاً على اللوح. ثم جعل نفسه تحت الرجل وأمسك بالحبل، وتوتّرت عضلاته وهو يحاول النهوض.

لم يتمكن من النهوض. رأته نيكول يُبدِّل من وضعيته ويعود إلى الشدّ نحو الأعلى من جديد، ولكن في اللحظة التي استقرّ وزن شريكه بأكمله على كتفيه جمد في مكانه. وكرّر المحاولة - مرتفعاً مقدار بوصة، وبوصتين - وشعرت نيكول بالغُدد العرقية في جبينها تنفتح وهي تشدّ معه - أخذ ببساطة يتشبث بموقعه، ثم انهار عائداً إلى أسفل على رُكبتيه بقوة، وانقلبا، وأفلت رأس ديك بأعجوبة من تلقّي ضربة من اللوح.

«عُد بسرعة!»، هتفت نيكول للسائق؛ وحتى وهي تتكلّم شاهدته ينزلق تحت الماء فأصدرت صرخة صغيرة؛ لكنه ظهر من جديد وانقلب على ظهره، وسبح المكسيكي بالقرب منه ليساعده. بدا لها كأنَّ القارب استغرق وقتاً طويلاً حتى وصل إليهما، ولكن عندما وصلا أخيراً ورأت نيكول ديك طافياً ومُستنزَفاً ووجهه خالٍ من التعبير، وحده مع الماء والسماء، تحوّلَ شعورها بالرعب فجأة إلى امتعاض.

«سوف نساعدك على النهوض، دكتور... قِف على قدميك... حسن... والآن معاً...».

جلس ديك وهو يلهث وينظر في الفراغ.

لم يسع نيكول إلا أنْ تقول «كنتُ أعلم أنه ما كان ينبغي أنْ أدعك تفعل ذلك».

قال المكسيكي «لقد أرهقَ نفسه في المحاولتين الأوليين».

أصرّت نيكول «كان عملاً أحمق». والتزمت روزميري الصمت بلباقة.

بعد دقيقة استردّ ديك أنفاسه، وهو يلهث، «في تلك المرة لم يكن في مقدوري رفع دمية من ورق».

أرخت ضحكة صغيرة قوية التوتّر الذي سبّبه فشله. وأولوا جميعاً انتباههم لديك وهو يستقر على سطح اليخت. لكنَّ نيكول كانت منزعجة - أصبح الآن كل ما يفعله يُزعجها.

***

جلستْ مع روزميري تحت الشمسية بينما توجَّه ديك إلى المائدة المفتوحة ليتناول مشروباً. وسرعان ما عاد مع بعض الشيري لهما.

قالت روزميري «أول مشروب تناولته في حياتي كان معك»، ثم تابعت بحماس «أوه، أنا في غاية السعادة لأنني رأيتك *وعلِمتُ* أنكِ على ما يُرام. لقد كنتُ قلقة -». انقطعت الجملة عندما غيَّرت اتجاهها - «من ألّا تكوني كذلك».

«هل سمعتِ أنَّ حالتي تتدهور؟».

«أوه، كلا. أنا ببساطة -سمعتُ فقط أنكِ تغيّرتِ. وأنا سعيدة لأنني رأيت بأم عيني أنَّ هذا غير صحيح».

أجاب ديك، وهو يجلس معهما، «بل صحيح. التغيير حصل بأثر رجعي - لكنه لم يظهر للوهلة الأولى. السلوك بقيَ كما هو لبعض الوقت بعد تصدُّع المعنويات».

سألتْ روزميري على عجل «هل تتدربين على شاطئ الريفييرا؟».

«إنه موقع جيد للعثور على عيّنات مناسبة». راح يومئ برأسه هنا وهناك لأناس يتسكعون على الرمال الذهبية. «مرشحون ممتازون. لاحظي صديقتنا القديمة، السيدة أبرامز، إنها تتصرف كدوقة أمام ملكة ميري نورث؟ لا تغاري منها - فكِّري في ارتقاء السيدة أبرامز الدَرَج الخلفي الطويل لفندق الريتز على يديها ورُكبتيها وفي كل غبار السجاد الذي اضطرت إلى استنشاقه».

قاطعته روزميري «ولكن أهذي حقاً ميري نورث؟». كانت تنظر إلى امرأة تتبختر وتقترب منهم، تتبعها مجموعة صغيرة يتصرّفون وكأنهم متعودون على أنْ يكونوا محطّ الأنظار. وعندما أصبحوا على مسافة عشر أقدام، ألقت ميري نظرة سريعة كالومض على الثنائي دايفر، واحدة من تلك النظرات المؤسفة التي تُشير إلى أنَّها رأتهما وأنهما لا يستحقان النظر إليهما، نظرة من النوع الذي لم يسمح أيٌّ من الثنائي دايفر ولا روزميري هويت أنْ يُلقوها على أي شخص مهما كان. تسلّى ديك عندما لاحظت ميري وجود روزميري، فغيَّرت رأيها، واقتربت. تكلّمت مع نيكول بودٍ ضافٍ، وأومأتْ برأسها لديك من دون أنْ تبتسم وكأنه مُعدٍ - على الأثر انحنى لها باحترام ساخر - أثناء ترحيبها بروزميري.

«سمعتُ أنكما هنا. كم ستمكثان؟».

أجابت روزميري «حتى الغد».

هي، أيضاً، لاحظت كيف مشت ميري متجاوزة آل دايفر لتتحدث معها، ودفعها حس بالالتزام إلى عدم إبداء الحماس. كلا، لا تستطيع أنْ تتناول العشاء معها.

التفتت ميري نحو نيكول، وسلوكها يدل على حبٍ ممزوج بالشفقة. سألتها «كيف حال الطفلين؟».

في تلك اللحظة حضرا، وأرهفتْ نيكول سمعها إلى الطلب الذي نقلته للمربية عند موقع للسباحة.

أجاب ديك نيابة عنها «كلا، إنَّ ما تقوله مدموازيل يجب أنْ يُنفَّذ».

رفضت نيكول طلبهم، موافقة على أنَّه على المرء أنْ يُساند سلطة مُفوَّضة، وعلى الأثر نظرت ميري - التي لا تتعامل، على طريقة إحدى بطلات أنيتا لوس[1]، إلا مع الـ Faits Accomplis (الأمر الواقع)، التي لم تتمكن من حيازة كلب بودل فرنسي بيتيّ التربية - نظرتْ إلى ديك وكأنه مُتَّهم بأشد أنواع التنمُّر فظاعة. شعر ديك بالغضب من ذلك الأداء التمثيلي المُملّ، فسأل بقلق ساخر:

«كيف حال طفليك - وأقاربهما؟».

لم تُجِب ميري؛ تركتهم، بعد أنْ وضعتْ يداً متعاطفة على رأس لانيير الكاره. وبعد رحيلها قال ديك: «لا أُصدق أني في وقت من الأوقات كنتُ أضربها وأركلها».

قالت نيكول «إنها تعجبني».

أدهشَ إحساس ديك بالمرارة روزميري، التي كانت تعتقد أنه مُسامح طوال الوقت، ومتفهِّم. وفجأةً تذكّرتْ ما كانت قد سمعت عنه. ففي سياق حديث مع بعض موظفي الخارجية على القارب - أميركيين متأوربين وصلوا إلى مركز لم يعُد في الإمكان عندها القول عنهم إنهم ينتمون إلى أي أمة، على الأقلّ ليس إلى أي دولة عظمى، ولكن ربما إلى

1- أنيتا لوس (1888 - 1981): ممثلة وروائية وكاتبة سيناريو أميركية.

إحدى دول البلقان تتألّف من مواطنين متشابهين - ذُكِرَ اسم بيبي وارن الذائع الصيت وعلّقَ أحدهم قائلاً إنَّ أخت بيبي الصغرى قد فرّطتْ في نفسها بالزواج من طبيب فاسق. قالت المرأة «لم يعُد أحد يرغب في استقباله».

العبارة أزعجتْ روزميري. لم يكن في وسعها أنْ تتصور آل دايفر على صِلة بمجتمع يكون لمثل هذه الحقيقة، إنْ كانت حقيقة، أي معنى، لكنَّ أصداء التلميح الذي صدر عن رأي عام عِدائي ومُنظَّم ظلّتْ تتردد في أُذنيها. «لم يعد أحد يرغب في استقباله». تصورت ديك يرتقي درج قصر، يُبرز بطاقات الدعوة، فيقول له كبير الخدم: «لم نعُد نرغب في استقبالك بعد اليوم»؛ ثم ينتقل إلى الجادة فيسمع العبارة نفسها تصدر عن عدد لا يُحصى من كبار الخدم وعدد لا يُحصى من السفراء، والوزراء، والقائمين بالأعمال...

تساءلت نيكول كيف استطاعت أنْ تفلت. وخمّنت أنَّ ديك إذا تلقّى قرصة وتنبّه سيزداد فتنة وسيجعل روزميري تستجيب إليه. وبالفعل، في غضون لحظة نجح صوته في تعديل كل شيء بغيض قاله:

«لا بأس بميري - إنها في أحسن حال. ولكن من الصعب الاستمرار في الإعجاب بأناس لا يُحبونك».

دخلتْ روزميري على الخط ومالت على ديك قائلة بصوت حالم:

«أوه، أنت لطيف جداً. لا أتصور أنَّ هناك أحداً لا يُسامحك على كل شيء، مهما فعلت لهم». ثم عندما شعرت أنَّ حماستها تعدَّت على حقوق نيكول، نظرت إلى الرمل الممتد بينهما: «أردتُ أنْ أسألكما أنتما الاثنين عن رأيكما في أفلامي الأخيرة - إذا كنتما قد شاهدتماها».

نيكول لم تقل شيئاً، لأنها كانت قد شاهدتْ أحدها ولم يُعجبها.

قال ديك «سيستغرق إبلاغك رأيي بضع دقائق. لنفرِض أنَّ نيكول قالت لكِ إنَّ لانيير مريض. كيف يكون ردّ فعلك في الحياة الواقعية؟

كيف يكون ردّ فعل أي شخص؟ إنهم ***يمثّلون*** - بالوجه، بالصوت، بالكلمات - يُظهِر الوجه حزناً، والصوت يُظهر الصدمة، والكلمات تعبّر عن التعاطُف».

«نعم - أفهم».

«ولكن، على خشبة المسرح، كلا. على خشبة المسرح الممثلون الهزليون كلهم بنوا شهرتهم عبر المُحاكاة الساخرة للاستجابات الشعورية الصحيحة - الخوف والحب والتعاطُف».

«فهمت»، ومع ذلك لم تكن تفهم ما يقول بالضبط.

لم تتمكن نيكول من متابعته، فتفاقم نفاد صبرها وديك يتابع قائلاً:

«إنَّ الخطر الذي يتربّص بالممثل يكمن في الاستجابة. من جديد، لنفترض أنَّ أحدهم قال لك إنَّ عشيقك مات. في الحياة الواقعية قد تنهارين. ولكن على خشبة المسرح تُحاولين أنْ توفري التسلية - الجمهور يستطيع أنْ يوفّر الاستجابة بنفسه. أولاً لدى الممثلة كلام يجب أنْ تحفظه، ثم عليها أنْ تُعيد انتباه الجمهور إليها، بعيداً عن الصيني المقتول أو عن أي أمر مهما كان. لذا عليها أنْ تفعل شيئاً غير مُتوقَّع. فإذا اعتقد الجمهور أنَّ الشخصية صعبة تُسهّل الأمر عليه - وإذا اعتقد أنها سهلة تُصعّبها عليه. إنكِ تخرجين ***تماماً*** من الشخصية - هل تفهمين؟».

اعترفت روزميري «ليس بدقة. ماذا تعني بالخروج من الشخصية؟».

«يعني أنْ تفعلي الشيء غير المتوقَّع إلى أنْ تناوري الجمهور وتعيديه من الحقيقة الموضوعية إلى نفسك. ***بعد ذلك*** ترتدين الشخصية من جديد».

طفح الكيل بنيكول، فنهضت واقفة بحركة حادّة، من دون أنْ تقوم بأي مُحاولة لتُخفي نفاد صبرها. التفتت روزميري، التي كانت على مدى بضع دقائق شبه مُدركة لذلك، نحو توبسي بطريقة استرضائية.

«هل ترغبين في أنْ تُصبحي ممثلة حين تكبرين؟ أعتقد أنكِ ستصبحين ممثلة رائعة».

حدّقتْ نيكول إليها عن عمد وبصوت جدّها قالت، ببطء ووضوح:

«من الخطأ *الفادح* إدخال مثل هذه الأفكار إلى رؤوس أطفال الآخرين. تذكّري، قد تكون لدينا خطط مختلفة لأجلهم». ثم التفتت بحِدّة نحو ديك «سآخذ السيارة وأذهب إلى المنزل. سأرسل إليك ميشيل ليحضرك مع الطفلين».

احتجّ «أنتِ لم تقودي السيارة منذ أشهر».

«لم أنسَ القيادة بعد».

من دون أنْ تلقي نظرة على روزميري، التي كان وجهها «يستجيب» بعنف، غادرتْ نيكول المظلة.

في الحمّام العامّ بدّلتْ منامتها، ولا يزال تعبير وجهها قاسياً كلوحة معدنية. ولكن عندما انعطفت إلى الطريق التي تُظللها أشجار الصنوبر وتغيَّر الجو - مع فرار سنجاب هارب على أحد الأغصان، وهزّ الريح أوراق الأشجار، وتمزيق صياح ديك المدى البعيد، وزحف ضوء الشمس يرشح من خلال السكون - تراجع ضجيج الشاطئ. استرخت نيكول وشعرت بالانتعاش وبالسعادة؛ كانت أفكارها صافية كرنين النواقيس الجيدة - شعرت بأنها قد شُفيت من مرضها وتعيش حياة جديدة. بدأتْ ذاتها تزهر كزهرة كبيرة نضرة وهي تندفع عائدة خلال المتاهة التي طالما تجولت فيها على مدى سنين. لقد كرهت الشاطئ، مقتت الأماكن التي لعبت فيها دور الكوكب التابع لشمس ديك.

قالت في نفسها «في الواقع، أكاد أبلغ الكمال؛ إنني أقفُ وحدي بكل معنى الكلمة، من دونه». وكطفلة سعيدة، ترغب في إنجاز الكمال بأسرع ما يمكن، وتعلم بغموض أنَّ ديك خطَّط لها كي تحصل عليه، استلقت على سريرها حالما وصلت إلى المنزل وكتبت إلى تومي باربان في نيس رسالة قصيرة مُحرّضة.

***

ولكن ذاك كان في النهار - ومع اقتراب المساء، مع الانخفاض الحتمي للطاقة العصبية، حلّقت روحها واندفعت السِهام قليلاً في الغسق. كانت تخشى ما يدور في خلد ديك؛ ومن جديد شعرت أنَّ ثمة خطة تكمن تحت أفعاله الظاهرة، وكانت تخاف خططه - إنها تنجح جيداً وتتسم بمنطق شمولي تعجز نيكول عن السيطرة عليه. كانت قد تخلّت نوعاً ما عن التفكير فيه، وخلال فترات غيابه كانت تبدو أفعالها محكومة تلقائياً برغباته، حتى أنها الآن شعرت بأنها غير مؤهّلة لتضاهي نواياها بنواياه. ومع ذلك يجب أنْ تفكر؛ أصبحت تعرف أخيراً رقم باب الوهم الرهيب، والعتبة المُفضية إلى المهرب الذي ليس بمهرب؛ وتعرف أنَّ أعظم الآثام بالنسبة إليها الآن وفي المستقبل هو أنْ تُضلل نفسها. لقد كان درساً طويلاً لكنها حفظته. فإما أنْ تفكر - وإما أن يُفكّر الآخرون بالنيابة عنك وينتزعوا السلطة منك، ويُفسدوا ميولك الفطرية ويُهذّبوها، ويجعلوك مُتحضراً ومُعقَّماً.

تناولوا عشاءً يُخيم عليه السكون مع ديك وشربوا الكثير من البيرة، وشاع بينهم المرح مع الطفلين في الغرفة المُعتمة. وبعد ذلك عزف بعض أغاني شوبرت وبعض مقطوعات الجاز الجديدة من أميركا كانت نيكول تهمهمها بصوتها الخشن، العذب من فوق كتفيه.

«*شكراً لك يا أبي*
شكراً لك يا أبي
شكراً لأنكما تقابلتما - ».

قال ديك، وهو يُقلِّب أوراق النوتة، «لا أحب هذه الأغنية».

هتفت «أوه، اعزفها! هل سأمضي ما تبقّى من حياتي أُجفل من كلمة أبي؟».

«- شكراً للحصان الذي جرّ العربة في تلك الليلة!
شكراً لكما معاً لأنكما شديدان قليلاً - ».

لاحقاً جلسا مع الطفلين على السطح المغربي وراحوا يراقبون الألعاب النارية من اثنين من ملاهي الكازينو، البعيدَين، على الشاطئ. كان أمراً موحشاً وحزيناً ألا يكنّ قلب كل منهما نحو الآخر أيّ شيء.

في صباح اليوم التالي، لدى عودتها من كان، وجدت نيكول في انتظارها رسالة تقول إنّ ديك قد أخذ السيارة الصغيرة وذهب إلى بروفانس ليُمضي بضعة أيام وحده. حتى وهي تقرأها رنّ جرس الهاتف - كان تومي بارِبان من مونت كارلو، يقول إنه استلم رسالتها وهو قادم إليها. شعرت بحرارة شفتيها على السماعة ورحّبت بقدومه.

الفصل الثامن

أخذت حماماً ودهنت جسمها بالزيت ثم غطّته بطبقة من البودرة، بينما أخذت أصابع قدميها تسحق كمية أخرى على المنشفة. نظرت بإمعان إلى الخطوط على خاصرتيها، متسائلة متى سيبدأ الصرح الرائع، النحيل، بالانخفاض والترهُل باتجاه الأرض. سيحدث ذلك في غضون ست سنوات، أما الآن فأنا جيدة - في الحقيقة أنا جيدة كأي شخص أعرفه.

لم تكن تبالغ. الفرق الوحيد بين جسم نيكول الآن ونيكول قبل خمس سنوات كان ببساطة أنها لم تعُد صغيرة السن. لكنَّها كانت مغمورة بعبادة الشباب الحالية، بصور متحركة بما تحوي من آلاف الوجوه لفتيات صغيرات، تظهر برقّة وهي تؤدي عمل وحِكمة العالم، بحيث لا تشعر بغيرة الشباب.

ارتدت أول ثوب طويل يصل حتى الكاحل لديها منذ سنين عديدة ورسمت علامة الصليب على نفسها بوقار بالقناة السادسة عشرة. وعندما وصل تومي عند الساعة الواحدة كانت قد جعلت من نفسها كأشدّ الحدائق أناقة.

ما أجمل أنْ تحصل على أشياء كهذه، أنْ تستجلب الإعجاب من جديد، أنْ تتظاهر بأنها تنطوي على سر! لقد فقدتْ عامين من سنوات الغطرسة من حياتها كفتاة جميلة - والآن شعرت بأنها تعوّضهما؛ حيَّتْ تومي وكأنه أحد العديد من الرجال المرتمين عند قدميها، تسير

متقدمة إياه بدل أنْ تكون إلى جواره وهما يجتازان الحديقة باتجاه مظلة السوق. إنَّ النساء الجذابات ذوات التسعة عشر أو التسعة والعشرين عاماً متشابهات بثقتهن المرحة بأنفسهن؛ وعلى العكس، فإنَّ رحم حقبة العشرينيات صعب الإرضاء لا يجذب العالم الخارجي إلى مركزه. فالأولى هي فترات طويلة من الغطرسة، تُشبه مُجنّداً عسكرياً شاباً، والأخرى تُشبه ملاكماً يتباهى بعد المباراة.

ولكن في حين أنَّ فتاة في التاسعة عشرة تستمد ثقتها بنفسها من فرط جذب الانتباه، فإنَّ امرأة في التاسعة والعشرين تتغذّى على مادة أشد رهافة. عندما تكون راغبة، تنتقي مقبّلاتها بحِكمة، أو تكون شبعانة، تستمتع برفاهية الطاقة الكامنة. وفي كلتا الحالتين لا يسعدها أنْ تستبق السنوات التالية لأنَّ بصيرتها ستكون ضبابية من الرعب، من الخوف من التوقف أو الخوف من الاستمرار. ولكن على أعتاب التاسعة عشرة أو التاسعة والعشرين تكون واثقة تماماً من أنَّه لا دبة في الصالة.

إنَّ نيكول لم ترغب في أي علاقة رومانسية روحية مبهمة - أرادت «علاقة عاطفية»؛ أرادت تغييراً. لقد أدركتْ، مستعيرة أفكار ديك، أنه من وجهة نظر سطحية كان شيئاً سوقياً، بلا عاطفة، أنْ تنغمس في ملذات تُهددهم جميعاً. ومن ناحية أخرى، لامت ديك على الوضع الحاضر، وفكّرتْ بصدق في أنَّ مثل تلك التجربة قد تكون لها قيمة علاجية. وطوال فصل الصيف كان لديها حافز لمراقبة الناس يفعلون بالضبط ما رغبوا في عمله من دون أنْ يُعاقبوا على ذلك - زيادة على ذلك، على الرغم من نيَّتها في ألا تكذب على نفسها، فضّلتْ أنْ تعتبر أنها فقط تتحسّس طريقها وأنها يمكن أنْ تتراجع في أي لحظة...

لحق بها تومي في الظل الخفيف بذراعيه البيضاوين وقرّبها منه، وهو ينظر في عينيها.

قال «لا تتحركي. من الآن فصاعداً سأنظر إليك كثيراً».

كان في شعره نوع من العطر، عبير خفيف من الصابون ينبعث من ملابسه البيضاء. كانت شفتاها مغلقتين بإحكام، لا تبتسم، وللحظة تبادلا معاً النظرات ببساطة.

تمتمت «أيُعجبك ما ترى؟».

«*Parles francais*» (تكلَّمي بالفرنسية)

«حسن»، وأعادت السؤال بالفرنسية «هل يُعجبك ما ترى؟».

شدّها نحوه أكثر.

قال بتردُّد «أنا أحب كل ما أرى فيك. كنتُ أحسب أني أعرف وجهك ولكن يبدو أنَّ هناك أشياء لم أكن أعرفها فيه. منذ متى كان لديك عينا محتال أبيض؟».

تملّصت منه، مصدومة وساخطة، وصرخت بالإنكليزية:

«أهذا ما أردتَ أنْ تقوله بالفرنسية؟». هدأ صوتها عندما وصل الخادم مع المشروب. «لكي تكون مُهيناً بدقّة أكبر؟».

غادرتْ بعنف مقعدها الصغير على الوسادة ذات القماش الفضي.

قالت، من جديد بالفرنسية، ولكن بحزم، «ليس لدي مرآة هنا، ولكن إذا كانت عيناي قد تغيَّرتا فذلك لأنَّي استرددتُ عافيتي. وربما بسبب استرداد العافية عدت إلى طبيعتي - أعتقد أنَّ جدّي كان محتالاً وأنا محتالة بالوراثة، ها قد عرفت. هل هذا يُرضي تفكيرك المنطقي؟».

لم يفهم أي شيء مما قالت.

«أين ديك - هل سيتناول طعام الغداء معنا؟».

عندما أدركت أنَّ كلامه لا يعني له أي شيء ضحكتْ فجأة بسبب ذلك.

قالت «إنَّ ديك يقوم بسياحة. لقد ظهرت روزميري هويت، فإما أنهما معاً أو أنها أزعجته إلى درجة أنه رغب في الابتعاد والحُلم بها».

«أتعلمين، أنت مُعقّدة قليلاً».

طمأنته على عجل «أوه، كلا، كلا. أنا لست حقاً - أنا فقط - أنا فقط مجموعة كبيرة من الأشخاص البسطاء المختلفين».

أحضر ماريوس بطيخاً ودلواً من الثلج، ولم تُجِب نيكول، التي لم يسعها إلا أنْ تفكِّر في عينيها الجديرتين بمحتال؛ إنَّ هذا الرجل يُعطي المرء ثمرة جوز كاملة لكي يكسرها، بدل أنْ يُعطيها مكسورة لكي ينتقي اللب منها.

سألها تومي على الفور «لماذا لم يتركوك على حالتك الطبيعية؟ أنتِ أشدّ مَنْ عرفت دراماتيكية».

لم يكن لديها جواب.

قال ساخراً «يا لترويض النساء!».

«في كل مجتمع هناك قدر -». شعرت بشبح ديك يحثّها عند مرفقها، لكنها هدأتْ لدى سماع نبرة صوت تومي العالية:

«لقد جعلت العديد من الرجال وحوشاً لكني لن أفعل ذلك مع نصف ذلك العدد من النساء. خاصة هذا «النوع» المتنمِّر - فما فائدة ذلك لأي شخص؟ - لكِ أو له أو لأي شخص؟».

طفر قلبها ومن ثم غاص قليلاً مع إحساس بما تدين به لديك.

«أعتقد أنَّ لديّ -».

قال بصبر نافد «لديك الكثير من المال، هذا جوهر الأمر. ولا يستطيع ديك أنْ يتفوق عليك في هذا».

تفكّرتْ أثناء رفع البطيخ عن الطاولة.

«ماذا عليّ أنْ أفعل في اعتقادك؟».

للمرة الأولى منذ عشر سنوات خضعَتْ لتأثير شخصية غير شخصية زوجها. لقد أصبح كل ما قاله تومي لها جزءاً منها وإلى الأبد.

شربا مقدار زجاجة من النبيذ بينما ريح عليلة تهز إبر الصنوبر وتركت حرارة أوائل المساء الحسيّة نمشاً مُبهِراً على مفرش الغداء المُربَّع. اقترب منها تومي من الخلف ووضع ذراعيه على طول ذراعيها، وقبض

على يديها. تلامست وجنتاهما ومن ثم شفاههما وشهقت شغفاً به من جهة، ومن جهة أخرى من الدهشة المُفاجئة لقوة ذلك الشغف.

«ألا تستطيعين أنْ تُبعدي الطفلين والمربية طوال فترة بعد الظهيرة؟».

«لديهما درس في العزف على البيانو. على أي حال لا أريد أنْ أمكث هنا».

«قبّليني مرة أخرى».

بعد ذلك بقليل، وأثناء توجهها بالسيارة إلى نيس، قالت في نفسها: إذن فلديّ عينا مُحتال، أليس كذلك؟ حسن إذن، الأفضل أنْ أكون محتالة عاقلة على أنْ أكون متزمتة مجنونة.

بدا أنَّ إصراره حلَّها من أيّ لومٍ أو مسؤوليةٍ وسَرَتْ فيها إثارة البهجة وهي تتخيَّل نفسها بأسلوب جديد. امتدت أمامها آفاق جديدة، تحتلها وجوه العديد من الرجال، ليست في حاجة إلى أنْ تطيع أياً منهم أو حتى أنْ تحب. أخذتْ نفساً عميقاً، وقوَّستْ كتفيها مع ارتعاش، ثم التفتت إلى تومي.

«هل أنتَ مُضطر إلى أنْ تقطع كل تلك المسافة حتى الفندق الذي تنزل فيه في مونت كارلو؟».

أوقف السيارة مع إحداث صرير ومن الدواليب.

أجاب «كلا! ثم، يا إلهي، لم أكن مرة بالسعادة التي أشعر بها في هذه اللحظة».

كانا قد اجتازا نيس على طول الساحل الأزرق وبدآ بالارتقاء إلى الكورنيش ذي العلوّ المتوسط. ثم انعطفَ تومي بزاوية حادة نحو الشاطئ، وانتهى من شبه جزيرة جرداء، وتوقف عند خلفية فندق شاطئي صغير.

للوهلة الأولى انتاب نيكول الخوف من كتلته الملموسة. على المنضدة كان هناك أميركيٌ يتجادل مطولاً مع موظف حول سعر صرف العملة. تجولَتْ في المكان، ظاهرياً هادئة ولكن من داخلها بائسة، بينما كان تومي يملأ استمارات الشرطة - اسمه الحقيقي، واسمها الزائف. كانت غرفتهما تطل على البحر المتوسط، تكاد تكون متقشفة، وتكاد تكون نظيفة، لا

يُضيئها غير وهج البحر. أبسط المتع - أبسط الأماكن. طلب تومي كأسي كونياك، وبعد أنْ أغلق النادل باب الغرفة خلفه، جلس على الكرسي الوحيد. أسمر اللون غامق، ذو ندوب، ووسيم، حاجبا عينيه مقوّسان ومجعدان نحو الأعلى، كروحٍ شريرة مُقاتلة، كشيطانٍ رصين.

قبل أنْ ينتهيا من شرب البراندي تحرّكا معاً فجأةً وتقابلا واقفَين؛ ثم جلسا على السرير وقبّل رُكبتيها القويتين. كانت لا تزال تصارع، كحيوان مقطوع الرأس، ونسيت ديك وعينيها البيضاوين الجديدتين، نسيت تومي نفسه، وغاصت أعمق فأعمق داخل الدقائق واللحظة الحاضرة.

... عندما نهضا ليفتحا أحد مصراعيّ النافذة وعرفا سبب الهرج المتزايد الذي يدور خارج النوافذ، كان تكوينه أكثر سُمرة وأقوى من تكوين ديك، مع كتل بارزة من العضلات الملتوية. هو أيضاً كان قد نسي أمرها برهة - في اللحظة التي انفصل فيها لحمه عن لحمها توقعت أنْ تصبح الأمور مختلفة عما توقّعت. شعر بالخوف الغامض الذي يسبق المشاعر كلها، الفرِحة والحزينة، بصورة حتمية كهدير الرعد الذي يسبق العاصفة.

أنعمَ تومي النظرَ بحذرٍ من الشرفة وعلّقَ:

«كل ما أستطيع أنْ أرى امرأتان على الشرفة التي أسفل هذه. إنهما تتحدثان عن أحوال الطقس وتهتزان إلى الأمام والخلف على كرسيين أمريكيين هزازين».

«وتُثيران هذا الضجيج كله؟».

«الضجيج صادر من مكان ما تحتهما. أصغي».

«أوه، في عمق الجنوب في أرض القطن

الفنادق سيئة والأعمال متوقفة

أبعد نظرك -».

«إنهم أميركيون».

فتحت نيكول ذراعيها واسعاً على السرير وحدّقت إلى السقف؛ كانت البودرة قد تبلّلت عليها وشكّلت طبقة بيضاء. أعجبها عريّ الغرفة، وطنين الذبابة الوحيدة التي تحوم فوقها. قرّبَ تومي الكرسي من السرير وجرّده من القماش الذي يُغطيه ليجلس عليه؛ أعجبتها بساطة الثوب الخفيف والخفان اللذان امتزجا مع ملابسه القطنية على الأرض.

تفحّصَ الجذع الأبيض المستطيل الموصول مباشرة مع الأطراف السمراء والرأس، وقال، ضاحكاً بجدية:

«إنك جديدة تماما كطفل وليد».

«بعينين بيضاوين».

«سأعتني بهما».

«إنَّ العناية بعينين بيضاوين أمر صعب - خاصة تلك القادمة من شيكاغو».

«أنا أعرف علاجات فلاحي اللانغدوق القديمة».

«قبّلني، على الشفتين، تومي».

قال «هذا سلوك أميركي جداً»، وهو يُقبلها مع ذلك، «عندما كنتُ في أميركا آخر مرة كانت هناك فتيات يُمزّقن الرجل بقبلاتهن، ويمزقن أنفسهن أيضاً، إلى أنْ تُصبح وجوههن قرمزية اللون من الدم النازف حول الشفتين وكلّه من رقعة صغيرة - لا أكثر».

اتكأتْ نيكول على أحد مرفقيها.

قالت «هذه الغرفة تعجبني».

تلفّت حوله.

«أجدها فقيرة نوعاً ما، أنا سعيد لأنك لم تنتظري حتى نصل إلى مونت كارلو».

«لماذا تقول فقيرة؟ إنَّها غرفة رائعة، يا تومي - كالطاولات العارية في العديد من لوحات سيزان وبيكاسو».

«لا أعلم». لم يحاول أنْ يفهمها. لقد عاد ذلك الضجيج من جديد. يا إلهي، أتراها وقعت جريمة قتل؟».

ذهب إلى النافذة وعلّق من جديد:

«يبدو أنهما بحاران أميركيان يتقاتلان وهناك كثيرون يهتفون لهما. إنهما من سفينتكم الحربية الراسية قبالة الشاطئ». تدثّر بمنشفة وخرج أكثر إلى الشرفة. «معهما *دجاج*. الآن تذكرتُ أني سمعتُ عن هذا - النساء يلحقن بهما من مكان إلى آخر وحيثما ذهبت السفينة. ولكن يا لتلك النسوة! إنَّ المرء يعتقد أنَّ في استطاعتهما أنْ يحصلا على نساء أفضل بالراتب الكبير الذي يتلقيانه! لديك مثلاً النساء اللائي يلحقن بكورنيلوف! إنهن لسن أقلّ جمالاً من راقصات الباليه!».

كانت نيكول سعيدة لأنه عرف العديد من النساء، بحيث أنَّ الكلمة نفسها لم تعنِ له أي شيء؛ سوف تتمكن من الاحتفاظ به طالما أنَّ الشخص الكامن فيها يسمو فوق أعضاء جسمها.

«اضربه حيث يؤلمه!».؟

«ياه ه ه ه!».

«هيه، قلت لكَ اضربه جيداً!».

«هيا، دلشميت، يا ابن -».

«يا ا ا - يا ا ا!».

«*يا - إي ي ي - يا!*».

أشاح تومي ببصره بعيداً.

«يبدو أنَّ هذا المكان تجاوز عمره الافتراضي، ألا توافقين؟».

وافقته، لكنهما بقيا معاً برهة قبل أنْ يرتديا ملابسهما، ومن ثم مكثا برهة أطول فأصبح مكاناً جيداً كغيره...

بعد أنْ ارتديا ملابسهما أخيراً هتف تومي:

«يا إلهي، إنَّ هاتين المرأتين الجالستين على الكرسيين الهزّارين لم تتحركا من مكانيهما. إنهما تحاولان أنْ تتحدثا وكأنَّ هذا الأمر لا وجود له. إنهما هنا في عطلة اقتصادية، ولا يمكن للبحرية الأميركية كلها ولا لعاهرات أوروبا كلها أنْ تعكِّر صفوها».

اقترب منها برفق وأحاط بها، جاراً شريط قميصها الداخلي عبر كتفها إلى مكانه بأسنانه؛ ثم خرق ضجيج الجو في الخارج: كر -اك - بووووم -م مم! كانت السفينة الحربية تُصدر طلقة استدعاء.

هنا، وتحت نافذتهما، حدث هرج صاخب - ذلك أنَّ السفينة كانت تنتقل إلى شواطئ غير معروفة حتى الآن. والنُدُل يناقشون الحساب ويطلبون تسويات بأصوات حماسيّة؛ وكانت هناك عبارات قسم ونكران، ورمي أوراق نقدية كبيرة جداً وقطع نقدية صغيرة جداً؛ وطلاب ضباط يتلقون مساعدة للصعود إلى الزوارق، وأصوات الشرطة البحرية تُصدر الأوامر بإيجاز وسرعة من خلال الأصوات كلها. كان هناك بكاء، ودموع، وصراخ، ووعود مع تحرُّك أول زورق سريع واحتشدت النسوة مندفعات إلى الأمام على رصيف المرفأ، يصرخن ويلوحن بأيديهن.

شاهد تومي فتاة تندفع إلى الشرفة التي تقع في الأسفل وهي تلوِّح بمنديل، وقبل أنْ يتمكن من معرفة ما إذا كانت المرأتان الإنكليزيتان قد استسلمتا أخيراً واعترفتا بوجودها، سمع قرعاً على بابهما هما. في الخارج، أقنعتهما أصوات نسائية متحمسة بفتح الباب، لتظهر أمامهما فتاتان، صغيرتان، نحيلتان وبربريتان، تستهديان وليستا تائهتين، في الرواق. إحداهما كانت تبكي باختناق.

توسلت الأخرى بلغة أميركية مشبوبة «هل نستطيع أنْ نلوِّح من شرفتكما؟ هل تسمحان لنا من فضلكما؟ أنْ نلوِّح لصديقينا؟ هل نستطيع، من فضلكما. الغرف الأخرى كلها مُقفلة».

قال تومي «بكل سرور».

اندفعت الفتاتان إلى الشرفة وفي الحال انطلقت أصواتهما عالية وحادة تصم الآذان:

«باي، تشارلي! تشارلي، انظر هنا فوق».

«أرسل برقية أيها القائد اللطيف!».

«تشارلي! إنه لا يراني».

فجأة رفعت إحدى الفتاتين طرف فستانها، وراحت تشد وتمزق سروالها التحتي الوردي اللون، وتجعله علماً معقول الحجم؛ ثم، راحت تصرخ «بن! بن!» وهي تلوح به بهياج. عندما غادر تومي ونيكول الغرفة كان لا يزال يرفرف في وجه السماء الزرقاء. أوه، قُلْ لي أترى اللون الرقيق للحم تعرفه؟ - في حين على متن السفينة الحربية ارتفعت بتنافُس الرايات المَنثورة بالنجوم.

***

تناولا الطعام في كازينو الشاطئ الجديد في مونت كارلو... وبعد ذلك بوقت طويل سبحا في بوليو في كهف بلا سقف بإضاءة ضوء القمر من دائرة صغيرة من جلاميد باهتة اللون تُحيط بتجمُّع لمياه فوسفورية، تواجه موناكو ومشهد منتون الضبابي. أعجبها المكان المُطلّ على المنظر الشرقي وفكرة خِدع الريح والماء الجديدة؛ كل شيء كان جديداً كما كلٌّ منهما بالنسبة للآخر. استقرت، بالمعنى الرمزي، على منحنى سرجه بثقة وكأنه سرقها من دمشق وجاءا عبر سهوب منغوليا. وشيئاً فشيئاً سقط عنها كل ما تعلّمته من ديك وأضحت أقرب إلى ما كانت عليه في البداية، النموذج الأصلي لذلك التخلّي الغامض عن الأسلحة الذي كان يجري من حولها في العالم. لقد اشتبكت في خيوط الحب تحت ضوء القمر ورحّبت بفوضى حبيبها.

استيقظا معاً ليجدا القمر وقد غاب والهواء وقد أضحى بارداً. صارعت لتستيقظ وسألتْ عن الوقت فقال تومي إنها تقتربُ من الثالثة.

«إذن يجب أنْ أعود إلى المنزل».

«حسبتُ أننا سننام في مونت كارلو».

«كلا. هناك المربية والطفلان في انتظاري. يجب أنْ أسرع بالعودة قبل انبلاج النهار».

«كما تشائين».

سبحا قليلاً، وعندما وجدها ترتعش أخذ يُدلكها بنشاط بمنشفة. عندما ركبا السيارة ورأساهما لا يزالان رطبين، وبشرتهما نضرة ومتوهجة، كرها أنْ يبدآ رحلة العودة. كان المكان شديد الضياء وعندما قبّلها تومي شعرت بأنه تاه في بياض وجنتيها وأسنانها البيضاء وجبينها البارد واليد التي لمست وجهه. انتظرت، ولا تزال متناغمة مع ديك، تفسيراً أو أهليّة؛ لكنَّ أياً منهما لم يظهر. اطمأنت وهي ناعسة وسعيدة لأنَّ أياً منهما لن يظهر، وغاصت عميقاً في المقعد وأغفت إلى أنْ تغيَّر هدير المُحرِّك وشعرت بارتقائهما نحو فيلا ديانا. عند البوابة قبَّلته قبلة كادت تكون قبلة وداع آلية. لقد تغيَّر وقع أقدامها على الممشى، وفجأةً أصبح ضجيج الحديقة الليلي من الماضي، لكنها مع ذلك كانت سعيدة بعودتها. لقد مرّ النهار متقطّعاً، وعلى الرغم مما أمدها من رضا لم تكن متعودة على مثل هذا التوتّر.

الفصل التاسع

عند الرابعة من بعد ظهيرة اليوم التالي توقفت سيارة أجرة من المحطة عند البوابة وخرج ديك منها. فجأة فقدت نيكول توازنها، وركضت من المصطبة لكي تقابله، مقطوعة الأنفاس من الجهد الذي بذلته لتتحكّم في نفسها.

سألت «أين السيارة؟».

«تركتها في آرل. لم أعد أشعر برغبة في القيادة».

«فهمتُ من رسالتك أنك ستغيب عدة أيام أُخر».

«واجهتُ رياحاً عاتية وبعض الأمطار».

«هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟».

«استمتعت بقدر ما يستمتع مَنْ يهرب من بعض الأمور. لقد أقللت روزميري حتى أفينيون وشيّعتها حتى القطار هناك». سارا معاً باتجاه المصطبة حيث أودع حقيبته. «لم أخبركِ بهذا في الرسالة لأنني اعتقدتُ أنكِ ستتخيَّلين أموراً كثيرة».

«هذا تصرّف مُراع جداً منك». شعرت نيكول حينئذٍ بثقة أكبر بنفسها.

«أردتُ أنْ أعرف إنْ كان لديها أيّ شيء تقدّمه - والطريقة الوحيدة كانت أنْ أقابلها وحدي».

«وهل كان لديها - أي شيء تقدمه؟».

أجاب «إنَّ روزميري لم تبلغ سن الرشـد بعد. وربما هذا أفضل. ماذا كنتِ تفعلين؟».

شعرتْ بوجهها يرتعش كوجه أرنب.

«ليلة أمس ذهبت للرقص – مع تومي باربان. ثم ذهبنا –».

أجفل، وقاطعها.

«لا تحكي لي عن هذا. لا يهم ماذا فعلت، كل ما في الأمر أني لا أريد أنْ أعرف أي شيء حتماً».

«ليس هناك ما يستحق المعرفة».

«حسن، حسن»، ثم قال كأنه كان غائباً منذ أسبوع: «كيف حال الطفلين؟».

رنّ جرس الهاتف داخل المنزل.

قال ديك، مُستديراً بسرعة «إذا كان لأجلي أنا لستُ في المنزل. لديَّ بعض الأمور يجب القيام بها في الورشة».

انتظرت نيكول حتى غاب عن الأنظار خلف الجدار؛ ثم ولجت المنزل ورفعت سماعة الهاتف.

«نيكول، ***comment vas-tu?*** » (كيف حالك؟)

«ديك في المنزل».

زمجر.

اقترح «قابليني هنا في كان. يجب أنْ أتحدث معك».

«لا أستطيع».

«قولي إنكِ تُحبينني». هزّت رأسها إيجاباً للسماعة من دون أنْ تتكلَّم؛ كرّر «قولي إنكِ تُحبينني».

طمأنتْه «أوه، أحبك، ولكن لا مجال لفعل أي شيء الآن».

قال بصبر نافد «طبعاً هناك مجال. إنَّ ديك يُدرك أنَّ الأمور بينكما انتهت – من الواضح أنه انفصل عنك. فماذا يتوقع منكِ أنْ تفعلي؟».

«لا أعلم. يجب أنْ –» منعت نفسها من قول «– أنتظر حتى أسأل ديك»، وبدل ذلك أنهت الجملة بـ: «سأكاتبك وأتصل بك هاتفياً غداً».

راحت تتجول في أنحاء المنزل برضا، مُطمئنة إلى إنجازها. كانت خبيثة، وكان ذلك مصدر رضا لها؛ لم تعُد صيّادة في لعبة التطويق. لقد عاد إليها الأمس الآن بتفاصيل لا حصر لها - تفاصيل بدأتْ تطغى على ذكرياتها عن لحظات مماثلة عندما كان حبّها لديك لا يزال نضراً وبِكراً. وبدأتْ تُقلل من أهمية ذلك الحب، بحيث بدا أنه مشوب بعادة عاطفيّة منذ البداية. ونادراً ما تذكّرت، بذاكرتها الأنثوية الانتهازية، شعورها عندما تملّكَ كلٌ منهما الآخر، هي وديك، في أماكن سريّة في أركان العالم كلها، خلال الشهر الذي سبق زواجهما. هكذا كذبت على تومي في الليلة السابقة، عندما أقسمت له على أنها لم تكن مرة من قبل بشكل كليّ، وكامل، وشامل...

... ثم ندمت على لحظة الخيانة تلك، التي استخفّتْ بعجرفة بعقدٍ من حياتها، وحولت جهة سيرها نحو مُعتزل ديك.

اقتربت من دون أنْ تُثير ضجة ورأته خلف الكوخ، جالساً على كرسي سفينة بجوار منحدر الجرف، ظلت تنظر إليه برهة في صمت. كان يفكّر، يعيش عالماً خاصاً به وحده، وبحركات بسيطة من وجهه، كارتفاع جبينه أو انخفاضه، وتضييق العينين أو توسيعهما، وتغيير وضع الشفتين، والعبث بيديه، شاهدته يتقدَّم من مرحلة إلى مرحلة في قصته الخاصة التي تدور أحداثها داخله، قصته هو، لا هي. ومرة شدّ على قبضتيه ومال إلى الأمام، مرةً ارتسم على وجهه عذاب ويأس - وبعد زواله بقيَت آثاره في عينيه. للمرة الأولى تقريباً في حياتها شعرت بالرثاء لأجله - من الصعب بالنسبة إلى الذين كانوا ذات مرة مُضطربين عقلياً أنْ يشعروا بالرثاء لأجل الأصحاء، وعلى الرغم من أنَّ نيكول كثيراً ما كذبت بشأن حقيقة أنّه أعادها إلى العالم الذي صادرته، كانت تفكر فيه حقاً كمصدر لا ينفد للطاقة، لا يناله التعب - نسيت المتاعب التي سبّبتها له لحظةَ نسيتْ متاعبها الخاصة التي حثّتها. ولما لم يعُد يتحكم فيها - هل كان يعلم ذلك؟ هل رغب في الأمر كله؟ - شعرت بالرثاء لأجله

كما كانت أحياناً تشعر تجاه آبيه نورث ومصيره الوضيع، وتجاه عجز الأطفال والعجائز.

تقدّمت منه، وبعد أنْ أحاطت كتفه بذراعها ولمست رأسيهما معاً، قالت:

«لا تحزن».

نظر إليها ببرودة.

قال «لا تلمسيني!».

اضطربت وابتعدت عنه بضع أقدام.

تابع شارداً «أعذريني، كنتُ أفكر في رأيي فيك فقط– –».

«لماذا لا تُضيف التصنيف الجديد إلى كتابك؟».

«لقد فكّرتُ في هذا – أكثر وما بعد المجانين والعصابيين –».

«أنا لم أجئ إلى هنا لأكون مصدر إزعاج».

«إذن لِمَ جئتِ، نيكول؟ لم يعُد في وسعي أنْ أفعل أي شيء لأجلك. أنا أحاول أنْ أُنقذ نفسي؟».

«من تلوّثي؟».

«أحياناً تجعلني مهنتي أتواصل مع شخصٍ مُريب».

بكتْ غضباً من الإهانة.

«أنت جبان! لقد جعلتَ من حياتك شيئاً فاشلاً، وتريد أنْ تضع اللوم عليّ».

عندما لم يُجِب بدأتْ تشعر بتأثير التنويم المغناطيسي القديم لذكائه، أحياناً يُمارَس عليها بلا قوة بل دائماً بطبقة من الحقيقة السُفلى فوق الحقيقة الظاهرة لم تتمكن من اختراقها، أو حتى من شرخها. ومن جديد قاومته، كافحته بعينيها الصغيرتَين الرائعتين، بالعجرفة المُترفة لذي السلطان، بانتقالها الحديث إلى رجل آخر، بتراكم الامتعاض عبر السنين؛ قاتلته بمالها وإيمانها بأنَّ أختها تكرهه وهي تدعمها الآن؛ بالتفكير في

الأعداء الجُدُد الذين كان يصنعهم بإحساسه بالمرارة، بمكرها السريع أمام فوزه وبطء تناوله الطعام، بصحتها وجمالها أمام انحلاله الجسدي، بانعدام أخلاقها أمام أخلاقياته - في هذه المعركة الداخلية استخدمت حتى ضعفها، وحاربت بشجاعة وجرأة بعلب التنك القديمة والأواني الفخارية والزجاجات، والأوعية الفارغة لآثامها التي كفَّرَتْ عنها، وأعمالها المُشينة، وأخطائها. وفجأة، في غضون دقيقتين، حقَّقت انتصارها وأنصفت نفسها أمام نفسها بلا كذب أو خداع، قطعت الحبل إلى الأبد. ثم مشت، واهنة الساقَين وتجهش بهدوء، نحو المنزل الذي كان ملكها في نهاية المطاف.

انتظرَ ديك إلى أنْ غابت عن ناظريه، ثم أمال رأسه إلى الأمام وأسنده إلى الحاجز. لقد أُقفِلت القضية. وأصبح الدكتور دايفر حراً.

الفصل العاشر

عند الساعة الثانية من تلك الليلة أيقظ رنين الهاتف نيكول وسمعتْ ديك يُجيب عليه وقد نهض مما يُسمّى النوم القلق، في الغرفة المجاورة.

«*Oui, oui... mais a qui est-ce-qui je parle?... Oui...*» (نعم، نعم... ولكن إلى مَنْ أتحدَّث؟... نعم...). استيقظَ صوته مع دهشة. «ولكن هل أستطيع أنْ أتحدث مع إحدى السيدتين، سيدي الضابط؟ إنَّ كلتا السيدتين من الطبقة الراقية، سيدتان ذواتا صِلات يمكن أنْ تُسبب تعقيدات سياسية خطيرة جداً... هذه حقيقة، أقسم لك... حسن، سترى».

نهضَ واقفاً، وبينما كان يستوعب الموقف، طمأنته معرفته بذاته بأنه سيتولى الأمر - عاد الإمتاع القاتل القديم، السِحر الفعّال القديم، وهو يصرخ «استغلّني!» سوف يتوجب عليه أنْ يُصلح هذا الأمر الذي لا يهمّه في شيء على الإطلاق، لأنَّ العادةَ أضحتْ منذ وقت مُبكِّر أنْ يكون محبوباً، ربما منذ اللحظة التي أدرك فيها أنه آخر أمل في عشيرةٍ تنهار. وفي مناسبةٍ موازية تقريباً، في عيادة دوملر على ضفاف بحيرة زيوريخ، عندما أدرك قوته هذه، قام باختياره، وانتقى أوفيليا، انتقى السُمّ اللذيذ وجرعه. وبما أنه رغِبَ في أنْ يكون شجاعاً ولطيفاً قبل أي شيء، فإنه رغب، أكثر من ذلك، في أنْ يكون محبوباً. وهكذا كان. ورأى أنه سيبقى كذلك، في اللحظة التي صدر فيها ذلك الصوت القديم البطيء من صندوق الهاتف وهو يُطلق رنينه.

ساد صمت طويل الأمد. ثم هتفت نيكول «مَنْ هذا؟ مَنْ هذا؟».

كان ديك قد باشر ارتداء ملابسه حتى وهو يُعيد سماعة الهاتف إلى مكانها.

«إنه poste de police (مركز الشرطة) في آنتيب – إنهم يحتجزون ميري نورث وتلك المدعوة سيبلي-بيير. بشأن أمر خطير – رفض الموظف أنْ يُخبرني عنه؛ راح يُردد «pas d'automobiles– pas de morts» (لا موتى – لا سيارات) «لكنَّ المعنى هو أنَّ كل شيء ممكن».

«ولكن لماذا اتصلوا بك *أنت*؟ يبدو لي هذا أمراً غريباً جداً».

«يجب أنْ تخرجا بكفالة لتحتفظا بماء وجهيهما؛ ولا يستطيع إلا أحد من ذوي الأملاك في مقاطعة ألب ماريتايمز أنْ يدفع الكفالة».

«إنهما وقحتان».

«لا يهمني. على أي حال، سأقلّ غوس من الفندق –».

بقيَتْ نيكول يقظة بعد رحيله، تتساءل عن طبيعة العمل المُهين الذي ارتكبتاه؛ ثم نامت. وبُعيد الساعة الثالثة عندما دخل عليها ديك أصبحت يقظة تماماً، وقالت «ماذا؟» وكأنها تُخاطب شخصية تراها في منامها.

قال ديك «كانت قصة غريبة –» وجلس على طرف سريرها، وحكى لها كيف أيقظ العجوز غوس من سُباتٍ ألزاسي عميق، وطلب منه أنْ يُفرِغ محتوى درج نقوده، ثم أخذه معه بالسيارة إلى مركز الشرطة.

تذمّر غوس قائلاً «لا أريد أنْ أُقدم أي معروف لتلك الإنكليزية».

كانت ميري نورث وليدي كارولاين، وهما بملابس البحارة الفرنسية، تسترخيان على مقعد خارج زنزانتين قذرتين. كانت الأخيرة تتلبَّس هيئة بريتونية حانقة وتتوقّع أنْ يهبّ أسطول البحر المتوسط على الفور إلى مساعدتها. وكانت ميري مينغيتي في حالة قصوى من الرعب والانهيار – ارتمت بالمعنى الحرفي للكلمة على بطن ديك وكأنها نقطة ذات أهمية عظيمة، وتوسّلت إليه كي يفعل شيئاً. في تلك الأثناء شرح رئيس قسم الشرطة الوضع لغوس، الذي أصغى إلى كل كلمة على مضض، موزَّعاً

ما بين الاستحسان اللائق لموهبة الضابط الروائية وإظهار أنَّه ليس للقصة أي تأثير صاعق عليه، كما يجدر بالخادم المثالي أنْ يفعل.

قالت الليدي كارولاين بنبرة تأنيب «كانت مجرد تسلية. كنا نتظاهر بأننا من البحارة في إجازة، وانتقينا فتاتين سخيفتين. وفي إحدى الغرف المفروشة هاجتا وأثارتا شجاراً لعيناً».

هزَّ ديك رأسه بوقار، ناظراً إلى الأرض الحجرية، ككاهن يتلقّى الاعتراف - كان موزَّعاً بين ميل إلى الضحك الساخر وميل آخر إلى طلب إنزال خمسين جَلدة بالسليطة مع أسبوعَين على الخبز والماء. أذهله افتقار وجه الليدي كارولاين إلى أدنى قدر من الإحساس بالشر، ما عدا الشر الذي سبّبته فتيات بروفنسال الجبانات ورجال الشرطة البلهاء؛ لكنه كان قد خلُصَ منذ زمن بعيد إلى أنَّ طبقات اجتماعية معيَّنة من الشعب الإنكليزي تعيش على أساسٍ قويّ من مُعاداة المجتمع تختزل، بالمقارنة، متاهات نيويورك إلى شيءٍ أشبه بطفل يُعاني من المغص بسبب المثلجات.

توسلت ميري قائلة «يجب أنْ أخرج قبل أنْ يسمع حسين بالأمر. ديك، أنت دائماً تحلِ المشاكل - أنت دائماً تستطيع. قُل لهم إننا سنذهب إلى الوطن مباشرة، قُل لهم إننا سنسدِّد ثمن كل شيء».

قالت ليدي كارولاين بازدراء «أنا لن أدفع أي شيء. ولا شلناً واحداً. لكني سأسعى إلى معرفة رأي القنصل في كان عن هذا».

أصرّت ميري «كلا، كلا! يجب أنْ نخرج هذه الليلة».

قال ديك «سأرى ماذا في وسعي أنْ أفعل». ثم أضاف «ولكن يجب دفع نقود حتماً». ونظر إليهما كلتيهما وكأنهما البريئتان اللتان يعلم أنهما ليستا كذلك، وهزّ رأسه: «إلى كل الضخام المجانين!».

ابتسمت ليدي كارولاين راضية.

«أنت طبيب المجانين، أليس كذلك؟ عليك أنْ تكون قادراً على مساعدتنا - وغوس أيضاً!».

عند هذه النقطة انفرد ديك بغوس جانباً وتحدثا عما عثر عليه الرجل العجوز. كانت القضية أخطر مما أشار إليه - فإحدى الفتاتين اللتين ذهبتا معهما كانت تنتمي إلى أسرة محترمة. وثار غضب العائلة، أو هكذا تظاهرت؛ وكان لابد من إجراء تسوية معها. والأخرى، كانت فتاة من المرفأ، والتعامل معها أسهل. كانت هناك تماثيل فرنسية يمكن أنْ تتسبَّب بالتجريم بالسجن أو، على أقلّ تقدير، بالترحيل العلني من البلاد. وبالإضافة إلى الصعوبات الحاضرة، كان هناك الفرق الكبير في التحمُّل بين سكان المُدينة الذين انتفعوا من الاستعمار الأجنبي وأولئك المنزعجين من الارتفاع المستمر في الأسعار. لخّصَ غوس الوضع وحوّله إلى ديك. وطلب ديك الاجتماع برئيس قسم الشرطة.

«الآن أنت تعلم أنَّ الحكومة الفرنسية تريد أنْ تُشجّع حركة السياحة الأميركية - إلى درجة أنَّ هناك في باريس في هذا الصيف نظاماً يقضي بأنه لا يمكن إلقاء القبض على أشخاص أميركيين إلا في القضايا الشديدة الخطورة».

«ويعلمُ الله أنَّ هذه قضية خطرة بقدرٍ كافٍ».

«ولكن - ألم تطّلع على ***cartes d'identites*** (بطاقتي هويتيهما)؟».

«ليس بحوزتهما أي بطاقات. ليس معهما أي شيء - مئتا فرنك وبعض الخواتم. ليس معهما حتى رباط حذاء تستطيعان به أنْ تشنقا نفسيهما!».

ارتاح ديك لأنه ليس في حوزتهما بطاقات هوية وتابع قائلاً.

«إنَّ الكونتيسة الإيطالية ما زالت مواطنة أميركية. إنها حفيدة -» وراح يسرد ببطء وبمغالاة سلسلة من الأكاذيب، «- جون د. روكفيلر ميلون. ألم تسمع به؟».

«نعم، أوه يا إلهي، نعم. أتظن أني نكرة؟».

«بالإضافة إلى أنها قريبة اللورد هنري فورد وعلى صِلة وثيقة بشركتيّ رينو وسيتروين -» ورأى أنّه من المُستحسن أنْ يتوقف عند ذلك الحد.

ولكن كان الصدق في صوته قد بدأ يؤثِّر في الضابط، فتابع قائلاً: «وإلقاء القبض عليها يُشبه إلقاء القبض على أحد أفراد العائلة المالكة الإنكليزية. قد يعني - الحرب!».

«ولكن ماذا عن الإنكليزية؟».

«سأصل إلى هذه. إنها خطيبة أخي أمير ويلز - دون بكنغهام».

«ستكون عروساً ممتازة له».

«والآن نحن مستعدون لإعطاء -» وراح ديك يعدّ بسرعة، «ألف فرنك لكل فتاة - وألف زيادة لوالد الفتاة الجادّة. وأيضاً ألفين أُخريين، لكي توزّعهما كما ترتئي -» وهزّ كتفيه استخفافاً، «- بين الرجال الذين قاموا بإلقاء القبض، وصاحب النزُل، وما إلى ذلك. سوف أُسلّمك الآلاف الخمسة وأتوقّع منكَ أنْ تبدأ بالمفاوضات على الفور. بعد ذلك يُطلق سراحهما بكفالة بتهمة إقلاق الأمن العام مثلاً، وسوف تُدفع الغرامة المُقررة أمام القاضي غداً - عبر رسول».

قبل أنْ يتمكن الضابط من الكلام فهِمَ ديك من التعبير المرتسم على وجهه أنَّ الأمور على ما يُرام. قال الرجل بتردُّد «أنا لم أُسجل اسميهما لأنه ليست هناك بطاقات هوية. يجب أنْ أرى - هاتف النقود».

بعد ذلك بساعة أوصل ديك والمسيو غوس المرأتين إلى فندق ماجستيك، حيث كان سائق الليدي كارولاين ينام في عربتها اللاندويه[1].

قال ديك «تذكرا، أنتما تُدينان للمسيو غوس بمئة دولار لكلٍ منكما».

وافقت ميري «حسن، سأعطيه شيكاً غداً - وشيئاً آخر».

«أنا لن أفعل!» أجفلوا جميعاً والتفتوا نحو الليدي كارولاين، التي انتفخت بالاستقامة، بعد أنْ استعادتْ شخصيتها بالكامل، «إنَّ الأمر برمّته كان مُشيناً. أنا لم أُفوضكَ أبداً لإعطاء مئة دولار لأولئك الناس».

وقف غوس الضئيل بجوار السيارة، وقد اتّقدتْ عيناه فجأةً.

1- عربة لاندويه: عربة تشبه عربة الحنطور ولكنها تعمل بمحرك بدل الحصانين. - المترجم

«لن تدفعي لي؟».

قال ديك «طبعاً ستدفع».

فجأةً التهبت المهانة التي كان قد تحمّلها ذات يوم وهو مساعد نادل في لندن واقتربَ تحت ضوء القمر من الليدي كارولاين.

انهال عليها بسلسلة من الكلمات المُدينة، وعندما استدارت مبتعدة مع ضحكة تُجمّد الدم تقدّم خطوة خلفها وقام بسرعة بتثبيت قدمه الصغيرة في أشد الأهداف شهرة. بوغتت ليدي كارولاين، ورفعت كلتا يديها كمَنْ تلقّى طلقة رصاص وانبطحت قامتها المتدثرة برداء البحارة نحو الأمام على الرصيف.

قاطعها ديك حانقاً: «ميري، أسكتيها! وإلا أصبحتما أنتما الاثنتان في الأغلال في غضون عشر دقائق!».

في طريق العودة إلى الفندق لم ينبس العجوز غوس بكلمة، إلى أنْ تجاوزا كازينو جوان-ليه-بان، ولا يزال ينبض ويخفق بألحان الجاز؛ ثم تنهّد:

«لم أقابل في حياتي نساء من هذا النوع. لقد تعرّفت إلى العديد من أعظم محظيات العالم، وغالباً ما أكنّ لهنّ الكثير من الاحترام، أما من هذا النوع فلم أقابل قط».

الفصل الحادي عشر

تعوَّدَ ديك ونيكول أنْ يذهبا معاً إلى الحلاق، لقصّ شعرهما ومعالجته بالشامبو في غرفتين مُتجاورتين. كان في استطاعة نيكول من جانبها أنْ تسمع صوت قصّ المِقصّ، وإحصاء التغييرات، وكلمات *Voilas* و *Pardons*. وفي اليوم الذي تلا عودته ذهبا لكي يقصا شعرهما ويغسلاه تحت نسيم المراوح المُعطَّر.

أمام فندق كارلتون، الذي كانت نوافذه موصدة بعناد بمناسبة فصل الصيف كما أبواب العديد من الأقبية، مرّتْ بهما سيارة كان يقودها تومي باريان. خلال اللحظة التي لمحت نيكول تعبير وجهه، صموتاً ومتفكّراً ثم، في اللحظة التي تلتها، واسع العينين ويقِظاً، انزعجت. أرادت أنْ تذهب إلى حيث يذهب. بدت الساعة التي أمضتها عند الحلاق كأنها إحدى فترات حياتها التي ذهبت هباءً، كسجن صغير آخر. ذكَّرتها الـ *coiffeuse* (مُصفِّفة الشعر) بردائها الأبيض، وشفتيها المدهونتين بأحمر الشِفاه والمُضمَّخة بماء العِطر وهي تعرق، بالعديد من الممرضات.

في الغرفة المُجاورة غفا ديك تحت المِئزر وصابون الحلاقة. كانت المرآة التي أمام نيكول تعكس مشهد الممر الفاصل بين جانب الرجال وجانب النساء، وأجفلتْ نيكول لمرأى تومي وهو يلج بحركة حادّة قسم حلاقة الرجال. كانت تعلم مع دفقٍ من الفرح أنّه سيكون هناك ما يُشبه المُكاشفة.

سمعت شذرات من بدايتها.

«مرحباً، أريد أنْ أقابلك».

«... خطير».

«... خطير».

«... ربما مقبول».

بعد دقيقة انتقل ديك إلى غرفة نيكول، وبدا الانزعاج على تعبير وجهه من خلف منشفة غسل وجهه على عجل.

«لقد شقَّ صديقك طريقه إلى مركز مرموق. إنه يريد أنْ يُقابلنا معاً، فوافقت. تعالي!».

«لكنَّ شعري – لم أقصّ إلا نصفه».

«لا يهمّ – تعالي!».

شعرتْ بامتعاض وجعلت مُصففة الشعر المُحدِّقة تزيل المناشف.

لحقت بديك مع إحساس بأنَّ شعرها أشعث وأنها عارية إلى خارج الفندق. وفي الخارج انحنى تومي وقبَّل يدها.

قال ديك «سنذهب إلى *كافيه ديزاليه*».

وافق تومي «نذهب إلى أي مكان نكون فيه وحدنا».

تحت الأشجار المنحنية، الأساسية في فصل الصيف، سأل ديك: «هل ترغبين في تناول شيء، نيكول؟».

«أريد عصير كبّاد».

قال ديك «إنهم يُقدمون البلاكنوايت بالسيفون».

Il n'y a plus de Blackenwite. Nous n'avons que le Johnny*» .«*Walker

(لم يعُد لدينا بلاكنوايت. لدينا جوني ووكر)

«هي – لا – تُصدر صوتاً

ولكن بهدوء

يجب أنْ تجرّبها –».

فجأة قال تومي «إنَّ زوجتك لا تحبك؛ إنها تحبني».

تبادل الرجلان النظر وقد بدا عليهما تعبير العجز الغريب. في مثل ذلك الموقف لا يوجد تواصُل بين الرجال، لأنَّ الصِلة بينهما ليست مباشرة، وتتألَّف من مقدار ما استحوذ كل منهما أو سوف يستحوذ على المرأة المتنازَع عليها، بحيث أنَّ مشاعرهما تتغلغل في كيانها المنقسِم وكأنه اتصال هاتفي رديء.

قال ديك «انتظر لحظة. ***Donnez-moi du gin et du siphon***» (أحضر لي جن مع سيفون)

«***Bien, Monsieur***» (حسن، يا سيدي)

«حسن، تابع، يا تومي».

«يبدو لي جلياً أنَّ زواجك بنيكول قد وصل إلى نهايته. لقد ملّتْ. لقد انتظرت خمس سنوات هذا الحدث».

«ماذا تقول نيكول؟».

نظرا معاً إليها.

«أنا شديدة الوله بتومي، يا ديك».

أومأ برأسه.

تابعتْ «أنت لم تعُد تأبه لي. أصبح كل شيء رهن العادة. لم تعُد الأمور كما كانت بعد وصول روزميري».

لم يكن تومي قد انتبه إلى هذه الزاوية، فقال بحِدَّة:

«أنتَ لا تفهم نيكول. إنك دائماً تعاملها كأنها مريضة لأنها كانت كذلك ذات يوم».

فجأةً قاطعهم أميركيٌ مُلحّ، بالمعنى المشؤوم، يُعلن عن نسخ من صحيفتي *هيرالد* و*التايمز* الواصلتين حديثاً من نيويورك.

أعلن «معي كل شيء هنا، يا شباب، أأنتم هنا منذ زمن بعيد؟».

صرخ تومي: *Cessez cela! Allez ouste!* (يكفي يا هذا! ابتعد!)؛ ثم وجّه كلامه إلى ديك، «ما من امرأة يمكن أنْ تتحمَّل مثل –».

قاطعه الأميركي من جديد «يا شباب، أنتم تظنون أني أُبدِّد وقتي – لكنَّ كثيرين غيركم لا يعتقدون ذلك»، وأخرج قُصاصة بُنيّة من كيس نقوده – كانت تحتوي رسماً كاريكاتيرياً لملايين الأميركيين يترجلون من السفن عابرات المحيط ويحملون حقائب مملوءة بالذهب. «تعتقدون أنني لن أشارك في هذا؟ حسن، سأفعل. لقد أتيتُ تواً من نيس لمشاهدة سباق تور دو فرانس».

بعد أنْ قام تومي بإبعاده بعبارة ***allez-vous en*** الشرسة، استدعاه ديك «متى سيجري سباق تور دو فرانس هنا؟».

«في أي لحظة الآن، يا صاح».

أخيراً رحل وهو يلوِّح بيده مُحيياً وعاد تومي إلى ديك.

«***Elle doit avoir plus avec moi qu'avec vous***» (يجب أنْ تحصل معي على أكثر مما تحصل عليه وهي معك)

«تحدَّث بالإنكليزية! ماذا تقصد بـــيجب أنْ تحصل؟».

«أي أنها ستكون أكثر سعادة وهي معي».

«أنتما تعرفان بعضكما حديثاً. أما نيكول وأنا فحصلنا على الكثير من السعادة ونحن معاً، يا تومي».

قال تومي هازئاً «***L'amour de famille***» (الحب العائلي)

«وإذا تزوجت أنت ونيكول ألن يكون ذلك «***l'amour de famille***»؟».

دفعه هياج متزايد إلى التوقف عند هذا الحد؛ وسرعان ما ظهر ما يشبهُ رأس أفعى في المتنزه مع مجموعة، تحولت إلى حشد من الناس نهضوا تواً من قيلولتهم السريّة واصطفوا على طول حافة الرصيف.

اندفع فتية مارون بأقصى سرعة على دراجاتهم، واتجهت سيارات مزدحمة برياضيين مزيَّنين برهافة بشرّابات على طول الشارع، تُطلِقُ نفيراً

عالياً إيذاناً باقتراب السباق، ووقف طبّاخون غير متوقَّعين بقمصانهم الداخلية على أبواب المطاعم عندما ظهر الموكب عند المنعطف. أولاً كان هناك سائق دراجة وحيد، بقميص جرسي أحمر اللون، يكدّ بعزم وثقة قادماً من جهة الشمس غرباً، ماراً على وقع تهليل عالي النبرة. ثم ظهر ثلاثة معاً يرتدون زي مهرجين بألوان باهتة، وسيقانهم مكسوة باللون الأصفر بسبب الغبار والعَرَق، ووجوههم خالية من التعبير، وعيونهم مُثقلة بتعب لا ينتهي.

واجه تومي ديك قائلاً: «أعتقد أنَّ نيكول تريد الطلاق - لا أظن أنكَ ستضع عراقيل؟».

تجمهر فريقٌ من خمسين آخرين بعد مرور الدفعة الأولى من راكبي الدراجات، انتشروا على مساحة مئتي ياردة؛ بعضهم كانوا يبتسمون ويبدو عليهم الحياء، وبعضهم كانوا مُرهقين بجلاء، ومعظمهم كانوا لا مبالين وضجرين. ومرت حاشية من الفتية الصِغار، بعضهم مبعثرون ويبدو عليهم التحدي، وشاحنة خفيفة تحمل ضحايا وقوع الحوادث والهزيمة. وعادوا إلى الطاولة. أرادت نيكول من ديك أنْ يستلم زمام المبادرة، لكنه بدا راضياً بالجلوس بوجهه نصف الحليق الذي يُعادل شعرها نصف المغسول.

تابعت نيكول قائلة «أليس صحيحاً أنكَ لم تعُد سعيداً معي؟ من دوني تستطيع أنْ تعود إلى عملك - سوف تعمل بصورة أفضل إذا لم تكن قلقاً عليّ».

تململ تومي بصبرٍ نافد.

«لا فائدة من هذا كله. نيكول وأنا نتبادل الحب، هذا كل ما يجب قوله».

قال الدكتور «حسن، إذن، ما دام كل شيء قد بُتَّ، فلنعُد إلى محل الحلاقة».

أراد تومي أنْ يفتعل شِجاراً: «هناك نقاط كثيرة -».

قال ديك بإنصاف «سوف نتناقش أنا ونيكول حولها. لا تقلق - أنا موافق كمبدأ، وأنا ونيكول متفاهمان. سيكون هناك أدنى قدر من الإزعاج إذا تفادينا نقاشاً ثلاثيّ الأطراف».

اعترف تومي على مضض بمنطق ديك، وحَرّكه ميل عِرقيّ لا يُقاوَم لانتزاع امتياز.

قال «فليكن معلوماً منذ هذه اللحظة أنني أقف في موقع حامي نيكول إلى أنْ يتم إعداد التفاصيل. وسوف أعتبركَ مسؤولاً بصرامة عن أي تلاعُب بحقيقة أنكما لا تزالان تُقيمان في منزل واحد».

أومأ ديك برأسه ومشى وانطلقَ قاصداً الفندق، وعينا نيكول الشاحبتان تتابعانه.

رضخَ تومي قائلاً «لقد كان عادلاً بما يكفي. حبيبتي، هل نستطيع أنْ نجتمع معاً هذه الليلة؟».

«أعتقد ذلك».

وهكذا كان - وبأقلّ قدر من المآسي؛ شعرت نيكول بأنَّ عملها كان مكشوفاً، مُدركةً أنه منذ حادثة مرهم الكافور، وديك يستبق معرفة كل شيء. ولكنها شعرت أيضاً بالسعادة وبالحماس، وسرعان ما تلاشت رغبةٌ صغيرة غريبة في أنْ تُفشي بكل شيء لديك. لكنَّ عينيها لاحقت قامته إلى أنْ أضحت نقطة وامتزجت بالنقاط الأخرى داخل الحشد الصيفيّ.

الفصل الثاني عشر

في اليوم السابق لمغادرة الدكتور دايفر إلى الريفييرا أمضى وقته كله مع طفليه. إنه لم يعُد شاباً صغيراً يحمل الكثير من الأفكار اللذيذة والأحلام عن نفسه، لذلك أراد أنْ يتذكّرهما جيداً. كان قد قيلَ للطفلَين إنهما سيكونان خلال فصل الشتاء القادم مع عمّتهما في أميركا. واتُّفِقَ على ألا يتم الاستغناء عن المربية إلا بعد موافقته.

كان سعيداً لأنه منح الصغيرة الكثير. وأما بشأن الصبي فكان أكثر ريبة – لطالما كان يشعر بالقلق حيال ما عليه أنْ يُعطي الصغير الذي يكبر باطّراد وينضج. ولكن، عندما ودّعهما، رغبَ في أنْ يفصل رأسيهما الجميلَين عن عنقيهما ويضمهما إليه على مدى ساعات.

عانق البستانيّ العجوز الذي نسَّقَ أول حديقة في فيلا ديانا قبل ست سنوات؛ وقبَّلَ الفتاة الريفية التي ساعدته في تربية الطفلَين. لقد بقيَتْ معهما على مدى ما يُقارب العقد من الزمن وخرّتْ على رُكبتيها وبكت إلى أنْ قام ديك برفعها بقوة لتقف على قدميها وأعطاها ثلاثمئة فرنك. تأخرت نيكول في النوم، كما اتّفقا – ترك رسالة لها وأخرى لبيبي وارن، التي كانت قد عادت تواً من سردينيا وتُقيم في المنزل. تناول ديك جرعة كبيرة من زجاجة براندي طولها ثلاث أقدام، وتتسع لعشرة كوارتات، كان أحدهم قد قدّمها إليهما كهدية.

ثم قرّر أنْ يترك حقائبه في محطة مدينة كان ويُلقي نظرة أخيرة على شاطئ غوس.

***

عندما وصلت نيكول وأختها إلى الشاطئ لم يكن هناك إلا فرقة استكشاف من الأطفال. توهّجتْ شمسٌ بيضاء، تلاحقها بسرعة حدود سماء بيضاء، فوق نهارٍ بلا رياح. كان النُدُل يُزودون الحانة بكمية إضافية من الثلج؛ وكان مُصور أميركي من الأسوشيتد بريس يعمل بمعداته في ظلٍ متقلقل ويرفع بصره بسرعة لدى سماعه هبوط وقع أقدام على الدَّرج الحجري. وفي الفندق كان أصحاب مواضيعه المتوقّعة متأخرين في النوم في غرفٍ جُعِلَتْ مُظلمة بعد أنْ تخدّروا بالفجر الحديث العهد.

عندما خرجت نيكول لتتمشّى على الشاطئ شاهدتْ ديك، ليس بثوب السباحة، جالساً على صخرة عالية. فتراجعت إلى ظل خيمة تغيير ملابسها. وسرعان ما انضمت إليها بيبي، قائلة:

«ديك لا يزال هنا».

«رأيته».

«أعتقد أنه سيتسم باللياقة ويرحل».

«هذا مكانه – بصورة ما، لقد اكتشفه. إنَّ العجوز غوس دائماً يقول إنه يُدين بكل شيء إلى ديك».

نظرت بيبي بهدوء إلى أختها.

علَّقتْ «كان ينبغي أنْ يتقيَّد بنزهاته على متن الدراجة. عندما يُنتَزَع الناس من أعماقهم يفقدون صوابهم، مهما كانت خدعهم ساحرة».

قالت نيكول «لقد كان ديك زوجاً صالحاً لي على مدى ست سنوات. وطوال تلك المدة لم أعانِ من أيّ ألم بسببه، ولطالما بذل أقصى جهده ليُجنّبني أي أذى».

برز فكّ بيبي السفلي قليلاً وهي تقول:

«لهذا السبب نال تعليمه».

جلست الأختان يلفّهما الصمت، كانت نيكول تتساءل عن مجريات الأمور بفِكر مُتعَب، وكانت بيبي تتساءل هل تتزوج من آخر المتقدمين

لطلب يدها ومالها، من آل هابسبرغ الأصليين. لم تكن في الواقع تفكّر في ذلك. لطالما تشابهت مغامراتها العاطفية في أنها، بعد أنْ تنقضي، تُصبح قيمتها الأساسية في الأحاديث التي دارت فيها وليس في المغامرات بحد ذاتها. كانت مشاعرها تتجلّى في أصدق لحظاتها وهي ترويها.

سألتْ نيكول بعد فترة «هل رحل؟ أعتقد أنَّ قطاره يُغادر عند الظهيرة».

نظرتْ بيبي.

«كلا. لقد انتقل إلى موقع أعلى على المصطبة وهو يتحدث مع بعض النسوة. على أي حال أصبح هناك الكثير من الناس الآن بحيث أنه لم يعُد *مُضطراً* إلى رؤيتنا».

***

لكنه رآهما، أثناء مُغادرتهما سُرادقهما، ولاحقهما بعينيه إلى أنْ غابتا من جديد عن ناظريه. جلس مع ميري مانغيتي، يشرب اليانسون.

كانت تقول «لقد تصرّفتَ كما فعلت ليلة قدّمت لنا المساعدة، الاختلاف الوحيد هو في النهاية، عندما انتابك الرعب بشأن كارولاين. لماذا لست لطيفاً هكذا دائماً؟ تستطيع أنْ تكون كذلك».

بدا له غريباً أنْ يجد نفسه في موقف يتلقّى فيه شرحاً للأمور من ميري نورث.

«إنَّ أصدقاءك لا يزالون يُحبونك، يا ديك. لكنكَ تتفوه بأشياء فظيعة بحق الناس وأنت سكران. لقد أمضيتُ معظم وقتي خلال هذا الصيف وأنا أدافع عنك».

«هذه الملاحظة هي إحدى عبارات الدكتور إليوت التقليدية».

«إنها صحيحة. لا أحد يهتم إنْ كنتَ ثملاً أم لا -». ثم تردّدتْ، «حتى عندما يكون آبيه في أسوأ حالات السُكر، لا يُهين الناس كما تفعل أنت».

قال «إنكم جميعاً مملّون جداً».

صرخت ميري «ولكن ليس هناك غيرنا! إذا كنتَ لا تحب الناس اللطيفين، جرِّب أولئك الذين ليسوا كذلك، وانظر إنْ كانوا يعجبونك! إنَّ كل ما يُريده الناس هو قضاء وقت ممتع وإذا سبّبت لهم الإزعاج فإنكَ تقطع عن نفسك مصدر الغذاء».

سأل «وهل تلقّيتُ غذاءً؟».

كانت ميري تقضي وقتاً ممتعاً، من دون عِلمها، بجلوسها معه بدافع الخوف وحده. ومن جديد رفضت أنْ تشرب وقالت: «إنَّ الاستغراق في الملذات هو عكسه. طبعاً، تستطيع، إلى جانب آبيه، أنْ تتخيَّل شعوري حيال ذلك - بما أني شاهدت عملية انحدار رجل صالح نحو الإدمان على الخمر -».

وجاءت ليدي كارولاين سيبلي-بييرز تهبط الدَّرج بمرحٍ مسرحيّ.

شعر ديك بارتياح - كان متقدِّماً على النهار كثيراً، ووصل إلى المرحلة التي يجب أنْ يصلها المرء بعد تناول وجبة عشاء لذيذة، ومع ذلك لم يُظهِر إلا اهتماماً مرهفاً، محسوباً، ومحدوداً بميري. طلبتْ عيناه، اللتان كانتا في تلك اللحظة صافيتين كعينيّ طفل، تعاطفها وشعر بالحاجة القديمة إلى إقناعها بأنّه آخر رجل في العالم وبأنها آخر امرأة، تستولي عليه.

... حينئذٍ لن يُضطر إلى النظر إلى هذين الشخصين، رجلاً وامرأة، بالأبيض والأسود أمام صفحة السماء المعدنية...

سأل «في يوم من الأيام كنتُ أُثير إعجابك، أليس كذلك؟».

«تقول *أُعجبتُ* بك - بل قُل *أحببتك*. الجميع أحبوك. كان في استطاعتك أنْ تطلب الحصول على أي شخص -».

«لطالما كان هناك شيء مشترك بينك وبيني».

تشبّثت بما قال بلهفة «أحقاً، ديك؟».

«دائماً - كنتُ أعرف مشاكلك ومدى شجاعتك في مواجهتها». لكنَّ

الضحك الداخلي القديم كان قد بدأ فيه وأدرك أنه لن يتمكن من حبسه أكثر من ذلك.

قالت ميري بحماس «لطالما رأيتُ أنكَ تعلم الكثير عني أكثر من أي شخص تعرّفت عليه. وربما لهذا السبب كنتُ شديدة الخوف منكَ عندما لا تُحسِن التصرُّف».

نظر إليها بنعومة ورقّة، موحياً بأنَّه ينطوي على مشاعر؛ وفجأة تمازجت نظراتهما، هجعت، ترابطتْ. ثم، بينما الضحك يعلو في داخله خُيّل إليه أنَّ ميري تسمعه، أطفأ ديك النور وعادا إلى شمس الريفييرا.

قال «يجب أنْ أذهب». عندما نهض ليقف ترنّحَ قليلاً؛ لم يعُد يشعر بتحسُّن - لقد أصبح جريان دمه بطيئاً. رفع يده اليمنى وبرسم إشارةِ الصليب بحركةٍ بابوية بارك الشاطئ من المصطبة العالية. ارتفعت الوجوه عالياً باتجاهه من تحت العديد من المظلات.

ارتكزتْ نيكول على رُكبتيها «سأذهب إليه».

قال تومي، وهو يجرها نحو الأسفل بحزم، «كلا، لن تذهبي. دعيه وشأنه».

الفصل الثالث عشر

بقيتْ نيكول على اتصال مع ديك بعد زواجها الجديد؛ تبادلا رسائل عمل، وأخرى للاطمئنان على الطفلين. وعندما كانت تقول، كما تفعل غالباً، «لقد أحببتُ ديك ولن أنساه أبداً»، يُجيب تومي «طبعاً هذا غير صحيح - ولِمَ تحبينه؟».

افتتح ديك مكتباً في بوفالو، ولكن طبعاً من دون تحقيق أي نجاح. لم تفهم نيكول المشكلة، لكنها سمعت بعد ذلك ببضعة أشهر أنه في بلدة صغيرة اسمها باتافيا، في ولاية نيويورك، يمارس الطب العام، ولاحقاً سمعت أنه في لوكبورت، يفعل الشيء نفسه. وبالمصادفة سمعت المزيد عن حياته وهو هناك أكثر مما سمعت وهو في أي مكان آخر: أصبح يمارس ركوب الدراجة أكثر، ومحط إعجاب السيدات، وعلى طاولة مكتبه دائماً أكداسٍ ضخمة من الأوراق تضم دراسة هامة لموضوع طبي ما، ويوشك أنْ يُكملها. واعتُبِر أنه صاحب سلوك راقٍ. وذات مرة ألقى خطاباً في اجتماعٍ عن الصحة العامة حول موضوع المخدرات؛ لكنه تورط في علاقة مع فتاة تعمل في محل بقالة، وتورط أيضاً في قضية طبيّة؛ لذلك غادر لوكبورت.

بعد ذلك لم يعُد يطلب إرسال الطِفلَين إلى أميركا ولم يعُد يُجيب على رسالة نيكول التي سألته فيها إنْ كان في حاجة إلى نقود. وفي آخر رسالة استلمَتْها منه أخبرها أنه يمارس المهنة في جنيف، ولاية نيويورك، وتصورتْ أنه استقرّ مع شخص يُدير له شؤون المنزل. وبحثت عن

موقع جنيف على الخارطة فوجدت أنها تقع في قلب قِطاع فينغر ليكس واعتبرته مكاناً جميلاً. وأحبّتْ أنْ تعتقد أنّ مسيرته المهنية ربما تنتظر فرصة ملائمة، من جديد كما حدث لغرانت في غالينا؛ وآخر رسالة كانت مختومة من مركز بريد هورنل، ولاية نيويورك، وهي بلدة بعيدة عن جنيف وصغيرة جداً؛ على أي حال من المؤكّد تقريباً أنه موجود في ذلك القِطاع من البلد، في بلدة ما.

انتهى

مُلحَق

مخطوطات «... *والليل رقيق*».

كان فيتزجيرالد قد احتفظ بمُعظم أوراقه، وقد منحتها ابنته السيدة صمويل ج. لاناهان إلى مكتبة جامعة برينستن. وهنا يتم الاحتفاظ بالمسودات المختلفة لرواية «... *والليل رقيق*» داخل ست علب كبيرة من الكرتون، مع ملفات إضافية من الملاحظات، في الطابق التحتيّ المُكيَّف الهواء من غرفة المخطوطات. والمسودات والملاحظات والبدايات الزائفة تشكّل دراسة أدقّ مما قدَّمه المُحرر الحالي لها. إنها تكشف النقاب عن كاتبٍ لم يكن روائياً بالفِطرة، بل بالأحرى شاعراً رومانسياً وُهِبَ دقّة الملاحظة الاجتماعية، وحساً نقدياً عالي التطوُّر، ومقدرة على تحمُّل مشقات غير محدودة، تنكّبَ مهمة طويلة لوضع عالمه بين دفّتيّ كتاب.

لدى فتح علب الكرتون واحدة بعد أخرى نستطيع أنْ نقتفي أثر الرواية بنسخها المختلفة ونقتفي أثر كل مشهد أو فصل مع تطور مراحله: من اليرقة، إلى الخادرة، إلى اليافعة. أولاً هناك الملاحظات والتعليقات على الفصل الذي سيُكتَب وربما جدول بساعات العمل؛ ثم يُدوّن فيتزجيرالد المخطوط بقلم الرصاص بخط يده الرفيع، الضيِّق، المتعجِّل، غير المصقول، ولكن الواضح تماماً؛ ثم ينسخه السكرتير على الآلة الكاتبة ويقوم المؤلف بتصحيحه، مع حذف صفحات وإضافة

أخرى؛ ثم يُطبع المخطوط مرة أخرى - وغالباً ما سيُرفَض كله، ويبدأ المؤلف بالكتابة من البداية بقلم رصاص، ويُجري تصحيحات جديدة قبل أنْ يُسلِّم العمل مطبوعاً على الآلة الكاتبة.

من الممكن التميز بين ثلاث نسخ منفصلة من الرواية. الأولى هي نسخة ميلاركي، التي بدأها في الريفييرا في أواخر صيف عام 1925. وفي شهر نيسان (أبريل) من العام التالي كتب فيتزجيرالد إلى وكيل أعماله، هارولد أوبر، يقول «لقد أنجزت حوالي رُبع الرواية وسوف أسلّمها ربما لكي تُنشَر مُسلسلة في حوالي الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر). سوف تتألّف من حوالي 75,000 كلمة، مُقسَّمة إلى 12 فصلاً، وعلى الرغم من سرّية الموضوع فإنه يدور حول قضية تلك الفتاة التي أطلقت الرصاص على أمها على شاطئ المحيط الهادئ في العام الفائت». ستقع أحداث الرواية في الريفييرا، وباريس، وروما. وسيكون البطل هو فرانسيس ميلاركي، وهو تقنيّ شاب من هوليوود مع أمه المُستبدّة. سيقع فرانسيس في حب امرأة تشبه نيكول دايفر، وسيُفرِط في ارتياد الحفلات الصاخبة، وسيفقد أعصابه ويقتل أمه في ثورة غضب. وسوف يُلاحَق ويُعاقَب على جريمته، على الرغم من أنّ المؤلف لم يُقرر بالضبط كيف سيموت. لقد كتب فيتزجيرالد مسودات عديدة لأربعة فصول طويلة لنسخة ميلاركي وهي موجودة في علب الكرتون الزرقاء في جامعة برينستن. ويبدو أنه كانت هناك ذات يوم مسوَّدة، وقد ضاعت الآن أو دُمّرَتْ، تتألّف من أربعة فصول إضافيّة.

الثانية أو نسخة روزميري من الرواية غير مؤرَّخة، ولكنها تتصل بروابط مع اثنتين من قصص فيتزجيرالد المنشورة - **«العبور الصعب»** (عام 1929) و**«رحلة واحدة إلى الخارج»** (عام 1930) - ولابد أنها كُتبت في الوقت نفسه تقريباً. أحداث الفصلَين الأولَين، الوحيدين المحفوظين في علب الكرتون الزرقاء، تجري على متن عابرة محيطات مرفّهة متجهة نحو أوروبا. وليويلن كيلي، كما يلفظ فيتزجيرالد اسم البطل الجديد، هو

مخرج سينمائي شاب وشهير غير راضٍ عن عمله في هوليوود؛ يصطحب زوجته، نيكول، لقضاء عطلة مدتها عامَان في أوروبا، على الرغم من أنه يُخطط أيضاً لإخراج بعض الأفلام هناك. وتظهر روزميري وأمها في هذا المخطوط للمرة الأولى. إنهما مسافرتان في الدرجة الأرخص، الدرجة الثالثة السياحية، لكنَّ الأم جعلتْ روزميري ترتدي أبهى أثوابها وتسللتا إلى الدرجة الأولى من خلال غرفة المحركات، لكي يراها كيلي ويُجري لها اختباراً للتمثيل على الشاشة. وتتواعد الشخصيات كلها على الالتقاء من جديد على شاطئ الريفييرا في فصل الصيف... ويظهر كيلي وزوجته من جديد في قصة «**رحلة واحدة إلى الخارج**» وهناك تتدهور العلاقة بينهما وتشبه كثيراً ما يحدث لديك دايفر.

الثالثة أو نسخة ديك دايفر من الرواية بدأتْ من خطة جديدة في أوائل عام 1932 واستمرت حتى النهاية. إنها تملأ غالبية علب الكرتون الزرقاء الست، ليس لأنها أطول فقط، بل لأنها تمر أيضاً بمراحل أكثر من النسختين الأُخريين: فبالإضافة إلى الملاحظات عليها، والمسوّدات الأولى المكتوبة بقلم الرصاص، والنسخة الأولى والثانية المطبوعتين على الآلة الكاتبة، ونسخ الكربون المُصححة، هناك أيضاً لوح الطباعة وألواح تصحيح الصفحات من «*سكريبنر ماغازين*» وألواح تصحيح الكتاب المنشور مع مراجعات فيتزجيرالد، التي لا نهاية لها. وقد قال بول فاليري ذات مرة إنَّ العمل الفني لا ينتهي أبداً، بل فقط يُعلَّق. ولم يكن فيتزجيرالد راغباً في تعليق العمل على «*... والليل رقيق*» وحتى بعد أنْ صدرت الرواية عن دار سكريبنر، كاملة على أربع دفعات، ظل يعمل عليها حتى اللحظة الأخيرة، تاركاً أخطاءه الصغيرة ولكن مُحاولاً أنْ يُعزِّز التأثيرات الكبيرة ؛ حذف عدداً من المشاهد، وقصَّرَ العديد منها، وأخذ يُضيف صفحة مطبوعة بعد أخرى إلى ألواح الطباعة.

على الرغم من أنَّ الاختلاف بين النسخ الثلاث واسع، فإنه لا ينتابنا أي شك ونحن نقرأها أنها تمثّل مراحل في تأليف رواية واحدة. والموضوع

الأساسي هو نفسه في الثلاث: شاب أميركي طموح يذهب إلى أوروبا ويُحطّمه تواصله مع طبقة مترفة. النسخ الثلاث لها الخلفية نفسها - على الرغم من أننا نقوم بزيارتنا الأولى إلى سويسرا في قصة «**رحلة واحدة إلى الخارج**» - وكلها تحتوي التبايُن بين أناس هوليوود المكافحين والأغنياء الكسالى. وغالبية الأشخاص المذكورين في النسخة الأولى يعودون إلى الظهور في النسخة الأخيرة، على الرغم من أنَّ بعضهم غيَّروا أسماءهم ليس مرة واحدة بل مرتين: وهكذا، آبيه نورث كان اسمه في الأصل آبيه غرانت ومن ثم أصبح آبيه هركيمر، لكنه بقيَ يحمل الصِفات نفسها. من ناحية أخرى، تفقد نيكول دايفر بعض صِفاتها التي كانت تملكها عندما كان اسمها دينا بايبر وتستعير بعض الصِفات الجديدة من سميّتها[1] من نسخة روزميري، نيكول كيلي. في أول الأمر يبدو أمراً مُشوِّشاً ملاحقة هذه التغييرات الصغيرة؛ ولكن مع متابعة القراءة في المخطوطات الأولى تُصبح الشخصيات مألوفة كمجموعة من الأصدقاء المُقرَّبين وتتصرَّف كما يتصرّف أصدقاؤنا - بعضهم يتغيَّرون أمام أعيننا، وبعضهم يغيبون عن الأنظار، وبعضهم - مثل ألبرت مكيسكو، على سبيل المثال - يبقون كما هم دائماً وبثبات. يمرون بمغامرات يصفها فيتزجيرالد في إحدى النسخ ويُلغيها في أخرى. إنَّ ملفّ المخطوطات يمنحنا صورة عالم صغير متكامل؛ والرواية المنتهية لا تمنحنا إلا مقاطع من ذلك العالم، لكنها مُنتقاة بحيث تتضمَّن بقيته.

لقد كان فيتزجيرالد معاً شحيحاً ومبذّراً في استخدامه المواد. كانت مسوداته الأولى لمختلف المشاهد أحياناً، على الرغم من أنها مُثيرة للاهتمام في مفهومها، جريئة في روايتها كحكايات الفتية التي ألّفها هوريشيو ألجر أو ج.أ. هنتي. ولكنها دائماً تقريباً تحتوي بضع عبارات أو إيماءات مُعبِّرة تكشف عن الشخصية، وقد حاول فيتزجيرالد ألا يرمي تلك الأشياء الجيدة. إنها تعود إلى الظهور أثناء إعادة كتابة المشهد،

1- السميّ: عندما يحمل شخصان الاسم نفسه، فإنَّ كلاً منهما هو سميّ الآخر. - المترجم

بالإضافة إلى عبارات جيدة أخرى كانت قد خطرتْ على باله؛ وإذا تم الاستغناء عن المشهد يقوم بتدوينها في مفكّرته لكي يستخدمها في المستقبل. كان يحتفظ بقطع متناثرة، كرجل عجوز يحتفظ بقطع من الخيوط. هناك عبارة يُرددها آبيه نورث - «إذا مللتَ الأصدقاء، تحصل على متملقين» - تظهر في مشاهد مختلفة موزعة في أرجاء عدد من المخطوطات. ومن ناحية أخرى، كان في وسع فيتزجيرالد أنْ يكون أيضاً مُسرفاً بجنون. فبعد أنْ يُعيد العمل على مشهد مرات عدة ويُضخّمه بأجزاء من مشاهد أخرى، يُصبح قادراً على التخلص منه لكي يُسرِّع إيقاع روايته أو لأنه رأى أنَّ الحدث المنتهي، مهما كان فعّالاً بحد ذاته، ليس أساسياً للتأثير الأوسع الذي يرمي إليه.

كأمثلة على عمليات حذف أخرى عديدة، هناك متَّسع في هذا المُلحق لِذكر حادثتين أُسقِطتا من المخطوط في مراحل متنوعة. الأولى تقع في الليل - كان فيتزجيرالد دائماً بارعاً فيهما - من الفصل الرابع من نسخة ميلاركي. في المرة الأولى نشرها آرثر ميزنر في عدد خريف عام 1948 من صحيفة *كنيون ريفيو*، عندما ظهرتْ مع المشهد السابق من الفصل نفسه، تحت عنوان «سوق العالم». لاحظْ أنَّ سيث ودينا باير في الحدث هما صورتان مبكرتان من ديك ونيكول دايفر.

1- واندا بريستد:

عندما يصل فرانسيس بريستد إلى الحانة حيث كان قد أعدّ للقاء واندا بريستد، يجدها هناك في صحبة ثلاث فتيات أُخريات. كنّ فتيات نحيلات وممشوقات القوام برؤوس صغيرة متوازنة، تتصف بدقة رؤوس عارضات أزياء، ووجوه حرّة فاتنة. كان من الواضح أنهن في الحانة منذ زمن طويل، ولكن لم يبدُ على أي منهن الضيق، وعندما قدَّمتْ واندا فرانسيس تماوجت رؤوسهن التي تعلو ملابسهن السوداء الأنيقة بجمال باتجاهه كرؤوس حيات كوبرا أو كأزهار طويلة الأعناق في وجه الريح.

وفي الحال انتاب فرانسيس شعور بأنه سبق أنْ قابلهن ثلاثتهن في مكان ما. همست واندا له بأنهم جميعاً سيتناولون طعام العشاء معاً - لم يسعها تفادي ذلك، ولكنه ليس مُضطراً إلى دفع ثمن أي شيء، لأنه حفل الآنسة هارت وهناك شاب آخر، خرج الآن ليُجري مكالمة هاتفية، وسوف ينضم إليهم حالاً.

أخبرت واندا الأخريات بأنه صديق سيث بايبر وفي الحال مالت الفتيات الثلاث باتجاهه، مُعبّرات عن الدهشة والاهتمام لأنَّ آل بايبر في باريس. وقالت الفتاة التي التوى فمها برقة تحت أنفٍ معقوف:

«أنا لست مهتمة بذلك - لأنه من الواضح أنهما ملّا صحبتي».

ثم قالت الفتاة الأطول قامة والأشد وسامة بمرارة، «يجب أنْ أعترف بأنني أُفضّل أناساً يعيشون حياةً أكثر حيوية. كان يمكن لسيث أنْ يكون في حال أفضل لو أنها منحته فرصة».

تكلّمت الآنسة هارت، الفتاة المرحة، الشبيهة بفتى، التي يمكن أنْ يكون عمرها ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، بصوت حماسي:

«على أي حال، يا عزيزتي، ما الاستثنائي فيهما؟ لقد قابلتهما عدة مرات وبعد أنْ كنتُ أتوقع أنْ أتعرّف على الأقلّ إلى القديس لويس وجان دارك فقدت كل حماس حقيقي بشأنهما».

قالت الفتاة التي ذكرت أنَّ آل بايبر ملّا صحبتها «إنَّ سيث رجل خارق. ودينا امرأة شديدة الإخلاص، والصراحة».

كررت الأخرى بمرارة «شخص مخلص، وصريح. نعم - ينبغي أنْ تكون كذلك إذا أرادت أنْ تدفع كل إنسان في العالم إلى مضاجعتها».

شعر فرانسيس بالحنق لكنه بصورة ما خاف من طولهن ودمائتهن والطريقة المُنتبهة والمنتقدة بدقّة التي كن يملن بها عليه كلما فتح فمه ليتكلّم. وعندما شعر بأنه يرتكب الزلات هنا وهناك وسط مظاهر السخط

المتغيرة، استسلم وقال لنفسه كم أصبحن جميعهن قاسيات وسطحيات في حديثهن عن سيث ودينا. وعلى أي حال لم يكنّ يتحدثن معه، بل فيما بينهنّ. ومن جديد ذكّرنه بشيء ومن جديد نسيه.

أصرّت الآنسة توب «أنا حقاً لا أعتقد أنها تحب كل ذلك التبدُّل في الأصدقاء. طبعاً في رأيي الخاص أنَّ سيث هو الذي صنعها».

سألت الآنسة هارت «ولكن ما سبب تساهل السيد غرانت المُطلَق؟».

«إنها السيدة غرانت – إنَّ سيث سوف يقف بعيداً عن كل مَنْ هو قادر على إخباره بأساليب جديدة كم هو ساحر».

تمتم فرانسيس «يا إلهي!». رمينه كلهن بنظرة مُجفِلة فقالت الآنسة توب بلهجة مُصالِحة:

«على أي حال، إنني أشعر فقط بالأسف لأنَّ سيث لم يعُد يحبني – وذات يوم قد يُشرّفني من جديد بإعارتي لحظة أو نحوها من انتباهه، ويُعيدُ إليّ احترامي لذاتي، وخلاصي على طبق كبير، كما يفعل عادة».

مال الرأس الأنيق إلى الأمام كرأس حيّة كوبرا:

«لقد حاولت ذات مرة أنْ أرسمه. أنا أحفظ قسمات وجهه، لكنّي دائماً أُغمض إحدى العينين. والنتيجة كانت أنَّ عينيه ظهرتا متقاربتين أكثر مما ينبغي».

قال فرانسيس من جديد «يا إلهي!».

«وكذلك حال عينيّ، يا عزيزتي. إنَّ ميزة سيث العُظمى هي أدبه الذي يبدو أنه ينبع مباشرة من عالم المجاملة الطبيعي. وإحدى مزايا مثل هذا النوع من الأدب في الرجل هي مقدرته على التعامل مع النساء حسب معاييرنا – يُسعدهن أو يُعذّبهن حسب الضرورة. ولا يُطلق النار عشوائياً من معسكره المتمركز بعيداً – مثل مدفع بيغ بيرثا، كما تعلمين، تقضي على الحشود كلها مُصادفة».

«إنَّ ما يُذهلني هو شعورهما بالرضا عن النفس، وإعجابهما الإيجابي بكل ما يملكان من أشياء –».

«– ويجب أنْ تعترفي بأنها عادة أفضل الأشياء».

«أوه، إنهما يستعرضان نفسيهما جيداً – سوف أكون آخر مَنْ يُنكِر هذا. وأذكر ذلك الحفل الذي أقاماه في ذلك المنزل العائم الشهير. وأودّ أنْ أعترف بأنَّ سيث مُسلٍ جداً – لكنَّ الطابع الأيرلندي يغلب عليه؛ وجهه يبدأ بالتحرُّك حتى قبل أنْ يقول أي شيء بتلك الطريقة الأيرلندية. وتلك العبارات التي يُكرر استخدامها: «أكبر السكان سناً نهشته القوارض» – كم مرة سمعته يقول هذا؟ وتلك الطريقة الوحيدة في مُحاكاة كل شيء، سواء أكان رجلاً إنكليزياً أو تيساً – يوسِّع فتحتيّ منخريه، ويهز رأسه من طرف إلى طرف، ويتكلَّم من منخريه».

«إنَّ لكل شخص طريقة واحدة في المُحاكاة يُطبّقها على كل شيء».

أحياناً أثناء الحديث كان ينضم إليهم الشاب الذي كان يُجري اتصالاً هاتفياً. وشعر فرانسيس بالاشمئزاز عندما اكتشف أنه «أحد أولئك الفتية»، وأخذ فرانسيس يبحث عبثاً عن وسيلة للخروج من ذلك الموقف. ألقى على واندا نظرة تأنيب، فبادلته بابتسامة مُشجِّعة، ومن جديد شعر برغبة فيها. كانت من نوع الأحمر والأبيض الخاص الذي دائماً يُثيره ولا شك في أنَّ ضغط يدها في ذلك اليوم كان بمنزلة الوعد، ولكن لم يُدرك مداه.

ظل طوال فترة العشاء شارد الذهن بعيداً عن المجموعة؛ لقد أضحى كل شيء ميتاً بعد رحيل آل بايبر وتساءل ماذا يفعلان في تلك الليلة. لعلّهما خصّصا تلك الليلة لمناسبة ما، هكذا فكّرَ مع إحساس مُفاجئ بأنه منبوذ – ربما ليكونا وحدهما.

على مائدة العشاء أسرف في شرب الشمبانيا لكنه لزم الصمت وانتابه إحساس بأنَّ الفتيات الثلاث يكرهنه كما هو يكرههن. في أول الأمر كان هذا الشعور عَرَضياً لكنّه تعمَّقَ لاحقاً، وبعد ذلك أثناء الرقص في البوف سور لو توا وجد أنهنّ يُعاملنه ببرودة.

قال في نفسه «إنَّ انزعاجي وغضبي يتفاقمان. يُستحسن أنْ أعود إلى المنزل. يا لها من أمسية مقيتة. يا لهم من رعاع»، واستأذن من واندا بالمغادرة.

أجابت «نعم، ولكن انتظر. سيغضبن إذا تركتك ترحل».

«حسن، ومَنْ يكنّ؟ لماذا تهتمين لأمرهن».

«لا أهتم، ولكن انتظر».

كانا يرقصان متلاصقين وفجأةً أخبرها أنه يُريدها. لا شك في أنَّ ابتسامتها عندما مالت إلى الخلف ورفعتْ بصرها إليه كانت بمنزلة موافقة، لكنها قالت:

«أليس هذا كافياً؟».

«طبعاً لا».

«ألا تعتقد أنه كاف؟».

لم يتمكن من نيل أكثر من ذلك منها، لكنَّ الكأس التالية من الشمبانيا جعلته أنيساً أخيراً؛ بل إنه وافق على الانتقال إلى مكان آخر، لكنّ الآنسة كارمايكل كانت في سيارة الأجرة مع واندا ومعه وأقصى ما استطاع أنْ يفعل هو أنْ يضغط يدها.

علِمَ أنهن فتيات ذوات مكانة مرموقة؛ ولم يرتكب خطأ الحكم عليهن جميعاً بأنهن مُثقفات أو سُحاقيات. لقد كنَّ ثلاث أميركيات ثريات ممشوقات القوام وهذا هو الشيء الأساسي فيهن. وكون الواحدة منهن أميركية ثرية وممشوقة القوام هو شكل من الإنجاز الوراثي، سواء بلغ التقدُّم ذروته أخيراً في تنزّهها اللامبالي على طول العارضة الفولاذية لرخائنا أم لا. ومع ذلك أصبح جلياً باطراد بالنسبة إليه أنَّ الآنسة توب كانت لديها هموم أكثر إلحاحاً - كحركة شفة في مكان ما، أو التواء ابتسامة بلا هدف، أو رفع ستارة أو إسدالها لحظة على ممر مُستتر. وبعد ذلك بساعة خرج من مكان ما إلى سيارة أجرة كنّ قد سبقْنَه إليها ووجد واندا سكرى ومرتمية بين ذراعيّ الآنسة توب.

سأل بغضب «ما هذا؟».

ابتسمت الآنسة توب له. وفتحت واندا عينيها الناعستين وقالت «مرحباً!».

كرّر قائلاً «ما معنى هذا؟».

قالت الآنسة توب «أنا أحب واندا».

قالت واندا «فيفيان فتاة لطيفة. تعال واجلس معنا هنا في الخلف».

قال فرانسيس بخشونة للآنسة توب «لِمَ لا تذهبين إلى البيت مع صديقتيك. أنت تعلمين أنه لا عمل لكِ هنا. إنها ثملة».

كررت الآنسة توب بود «أنا أحب واندا».

«لا يهمني. اخرجي من فضلك».

كجواب على طلبه شدّت واندا الفتاة إليها من جديد، وعلى الأثر وفي نوبة من الحنق فتح فرانسيس الباب، وأمسكها من ذراعها، وقبل أنْ تفهم الفتاة غرضه، ثبَّتها في وضعية الجلوس على حافة الرصيف.

صرخت «هذا تصرف مُشين تماماً!».

وافقها، بصوت مرتعش، «هو كذلك حتماً». هرع الخادم وعدد من المتسكعين؛ وطلب فرانسيس من السائق أنْ يلج السيارة بسرعة. كان الحادث قد أيقظ واندا.

سألت «لِمَ فعلتَ هذا ؟ يجب أنْ أعود».

«هل تعلمين ماذا كانت تفعل؟».

«فيفيان فتاة لطيفة».

«فيفيان هي -».

«أشعر بتوعك».

«ما هو عنوان بيتك؟».

أخبرته وعاد إلى الجلوس، مهزوماً ومشدوهاً. هذا المشهد من الزيغ المُعجِز في التصرُّف أفسد سلسلة من بعض الحقائق الإنسانية العظيمة في عينه، كما فعل عندما وعى للمرة الأولى وجهها الآخر قبل ذلك ببضع سنوات. عندما كانت هوليوود أحسن حالاً بتشكيلتها الغريبة في المعتاد، وجورج كولينز يطلب عبر الهاتف إحضار عدد من الفتيات الجميلات

إلى مائدة العشاء، على ألا يتجاوز عمر أي منهن التاسعة عشرة. أراد أنْ يعود ويقتل تلك الفتاة.

توقفت سيارة الأجرة أمام مجموعة من الأبواب البنيّة اللون والمُعتمة والمتشابهة إلى درجة أنه بدا أنَّ التعرُّف على بابها يجب أنْ يتم عبر انتقائه من ظلام الزقاق.

«هل تستطيعين أنْ تدخلي وحدك؟».

«ربما». لكنها أثناء ترجلها من سيارة الأجرة تمايلت عاجزة فساعدها لتصل إلى الباب وفي ارتقاء درج دائريّ قديم يصل إلى الشقة، وهناك بحث داخل حقيبتها عن المفتاح.

كانت غرفة تعيثُ فيها الفوضى، مفتوحة على غرفة استحمام مزودة بحوض من القصدير. كان سرير النهار مغطى بقطعة من اللباد الأزرق عليه رسالة كانت الأحرف المعكوسة والمشوّشة عليها تُقرأ «برين ماور - 1924». ولجت واندا الحمّام من دون أنْ تتكلّم وفتح فرانسيس نافذة تطل على فناء ضيق وطويل، رمادي بلون الجرذان، ولكن كانت تتردد في أرجائه أصداء لحن غريب وحزين. كانا رجلان يرتّلان بلغة غير مألوفة مملوءة بأحرف الكاف واللام - مال نحو الخارج لكنه لم يتمكن من رؤيتهما؛ من الواضح أنَّ اللحن ذا صِبغة دينية، ولما كان مُتعباً وخالياً من المشاعر تركهما يُصليان لأجله أيضاً، ولكن لماذا، ربما لكي لا يضيع في ظلام عقله، لم يدرِ. لم يشعر بالشغف، شعر فقط بخور قِواه - لكنها اشتدت بتوتُّر قلبه لدى سماعه طلقاً ناريّاً صدر من الحمّام.

شهقَ «آه، يا إلهي!».

بعد لحظة فتح باب الحمّام، وإذا بواندا تواجهه بوهن ومسدس صغير يرتعش في يدها. كان مسدساً قديماً، لأنه عندما تناوله من يدها انفصلت قطعة من اللؤلؤ من المقبض وسقطت على الأرض.

سأل بلهجة آمرة «ماذا تريدين أنْ تفعلي؟».

«لا أدري، كنتُ فقط أطلق النار».

جلست على مقعد المرحاض مع ابتسامة لعوب. أصبحت عيناها، اللتان كانتا زائغتين قبل بضع دقائق، مملوءتين بخبث شيطانيّ.

«ما المشكلة؟ هل تعانين أي مشكلة؟».

«لا أحد لديه مشكلة. لا مشكلة. الجميع مسؤولون عن أعمالهم».

«أنتِ لستِ كذلك. أنت ثملة».

توقّع أنْ يسمع قرعاً على الباب في أي لحظة، ولكن ربما بدافع الخوف أو اللامبالاة لم يتحرك أحد في البناء - حتى الترتيل في الفناء استمر، حزيناً كعزف الناي، وشيئاً فشيئاً ازداد إحساسهما بالوحدة في الشقة.

قال «يُستحسن أنْ تأوي إلى الفراش».

ضحكت مؤنِّبة. «أذهب إلى الفراش وأستلقي هناك؟ لماذا؟».

قال بعد محاولة فاشلة للتفكير «حسن - لا أريد أنْ أرحل وأتركك هكذا. هل أنت أفضل حالاً الآن؟».

قالت بفظاظة «أوه، اخرج! واترك لي مسدسي».

أخرج الطلقات الصغيرة وأعاد المسدس إليها، ولكن عندما رأى نظرة المكر الطفولي في عينيها اضطرب.

«لديك المزيد من الطلقات. انظري هنا، أنت تتصرفين كبلهاء. ما الأمر - أأنت مفلسة؟».

هزتْ رأسها نفياً: «بل متخمة بالنقود».

«هل الأمر يتعلّق بالفتاة؟».

ضاقت عيناها بتحدٍ «إنها فتاة لطيفة جداً. لقد كانت طيبة جداً معي».

«لم يكن تصرفها متوازناً هذه الليلة».

«إنها لطيفة جداً». فجأةً بدا أنها تتذكر. «أنت الذي كنتَ مزعجاً. لقد شددتها إلى خارج السيارة إلى المجرور العام. إنها لن تنسى ذلك أبداً»، وهزّت رأسها برصانة، «أبداً - أبداً. معك سيجارة؟».

اتكأت بظهرها بارتياح على ماسورة الماء، وكأنها تستمتع بلحظة استرخاء. أشعلَ فرانسيس لها سيجارة بنزَق وانتظر. كان شديد التعب لكنه خشيَ أنْ يتركها وحدها، لأجله ولأجلها. في تلك اللحظة لم يكن يأبه إنْ قتلتْ نفسها أم لا لأنه كان شديد التعب، لكنَّ أصدقاءها علِموا أنه أخذها إلى منزلها ولا بواب في الأسفل.

قال «أنا مفرط التعب» - وهذا لسوء الحظ، لأنَّ هذا منحها مزيّة؛ فهي لم تكن مُتعبة؛ على الرغم من أنَّ ذهنها كان بليد الحركة معظم الوقت كصورة بطيئة الحركة، وأعصابها مزدحمة بالتوتر المحموم. حاولتْ أنْ تفكِّر في شيء مزعج.

قالت مُتّهمة «كنتَ تسعى إليّ».

«وماذا في هذا؟».

ضحكت ساخرة.

«سأغادر إلى منزلي - إذا قلتِ لي أين باقي الطلقات ثم قفزتِ إلى السرير لتنامي قليلاً».

صرخت «أوه، ســ...! ستضع الطفلة في السرير - أيها الأحمق العجوز الملعون - أنتَ تُثير اشمئزازي حتى الأعماق».

مرتْ نصف ساعة. عندما صمتَ هدأتْ ورفضتْ أنْ تغادر الحمّام. وعندما أتى بحركة ليذهب استيقظت ككلب حراسة وأمسكت به ليبقى. بحث في طاولة المكتب عن طلقات إلى أنْ صرخت «دع أغراضي وشأنها». وفكَّر في استدعاء البوّاب، ولكنَّ ذلك كان يعني أنْ يوقظ سكان المبنى كله حتماً؛ كان الفجر يُرسل خيوطه الأولى إلى غرفة النوم حينئذٍ، وكان الترتيل قد سكت منذ زمن طويل.

كرهها لأنها ورّطته في تلك القذارة - كاد لا يُصدِّق أنه اشتهاها ذات مرة، تلك السحاقية المجنونة، وأنها تحبسه هناك وكأنَّ لها حقاً في فعل ذلك. كان يودّ لو يضربها - ولكنَّ صورتها وهي مسحوقة تحت وطأة

تلك المشكلة جعلت إحساساً كاملاً بالاشمئزاز يغمره؛ اقترب وركع بجوارها وأحاط كتفها بذراعه.

«أيتها الصغيرة المسكينة، ما الأمر؟ أخبريني - هل أُصبت بالإفلاس أو ما شابه، أم أنكِ تورطتِ مع أولئك السحاقيات؟».

فجأة انهارت.

صرخت «أوه، كلا. أردتُ أنْ أرى إنْ كان في وسعي - أنْ أنام معك - أنا -».

وفجأةً استعادت توازنها من جديد.

قالت - بعد برهة، ببرودة، «يمكنكَ أنْ تذهب الآن».

«ماذا ستفعلين؟».

«سأنام، ماذا في اعتقادك سأفعل - أُشعِل النار في نفسي؟ خُذ معك المسدس إذا شئت».

بدأتْ تخلع ثوبها. فتحت صنبور المياه الحارة في الحوض من دون أنْ تنظر إليه ونظرتْ إلى نفسها في المرآة:

«وداعاً».

«وداعاً».

في الخارج كان الصباح؛ توقف في مقهى العمال ليشرب كوباً من القهوة. قال في نفسه «يا إلهي، سيصبح هذا العالم جحيماً». حينئذٍ تذكّر قصصاً كان قد سمعها في كاليفورنيا. كلها مُقبضة للقلب وأخافته، وكأنَّ شخصاً يعرفه تُجرى له عملية جراحية. أراد أنْ يقابل سيث ودينا وعقد العزم بحافز عنيف على أنْ يحكي الحكاية لأمه. قال في نفسه «لعن الله أولئك النسوة!».

***

على الرغم من أنَّ فيتزجيرالد عجز عن استخدام فِقرة واندا بريستد في «... *والليل رقيق*»، فإنه نجح في إنقاذ جزء منها. الفتيات الأميركيات

الممشوقات الثلاث ذوات الرؤوس الشبيهة برؤوس حيات الكوبرا يظهرن في الفصل الخامس من الجزء الثالث، ويُطبق بعضاً من تعليقاتهن على آل دايفر. والترتيل باللغة غير المألوفة والمملوءة بأحرف الكاف واللام يُسمَع أثناء زيارة ديك ونيكول لآل مينغيتي، في الفصل الرابع من الجزء الخامس. وبعض الأحداث والفقرات الأخرى سُجِّلَتْ في دفاتر فيتزجيرالد وأُعيد طبعها بعد وفاته في مجموعته «*الانهيار*».

الفِقرة التالية من المخطوط طُبِعَتْ بأكملها للمرة الأولى. وهي مأخوذة من مسودة متأخرة من «... *والليل رقيق*»، وكان فيتزجيرالد قد حذفها قبل إصدار الحلقة الأخيرة من الرواية المُسلسلة في صحيفة *سكريبنرز ماغازين*. ويصفُ فيها الساعات الأخيرة من ليلة نيكول الأولى مع تومي باربان، وموقعها هو نهاية الفصل الثامن من الجزء الخامس.

2- مسيو إرف:

في كازينو الشاطئ في مونت كارلو كانت نيكول لا تزال سعيدة. وكان معارفهما ينظرون إليهما وكأنهم يقولون «مرحى لكما - إذن انضممتما إلينا أخيراً!»، وكانت تحب ابتساماتهم الخبيثة، وتردُّ بمثلها معترفة. غادرت هي وتومي باكراً، متوجهَين غرباً بمُحاذاة الشاطئ. وفي قلب ظُلمة الساعة العاشرة توقف أمام حاجز طويل من قضبان الحديد عند نهاية نتوء بحري في بوليو.

قال لنيكول «ها قد وصلنا. هل سبق لك أنْ قرأتِ مؤلفات فيليبس أوبرهايم؟».

«أعتقد أني قرأتُ أحدها».

قال تومي ببساطة «إنه أحد الكتّاب الأميركيين المُفضّلين لديّ. وهو يكتب عن الريفييرا، كما تعلمين. لا أدري إنْ كانت الأشياء التي يكتب عنها حقيقية لكنَّ هذا المكان هو هكذا».

أثناء وقوفهما أمام البوابة غمرهما فجأة فيض من ضوء مصباح صغير،

سريع كالومض، جعل بصرهما مبهوراً للحظة. ثم جاءهما صوت من خلف البوابة:

«من أنت، من فضلك؟».

«أخبر مسيو إرف أنني مسيو تومي. أخبره أننا لا نستطيع أنْ ندخل المنزل واسأله إنْ كان يستطيع هو أنْ يخرج إلى الحديقة برهة».

فُتِحَ جزءٌ من البوابة مع صوت هادر كأنها خزنة وإذا بهما داخل متنزّه، يتبعان شاباً غندوراً من أصل أميركي-إيطالي نحو منزل مُضاء. انتظرا مباشرة خارج حدود شُرفة مُضاءة، وسرعان ما فُتِحَ الباب وخرج منه رجل أسمر نحيل في الأربعين من العمر وأخذ يُحدِّق من دون تمييز.

«أين أنت، تومي؟».

«هنا في الأسفل. لا تنزل. في صحبتي سيدة تريد أنْ تبقى مجهولة».

«كيف؟».

«معي سيدة لا تريد أنْ يراها أحد – مثلك».

«أوه، فهمت، فهمت».

«نريد أنْ نسبح. هل هناك أحد على شاطئك؟».

«لا أحد، لا أحد. اذهب، يا تومي. أتريد ملابس للسباحة، مناشِف؟».

«حسن، بعض المناشف. لن ينزل أحد، أليس كذلك؟».

«كلا، كلا، لا أحد. قُلْ لي، هل رأيتَ دو بون دو نيمور يصعد – –».

«لا نريد أنْ نتحدث عن سوق البورصة في حضور السيدات».

«حسن، اعذريني يا سيدتي. انتظرا الآن – سوف يصطحبكما سالف إلى أسفل – لا أريد لكما أنْ تقعا في المشاكل».

بينما إرف يلج المنزل من جديد قال تومي «لعله سيتصل بحامل الرشاش هاتفياً لكي يسمح لنا بالمرور. لقد كان أحد أبناء مدينتك شيكاغو – الآن أصبح مالكاً لأفضل شاطئ في الريفييرا».

تبعته نيكول بحذر هبوطاً على درب ملتوية، ثم مروراً خلال باب من

الفولاذ المنزلق يعمل كالمِقصلة، وخرجا إلى كهف بلا سقف يُضيئه ضوء القمر الأبيض، تُشكّله جلاميد باهتة اللون من الصخر على هيئة فنجان يُحيط بمياه مُفسفرة. كان يواجه مدينة موناكو وبعدها مينتون الضبابية. أعجبها ذوقه في إحضارها إلى هنا - بعيداً عن قلعة السيد إرف الشاسعة والمهيمنة الواقعة في المشهد الشرقي وخِدع الرياح والماء المُبتكرة، كان كل شيء جديداً تماماً كالعلاقة بينهما. تركته يقودها على حصانه بالمعنى الرمزي بثقة وكأنه اختطفها من دمشق ووصلا إلى السهوب المنغوليّة. وشيئاً فشيئاً سقط كل ما كان ديك قد علَّمها إياه وزال وأضحت أقرب من أي وقت آخر مما كانت عليه منذ البداية، نسخة أصلية من ذلك التسليم الغامض للأسلحة الذي كان يجري في العالم من حولها. ورحّبتْ بفوضوية حبيبها وهي مغمورة بالحب تحت ضوء القمر.

استيقظا معاً، ليجدا القمر وقد انحدر والهواء وقد أضحى بارداً. نهضت قسراً لتسأل عن الوقت فقدّره تومي بحوالي الساعة الثالثة.

«إذن يجب أنْ أعود إلى المنزل».

«حسبتُ أننا سننام في مونت كارلو».

«كلا. المربية والطفلَان ينتظرونني. يجب أنْ أعود قبل حلول الصباح».

«كما تشائين».

سبحا قليلاً، وعندما رأى أنها ترتعش أخذ يدعكها بخفة ونشاط بالمنشفة. ثم، في طريق عودتهما خلال الزقاق الذي جاءا منه، وطأ تومي سلكاً فصدر طنين خافت، بدا نائياً.

هتف «يا إلهي! كيف يعيش ذلك الرجل مع هذه الإجراءات!».

«أهو يخاف اللصوص؟».

«إنه يخاف مدينتك الجميلة وجاء إلى هنا في حراسة حشد من الحمير - هل هذه هي الكلمة السوقية المناسبة؟ لعلّ آل كابوني يلاحقه. على أي حال هناك فترة فاصلة بين مرحلة السُكر ومرحلة الصحو يكون خلالها لطيفاً جداً».

قال فجأة، عندما غمرهما من جديد ضوء المصباح المنتشر برهة. ثم توهجت مصابيح بلون الكهرمان في شرفة الفيلا ذات الفتحات وخرج مسيو إرف يترنَّح، يسنده هذه المرة الشاب الأنيق نفسه.

أعلنَ قائلاً «لقد أبعدتهم عن الشاطئ، يا تومي».

«شكراً لك، شكراً جزيلاً».

«ألا تغيران أنتما الاثنان رأيكما وتدخلان؟ أقول بكل ثقة، لدي سيدات أُخريات هنا»، ورفع صوته وكأنه يُخاطب نيكول، «وبما أنكِ سيدة ذات أصل سوف يُعجبنكِ».

قال تومي «إنها الساعة الرابعة. ويجب أنْ نعود إلى أصلنا. تُصبح على خير».

تبعهما صوت إرف: «أنت لا تُخطئ أبداً عندما تتعامل مع سيدة».

***

في اللحظة الأخيرة تقريباً وقبل إصدار الحلقة الرابعة من رواية «*... ما أرق الليل*» المُسلسلة في مجلة سكريبنر، أضاف فيتزجيرالد فصلاً جديداً، حادثةَ إلقاء القبض على ليدي كارولاين وميري مينغيتي (الجزء الخامس، الفصل العاشر). تلك الحادثة تحل بصورة ما محل الزيارة إلى المُهرِّب المتقاعد، بإعطاء النوعية ذاتها من التعليق الاجتماعي. وهي مُسلية أكثر، أيضاً، ومع ذلك يشعر المرء بالأسف لاختفاء مسيو إرف وحراسه المؤلفين من عدد من الغوريلات.

ثمة تغييرات أخرى أُجريَتْ على الرواية، قبل أنْ تُنشَر في المجلة وبعد ذلك، مذكورة في الملاحظات الواردة في أسفل الصفحات.

م.ك

ظلّ فيتزجيرالد حتى آخر حياته يشعر بالحيرة من الفشل النسبي الذي أصابَ رواية (.. والليل رقيق)، بعد السنوات الطِوال التي بدّدها في تأليفها وجهوده التي بذلها لجعلها أفضل رواية أميركية في عصره. كان قد بدأها أثناء إقامته في الريفييرا في أواخر صيف عام ١٩٢٥. أولاً عملَ في فتراتٍ من الحماس الشديد، ومن ثم وضع المخطوط جانباً على مدى أشهر طويلة في وقتٍ كان يكتب خلاله قصصه القصيرة المُربحة لمصلحة ساترداي إيفننغ بوست؛ ولكن في أوائل عام ١٩٣٢ عثر على تصميم أكثر طموحاً لها، وكان غارقاً في الدَين، مما دفعه إلى العمل فيها بمثابرة حتى انتهى من كتابة الفصول الأخيرة، وأجرى آخر المحذوفات على التجارب المطبعية. وشاهدها تنمو من مجرد رواية درامية قصيرة مثل غاتسبي العظيم، إلى رواية فلسفية أو نفسية طويلة على طراز سوق التفاهة، ومن ثم، وبينما هو يحذف مشهداً بعد آخر، راقبها تتقلّص من جديد لتغدو رواية متوسطة الحجم، لكنه كان متأكّداً من أنّ نبرة الرواية الأكثر طولاً ما تزال موجودة فيها. وانقضت تسع سنوات من حياته في الكتابة وفي القصة نفسها. وعند القراءة المتأنّية يجد المرء فيها إبهار صيفه الأول الذي أمضاه في كاب دانتيب - لأنه يستطيع أنْ يتصوَّر نفسه روزميري هويت في الرواية، إلى جانب لعب دور ديك دايفر؛ ثم مشاعره بشأن المال والمستويات المختلفة للمجتمع الأميركي: ثم صراعه مع إدمان الكحول وهواجسه حول كونه أصبح مُفلِساً في انفعالاته؛ ثم مرض زوجته وكل ما علِمه من الأطباء السويسريين والأميركيين الذين شخّصوا حالتها؛ ثم الحِكمة المريرة التي اكتسبها من التجربة ولم يتمكن من إعادتها إليها، بل إلى قصصه القصيرة فقط؛ ثم أيضاً أشياء أشدّ سواداً، إحساسه بالذنب، وخوفه من الكارثة التي تحولتْ إلى توقٍ إلى الكارثة - كل هذا موجود في الكتاب، بمستويات متنوعة، كمدن طروادة التسع المدفونة.

ISBN 978-9933-6176-5-3